أعلام المسلمين
٨٢

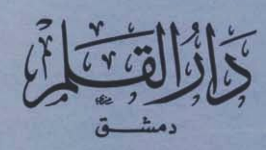
مُصْطفى السِّبَاعِي

الدَّاعِيَةُ المُجَدِّدُ

١٣٣٣ - ١٣٨٤هـ
١٩١٥ - ١٩٦٤م

بقلم
الدكتور عدنان محمّد زرزور





أعلام المسلمين

٨٢



١٣٣٣ - ١٣٨٤هـ

١٩١٥ - ١٩٦٤م

بقلم

الدكتور عدنان محمد زرزور

دار القلم

دمشق

مُصطفى السِّباعِي

الدَّاعِيةُ المُجدِّدُ

الطَّبْعَةُ الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

تُطلبُ جميعُ كتبنا مِن :

دارُ القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدّار الشاميّة - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السّعوديّة عن طريق

دارُ البشير - جدّة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

الإهداء

إلى روح والدي

الشيخ محمد بن ياسين زرزور

الذي غاب عني منذ نحو عقدين وجهه . .

ولم تغب يوماً ذكراه .

والذي كان شغوفاً بالعلم والعلماء، والدعوة والدعاة .

أسأل الله تعالى أن يقرّ بهذا الكتاب عينه . .

وأن يرفع مقامه عنده . .

وأن يجعلني من حسناته يوم الدين .

عدنان


رب يسر وأعن

فتًى لا يضم القلبُ هِمَّاتِ قلبه ... ولو ضَمَّها قلبٌ لما ضمّها صدر

أبو الطيب المتنبي

يا سائلي عنه لمَّا جئتُ أسأله ... فإنه الرجل العاري عن العار

لو جئتَه لرأيتَ الناس في رجلٍ ... والدهرَ في ساعة، والأرض في دار

أبو العلاء المعري

وقد سئل عن الشريف المرتضى
بعد أن حضر مجلساً من مجالسه

تَشَرَّفُ عدنانٌ به لا ربيعةٌ ... وتفتخر الدنيا به لا العواصم

أبو الطيب المتنبي

فابكوا لما سَلَبَ الزمان ووطِّنوا ... للدهر أنفسكم على ما يسلب

وأرى لكم أن تكتبوا أنفاسه ... إن كانت الأنفاس مما يُكتب

ابن الجواليقي



هذا العلم

● لقد كان السباعي أستاذ جيل، وقائد رعيل، وباعث نهضة، وكان خطيب جماهير، ومصلحاً كبيراً، وكاتباً أديباً، ومؤلفاً منتجاً. وقلما تجتمع هذه الصفات في رجل واحد، وقد جمعها الله فيه.

أ. محمد المبارك

● لقد كان الفقيد الراحل من الأفذاذ النادرين في تاريخ القرون والأجيال. . . قلَّ أن يجود بمثله الزمان. وقد لا يجود!.

أ. محمد خير الجلاد

● ما أكبر هذه الهمة المتسعة المتشعبة التي أوتيها! إنها لو قسمت عزماتها ومقاصدها على عشرين شاباً من ذوي الجد لضاقوا بأدائها والنهوض بها ذرعاً، وناؤوا بها ثقلاً.

الشيخ: عبد الفتاح أبو غدة

● لقد عاش للإسلام في أوضح معانيه، وعمل للإسلام في زمن من أحلك أزمانه.

د. عمر فروخ

● إذا ذكرتم فضيلة الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي، فاذكروا رجلاً سار في مقدمة الرعيل الأول من فرسان اليقظة الحديثة في دنيا العرب، حيث المسالك وعرة، والعقبات في وجه المصلحين أكثر من أن تحصى؛ فما لوى عنان جواده يمنة أو يسرة، ولا ارتدَّ منهوكاً من المقدمة إلى المؤخرة، بل ظل طيلة حياته ضميراً حراً لا يُسخَّر، وجبيناً عالياً لا يعفّر.

د. محمد الفاضل

● وإنكم لتكبرون معي رجلاً ملئت نفسه إيماناً، وعقله علماً، وروحه فيضاً، وجرى في الحياة جاداً لا هازلاً، وعاملاً لا متراخياً، وكريماً لا بخيلاً، وقوياً لا ضعيفاً، وإنساناً لا جلفاً، على أحسن ما يكون الجدّ، وخير ما يكون العمل، وأجود ما يكون الكرم، وأشد ما تكون القوة، وأرفق ما تكون الإنسانية.

د. يوسف العش

● إنّ القائد يُبكى إن فُقد بين القادة، فكيف لا يُبكى وقد ندر القادة؟ والقائد يُبكى إذا خلا مكانه، فكيف لا يُبكى إذا كان فريداً بين أقرانه؟ فالحزن عليك يا أبا حسّان: حزنٌ على فقد القائد، وندرة القائد، ونوعية القائد.

د. حسن هويدي

المقدّمة

- ١ -

في الكلمة التي رثى بها الداعية المربي الأستاذ محمد خير الجلاّد أخاه وصديقه الأستاذ مصطفى السباعي ـ رحمهما الله تعالى ـ قال :

«ومهما يكن من شيء فإن شخصية الفقيد الراحل تحتاج إلى مؤلَّف خاص تبرزُ فيه مزياه وصفاته التي أهَّلته ليكون مرشداً وموجهاً وقائداً، شريطة أن يكون الأسلوب الذي يُكتب فيه المؤلَّف مقصوداً به توجيه الأجيال الإسلامية الصاعدة؛ لتكون حياته قدوة وأسوة في مجال السلوك الإسلامي، لعلهم ينتهجون سبيله، ويستارون بسيرته؛ فتكون الجهود المبذولة لإخراج هذا المؤلَّف مباركة طيبة، وقبساً للأجيال المؤمنة في طريقها المحفوف بالحواجز والأشواك».

لا أدري إن كان هذا الكتاب الذي أضعه بين يدي القرّاء عن أستاذنا العلاّمة الداعية المجدِّد الشيخ مصطفى السباعي يفي بهذا الذي أشار إليه الأستاذ الجلاّد، أو ببعضه على أقل تقدير . . على أن الذي علمته وأنا أكتب فصول هذا الكتاب أن مؤلَّفاً واحداً لن يفي بشخصيته رحمه الله.

وقد أشرت في مواطن عدّة إلى جوانب هذه الشخصية التي تحتاج إلى أن تفرد بالبحث والدراسة. علماً بأن هذا الأمر كان قد تراءى لي عام ١٩٧٦م حين قدمت لكتابة: (عظماؤنا في التاريخ) فقلت: «الفصل الكتاب أو الكتاب السفر الكبير الذي لم يكتب بعد في حياة الأستاذ السباعي وأثره ومآثره ربما كتبه واحد أو أكثر من أبناء ذلك الرعيل»، وقد وصفت هذا الرعيل بأنه: «الرعيل الأول الذي صحب الأستاذ الرائد وأصغى إليه، ولبّى نداءه وتتلمذ عليه» حتى إذا قمت بذلك ـ وأنا لست من ذلك الرعيل ـ أيقنت أن الحاجة ماسّة إلى أكثر من كتاب.

ولا يعدو كتابي هذا أن يكون تعريفاً عاماً بنشأته ومراحل حياته. وبأهم إنجازاته في ميدان الدعوة الإسلامية في بلاد الشام، وإن شئت قلت: في ميادين الجهاد والسياسة والعلم والقلم، وهي الميادين الرئيسة التي شملتها أو انطوت عليها الدعوة الإسلامية التي خاض غمارها وعاش تجربتها منذ أن كان طالباً وله من العمر ثلاثة عشر عاماً... إلى أن حمل لواء هذه الدعوة وقادها ولمّا يبلغ من عمره الثلاثين.. وقد قُدِّر له أن يتوفَّى وهو في التاسعة والأربعين.. رحمه الله.

ـ٢ـ

ويشاء الله تعالى أن يتأخر هذا الكتاب هذه السنوات الطوال؛ فقد مضى على المقدمة المشار إليها ـ التي تضمنت شذراتٍ من سيرة السباعي ومحاولةً لتفسير شخصيته ـ ربع قرن، كما مضى على وفاته رحمه الله ست وثلاثون سنة. وقد حملت هذه السنوات بالنسبة لكاتب

هذه السطور فرق التجربة، إضافة إلى فارق السن. كما مثلت بالنسبة للأستاذ السباعي المدى ـ القريب ـ الذي شهد بعض توقّعاته أو نظراته المستقبلية.

وأرجو أن تكون هذه العوامل قد ساهمت في إعطاء الكاتب القدرة على تجلية هذه الشخصية، ومحاولة فهم نوازعها وما انطوت عليه من صفات الرجولة والكمال، بالإضافة إلى استعراض ما قامت به من أعمال. مع قناعتي بأن هذه الشخصية لا يمكن لها أن تقرأ قراءة واحدة، وأن يكون العنوان الذي يجمع صفاتها ومزاياها ـ أو المفتاح الذي ندخل به إلى رحابها ـ واحداً في نظر جميع الكتّاب والباحثين، نظراً لتعدد جوانب هذه الشخصية من جهة، ولأنه رحمه الله أصاب تفوقاً ملحوظاً في كل جانب من هذه الجوانب من جهة أخرى.

لقد شعرت بالسموّ وأنا أكتب عن السباعي، في الوقت الذي لا أخفي أن الدمع قد غلبني أمام بعض كلماته ومواقفه! كما أن مرارة الفجيعة بموته عادت لتحيا في نفسي من جديد. ولكنني لا أعتقد أن شيئاً من هذا أخلّ ـ أو يخلّ ـ بموضوعية الكاتب وبحياد المؤرخ أو الباحث، بل لعله من الأسباب المعينة على التفسير الصائب والتأريخ الصحيح.. لأن هذا يتيح الفرصة لفهم الشخصية والوقوف على بواعثها وأغراضها وأسباب تصرّفاتها.

وهذا هو الفرق بين من يكتب عن الدعاة والقادة والثائرين والمصلحين، وبين من يتعامل مع الأرقام والوثائق ومواد التاريخ، أو

من يحاول دراسة الشخصيّات، كما تدرس معادلات الرياضة وقوانين المادة! بل لعل تجدد الشعور بتلك المرارة كلما عاد المرء لدراسة شخصية من الشخصيات يعد من أوضح البراهين على ما تنطوي عليه هذه الشخصية من أسباب العظمة والنبوغ، وبخاصة إذا كان مكانها ما يزال شاغراً، أو أن العصر بات يطلبها من جديد.

-٣-

ولد مصطفى السباعي عام ١٣٣٤هـ - ١٩١٥م وتوفي عام ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م. وجاء عمله الدعوي وريادته الإصلاحية في بلاد الشام في سياق حركات التجديد والإصلاح التي بعثها السيد جمال الدين الأفغاني، وقادها وتعاقب عليها كل من الإمام محمد عبده والشيخ عبد الرحمن الكواكبي، والسيد رشيد رضا والإمام حسن البنا وغيرهم، وإذا أخذنا بعين الاعتبار ظروف بلاد الشام، والموقف السلبي لعلمائها - ودعاتها - على وجه العموم من تلك الحركات وهؤلاء الروّاد؛ فإننا ندرك معنى الريادة التي قام بها السباعي.. وندرك معها كذلك العقبات التي قامت في وجهه، ومحاولات التشويه والتشكيك التي تعرض لها، والتي عرضنا لها في هذا الكتاب.

جاءت ولادة السباعي بعد وفاة كلٍّ من الشيخ عبد الرحمن الكواكبي (ت١٩٠٢) والإمام محمد عبده (ت١٩٠٥)، فكان خير خلفٍ لهذين المصلحين الكبيرين اللذين انطلق أولهما من بلاد الشام، والثاني من أرض الكنانة! بل جاء في قدره المقدور ليصل - فكرياً وعلى أرض الواقع - مدارس الإصلاح ببلاد الشام بمدرسة الإصلاح في مصر. وربما

كان أثره في سورية وبلاد الشام يضارع أثر محمد عبده في مصر والعالم الإسلامي. بل إن ما قاله السباعي في محمد عبده ـ كما سيرى قارئ هذا الكتاب ـ ينطبق في جملته على السباعي نفسه، مع الإشارة إلى أنه تردد في مصر على الشيخ رشيد رضا ـ تلميذ الإمام محمد عبده ـ وأفاد كما قال: «من علمه وفهمه للشريعة ودفاعه عن السنة» قال السباعي:

«أما الشيخ محمد عبده رحمه الله فلا شك أنه كان من أكبر روّاد الإصلاح في عصرنا الحديث، وأنه كان في عصره فيلسوف الإسلام ولسانه الناطق وعقله المفكر وسلاحه الذائد عن حماه كل عدو وكل مفترٍ من الغربيين وخاصة المستعمرين منهم، ونوره المشرق تجاه الجمود الذي ران على العالم الإسلامي من مئات السنين».

أما الكواكبي فقد التقى معه السباعي في كراهته الشديدة للطغيان ومحاربته للاستبداد. وتأثر بأسلوبه في الكتابة، وبخاصة في كتاباته الأولى التي نسج كثيراً منها على منوال كتابه (أم القرى) فضلاً عما كتبه السباعي عن الطغاة والطغيان.. وما نهض به من مقارعة الاستعمار والاستبداد.

ـ ٤ ـ

اشتملت هذه الدراسة على (مدخل تاريخي) صورت فيه ـ باختصار ـ الوضع السياسي والحالة الثقافية في سورية في العقود الأولى من القرن العشرين، وأشرت إلى مدى مشاركة السباعي في الحياة العامة في العقد الرابع. ثم تسلسلت أقسام الكتاب على النحو التالي: (البلد والنشأة

ومدرسة «الفتح»، السباعي في مصر، الداعية والدعوة، المجاهد، الصحفي والسياسي والبرلماني، تحديات وأخطاء، العالم والمؤلف، الكاتب والأديب، الرجل والإنسان، وأخيراً: الرحيل).

وقد جاء هذا التبويب أو التقسيم تاريخياً وموضوعياً في الوقت نفسه، لأن كل مرحلة من مراحل حياة السباعي كان لها عنوان بارز أو غلب عليها جانب معيّن من جوانب حياته أو لون خاص من ألوان نشاطه. وربما لم يخرج عن ذلك إلا بعض المراحل الثانوية، مثل الحديث عن خروجه إلى لبنان ونشاطه فيه، فقد جاء في سياق الحديث عن التحديات التي واجهته، والأخطاء التي وقعت في تاريخه وتاريخ الدعوة الإسلامية في سورية أيام قيادته لها. . . وقد ساعد على ذلك أن خروجه إلى لبنان كان في غمرة هذه التحديات والعقبات، أو في سياق هذه المرحلة.

ونأمل أن يكون هذا العرض قد نجح في تسليط الضوء على الجوانب المتعددة في شخصية السباعي، وإن شئت قلت: على السباعي المجاهد والداعية والسياسي والعالم. . فضلاً عن الحديث عن خصائصه ككاتب، وصفاته وسجاياه كرجل وإنسان. . والتي جاءت في آخر الكتاب قبل الحديث الموجز عن رحيله رحمه الله.

-٥-

وإذا كانت شخصية السباعي الداعية هي الغالبة، أو هي الأساس والقاعدة، لأن سائر الجوانب الأخرى يمكن أن تعود إليها أو تقرأ في ضوئها؛ فإن الذي نود التأكيد عليه هنا أن سمات الدعوة التي نهض بها

السباعي أو أبعادها كانت إصلاحية، ولم نقف في كل سيرته وأقواله ما يشير إلى أي بُعد انقلابي أو ثوري ـ كما يقال ـ في هذه الدعوة. لقد تحدث عن إصلاح الفرد والأسرة والمجتمع، وعن الإصلاح الفكري والثقافي، والإصلاح الاجتماعي، والإصلاح السياسي. في الوقت الذي أكد على كفاح الاستعمار وكفاح أعوان المستعمرين من طغاة ومستبدين. .

لقد عمل السباعي في وسط (ديمقراطي) وفي مناخ التنافس الحزبي الحقيقي، وشارك ـ كما تحدثنا في هذا الكتاب ـ مع الإخوان وبعض الجمعيات الإسلامية الأخرى في الحياة السياسية والبرلمانية السورية، وبقي وفياً مخلصاً لهذه الحياة الدستورية، . . ومن هنا كان تبرمه وسخطه وإدانته لسياسة الانقلابات العسكرية، والعدوان على الحريات العامّة، من جهة. وإطلاقه اسم (الخصم) لا العدو على جميع أولئك الذين خالفوه في الرأي والاتجاه والممارسة، من جهة أخرى. قال رحمه الله: «لا تطلق لفظ (العدوّ) إلا على الأجنبي المحارب، أما المواطن الذي تختلف معه فهو (خصم)».

بل ارتقى في فهم حق (المواطنة) هذا إلى الحد الذي برئ معه من العصبية الحزبية والطائفية فضلاً عن القومية والدينية! أليس هو القائل: «إن الارتفاع فوق مطامع الدنيا يحتاج إلى جناحي نسر لا إلى جناحي فراشة»! لقد حلّق هذا النسر في سماء الوطن العربي السوري، وارتفع بجناحي عروبته وإسلامه فوق الحزبية العمياء والطائفية البغيضة. .

لقد دعا إلى الوحدة الوطنية في بعض خطبه البليغة التي ألقاها في كنائس دمشق. . وسار إلى فلسطين على رأس فوج من المجاهدين، تصحبه ثلّة أخرى بقيادة ضابط مسيحي، وبات في الطريق في قرية (البيرة) في بيت خوري القرية. ودعا تحت قبة البرلمان إلى العناية بجميع مناطق الوطن ومدنه وقراه وأحيائه! وتشهد له بذلك مذاكرات الجمعية التأسيسية (البرلمان) التي دخلها نائباً عن مدينة دمشق، والتي شغل فيها منصب نائب الرئيس.

لقد كان كبيراً، وكانت هامته تظلل الوطن كله بجميع فئاته وطوائفه، وملله ونحله. . لم ينحز لفئة دون فئة، ولا لطائفة دون طائفة. . . بل كان انحيازه للحق والعدل. وإذا جاز عليه في جميع مراحل حياته أن ينحاز إلى أحد؛ فلقد انحاز للضعفاء والفقراء والمساكين، حتى إن في وسعنا أن نقول في وصفه: إنه كان رجل العدالة الاجتماعية الأول في هذه البلاد، وإن (اشتراكية الإسلام) التي دعا إليها في محاضرته التي ألقاها عام ١٩٥٨م لم تكن مجرد شعار يرفع. وقد تحدثنا في هذا الكتاب عن (الجبهة الاشتراكية الإسلامية) التي دخل بها الجمعية التأسيسية عام ١٩٤٩م وعن أثرها الفاعل في الدستور السوري.

-٦-

ولا نعتقد أن الأبعاد الإصلاحية، البعيدة عن أي معنى ثوري أو انقلابي، للدعوة التي قادها السباعي، تجلت في شيء كما تجلّت في رفضه الشديد للعنف، أو استعمال اليد والسلاح، حتى في مواجهة

استفزاز بعض الحزبيين الاشتراكيين وعدوانهم المسلح على بعض شباب الدعوة في شهر كانون الثاني (يناير عام ١٩٥٦م). بل إن في هذا الموقف ما يدل دلالة واضحة على مدى حرصه على تأكيد **(الروح الدعوية)** القائمة على التسامح والتسامي، وعلى تفريقه الحاسم بين الدعوات البنّاءة والحزبيات الهدّامة.

لقد قام هؤلاء باستفزاز الإخوان في حلب وحماه وحمص، واعتدوا على بعضهم في (خان شيخون) وأحرقوا باب دار الجماعة في (المعرّة) وحاولوا إثارة فتنة عمياء في (درعا) ـ كما تحدثت جريدة (الشهاب) ـ. فما كان من السباعي إلا أن وجّه الخطاب التالي ـ الذي نثبته هنا للتاريخ ـ إلى رؤساء مراكز الإخوان في المحافظات والأقضية، والذي حاول فيه أن يمتص غضبهم، ويحجزهم عن الرد بالمثل، قال:

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد: فأرجو أن تذيعوا هذا الكتاب على الإخوان في مراكزكم وتطلبوا من الإخوان التقيد بما فيه:

«تعلمون أن الإسلام دعوة حق وخير، وقد أمر الله أن ندعو إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، ودعوتنا الآن لا تزال في مراحلها الأولى، ومن أجل ذلك كانت في حاجة إلى توفير الجهود لإبلاغ الدعوة إلى الناس في جوٍّ بعيد عن المشاكل، مطبوع بطابع الحكمة والموعظة الحسنة. وبلادنا الآن في أخطر مرحلة من مراحل تاريخها الحديث، تتعرض للمؤامرات الاستعمارية، ولخطر الغزو الصهيوني ما بين عشية وضحاها؛ فليس من الجائز في دين الله أن تنشغل الأمة في هذا الوقت

العصيب بالخصومات الحزبية العنيفة التي تفرق شمل شباب البلاد، وتوقد نيران العداوة والبغضاء فيما بينهم. وشباب الإخوان أحرى الناس بأن يحملوا لواء الدعوة إلى وحدة الصف واجتماع الشمل وتناسي الأحقاد والضغائن، فإذا اعتدى على دينهم وفكرتهم معتد جادلوه بالحسنى والموعظة الحسنة، وإن اعتدى على بعض شبابهم معتد حزبي طائش لا يرعى الله في هذه الأمة، فليكن الإخوان أضبط أعصاباً، وأوسع صدراً، وليعلموا أن النزول إلى ميدان المهاترات والخصومات الحزبية رداً على من يعتدي عليهم، يهبط بالدعوة إلى مستوى الحزبية العمياء المخرّبة للبلاد والأمة. فإذا نسي غيرنا واجبه في هذه المرحلة، فليكن الإخوان دائماً متذكرين لواجبهم نحو أمتهم ودعوتهم، مؤمنين بتأييد الله لدينه، وانتصار الخلق الكريم في النهاية على كل منحرف أثيم. والله أكبر ولله الحمد.

(دمشق: ١ من جمادى الثانية ١٣٧٥هـ - ١٤ من كانون الثاني ١٩٥٦م).

أخوكم مصطفى السباعي

-٧-

لا تتسع سطور هذه المقدمة للحديث عن الحقائق التي كشفت عنها هذه الدراسة أو النتائج التي انتهت إليها. ولكن علينا أن نذكر هنا أن المقالات التي كتبها السباعي في مجلة (الفتح) القاهرية عندما كان طالباً يدرس في الجامع الأزهر، وما كتبه منها بخاصة عن الأوضاع في بلده سورية؛ قد أعانتنا كثيراً في فهم شخصيته والوقوف على الأبعاد المبكرة

لهذه الشخصية، وهي الأبعاد التي وجدنا أنها صاحبته حتى آخر أيام حياته رحمه الله، علماً بأنه قد بدأ تلك المقالات (النفيسة) ـ كما وصفها بحق السيد محب الدين الخطيب صاحب مجلة (الفتح) ـ ولما يكمل العشرين من عمره! لقد اجتمع في شخص السباعي وتجلى في عمله وجهاده: البعد الوطني والعروبي والإسلامي، ولهذا فقد وصفناه في هذا الكتاب بأنه كان رجل الوطنية والعروبة والإسلام.

وقد دلّنا استعراضنا لجهاده على أرض فلسطين: على أنه هو الذي قرر مصير معركة القدس الكبرى بين العرب واليهود، فحال بذلك دون سقوط القدس الشرقية بأيدي اليهود عام ١٩٤٨م.

ولا بد لنا من الإشارة هنا إلى أن فصول هذا الكتاب لم تتسع للحديث عن آرائه العلمية على الرغم من تعريفنا بمكتبته أو بكتبه ومؤلفاته، لأن هذا التعريف لم يتجاوز الاستعراض والإشارة إلى ملابسات التأليف ـ وبخاصة كتابه: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي. وكتابه: اشتراكية الإسلام ـ وذكر بعض الآراء والملاحظات، ولكن طبيعة هذا التعريف أو الاستعراض اقتضى بيان رأيه في: الاستشراق، والتشيّع، والتصوّف؛ على وجه الخصوص.

والملاحظة المهمة التي نذكرها في هذا السياق: هي أن بعض آراء السباعي أو اجتهاداته التي ربما انتهى إليها أحدنا اليوم أو تنبّه لها وذهب إليها، قد سبق للسباعي أن جهر بها محاضراً وكاتباً قبل نصف قرن، نحو مسألتي الرق والجزية على سبيل المثال. وهذا أحد الأسباب الدالّة على

ريادته الفكرية، أو موقعه الفكري المتقدم الذي ما كان له أن يحتله لولا صلتـه الوثيقة بالمجتمع والنـاس، وخوضـه لمعركة الدعوة، وجرأتـه العقلية والعلمية، إلى جانب تمكنه من ناصية الفقه.

-٨-

وبعد، فإنني أضع هذا الكتاب بين أيدي القرّاء، وقد يكون عند بعضهم - ممن صحب الأستاذ السباعي في وقت مبكر، أو كانت له معه تجربة أو واقعـة - تصحيح لبعض الوقـائع أو تفسـير - آخـر - لبعض الأحداث. علماً بأنني عوّلت على المصادر المطبوعة من كتب وصحف ومذكّرات، وعلى ما شاهدته بنفسي، أو حدثني به الشيخ أو سمعته منه، وقد صحبته في شطر من أيام مرضه رحمه الله. ولهذا فإنني آمل ممن عنده إضافة مهمة أو تصحيح لازم أن يتكرم بإعلامي، أو بالنشر بأي وسيلة يراها مناسبة، حتى أتمكن من استدراك ذلك - أو مناقشته - في طبعة أخرى قادمة إن شاء الله تعالى.

ولا يسعني أخيراً إلا أن أتوجه بالشكر إلى الأخ الناشر الذي ما زال يحثني على وضع هذا المؤلَّف منذ زمن طويل، وإلى الأخ الأستاذ هاني طايع، الذي أمدّني بطائفة من المصادر والدوريات التي كان لها أكبر الأثر في رسم جوانب مهمة من هذا الكتاب، كما أشكر جميع الإخوة الذين أفدت من آرائهم وملاحظاتهم.

راجياً أن يجد الباحثون والمؤرخون في هذا العمل بعض الحقائق، وداعياً المولى عزّ وجل أن تجد أجيال المسلمين في سيرة السباعي نبراساً

يضيء لها الطريق، ومثلاً يحتذى في الصبر والمصابرة، والعمل لخدمة الإسلام والمسلمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

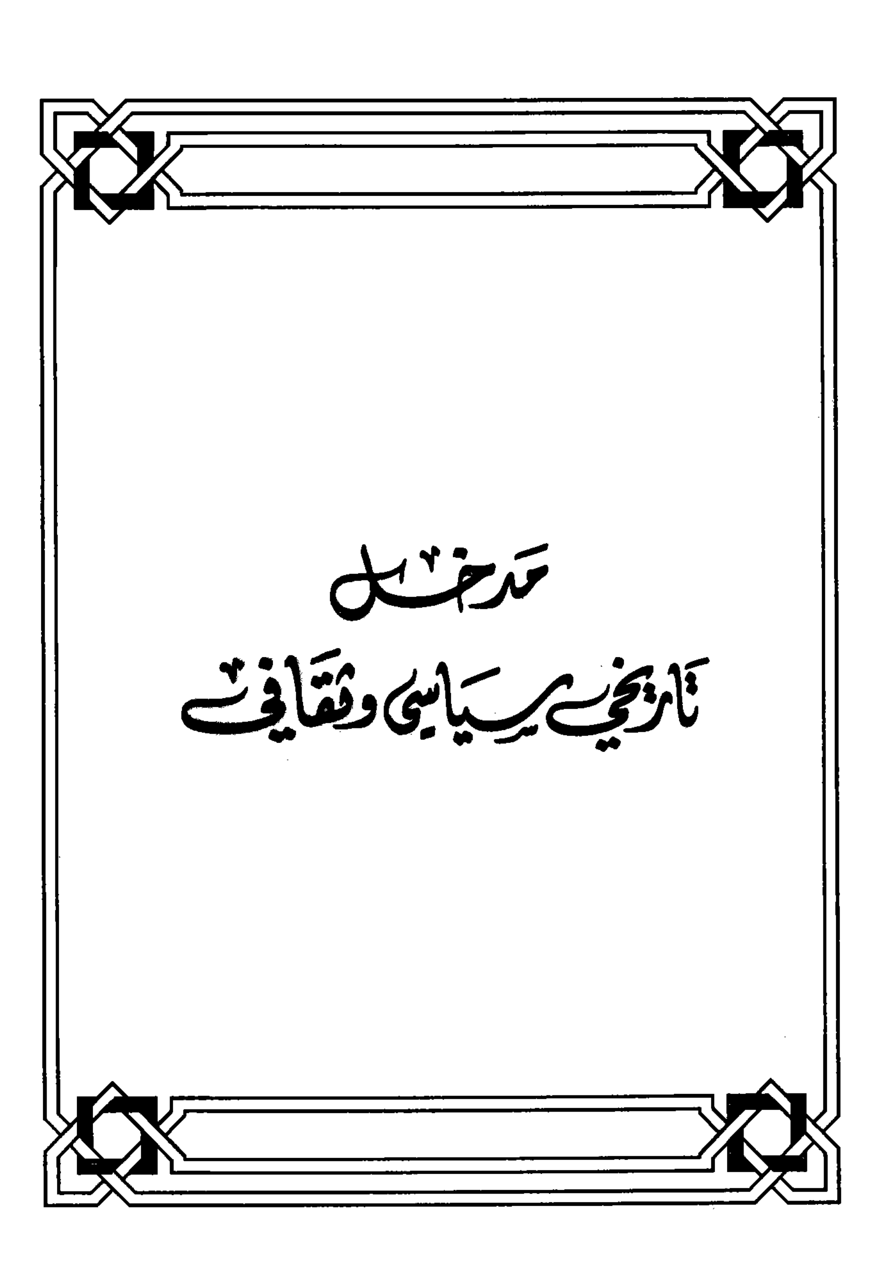
الدوحة (قطر)

لسبع بقين من المحرّم الحرام ١٤٢١هـ

الموافق ٢٧ نيسان (إبريل) ٢٠٠٠م

الدكتور عدنان محمد زرزور





مدخل
تاريخي سياسي وثقافي



أولاً : المشهد السياسي

ولد مصطفى السباعي ـ كما أشرنا ـ في منتصف العقد الثاني من القرن الميلادي العشرين. وقد شهد النصف الأول من هذا القرن أخطر التحولات السياسية والاجتماعية في بلاد الشام وسائر البلاد العربية والإسلامية؛ بوصفها حلقات أو دوائر في (المسألة الشرقية). كما شهد هذا القرن أبرز الحركات والتنظيمات والمدارس الفكرية الجديدة أو غير المعهودة من عشرات السنين.

لقد (تشظّت) الدولة العثمانية في أوروبة وآسية، ونشأت القضية الفلسطينية، وتم تقسيم سائر بلاد الشام ـ أو سورية الطبيعية ـ إلى عدّة دول! وكان وجه الخطورة يكمن في سرعة هذه التحولات من جهة، وفي تكريسها أو (تاريخيتها) ـ إن صح التعبير ـ من جهة أخرى. بمعنى أننا لانزال نعيش هذه التحولات في نهاية القرن العشرين. بل يبدو أن القضية الفلسطينية ـ التي عبّر عنها الأستاذ السباعي بأنها قضية العرب الأولى ـ في طريقها إلى مزيد من التعقيد... في ظل التفكك والتجزئة.. بل إن الدولة القُطرية التي ولدت في أعقاب انحلال الرابطة العثمانية في طريقها

إلى المزيد من التجذّر . . علماً بأن سيرة مصطفى السباعي وأعماله التي قام بها على أكثر من صعيد تؤكد أنه ما كان يتصور ـ ولا يطيق ـ الحالة التي انتهت إليها القضية الفلسطينية وقضية الوحدة العربية قبل أربعين عاماً من الآن.

ولو بدأنا ـ خلافاً لتاريخ الوقائع ـ بالعام الذي ولد فيه مصطفى السباعي (١٩١٥م) لوجدنا هذا العام قد شهد في أواسطه مفاوضات سياسية بين روسية وفرنسة وإنكلترة على اقتسام ميراث الدولة العثمانية. ـ وهي الدول الثلاث صاحبة الامتيازات المشهورة في الدولة العثمانية ـ وقد انتهت هذه المفاوضات بمعاهدتين سريتين، عقدت الأولى منهما بين روسية وفرنسة وبريطانية (آذار ـ مارس ١٩١٦م)، والثانية بين فرنسة وإنكلترة إتماماً للأولى وتنفيذاً لأحكامها (أيار ـ مايو ١٩١٦م).

وقد جاءت هاتان المعاهدتان على خلفية دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية ـ بجانب ألمانية والنمسا ـ ضد الدول الثلاث المذكورة؛ الأمر الذي «هيأ لهذه الدول الفرصة لتحقيق أطماعها في البلاد العثمانية بوجه عام، وفي البلاد العربية ـ التابعة لها ـ بوجه خاص، ولاسيما فرنسة، فإنها وجدت في ذلك فرصة ثمينة لا لتحقيق أطماعها في سورية فحسب، بل لتوسيع تلك الأطماع نحو الشمال الإفريقي أيضاً»[١].

وفي أواسط هذا العام أيضاً ـ ١٩١٥م ـ دخلت مخابرات الإنكليز

---

(١) ساطع الحصري: يوم ميسلون، ص٥٢؛ منشورات دار الاتحاد: طبعة جديدة (بدون تاريخ)، بيروت.

مع أمير مكة الشريف حسين في طور جدّي وفعّال عندما تولاها السير (هنري ماكماهون) نائب ملك بريطانية في مصر. وكانت هذه المفاوضات تدور ـ كما هو معلوم ـ حول استقلال البلاد العربية. وقد أعلنت الثورة العربية ـ في سبيل تحقيق هذا الاستقلال ـ في العاشر من حزيران ـ يونيو ١٩١٦م في أواخر السنة الثانية من الحرب العالمية. في حين تم توقيع اتفاقية (سايكس ـ بيكو) حول اقتسام فرنسة وإنكلترة لبلاد الشام والعراق بتاريخ ٢٦ أيار (مايو) ١٩١٦م وقد نسبت هذه الاتفاقية إلى المفاوض الإنكليزي مارك سايكس والمفاوض الفرنسي جورج بيكو.

وإذا عدنا ـ فقط ـ إلى عام ١٩١٢م لأمكننا القول إنه كان عاماً حاسماً بالنسبة للمسألة الشرقية، ـ كما دعتها أوروبة ـ أي بالنسبة للدولة العثمانية وقضية الإسلام والمسلمين بوجه عام. ففي هذا العام هزمت الدولة العثمانية في البلقان وخرجت من شرق أوروبة. وفيه أكدت فرنسة على توجهها نحو سورية ولبنان بوجه خاص؛ ففي الخطاب الذي ألقاه (بوانكاره) رئيس وزراء فرنسة ووزير خارجيتها في المجلس النيابي في ٢١ كانون الأول (ديسمبر) من العام المذكور قال:

«إن المسألة الشرقية التي ارتسمت أمام الأنظار منذ عصور عديدة كلغز مخيف، والتي دخلت ـ على الرغم من جهودنا ـ في طور جديد، ستحل الآن في اتجاهٍ أكثر تطابقاً مع الآراء الإفرنسية». ثم بحث في وضع الدولة العثمانية، وبعد أن صرح بأنها (ستخسر أراضيها الكائنة في أوروبة) قال: «ولست بحاجة إلى القول إن لنا مصالح تقليدية في سورية

ولبنان بوجه خاص. وإننا مصمّمون على حمل الجميع على احترام هذه المصالح»[1].

إن ما عبر عنه (بوانكاره) ـ الذي أصبح رئيساً للجمهورية فيما بعد ـ على أنه مصالح تقليدية، ليس أكثر من أطماع فرنسية لها تاريخ (ترجع منابعه الأصلية إلى الحروب الصليبية) كما يقول الأستاذ ساطع الحصري، الذي أوجز القول في هذا التاريخ أو هذه الأطماع على النحو التالي:

«لقد تعود الفرنسيون أن ينظروا إلى الحروب المذكورة كأثر من آثار (أسلافهم العظام)، وأن يعتبروا الإمارات اللاتينية التي قامت على بعض الأراضي السورية خلال تلك الحروب جزءاً من أجزاء (تاريخهم المجيد)، ولذلك كان من الطبيعي أن يتولد في نفوسهم نزوع إلى إتمام عمل تلك الحروب، وإعادة عهود تلك الإمارات.

«إن هذا النزوع جعل الإفرنسيين ينصّبون أنفسهم حماة للمسيحيين في الشرق، ليتخذوا من هذه الحماية وسيلة للاستيلاء على بلاد الشام في يوم من الأيام».

«وهذه السياسة حملت فرنسة على الإكثار من الإرساليات، لتأسيس المعاهد الدينية والتعليمية المتنوعة، في مختلف أنحاء الشرق الأدنى بوجه عام، والشرق العربي بوجه خاص».

---

(١) يوم ميسلون، ص٤٩ ـ ٥٠.

ويضيف الأستاذ الحصري قائلاً:

«وقد استمرت فرنسة في اتباع هذه السياسة باهتمام كبير، حتى بعد ما قررت فصل الدين عن الدولة وجعل التعليم (علمانياً) في بلادها، وحتى بعد ما ضيّقت الخناق على (الإكليروس) وصادرت أملاكهم، وحظرت عليهم الاشتغال بالتعليم داخل فرنسة نفسها.

«وقد اتبعت بهذه الصورة سياسة ذات وجهين: سياسة مكافحة الإكليروس داخل البلاد، وحمايتهم خارج البلاد؛ عملاً بالمبدأ الذي عبّر عنه (غامبتّا) الشهير بكلمة سارت مسرى الأمثال: «إن عداوة الإكليروس ليست من المواد التي يسوغ تصديرها إلى خارج البلاد»[1]. اهـ.

وبهذه المناسبة فقد ذيّل الجنرال (غوابه) الذي قاد الحملة التي زحفت على دمشق يوم ميسلون؛ - بأمر الجنرال غورو[2] - مذكراته بحاشية قصيرة دوّن فيها بعض ما جال في خاطره من ذكريات وملاحظات بعد استقراره في دمشق الشام - كما يقول الأستاذ ساطع الحصري - الذي نقل هذه الحاشية، وقدم لها بقوله: «من المفيد أن نقرأ وأن نتأمل ما كتبه

---

(١) يوم ميسلون، ص ٢٥-٢٦.

(٢) وصف غورو دمشق في خطاب نشر في ٩آب - أغسطس ١٩٢٠م بأنها «لؤلؤة الإسلام المرصَّعة بزمرد فراديسها الغنّاء»، المصدر السابق نفسه، ص٣٤٢. وجاء في بلاغ من مديرية المطبوعات الإفرنسية نشر في اليوم نفسه - ٩/ ٨/ ١٩٢٠ - «... فكما أن فرنسة لا تتسامح في إرجاع الأمير فيصل إلى بلاد هو غريب عنها، فإنها لن تخرج من دمشق ألبتّة»، المصدر السابق، ص٣٤٣.

بهذه المناسبة هذا القائد الذي زعم أنه قاد الحملة العسكرية على دمشق ـ تنفيذاً لقرار عصبة الأمم، بغية تمدين سورية والسوريين ـ»!!. قال الجنرال: «أنا في دمشق! إن هذا الاسم كان يمثل لي شيئاً خرافياً عندما كنت أقرؤه في سجلات عائلتي، وأنا بعد في سنّ الطفولة. إن جان مونغوليه، الجد البعيد لجدتي من جهة أبي لويز كان قد وقع في الأسر خلال الحروب الصليبية الثانية، سنة ١١٤٧ ونقل إلى مدينة دمشق.

«إنه كان من السواد الأعظم، ولذلك لم يعامله (السرّاقون) المعاملة الحسنة التي كانوا يختصون بها الفرسان اللامعين. وأهل دمشق جعلوا منه في ذلك الحين عبداً يشتغل في أحد المصانع التي يصنع فيها الورق من القطن. فاشتغل جان المسكين هناك شغلاً شاقاً خلال ثلاث سنوات، وبعد ذلك فرّ من دمشق، وتمكن من الالتحاق بالجيش الصليبي، بعد اجتياز آلاف المخاطر! وعندما عاد إلى مسقط رأسه، بعد غياب دام عشر سنوات، أسس أولى طواحين الورق التي عرفتها أوروبة.

«أوليست (العدالة العليا) هي التي سمحت لحفيد أسير الحروب الصليبية أن يدخل المدينة المقدسة ظافراً منصوراً؟»[1].

ليست هذه المقدمة فصولاً في التاريخ القريب أو البعيد، ولكننا قصدنا إلى بيان (الخلفية) التي انطلقت منها فرنسة في احتلالها العسكري لسورية الذي بدأ يوم ميسلون في ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٢٠م، والذي

---

(١) المصدر السابق، ص٣٦٧ـ٣٦٨.

استمر ـ مع ما تبعه من الانتداب أو الإدارة الانتدابية ـ مدة ربع قرن وتسعة أشهر حتى ١٧ نيسان (إبريل) ١٩٤٦م[١].

وقصدنا كذلك إلى بيان أثر هذا البعد الديني/ الحضاري ـ إن صح التعبير ـ في السياسة الطائفية التي اتبعتها في حكم البلاد، والثقافة التبشيرية التي أشاعتها.. حتى نفهم دوافع الأستاذ السباعي بوجه خاص، ودوافع سائر رجالات الوطن بوجه عام، في الحرب التي شنوها على الطائفية وعلى سائر ضروب التفرقة والكيد الاستعماري في بلاد الشام. وتكفي الإشارة في هذا السياق إلى أن الأراضي السورية التي وقعت تحت الاستعمار الفرنسي ـ بعد أن تركت فلسطين وشرق الأردن تحت تصرف بريطانية العظمى ـ أنشأ فيها الجنرال غورو، بصفته مندوباً سامياً لفرنسة، وبعد مرور بضعة أسابيع على ميسلون: دولة لبنان الكبير ودولة أخرى في القسم الشمالي من سورية باسم دولة حلب، وثالثة باسم دولة دمشق، كما أقام في اللاذقية حكومة مستقلة ومنفصلة كذلك باسم (حكومة العلويين) وكذلك فعل في جبل الدروز، فقد أعلن عن تكوين (حكومة جبل الدروز) ثم قرر للإسكندرون عام ١٩٢١ نظاماً خاصاً يشبه إلى حد كبير (الحكم الذاتي) بعد أن كانت الإسكندرون في العهد العثماني قائمقامية تابعة لولاية حلب، فضم إليها إنطاكية وسماها باسم (سنجق الإسكندرون).

وإذا كان الجنرال غورو قد اضطر ـ بعد أن مُحي اسم سورية من الخارطة السياسية ولأسباب أخرى كثيرة ـ أن يقرر سنة ١٩٢٢م إنشاء

---

(١) يوم ميسلون، ص٤٠٣.

(اتحاد بين الدول السورية المستقلة ـ أي بعضها عن بعض ـ والمؤلفة من دولة حلب ودولة دمشق وأراضي العلويين) فإنه اضطر على أثر الانتخابات التي جرت في حلب أواخر سنة ١٩٢٤م وقرر فيها المجلس النيابي ـ المنتخب ـ بالإجماع الاندماج بدولة دمشق لتكوين الجمهورية السورية. . اضطر إلى إلغاء (الاتحاد السوري) وإلى إصدار قراره ـ السامي ـ بتوحيد دولتي دمشق وحلب اعتباراً من بداية سنة ١٩٢٥م، وهكذا عاد اسم (الدولة السورية) أو دولة سورية إلى الظهور بعد اختفاء استمر نحو أربع سنوات[١].

وقد حاولت فرنسة تكريس القطيعة والانفصال بين أجزاء القطر السوري، أو ما تبقى من سورية الطبيعية دستورياً، أو عن طريق القوانين الأساسية التي سنّتها لكل من حكومة اللاذقية المنشأة بتاريخ ٣١ آب ـ أغسطس ١٩٢٠م وحكومة جبل الدروز المنشأة بتاريخ ٢٤ تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٢٢م، ودستور دولة سورية المنشور بقرار من المفوض السامي بتاريخ ١٤ أيار ـ مايو ١٩٣٠م وهو نفس التاريخ الذي نشر فيه المفوض (النظام الأساسي للواء الإسكندورن)[٢].

وكانت هذه القوانين ذات بعد مذهبي يراد منه تكريس هذه القطيعة ليس دستورياً أو سياسياً فحسب، بل عن طريق تكريس الطائفية ذاتها،

---

(١) راجع المصدر السابق، ص٤٠٨.

(٢) د. ذوقان قرقوط: المشرق العربي في مواجهة الاستعمار: الصفحات ٣٤٢ ـ ٣٦٣. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧، القاهرة.

أو على قاعدتها؛ ففي الوقت الذي نصّت المادة (١٩) من دستور دولة سورية على أن: «التعليم حرٌّ ما لم يخل بالنظام العام أو يتنافى مع الآداب أو يمس كرامة الوطن أو الأديان» نصَّت المواد المماثلة في قانوني حكومة اللاذقية وحكومة جبل الدروز على هذه الحرية (ما لم تكن ماسّةً بكرامة المذهب..) أي إن فرنسة أرادت تكريس الطائفية عن طريق السياسة وعن طريق التعليم. كما فعلت ذلك أيضاً عن طريق الاستيلاء على الأوقاف الإسلامية وحدها دون سواها في دولة سورية، أو دون أوقاف (بقية الطوائف غير المسلمة) التي بقيت تدار (بمعرفة الطائفة نفسها) كما جاء في المضبطة التي قدمها (الوفد السوري) إلى المفوض السامي الجنرال ساراي في ١٧ كانون الثاني ـ يناير ١٩٢٥م فقد جاء في الفقرة رقم (٧) من هذه المطالب ما يلي:

«لما كانت الأوقاف والمؤسسات الخيرية الدينية المحضة للأعمال الخيرية والشعائر الدينية، وكانت أوقاف بقية الطوائف غير المسلمة تدار بمعرفة الطائفة نفسها. وكانت الإدارة السابقة قد ضمت الأوقاف الإسلامية إلى المفوضيّة العليا، فلم تحترم بذلك إرادة الواقفين، حتى إنها استولت على الخط الحديدي الحجازي الذي هو أعظم وقف إسلامي وسلّمته إلى شركة أجنبية رغماً عن احتجاج الأهلين؛ فإنا نطلب إعادة هذه الإدارة إلى الطائفة الإسلامية، وإرجاع الخط الحجازي إلى استقلاله السابق»[1].

ويأتي في هذا الإطار ـ أخيراً ـ نظام الأحوال الشخصية للطوائف

---

(١) المصدر السابق، ص٢٢١.

الذي أراد أن يجمع الطوائف فيما يجب أو يجوز فيه الافتراق! في الوقت الذي ما زالت فرنسة تفرق بين أبناء الشعب الواحد في كل عوامل الاجتماع! ولكن القصد من هذا الجمع في قانون الطوائف تكريس الفرقة وإثارة الحزازات والنعرات لأن أحداً ـ وبخاصة المسلمين ـ لن يوافق على هذا القانون![1].

وقد شنّ الأستاذ السباعي حملة على هذا القانون في أكثر من عدد من أعداد مجلة (الفتح) التي كان يكتب فيها وهو ما يزال طالباً في مصر ـ كما سنتحدث عن ذلك فيما بعد ـ وألّب عليه الأزهر الذي كان يدرس فيه في ذلك الحين. وجاء في إحدى البرقيات التي وقع عليها اثنان من علماء الأزهر واثنان من الطلاب وتوجهوا بها إلى رئيس الوزراء الفرنسي في باريس، وإلى المفوضية الفرنسية في كل من بيروت ومصر؛ جاء في هذه الأخيرة ما يلي:

«جُرح الظهير البربري لم يندمل بعد في قلوب المسلمين. إصدار السلطة الفرنسية في سورية نظام الأحوال الشخصية للطوائف يراه المسلمون مقدمة لظهير آخر في بلاد الشام. الأزهر ـ كعبة الإسلام والحفيظ على تراثه ـ يعتبر هذا القانون اعتداء واضحاً على كيان المسلمين في بلاد الشام وعقائدهم، وموجباً لسخط كل مسلم. نرجو إبلاغ حكومتكم هذا الاحتجاج». عن الطلاب: خلف السيد، مصطفى السباعي

---

(١) راجع للوقوف على دسائس الإفرنسيين المبكرة حول تحريك المسيحيين وتخويفهم من المسلمين: ساطع الحصري: يوم ميسلون، ٩١ ـ ٩٢.

عن العلماء: محمد الأودن، محمود عيسوي[1].

أما حملة الأستاذ السباعي على هذا القانون في العدد الذي نشرت فيه هذه البرقيات، فكانت جزءاً من حديثه عن الأوضاع المتردية في سورية في ظل الاحتلال الفرنسي.. حتى إنه جعل عنوان هذه المقالة: (البلد المنكوب)، وضمنها اعتراضه على نظام الأحوال الشخصية المذكور.

ويمكن القول: إن هذه المقالة ـ وغيرها كثير ـ تعكس مجمل الأوضاع التي أشرنا إليها فيما سبق، فبعد أن تحدث عن فقر الخزينة وتراجع الاقتصاد، قال: «ماذا تقول في بلد دخله أوصياؤه وهو شعب واحد وأمة واحدة، فما لبثوا أن جعلوه موزعاً بين عرب مسلمين ومسيحيين ويهود ونصيرية ودروز وإسماعيليين وشيعة وأكراد وتركمان وشركس وداغستان وغجر، ثم زادوا عليها الأرمن والآشوريين فأسكنوهم أخصب البقاع وأغنى الأراضي؟.

«ماذا تقول في بلد دخله أوصياؤه وهو غني بالنبغاء والقواد والعلماء والأدباء؛ فإذا هم اليوم موزعون في الأقطار، مشتتون في الممالك، لا تخلو منهم بلد ولا قرية؟.

«ماذا تقول في بلد دخله أوصياؤه وله أوقاف كبيرة رصدت على البر ونشر العلم، فما زالوا بها حتى جعلوها تحت تصرفهم يؤكلون منها

---

(١) مجلة (الفتح) القاهرية، العدد (٦٤٣) الصادر في ١١ من المحرم ١٣٥٨هـ.

من شاؤوا ويحرمون من شاؤوا، ويولون عليها من شاؤوا ويُقصون من شاؤوا؟.

«ماذا تقول في بلد دخله أوصياؤه وله محاكم تحكم بما أمر الله، فما زالوا يهدمون منها شيئاً بعد شيء حتى غدت هياكل تتداعى للسقوط، وتنتظر النهاية ساعة بعد أخرى؟.

«ماذا تقول في بلد دخله أوصياؤه وله دين يعتصم بعروبته، وخلق يعتز برفعته، فما زالت عرى دينه تنفصم، وما زالت أخلاقه تنحط في عهد أوصيائه، حتى أصبح اليوم مرتعاً خصباً للإباحية والشيوعية والماسونية والفاشيستية وما شاكل هذه المذاهب الهدامة الخطرة على الأديان والقومية والأخلاق؟»...

وأما **نظام الطوائف** فقد وصفه بأنه: «مهزلة المهازل في عهد هؤلاء العلمانيين»، ويعني بهم هؤلاء «الأوصياء اللادينيين» من الفرنسيين؛ قال: «زعموا أن رؤساء الطوائف من غير المسلمين شكوا إليهم ما في نظام الأحوال الشخصية المعمول به في سورية ولبنان من غبن فاحش بطوائفهم؛ فوضعوا لهم نظاماً جديداً يفتح باب الارتداد عن الإسلام على مصراعيه، ويجيز للمسلمة أن تتزوج من غير المسلم، ويمنع المسلم المتزوج في بلد أجنبي من تطليق امرأته، ويجيز للورثة الكفرة أن يرثوا أباهم المسلم، ويلحق الأولاد الصغار بأبيهم المرتد». وقد قال في هذه الأحكام: «إنها لم توضع إنصافاً للأقلية من الأكثرية،

وإنما وضعت اعتداء على دين الأكثرية لإرضاء فريق من رؤساء الطوائف المتعصبين»[1].

ولا يحسن إنهاء الكلام عن محاولات تكريس الطائفية والفرقة ـ ومن ثم التناحر والاختلاف ـ بهذه الوسائل والأساليب، دون الإشارة إلى دور التبشير أو تعليم الإرساليات في ذلك.

مدارس الإرساليات التبشيرية:

ولا أجد في هذا السياق أوجز مما عبر عنه جمهور العلويين أنفسهم في المذكرة المهمة التي قدموها إلى وزارة الخارجية الفرنسية في ٢٧ تموز ـ يوليو ١٩٣٦م، والتي أكدوا فيها رفضهم للانفصال عن سورية بعد أن جربوه ستة عشر عاماً! فقد جاء في هذه المذكرة في الفقرة: ثالثاً: «إن هذا الانفصال الذي يتغنى بحماسته بعض العلويين النفعيين ليس سوى سُلَّم للتبشير اليسوعي، وبالتالي لإفناء العلويين التدريجي». ونصت الفقرة: رابعاً على: «أن هذا الانفصال يحول دون تحقيق وحدتنا القومية، هذه الوحدة التي هي حجر الزاوية في تحريرنا واستقلالنا».

ومما جاء في هذه المذكرة مما نحن بصدده أيضاً قولهم: «وكأن الصدف يا معالي الوزير ساقت بتبشير الآباء اليسوعيين إلى جبالنا، وأخذ هذا التبشير يتسرب إلينا منذ عام ١٩٣٠م. ومن المفيد إحاطة معاليكم علماً أن الكثيرين من الموظفين الفرنسيين الإداريين يرون بعين الارتياح

---

(١) مجلة الفتح العدد (٦٤٣) تاريخ ١١ من المحرم ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م.

أعمال الآباء اليسوعيين. وبعدة مناسبات منذ عام ١٩٣٠م استلفتنا نظر السلطات العليا في باريس وبيروت إلى هذه الحوادث التبشيرية التي تكون معذورة لو أن الدافع لها اليقين والإيمان، إلا أن الشيء المشين في هذه الحوادث، وهنا موضع استيائنا، وعليه احتجاجنا، هو استثمار واستغلال فاقة شعب فقير، وشراء ضمائر ضعيفة، كما تشترى السلع، لتمرقَ من دين إلى دين آخر»[١].

ثم أضافت المذكرة في إيجاز معبّر قائلة: «إن أشد أنصار الانفصال بين الموظفين الفرنسيين هم أشد أنصار التبشير اليسوعي». ثم صرحت المذكرة بأن طلب استبقاء (الأوتونومي) أو الاستقلال الإداري إنما صدر «من بعض الشخصيات العلوية المطواعة لأوامر هؤلاء الموظفين لأنها تملك كل ما لديها منهم، فليس الدافع إليه سوى خشيتها فقدان النعم التي يتمتعون بها متى أذن تبدل النظام الحاضر بذهاب هؤلاء الموظفين»[٢].

وقد أشار الأستاذ السباعي نفسه في تصويره للحالة السياسية العامة في سورية إلى مدى تأثير معاهد التبشير في بعض الأوساط الاجتماعية إلى الحد الذي حسبوا معه «أن انتظام أبناء الأمة في سلك هذه المعاهد من تمام الرقي وكمال التمدن»[٣]! . قال: «ومن أعجب ما في الأمر أن يعقد مؤتمر الامتيازات في مدينة (مونترو) ـ في سويسرة ـ

---

(١) المشرق العربي في مواجهة الاستعمار، ص٤٠٠ـ٤٠١.

(٢) د. ذوقان قرقوط، مرجع سابق، ص٤٠٠.

(٣) مجلة الفتح العدد (٥٤٧) صفر ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م.

ويكـون أول ما تطلبـه الدول من وفدنـا: الضمانـات اللازمة لحمايـة المؤسسات العلمية والدينية التابعة لها. . . ومن قبل هذا طلب مثل ذلك من العراق حين رغـب في الانضمام إلى عصبـة الأمم». ثم تسـاءل رحمه الله قائـلاً: «ولا ندري أهذه المعاهد هي التي تحتاج إلى الحماية خوفاً عليها منّا، أم نحن المحتاجون إلى الحماية خوفاً على أبنائنا منها؟»[1].

بل إن البرلمان الفرنسي بعد أن صدَّق المجلس النيابي السـوري على المعاهدة الفرنسية ـ السورية عام ١٩٣٦م تلكأ في التصديق عليها في سبيل الحصول على المزيد من الشروط والتنازلات السورية، وقد عدّها الأسـتاذ السـباعي سـتة شـروط، وذكر منها: «إعطاء ما يسمونه ضمانات كافية بالحريات الدينية للأقليات والطوائف غير المسلمة على شكل واسع جداً، بحيث يفتح الأبواب للمبشرين وللمعاهد الأجنبية. . .»[2].

الأحزاب السياسية:

أما الأحزاب السياسية التي كانت قائمة قبل الاستقلال ـ الصوري أو المنقوص عام ١٩٤١ والناجز أو التام عام ١٩٤٦ ـ فيمكن التمييز فيها بين نـوعين من الأحزاب: الأحزاب (التقليديـة) إن صح التعبيـر، أو الأحزاب الوطنية التي نشأت في العشرينيات، والتي أخذت على عاتقها قيادة البلاد نحو عصر السيادة والاستقلال. . وكانت في تشكليها أقرب

---

(١) المصدر السابق.
(٢) مجلة الفتح العدد (٦٣٣) في ٣٠ شوال ١٣٥٧.

إلى التحالف بين طائفة من النبلاء والأعيان والوجهاء الذين ولدوا في نهايات القرن الماضي، والذين تكوّن وعيهم وعالمهم مع التحولات الكبرى التي شهدتها الدولة العثمانية وما أفضت إليه الثورة العربية ـ مع المكر الاستعماري الذي أشرنا إليه ـ من وقوع البلاد تحت السيطرة الفرنسية وتجزيئها إلى عدة (دول) أو حكومات. ويمكننا أن نسمي هذه الطائفة أو هذا الجيل بالجيل الفيصلي.

ولم يكن لدى هذه الأحزاب مذهب اجتماعي أو فلسفة سياسية تشكل محور نشأتها أو نشاطها. . مع ملاحظة تأثر كثير من قادتها بالأوضاع (العلمانية) ـ إن صح التعبير ـ التي صاحبت الاستعمار الفرنسي أو بدأت تمشي في ركابه، وقد ساعد على ذلك أن عروبة الثورة التي قادها الشريف حسين، وعروبة الحكم أو الاستقلال الذي أعلنه ابنه الأمير فيصل ـ والذي تراجع عن طموحات الأمة العربية إلى الأمة السورية ـ لم تكن ذات مضمون اجتماعي أو فلسفي كما حصل في الفكر القومي بعد سنوات. . بل هي أقرب من بعض الوجوه إلى المقولات العلمانية ـ مع اختلاط المفاهيم الذي لا ينكر في مرحلة التحول هذه ـ[1]

---

(١) قال الأمير فيصل في الخطاب الذي ألقاه في مدينة حلب في ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨: «إنني أكرر ما قلته في جميع مواقفي: بأن العرب هم عرب قبل عيسى وموسى ومحمد، إن الديانات تأمر في الأرض باتباع الحق والأخوة، وعليه فمن يسعى لإيقاع الشقاق بين المسلم والميسحي والموسوي فما هو بعربي. أنا عربي قبل كل شيء. .» يوم ميسلون للأستاذ ساطع الحصري، ص٢١٤.

الأمر الذي ساعد كذلك على تأثر كثير من زعامات الأحزاب المذكورة بالقيم العلمانية الفرنسية؛ خصوصاً وأن التجزيء الذي مارسته فرنسة كان على أساس (طائفي).. وقد جاءت هذه الأحزاب لتحقيق وحدة البلاد السورية واستقلالها. وربما استقر في وعي بعض هؤلاء الزعماء اقتران الدين بالطائفية أو التسوية بينها؛ الأمر الذي جعل (تدين) هؤلاء موضع نظر.. وربما كان هذا الوضع أحد الأسباب التي كانت وراء تأسيس الجمعيات والجماعات الدينية كما سنرى بعد قليل.

نتحدث هنا كما هو واضح عن **(الكتلة الوطنية)** - قبل أن يتوزع رجالاتها إلى حزبين هما حزب الشعب والحزب الوطني - وقد أخذت الكتلة طابع الحزب عام ١٩٢٨م، ورفعت شعار: الجلاء والاستقلال التام والناجز، وشعار (الدين لله والوطن للجميع). أما قانونها الأساسي فقد أُقر بمدينة حمص عام ١٩٣٢. ونصّت مادته الأولى على أن: «الكتلة الوطنية هيئة سياسية غايتها تحرير البلاد السورية المنفصلة عن الدولة العثمانية من كل سلطة أجنبية، وإيصالها إلى الاستقلال التام والسيادة الكاملة، وجمع أراضيها المجزّأة في دولة ذات حكومة واحدة».

كانت الكتلة الوطنية تمثل حزب الأغلبية أو تجمع الأغلبية، وذلك على النحو المعهود أو المماثل في البلاد التي وقعت في قبضة الاستعمار؛ حيث تنضوي المقاومة (الوطنية) الساعية إلى تحريره من (الغريب الواغل) في تجمع عريض تحت راية أو لافتة (الوطن)، وغالباً ما كان هذا التجمع يسمّي نفسه (الحزب الوطني) وغالباً - أيضاً - ما يتسرب إليه التفسخ

أو يشهد بعض الانشقاقات، فضلاً عما يشوبه في بعض مراحل الكفاح المتقدمة من المطامع والمنافع بعد (احتكار) هذا الكفاح لمدة تقصر أو تطول[1]. حيث تبدأ مرحلة أخرى أو مراحل أخرى من نشوء الأحزاب.

وهكذا حملت المعارضة التي نشأت بعد أن رفضت فرنسة إبرام معاهدة ١٩٣٦م بذور الانشقاق عن الكتلة الوطنية من قِبَل بعض سياسيي مدينة حلب.. حيث انفصل في عام ١٩٣٩م سياسيان طامحان هما رشدي الكيخيا وناظم القدسي عن سعد الله الجابري أبرز رجالات الكتلة الوطنية في حلب. وشكّلا تكتلاً بعيداً عن التنظيم الحزبي بالمفهوم المعهود.. وكان حالهما في ذلك دون حال الكتلة ذاتها، والتي قلنا قبل قليل إنها كانت أقرب إلى التحالف السياسي بين وجهاء ورجال متنفذين.. كان يسهم كل منهم بمن لديه من أصدقاء، ويقدم رعايته وحمايته للتكتل أو التنظيم[2].

وقد ضعف أمر الكتلة وتسرب الخلاف إلى صفوفها بعد أن تناوب على رئاسة الحكومة ثلاثة من أعضائها البارزين في فترة الرئاسة الأولى لشكري القوتلي (١٩٤٣ ـ ١٩٤٧) هم سعد الله الجابري وجميل مردم

---

(١) نصت المادة الثالثة من القانون الأساسي للكتلة الوطنية على ما يلي: من الواجب المحتم جمع قوى الأمة وتوجيه جهودها لتحقيق الآمال الوطنية، ولذلك تعتبر الكتلة الوطنية تأليف الأحزاب السياسية مخالفاً لوحدة الجهود» كتاب المشرق العربي للدكتور ذوقان فرقوط، ص٤١٧.

(٢) راجع: الصراع على سورية تأليف باتريك سيل، ص٤٧.

وفارس الخوري. وكان الجابري يعارض رغبة القوتلي بتعديل الدستور بشكل يمكنه من تجديد انتخابه رئيساً للجمهورية خمس سنوات أخرى. وقد تلقت الكتلة بموته في حزيران ١٩٤٧م ضربة أخرى بوصفه من أكثر رجالها شجاعة واستقامة.

وفي ربيع هذا العام، وقبل الانتخابات ببضعة شهور، توحد شتات الجناح الحاكم من الكتلة ـ ومعظمهم من مدينة دمشق ـ في حزب أسموه (الحزب الوطني) وقد عكس الحزب السياسة الدمشقية إلى حد كبير. وكانت قوته الانتخابية «لا تعتمد على الخصائص الفردية التي يتحلى بها قادته على الرغم من قدرات بعضهم، بمقدار اعتمادها على سجلّهم الوطني...» بالإضافة إلى اعتمادها على الأحوال العائلية وعلى الارتباطات بالأحياء الشعبية وزعمائها من الوجهاء (والقبضايات)[1].

حزب الشعب:

في فترة الانتخابات هذه لم يكن المنشقون عن الكتلة عام ١٩٣٩م قد نمت بينهم درجات من الترابط تحيلهم إلى حزب سياسي على غرار (الحزب الوطني) الذي ورث الكتلة ونظم صفوفه على النحو المشار إليه. ولكن حضور هؤلاء المنشقين وأنصارهم في البرلمان بوصفهم تجمعاً أو كتلاً برلمانية كان واضحاً. وقد قاد هذا التجمع في البدء زعماء من مدينة حلب أمثال القدسي والكيخيا ومصطفى برمدا، حتى إن بعض

---

(١) راجع: الصراع على سورية لباتريك سيل، ص٤٨.

المعلقين سماه (حزب ناظم ورشدي) وكانوا يتمتعون، نظراً لنزاهتهم، بسمعة طيبة تفوق ما كان يتمتع به منافسوهم من زعماء الحزب الوطني الذين تقلبوا في الحكم طيلة حكم الكتلة. ثم ما لبثت هذه المعارضة أن اتحدت في شهر آب (أغطس) ١٩٤٨م وشكلت (حزب الشعب) الذي انضم إليه عدد من كبار الملاك الزراعيين والمحامين وبعض أساتذة الجامعة. وبات يمثل المصالح التجارية في حلب والمنطقة الشمالية ويحظى بتأييد عائلة الأتاسي ـ الإقطاعية ـ ذات الأملاك الشاسعة[١].

أحزاب مدينية:

وعلى أية حال، فقد كانت الكتلة الوطنية أو الحزب الوطني وحزب الشعب أحزاباً (مدينية) ـ نسبة إلى المدينة ـ لأنها مثّلت كبرى المدن السورية: حلب ودمشق وحمص وحماه.. ومعلوم أن هذه المدن تمثل السواد الديني المذهبي الذي عوّلت عليه الدولة العثمانية منذ عشرات السنين ـ بل إن معظم رجالات الكتلة نشأووا في العهد العثماني ويمكن عدهم امتداداً لهذا العهد من بعض الوجوه ـ وعلينا في هذا السياق ملاحظة الانقسام الثنائي الريفي المديني في سورية، الذي كان بدوره أو إلى حد كبير اقتصادياً وذا بعد طائفي في الوقت نفسه؛ يقول الدكتور نيقولاس ڤان دام: «إن البعد الطائفي للانقسام الثنائي الريفي المديني في سورية لجدير بالملاحظة، فبينما تتركز الأقليات الدينية المتماسكة أساساً

---

(١) المصدر السابق.

في المناطق الريفية الفقيرة المحرومة؛ نجد أن المناطق الأكثر ثراء، والمدن الأكبر، يسيطر عليها سنيّون»[1].

ملامح الأحزاب الجديدة:

وهكذا جاءت معظم الأحزاب الجديدة ـ أو الشابّة ـ تعبيراً عن تطلعات الأقليات بوجه عام، وأقرب إلى الإلحاد مرة، وإلى العلمانية وإهمال شأن الدين أو الالتفاف عليه مرة أخرى؛ في الوقت الذي أكدت فيه هذه الأحزاب جميعاً على الدور المركزي للحزب بوصفه عصبية جديدة من جهة، وموطن النخبة التي تتمتع بحق الريادة والطليعة من جهة أخرى.

ونعني بالعصبية الجديدة أن باب العضوية فيه مفتوح لكل من يؤمن بمبادئ الحزب وأهدافه ـ وربما لم يكن الأمر على هذا النحو في الكتلة الوطنية على سبيل المثال، ومع ملاحظة إمكانية إحياء العصبية القديمة ـ (الأقلويّة) أو الطائفية ـ في سياق هذه العصبية (التقدمية) الجديدة! أما الطليعية والريادة فقد آمنت بها هذه الأحزاب أو اعتقدتها ـ وإن شئنا قلنا (توهمتها) ـ من خلال طروحاتها الحديثة أو المعاصرة، والتي كانت منقولة عن الأحزاب الأوروبية القومية والاشتراكية ـ حتى على مستوى

---

(١) كتاب: الصراع على السلطة في سورية: الطائفية والإقليمية والعشائرية في السياسة ١٩٦١ ـ ١٩٩٥، ص٣٥ مكتبة مدبولي ـ الطبعة الثانية. حزيران يونيو ١٩٩٥م.

الأسماء في أغلب الأحيان ـ وبالمفاهيم العقائدية والاجتماعية التي كانت قائمة في الغرب.

يقول الدكتور نيقولاس ڤان دام: «إن أعضاء الأقليات لا بد وقد جذبت انتباههم فكرة إمكانية التخلص من الهيمنة السنية المدنية التقليدية على الحياة السياسية السورية، وذلك عن طريق تكوين نظام سياسي اشتراكي علماني.. خال من التعصب السياسي والاجتماعي الاقتصادي ضد من هم من غير السنيين...»[1]، وينقل عن السيد مطاع الصفدي قوله: إن الأقليات الدينية، وعلى رأسها العلويون ويليهم الدروز والإسماعيليون والمسيحيون كانوا «الأكثر طموحاً إلى غزو هرم المجتمع القديم التقليدي الذي تسيطر عليه طبقات المدن الإسلامية السنيّة»[2].

إن اللجوء إلى الماركسية أو القومية بالمفهوم الألماني أو الفرنسي، والعناية بآراء (نيتشه) على سبيل المثال.. لم يعد يستعصي على التفسير؛ لأن (تفكيك) البُنى العقائدية والفكرية للأقليات المذهبية.. وحتى الدينية أمر واقع لا محالة في ظل نظام التعليم المدني الفرنسي وسياسة الابتعاث إلى الغرب، ومع الاطلاع على المذاهب والتيارات الفكرية العالمية. ولم يكن في وسع هذه الأقليات ـ فيما نقدر ـ أن ترداد آفاق الثقافة العربية الإسلامية أو تعود إلى رحابها ورحابتها، أو تبحث في قيم الإسلام الإنسانية والحضارية ـ على أثر انحلال الرابطة العثمانية ـ ظناً منها أن هذا

---

(١) الصراع على السلطة في سورية، ص٤١.

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة.

قد يعني الدخول في هيمنة السنة العرب بعد هيمنة السنة الأتراك! ونحن لانستطيع أن نفهم (رد الفعل) الشديد الذي وقع فيه السيد زكي الأرسوذي ـ على سبيل المثال ـ إلا من خلال هذا التفسير!! وإلا فكيف نفهم أنه نادى بالعودة إلى العصر الجاهلي قبل الإسلام، وأنه سمى هذا العصر عصر البطولة والعصر الذهبي. . وأنه تبنى من الإسلام ما كان جاهلياً فقط[1]!!.

وتبرز هنا أو في هذا السياق أهمية الدعوة الدينية التي نهض بها الأستاذ مصطفى السباعي. وحركة التجديد والإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي التي قادها لمدة ثلاثة عقود. وأهمية دفاعه عن العلويين داخل البرلمان وخارجه، ومطالبته الحكومة بضرورة العناية بجبالهم وبسائر المناطق الريفية أو المهمّشة، كما سنعود لبيانه من الصحف ومن مذاكرات الجمعية التأسيسية السورية (البرلمان).

وقبل أن نوجز القول في هذه الأحزاب، لا بد لنا أن نعقب على هذا الذي ذكرناه بالقول: إن ما حدث كان فيما نقدر رد فعل موقوتاً ـ أياً كان أمده ـ وإن الإلحاد والعلمانية والقومية الجاهلية والاشتراكية الماركسية. . ليست أكثر من مرحلة عابرة أو مرحلة من المراحل، وإن الدائرة الحضارية لكافة الطوائف المذهبية والدينية والعرقية لن تكون سوى الدائرة العربية الإسلامية في نهاية المطاف. وأعتقد أن جمهور الطائفة العلوية ـ على سبيل المثال ـ كان على وعي بهذا الذي نقول، حين

---

(١) راجع كتابنا: جذور الفكر القومي والعلماني: الطبعة الثالثة ـ المكتب الإسلامي بيروت: ١٩٩٩.

رفض الشغب الذي قام به نفر من أبناء الطائفة عام ١٩٣٦م ضد الانضمام إلى الدولة السورية. وحين فهموا الخصوصيّة الطائفية على أنها تنوع ضمن وحدة الإسلام الجامعة؛ فقد جاء في مذكرتهم التي قدموها إلى وزارة الخارجية الفرنسية ـ والتي أشرنا إليها في صفحات سابقة ـ قولهم:

«إن العلويين شيعة مسلمون، وقد برهنوا طوال تاريخهم على امتناعهم عن قبول كل دعوة من شأنها تحريف عقيدتهم، فهم يحتفظون بشدة بالعقيدة الشيعية الإسلامية... إن القرآن الشريف هو كتاب العلويين سواء كانوا طلاب وحدة أم طلاب انفصال، ومن كان القرآن الكريم كتابه فهو مسلم، أحب أم كره، إلا أن يرتد عن الإسلام. وإن إخواننا الانفصاليين يضعون أنفسهم بين أمرين لا ثالث لهما؛ فإما أن يعترفوا بأن القرآن هو كتابهم، وعندها لا يمكن لهم إلا أن يكونوا مسلمين علويين، وإما أن ينكروا القرآن الشريف؛ وعندها لا يمكن لهم أن يكونوا مسلمين علويين، ولا أن ينتسبوا لأي فرقة من فرق الإسلام»[1].

أما هذه الأحزاب فهي:

١ ـ **الحزب الشيوعي**: لا يوجد حزب ترجع بداياته الأولى إلى ما قبل المرحلة التي نتحدث عنها سوى الحزب الشيوعي الذي اعتمد في الأصل، وعلى نحو شبه كامل، على عناصر طائفية وعرقية ـ يهودية

---

(١) المشرق العربي في مواجهة الاستعمار للدكتور ذوقان قرقوط، ص٤٠١ـ٤٠٢.

وأرمنية وسواها ـ خصوصاً وأن الحزب كان يحمل الهوية السورية ـ اللبنانية في سنواته الأولى. فمنذ عام ١٩١٩م بدأت تظهر في سورية ولبنان حلقات ماركسية صغيرة. كان أهمها (البلشفيين الأرمن) في لبنان.

وفي عام ١٩٢٤ أسس في لبنان حزب شيوعي باسم: حزب الشعب اللبناني. وفي عام ١٩٢٥ جرت اتصالات بين هذا الحزب وبين البلشفيين الأرمن ـ الذين دعوا حزبهم باسم عصبة سبارتكوس ـ انتهت إلى حل الحزبين وتأسيس الحزب الشيوعي السوري اللبناني، وكان سكرتيره العام (آغوب بيتر) وهو يهودي روسي قدم من فلسطين إلى بيروت وسمي باسم الرفيق شامي[١].

وتمكن الحزب بعد التاريخ المذكور من تأسيس أول حلقة شيوعية في دمشق على يد الرفيق شاتيلا.. ثم انضمت عناصر شابة في الثلاثينيات منها السيد خالد بكداش المولود عام ١٩١٢م (من الأكراد السنّة) الذي أصبح منذ عام ١٩٣٧م السكرتير العام للحزب حتى عام ١٩٦٩م[٢]. وقد انتخب عضواً في البرلمان السوري عن مدينة دمشق في انتخابات عامي ١٩٤٩ و١٩٥٤، تحت لافتة نصرة العمال والفلاحين! ومستفيداً من

---

(١) راجع كتاب الأحزاب الشيوعية في البلاد العربية تأليف إلياس مرقص.

(٢) يقول خالد بكداش: إن عدد الشيوعيين في الشام ـ حين انخرط في الحزب عام ١٩٣١م ـ كان خمسة أشخاص. راجع كتاب خالد بكداش يتحدث. إعداد وحوار: عماد نداف، ص٢٣.

عصبية الأقليـة الكردية التي تتمتع بأصوات انتخابية مؤثـرة؛ وفي ضوء بعض الاعتبارات السياسية المحلية والدولية[1].

٢ ـ الحزب السوري القومي الاجتماعي:

أسسه السيد أنطون سعادة (١٩٠٤ ـ ١٩٤٩) مع مجموعـة منهم جورج عبد المسيح وفخري المعلوف ووديع تلمود في تشرين الثاني (نوفمبـر) ١٩٣٢. وبقي الحزب يعمل بصورة سـرية حتى عام ١٩٣٥ وشمل نشاطه سورية ولبنان. وكان من شخصياته البارزة السيد عصام المحايري الذي انتخب نائباً عن مدينة دمشق في الجمعية التأسيسية عام ١٩٤٩. والذي رأس معظم الصحف التي أصدرها الحزب والتي وصفت جميعها بالجديد! (الجيل الجديد ـ النظام الجديد ـ حضارة الجيل الجديد ـ البناء الجديد).

ويـؤمن الحزب بفكرة الأمة السـورية، ورفع شـعار (سـورية للسوريين، والسوريون أمة تامة)، وعرّف الوطن السوري بأنه البيئة الجغرافية التي انتشرت فيه الأمة السورية. ويخلط سعادة في تعريفاته بين الوطن ـ أو الجغرافية ـ والأمة أو الشعب! نتيجة لإيمانه بوجود (ارتباط عضوي) بين الأمة وحدودها الجغرافية (الوطنية)! وحدود سورية ممتدة من سلسلة جبال طوروس في الشمال الغربي، وجبال زاغروس في الشمال الشرقي، إلى قناة السويس والبحر الأحمر في الجنوب ـ وتشمل

---

(١) راجع كتاب: الصراع على سورية لباتريك سيل، ص٢١٤ و٢٤٤.

شبه جزيرة سيناء وخليج العقبة ـ ومن البحر السوري (الأبيض المتوسط) في الغرب بما فيها جزيرة قبرص، إلى قوس الصحراء العربية والخليج (الفارسي) في الشرق. وتدعى هذه المنطقة أيضاً الهلال السوري الخصيب، على أن تكون جزيرة قبرص نجمته!.

أما (الوحدة العضوية) للمجتمع السوري فلا تستند على العرق أو الدم، فضلاً عن عدم استنادها على العروبة والإسلام! ولكنها تستند إلى التاريخ بدءاً بشعوب العصر الحجري! مروراً بالأكاديين والكنعانيين والكلدانيين والأشوريين والآراميين والعموريين والحثيين[1].

قلت: ما عدا العرب والمسلمين! بل إن أنطون سعادة يشير في كتابه (نشوء الأمم) إلى أن المسيحية الشرقية ـ وينتمي هو إلى اليونان الأرثوذكس ـ هي هوية الأمة السورية التي لم تحسن الدفاع عن نفسها أمام غزو (الجزيريين) أي العرب المسلمين الفاتحين. وربما كانت الرسالة الحقيقية للحزب إعادة هذه الأمة إلى تلك الهوية، أو إعادة هذه الهوية لها مرة أخرى!.

٣ـ عصبة العمل القومي:

أسست عام ١٩٣٣م في سورية ولبنان، وكان السيد صبري العسلي أمينها العام، ومن أبرز شخصياتها السيد زكي الأرسوذي الذي أشرف على الجريدة التي أصدرها الحزب أو العصبة (باسم جريدة العمل

---

(١) راجع كتاب: الصراع على سورية لباتريك سيل، ص٩٤.

القومي) في مدينة حلب عام ١٩٣٨م. وأخذت ـ أي العصبة ـ على عاتقها مقاومة كل من يناوئ القومية العربية، وعدّت نفسها وريثة الثورة العربية وحركات الاستقلال. وفي عام ١٩٣٦م خرج منها السيد العسلي وانضم إلى الكتلة الوطنية. وقد أدّى فشل هذه العصبة إلى حلها في نهاية هذا العقد. يقول سامي الجندي: «ثم جاء فشل عصبة العمل الذي تلاه حلّها ليجعل المؤمنين بالقومية العربية ينشطون لتأليف حزب جديد»[١].

٤ ـ الحزب العربي الاشتراكي:

انتسب السيد أكرم الحوراني (١٩١١ ـ ١٩٩٦) إلى الحزب السوري القومي عام ١٩٣٦ وانهمك مع قريبه عثمان الحوراني في تأسيس حزب أو حركة الشباب الحموي في نفس العام (١٩٣٦م)[٢] وبقي الارتباط قائماً بين الحركة و الحزب حتى عام ١٩٤٨م تقريباً، حيث تم فصل أكرم من الحزب السوري القومي عام ١٩٤٩م. ويبدو أن (الشباب الحموي) لم يكن أكثر من فصيل محلّي في إطار القوميين السوريين، قاده السيد أكرم الحوراني على نطاق سياسي خاص بمدينة حماة. قبل أن يقوم بتحويله رسمياً إلى حزب في ٥ / ١/ ١٩٥٠ عندما أقام الحوراني مهرجاناً (فلاحياً) كبيراً في مدينة حلب، وسمّى هذا الحزب الذي عد التاريخ المذكور تاريخ تأسيسه بـ (الحزب العربي الاشتراكي)، ثم دمج هذا

---

(١) جريدة الحياة العدد (١٢٣٤٦)، تاريخ ١٤/ ١٢/ ١٩٩٦م، ص١٩.

(٢) راجع كتاب: أكرم الحوراني: دراسة حول السياسة السورية ما بين عامي ٤٣ ـ ١٩٥٥م تأليف جوناثان أوين، ص٤٤ فما بعدها.

الحزب مع (حزب البعث العربي) في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٢م تحت اسم: حزب البعث العربي الاشتراكي. أما (البعث العربي) - بدوره - فقد مرّ قبل هذا الدمج بعدة مراحل.

ونشير هنا قبل الحديث عن هذه المراحل إلى أن السيد أكرم الحوراني - الذي حقق المكاسب السياسية للحزب الجديد - انتخب نائباً في المجلس النيابي عام ١٩٤٣م في أول انتخابات برلمانية تجري في سورية بعد الاستقلال - الصوري - الذي أعلنته فرنسة في ٢٧ أيلول (سبتمبر) عام ١٩٤١م. واحتفظ بمقعده في هذا المجلس في جميع العهود البرلمانية السورية.

ونشير أيضاً إلى أنه استطاع أن يؤلف أو يواءم بين هذين النوعين من الأحزاب أو استطاع أن يقف خارجهما إن صح التعبير؛ لأنه لم يكن صاحب مذهب اجتماعي أو عقيدة فلسفية خاصة أو مناوئة[1]! على الرغم من (اشتراكيته) المعلنة، لأن هذه الاشتراكية يمكن تفسيرها أو فهمها على أنها محاولة لتحقيق العدل الاجتماعي كما تراءى للسيد الحوراني، وذلك عن طريق تحطيم احتكارات الأملاك - والسلطة - التي كانت تسيطر عليها حفنة من العائلات، وفي ريف مدينة حماه على وجه الخصوص. وعلى أية حال فإن الحوراني لم يخلف وراءه مثل تلك

---

(١) يقول باتريك سيل: إن من المشكوك فيه أن يكون الحوراني، وهو رجل عمل لا فكر، قد اعتنق تماماً النظرية السورية القومية التي بشّر بها أنطون سعاده. راجع الصراع على سورية، ص٦١.

العقيدة أو الفلسفة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار علاقته بريف حماه أمكننا القول إنه جمع كذلك بين الانتمائين المديني والريفي في وقت واحد، وأنه لم يخضع لذلك لمقتضيات مربّع معيّن من هذه المربعات. وقد ساعده على ذلك: تقلّبه وإتقانه فن المراوغة! حتى كأنه صاحب عقيدة سياسية أو لعبة سياسية إن صح التعبير. وربما فسّر هذا وقوفه وراء جميع الانقلابات العسكرية التي شهدتها البلاد (١٩٤٩ ـ ١٩٥٤) أو تعاونه معها ومساندته لها على أقل تقدير، في الوقت الذي كان عضواً في البرلمان.

٥ ـ الإحياء العربي ـ البعث العربي:

ولد السيد ميشيل عفلق عام ١٩١٠م وحصل على منحة لدراسة التاريخ في السوربون عام ١٩٢٨م، ومارس مع السيد صلاح الدين البيطار ـ وكلاهما من أبناء مدينة دمشق ـ نشاطاً فكرياً تحت اسم (حركة الإحياء العربي) وكان ذلك في عام ١٩٤١م، وسرعان ما تغير هذا الاسم في العام نفسه إلى (الحزب العربي القومي)[١].

أما حركة (البعث العربي) فقد أسسها في دمشق عام ١٩٤٠م السيد زكي الأرسوذي أحد أبناء لواء إسكندرون بعد أن تم سلخ اللواء عن سورية ولجوء الأرسوذي إلى دمشق.

ويذكر الشاعر سليمان العيسى أحد أبناء اللواء أيضاً ـ والذي تتلمذ

---

(١) راجع كتاب الأحزاب والجمعيات السياسية في القطر السوري من أواخر القرن التاسع عشر إلى سنة ١٩٥٨م تأليف عبد الجبار حسن الجبوري، ص٢٠٦.

في دمشق على كل من ميشيل عفلق وصلاح البيطار ـ أنه شارك السيد الأرسوذي في تأسيس (البعث العربي) قبل أن يتساءل شباب الحركتين لماذا لا تضم الحركتان معاً في حركة واحدة أو حزب واحد، وقد تم ذلك على الرغم من الحساسية التي أبداها الأرسوذي نحو العمل مع ميشيل عفلق وصلاح البيطار، يقول سليمان العيسى: «وقد استطعنا إقناع ميشيل عفلق وزكي الأرسوذي لاستلام كل شيء، وعندما اجتمعنا غضب الأرسوذي وتركنا، ولم يعمل بعدها في أي عمل حزبي. أما نحن فقد أكملنا الطريق واستلم ميشيل عفلق الحزب باسم حزب البعث العربي سنة ١٩٤٧م»[١]، وانعقد المؤتمر التأسيسي لحزب البعث العربي من ٤ ـ ٦ نيسان (أبريل) ١٩٤٧م بدمشق. ثم تم دمجه مع حزب أكرم الحوراني ـ كما أشرنا ـ في سنة ١٩٥٢م إبّان حكم العقيد أديب الشيشكلي[٢]، ولم

---

(١) انظر الحوار الذي أجرته معه جريدة الخليج ـ الإماراتية ـ في ملحقها: الخليج الثقافي، ص٢ العدد (٧٠٦٤) في ٢١/ ٩/ ١٩٩٨م.

(٢) يقول أكرم الحوراني: «فحزب البعث لم يسجل أهمية وانتشاراً إلا بعد اندماجه بالحزب العربي الاشتراكي، ولولا قبولي ـ وهذا خطأ سياسي يضاف إلى خطأ الاندماج ـ بأن يكون ميشيل عفلق أميناً للسر في الحزب الجديد، تقديراً لظروف القمع والحكم العسكري خلال عهد أديب الشيشكلي الذي تم فيه الاندماج، لما أمكن لعفلق أن يبقى في أمانة الحزب لو تم في ظروف مغايرة. ولا سيما أن الحزبيّين من الطرفين كانوا لا يزالون يذكرون الوثيقة المكتوبة التي قدمها عفلق إلى حسني الزعيم بعد فترة قليلة من سجنه، والتي يتخلى فيها عن الحزب ومبادئه وعن العمل السياسي». مذكرات أكرم الحوراني =

يمنح الترخيص إلا بعد زوال الحكم العسكري للعقيد عام ١٩٥٤م في انقلاب أبيض لم يكن بعيداً عن السيد أكرم الحوراني.

تعقيب حول الكتلة الوطنية:

في مقالة للأستاذ مصطفى السباعي مؤرخة في مدينة حمص ـ في زيارة لها أيام دراسته في مصر ـ في الرابع من شهر رجب ١٣٥٦ (١٩٣٧م) ومنشورة في مجلة (الفتح) القاهرية[1] يقول: «إن أكثرية البلاد (كتلوية) تؤيد الحكومة القائمة ـ أي حكومة الكتلة الوطنية ـ وهناك حزب (عصبة العمل القومي) تأسس منذ سنين وأنصاره في حمص وأنطاكية أكثر منهم في دمشق، ولا وجود له في حلب وحماه وبقية البلدان. وهناك أحزاب ضئيلة يؤلفها نفر من الرجعيين الذين كانوا السبب الأكبر في نكبة البلاد في حريتها واستقلالها وثرواتها»[2].

ويمكن أن يضاف إلى هذه الأحزاب أو يلحق بها: (حركة اليقظة

= الحلقة ١١١ جريدة القدس العربي العدد (٣١٥٤) في ٢٩ حزيران ١٩٩٩م.

(١) العدد (٥٦٦).

(٢) يشير فيما يبدو إلى بعض الأحزاب التي توصف بالمعتدلة! والتي كانت تدعو إلى التفاهم مع فرنسة، وربما إلى بقائها في سورية، بوصفها أكبر دولة عسكرية ـ بريّة ـ في العالم، وليس في وسع السوريين مقاومتها. ولكن هذه الأحزاب لم يكتب لها الحياة، لأنها لم تصادف أي شعبية تذكر، وبقي زعماؤها أمثال حقي العظم والشيخ تاج الدين الحسني لا تدعمهم أية قاعدة شعبية. راجع كتاب: النكبات والمغامرات للصحفي السيد بشير فنصة، ص٦١.

العربية) التي أسست فيما يبدو في وقت لاحق، والتي تقدمت بـ(نداء للشعب) انتقدت فيه أعمال الكتلة الوطنية انتقاداً حاداً، واتهمتها بأنها (قتلت الروح الوطنية وخدّرت الأعصاب والمشاعر) وأنها ارتكزت في سلطتها على (الأوباش والرعاع). وقد صبّت جام غضبها بوجه خاص على كل من السيد جميل مردم والسيد سعد الله الجابري، واتهمتهما بارتكاب الخيانة العظمى[1]!.

أُقر القانون الأساسي للكتلة الوطنية في مدينة حمص في ٤ تشرين الثاني (أكتوبر) عام ١٩٣٢م، وتصدّرت الأسماء السبعة التالية مجلسها الذي ضم نحواً من أربعين شخصية: (هاشم الأتاسي، إبراهيم هنانو، سعد الله الجابري، عبد الرحمن الكيالي، لطفي الحفار، شكري القوتلي، نسيب البكري).

وكان أبرز شخصيات الكتلة وأبرز شخصية سياسية في البلاد لمدة تزيد على خمسة وثلاثين عاماً السيد هاشم الأتاسي رحمه الله (١٨٦٩ ـ ١٩٦٠) وذلك من عام ١٩٢٠م حين انتخب رئيساً للمؤتمر السوري الأول، وحين ألّف الوزارة السورية ـ الأولى ـ التي حاربت دخول فرنسة إلى سورية، وحتى عام ١٩٥٥م حين أخلى مقعد رئاسة الجمهورية السورية للسيد شكري القوتلي[2].

---

(١) المشرق العربي في مواجهة الاستعمار، ص٤٥٣ ـ ٤٥٥.
(٢) كان ذلك في المحرم من عام ١٣٧٥هـ و٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٥٥م.

وبقي الأستاذ السباعي يشيد به وبمواقفه الوطنية حتى تاريخ وفاته عام ١٩٦٠م حين تحدث عن مآثره في الكلمة التي رثاه بها على صفحات مجلّته: (حضارة الإسلام). وكان قد أشار إلى زيارة ـ مبكرة ـ له عام ١٩٣٩م في كلمة ألقاها في القاهرة عام ١٣٦٠هـ بمناسبة وفاة الدكتور عبد الحميد سعيد رئيس جمعية الشبان المسلمين في مصر، فقال: «حتى إنني لأذكر أنني زرت منذ ثلاثة أعوام فخامة الرئيس الجليل هاشم بك الأتاسي زعيم الكتلة الوطنية ورئيس الجمهورية المستقيل، وجرَّنا الحديث إلى مصر وأهلها، فإذا بالرئيس الجليل يفيض قلبه إعجاباً بنهضة مصر، ويثني الثناء المستطاب على المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين، ويقدر في الرئيس الفقيد صفات البطولة والإخلاص والرجولة التي كانت تملأ جوانب نفسه الكريمة»[1].

أما كلمته المشار إليها في مجلة (حضارة الإسلام) فقد صدّرها الأستاذ السباعي بقوله:

«انطفأت شعلة من شعل الجهاد العنيد النبيل الذي أضاء للعرب عامة ولأبناء الإقليم السوري خاصة طريقهم إلى الحرية قرابة سبعين عاماً منذ تولى العمل الحكومي بعد تخرجه من حقوق إستانبول عام ١٨٩٤م إلى أن لقي ربه في الشهر الأخير من عام ١٩٦٠م.

«تاريخ أمّة، وأمجاد شعب، وعنوان كفاح، ورمز استقامة، ومثل

---

(١) مجلة الفتح العدد (٧٥٣)، تاريخ ٢٧ ربيع الأول ١٣٦٠هـ.

نزاهة . . ذلك هو الفقيد العظيم : هاشم الأتاسي .

«قاد هاشم الأتاسي معركة الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي في سورية مع عدد من إخوانه . . في وقت كان فيه الاستعمار يرمي بأثقاله على البلاد، والأمة تغلي غليان المحموم من وطأة الطغاة المستعمرين وأذنابهم، فوجدت فيه القائد الأمين، والربّان الماهر، والزعامة الحكيمة التي لا تضطرب عند اصطراع الأهواء، ولا تجبن عند اشتداد الأنواء، وسلّمت له برئاسة الجمعية التأسيسية عام ١٩٢٨م ثم برئاسة الجمهورية عام ١٩٣٦م، فاشتد إيمانها بقيادته وزعامته للقضية الوطنية وللحكم الوطني، من حيث تزعزعت ثقتها في كثيرين ممن كانوا يتعاونون معه في الكفاح السلبي، ثم في دور البناء الإيجابي. وما كاد يغادر منصّة رئاسة الجمهورية طائعاً مختاراً عام ١٩٣٩م بعد ما بدا من سوء نوايا الفرنسيين وتصميمهم على جعل استقلال سورية أمراً شكلياً يخفي وراءه أبشع مطامع الاستعمار الفرنسي وأخسّها، حتى أصبح هاشم الأتاسي زعيم الأمة غير منازع، وبطل القضية الوطنية غير متهم ولا مغموز في سيرته وإخلاصه»[(١)]

وأضاف رحمه الله : «لقد قُدّر لي أن أعرف الفقيد العظيم، وما تنطوي عليه نفسه الكبيرة من شمم ونقاء خلال السنوات التي انقضت بين وضع الدستور السوري في الجمعية التأسيسية عام ١٩٤٩م وبين انتهاء رئاسته الثانية للجمهورية عام ١٩٥٥م، وشهد الله ما رأيت أنبل منه

---

(١) مجلة حضارة الإسلام : السنة الأولى ـ العدد السابع ـ كانون الثاني (يناير) ١٩٦١م.

نفساً، ولا أصفى منه وطنية، ولا أبعد منه بصيرة، ولا أعفّ منه يداً ولساناً» رحمه الله.

ونحن نقول: لقد قُدر لمدينة حمص، واسطة العقد في بلاد الشام، أن تهب لهذه البلاد في أخطر مراحل تاريخها الحديث: رجلَ الوطنية والعروبة الرئيس هاشم الأتاسي، ورجل الوطنية والعروبة والدعوة الإسلامية الشيخ مصطفى السباعي.

* * *

ثانياً: المشهد الثقافي

نعرض لهذا المشهد بالقدر الذي يمهد للوقوف على أبعاد العمل الذي نهض به مصطفى السباعي في الدعوة وميادين الإصلاح المتعددة، وغني عن البيان أن الثقافة والفكر قاعدة الإصلاح ومنطلقه في جميع الأحوال. أو كما قال السباعي نفسه رحمه الله: «لن تنهض أمة إلا بعد أن تكون متحدة في الفكر والثقافة والغاية. أما أن تكون موزعة الأهواء، مختلفة في الغاية التي تسعى إليها فستبقى أبد الآبدين محطَّ أنظار الطامعين والجائعين!».

لقد كتب السباعي هذا في ١٦ شعبان من عام ١٣٥٦هـ ١٩٣٧م بعد أن أفزعته الحالة الثقافية التي وجد عليها الشباب في هذا الوقت العصيب من أيام الكفاح ضد المستعمر! والتي صوَّرها بعد معاهدة ١٩٣٦م مع بداية العهد الوطني الجديد على النحو التالي: قال رحمه الله: «إن الفتن التي نشبت في سورية في مستهل عهدها الوطني الجديد استغرقت جهد زعمائها[1]، وحالت بينهم وبين التفكير في وقاية الشباب

(١) تحدث عن هذه الفتن والمشكلات في أكثر من مقالة من مقالات (الفتح) منها مقالة سابقة للمقالة المذكورة بنحو أربعين يوماً كتبها بتاريخ ٤ رجب ١٣٥٦هـ=

وتنظيم صفوفهم، فكان هذا باعثاً لنشاط الدعايات الخبيثة وانتشارها في محيط الشباب انتشاراً ينذر بأوخم النتائج! وأنت إذا اختلطت بالشباب واستمعت إليهم في مجالسهم أفزعك ما تراه من تباين أفكارهم وتضارب ميولهم وتنوع الدعايات بينهم؛ فهذا شيوعي يمجد ستالين ويدعو لمبادئه، وهذا فاشيستي يرفع من شأن الدوتشي ويشيد بفضائله، وهذا قومي يدعو إلى اطراح الأديان ووجوب تزوج المسلمة من غير أبناء دينها ليتم التعاون بين أبناء الملل المختلفة، وهذا إباحي يرى إطلاق الأمة من قيود الفضيلة والدين ليفعل ما يشاء من المنكرات، ويعاشر من تعجبه من الفتيات، ويدعو إلى ما يراه من المعتقدات ولو كان فيها الهدم والفساد! إلى غير هذا وذاك مما يبعث فيك العجب والدهشة، ويحملك على أن تستبعد أن يكون هؤلاء الشباب ـ مع ما هم عليه من اختلاف

= ١٩٣٧م تحت عنوان (الحالة السياسية في سورية) تحدث فيها عن مشكلة «لواء الإسكندرون التي انتهت باقتطاع هذا الجزء العزيز من الوطن السوري» وعن مشكلة منصب (المحافظ) التي ثارت في جبل الدروز. ثم مشكلة العصابة التي عبثت «بالأمن في ربوع العلويين لتعكير صفو العهد الوطني الجديد، وإثبات أن العلويين غير راضين بانضمامهم إلى الدولة السورية» ـ وهم الذين انتقدهم العلويون ووقفوا ضدهم، وقدموا في ذلك المذكرة التي نقلنا عنها في الصفحات السابقة ـ ويضيف السباعي قائلاً: «ثم ثارت فتنة قوية في (لواء الجزيرة) أثارها بعض اللاجئين من آشوريي العراق... إلخ». كما أشار في هذه المقالة إلى بعض ألاعيب الشيوعيين وأساليبهم في مناوئة الحكم الوطني. مجلة الفتح السنة ١٢ العدد (٥٦٦) في ٤ رجب ١٣٥٦هـ.

المشـارب ـ أبناء وطن واحد وأمة واحدة ولغـة واحدة! . . . » ثم قـال عبارته السالفة الذكر : «هذا خطر بلا ريب، فلن تنهض الأمة إلا أن تكون متحدة في الفكر والثقافة والغاية . . . »[1].

العهد الوطني الجديد مسؤول إذن عن هذه الحالة من التمزق الثقافي إن صح التعبير . . ولكن السباعي يشير كذلك إلى مدى مسؤولية الأحزاب عن هذه الحالة البائسة، ويتنبه ـ في هذا الوقت ـ إلى الخطر الشيوعي، وإلى خطورة القضية الفلسطينية على الوطن العربي كله! فقد (ألقى خطبة في مكتب الكتلة الوطنية بحمص على ممثلي الأحزاب والجمعيـات بعنوان: من لم يكن في بـلاده حراً فخير لـه أن يموت: واجبات الأمة في عهد الاستقلال) قال فيها :

«لقد بحثت طويلاً لأرى مبلغ ما قمنا به من واجبات هذا العهد الجديد، فرأيت ما آلمني وأحزنني حقاً! فما كدنا ننعم بلذة الاستقلال حتى بعدت الشقة بيننا وبين الله جلَّ جلاله، وقام فينا نفر من المغرورين يبثّون الدعاية للمذهب الشيوعي القائم على إنكار وجود الله ومحاربة الرسل والشرائع . . . ».

ثم خاطب ممثلي الأحزاب والجميعات بقوله :

«أيها القوم، لم هذا الاختلاف بين أحزابكم والبلاد بلادكم جميعاً

---

(١) الفتح السنة ١٢ ، العدد (٥٧٢) تاريخ ١٦ شعبان ١٣٥٦هـ، ص١٢ من مقالة بعنوان : (إلى الجمعيات الإسلامية في سورية).

لا لحزب منكم دون آخر، والأخطار التي تهدد بلادكم تهددكم جميعاً لافئة دون أخرى، أفيجوز في دين الله أن تؤججوا في نفوسكم نار التفرقة والبغضاء، وبلادكم تشكو ضياع ما ليّتها وفقدان جزء كبير من أراضيها، وتئن من دسائس الدخلاء والأعداء على السواء».

«أيها القوم، إننا لا نرى والله هذا الاختلاف فيما بينكم إلا انتحاراً وقتلاً للوطن وتخلياً عنه في أشد أوقاته خطراً. لا تقولوا إن هذا تهويل ومبالغة، فوالله ما مرّ على بلادكم وبلاد العرب قاطبة وقت عصيب تحفّكم فيه الأخطار كوقتكم هذا. . . » ثم استعرض الأخطار التي تتهدد سورية ومصر واليمن والجزائر وتونس وطرابلس الغرب. . ومما قاله للسوريين: «ها هي بلاد لكم يريد ملاحدة أنقرة أن يختطفوها من وطنكم. . وها هي فلسطين الجزء السوري الجنوبي يريد المستعمرون أن يخرجوا فيه للوجود أول مملكة يهودية على ظهر الأرض ليجعلوها شوكة في جسم الوطن العربي الأكبر. . . »[(١)].

نعود لرسم الخطوط العامة للمشهد الثقافي، فنذكّر بما سبقت الإشارة إليه من **الإرساليات الدينية ومدارس التبشير** وأثرها الذي لا ينكر في رسم هذا المشهد. . حتى إن (دالادييه) وكان أبرز المعارضين في البرلمان الفرنسي لسياسة الحكومة إزاء القضية السورية، لم يسعه إلا الإشادة بأعمال هذه الإرساليات والمدارس، فقال: «إنني لا أنكر جلال

---

(١) مجلة الفتح السنة ١٢ العدد (٥٧٠) في ٢ شعبان ١٣٥٦هـ.

العمل الذي تم في سورية، سواء على يد المبشّرين المسيحيين أو على يد الرجال العلمانيين»[1].

وليس في وسعنا ـ ولا من همّنا ـ استقصاء آثار هذا (العمل الجليل)! في الصورة السابقة للشباب التي رسمها الأستاذ السباعي، وإن كنا لا نُبعد تأثيرها الشديد على معظم قيادات العمل الحزبي السابق؛ وربما كان تأثر الأرسوذي بالمسيح عليه السلام ـ على سبيل المثال ـ يعود إلى هذه المدارس، في الوقت الذي قال فيه في الجاهلية والإسلام ما قال مما لا يتسع المجال لعرضه الآن[2].

قال الأستاذ سامي الجندي: «كان الأرسوذي متأثراً بالمسيح يتحدث دائماً عنه وعن رسله، والتففنا حوله عدة أشخاص يحدونا الرجاء في أن نكون مثل رسل المسيح تضحية وذوباناً في القضية، وصرنا نحلم بأكاليل الشهداء أكثر مما نحلم بغار المنتصرين، وبتنا نؤمن أن القضايا الكبرى تبدأ بالشهداء، وبعدهم يأتي الغزاة».

ويضيف: «لقد شرح لنا (نيتشه) وألّح على كتاب فيخته (خطابات إلى الأمة الألمانية) وتوسع وفصّل ودقّق، وطلب إليَّ أن أترجمه ففعلت...»[3].

---

(١) يوم ميسلون للأستاذ ساطع الحصري، ص٣٤٥.

(٢) راجع كتابنا: جذور الفكر القومي والعلماني.

(٣) جريدة الحياة العدد (١٢٣٤٦) تاريخ ١٤/ ١٢/ ١٩٩٦م في المقابلة الأخيرة مع الجندي التي نشرت بعد عام على رحيله رحمه الله.

فإذا أضفنا إلى مدارس الإرساليات ـ بوصفها مدارس حديثة أصابت حالة الركود الثقافي السائدة وأساليب التعليم القديمة بصدمة شديدة ـ إذا أضفنا إليها (**المدارس الحديثة**) أيضاً التي تم افتتاحها في ظل الوصاية الفرنسية، ولاحظنا أن هذه المدارس كانت تعكس على وجه العموم التوجهات العلمانية في الكتب الدراسية ومناهج التعليم؛ أدركنا معنى وسبب سريان الفكر القومي والعلماني بين المتعلمين والمثقفين.

وفي الوقت الذي عبرت فيه القومية عن نفسها في نطاق الإرساليات أولاً، وفي ظل الرعاية الأجنبية عموماً، في منتصف القرن التاسع عشر[1]؛ فإن نطاقها قد اتسع بعد ذلك حين أحكم (الاتحاديّون) سيطرتهم على الدولة العثمانية في نهاية العقد الأول من هذا القرن عقب خلعهم للسلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله عام ١٩٠٩م، وشروعهم في سياسة التتريك ـ أي محاولة صبغ جميع شعوب الدولة أو الإمبراطورية بالصبغة التركية ـ بكل ما حملته هذه السياسة من ردّة وسفاهة وتآمر على العروبة والإسلام.

وقد أشار الشريف حسين أمير مكة في أكثر من مناسبة إلى أن أعمال الاتحاديين لم تعد تحتمل التأويل في دلالتها على استخفافهم بالإسلام وحربهم عليه، حتى توجّت بحركة مصطفى كمال أحد

(١) راجع كتاب يقظة العرب تأليف جورج أنطونيوس، ترجمة الدكتور ناصر الدين الأسد والدكتور إحسان عباس الصفحات ٧١، ٩٧، ١٤٩ الطبعة السابعة.
وانظر كتابنا: جذور الفكر القومي والعلماني.

رجالاتهم الذي لقب نفسه (أتاتورك) ـ أي أبو الأتراك ـ و(إصلاحاته)! . الدينية أو الثقافية التي طالت ـ في أحقادها وردة فعلها ـ حتى الحرف العربي والأذان بالعربية. . فضلاً عن (علمانيته) التي كانت في جانبها النظري أقرب إلى الإلحاد، وفي جانبها التطبيقي أقرب إلى محاكم التفتيش! وقد عرفت حركته في بلاد الشام ـ آنذاك ـ بالحركة الكمالية، وأتباعه أو أنصاره بالكماليين[١] .

وعلى الرغم من تعدد مفاهيم القومية ـ العربية ـ في بلاد الشام في مرحلة النشأة أو التوسع هذه مع غلبة المضمون الإسلامي إلى حد كبير؛ فإن صلتها بهذا المضمون بدأ يضعف مع الروح العلمانية التي أشاعتها المدارس المشار إليها ـ وما تقدمها ومشى في ركابها من البعثات العلمية والثقافية ـ وبعد وقوف (العلماء) ـ أو القادة الدينيين ـ موقفاً سلبياً من أفكار الكواكبي العروبية، والإسلامية والإصلاحية على سبيل المثال ـ بل من إصلاحات محمد عبده ودعوة جمال الدين ـ ومع اعتقاد الكثيرين أن العروبة والدعوة القومية سوف تمزق الرابطة العثمانية! علماً بأن هذه الرابطة قد مزّقها (الاتحاديّون) شر ممزّق حين انحدروا من السياسة العثمانية الإسلامية إلى السياسة القومية الطورانية. . أي (الجاهلية) التي اتخذت من (الذئب الأغبر) الذي كان معبود الأتراك قبل دخولهم في الإسلام شعاراً لهم! .

---

(١) راجع مقالة للأستاذ السباعي بعنوان: الدعاية الكمالية في سورية: مجلة الفتح السنة ١٣ العدد (٦٣٤)، بتاريخ ٧ من ذي القعدة ١٣٥٧هـ (١ كانون ثاني/ يناير ١٩٣٩م).

بل يمكننا القول إذا أعدنا النظر في خارطة الأحزاب السياسية التي سبقت الإشارة إليها: إن تجاوز الإسلام صار كأنه قَدَرٌ واحد أو قَدْر مشترك! بين هذه الأحزاب، وذلك على النحو التالي:

١ ـ لقد تجلّى هذا التجاوز في أحزاب الطليعة أو أحزاب الجيل الجديد! وصار قدراً مشتركاً بين دعاة القومية (السورية) كما تجلّت في دعوة أنطون سعادة، ودعاة القومية (العربية) كما تجلت في طروحات زكي الأرسوذي بشكل بارز، وكتابات ميشيل عفلق بوجه من الوجوه أو بشكل من الأشكال! مع الإشارة إلى النشاط الملحوظ الذي أبداه الأرسوذي في هذه الحقبة على وجه الخصوص.

وربما كان المدخل إلى فهم أو تفسير هذه الحالة: رد الفعل على الحقبة العثمانية ـ الإسلامية ـ ومحاولة التعفية عليها أو الانتصاف منها، ومن هنا كان هذا التنوع أو الاختلاف بين التطلعات الدينية لأنطون سعادة، والمذهبية للأرسوذي، وبحيث اقتصر الأول على الدائرة السورية، وتوسع الآخر إلى الدائرة العربية. . . ونعتقد في هذا السياق أن الإحباط الذي أصاب الحركة العربية ـ أو الثورة العربية ـ والتراجع الذي تم في شعاراتها عن المملكة العربية إلى المملكة السورية: ساعد إلى حد كبير في غلبة القومية السورية في المرحلة الأولى ـ بغض النظر عن طموحات سعادة (الدينية) ـ حتى وجدنا الكثيرين من دعاة القومية العربية أو الذين انتهوا إلى الفكر القومي العربي قد بدؤوا حياتهم أو نشاطهم الفكري في نطاق القوميين السوريين.

٢ ـ أما الأحزاب الأخرى، وبخاصة الكتلة الوطنية التي كانت في سدة الحكم، فإن توجه زعمائها ـ وزعماء الحركة الوطنية عموماً ـ نحو العمل السياسي أفضى بهم إلى صورة قريبة من وضع أحزاب الجيل الجديد، لأن استغراقهم في هذا العمل كما أسلفنا لم يتسبب فقط في عدم عنايتهم بالجانب الفكري، أو الجانب الثقافي/ الديني؛ بل لأن صلتهم بهذا الجانب كانت (علمانية) أو من ذلك النوع المعهود في فرنسة ذاتها أو في المناخ (العلماني) السابق. ويبدو لنا أن سياسة التقسيم والسياسة الطائفية التي مارستها فرنسة ـ والتي أشرنا إليها فيما تقدم ـ جعلتهم يتخوّفون من البعد الطائفي إن هم تحدثوا في الإسلام أو دافعوا عن الدين! ومن المفارقات في هذا السياق أن هذه الطوائف كانت تعبر في الوقت نفسه عن طموحاتها أو آمالها الفكرية والثقافية كما أشرنا قبل قليل.

وكانت النتيجة لهذا كله أن جمهور المثقفين والسياسيين باتوا في موقع واحد بعيد عن تطلعات الشعب وهموم الأمة، خصوصاً وأن الدين كان الدافع لسوادها الأعظم لمقاومة الاحتلال وللجهاد والاستشهاد، حتى باتت مواقف السياسيين أو الزعماء الوطنيين تستعصي على الفهم والتفسير!! فالصحف السورية بأجمعها ـ على سبيل المثال ـ قامت بالدعاية للكماليين لمناسبة موت مصطفى كمال (أتاتورك)! «فسوَّدت الصحائف الطوال بتزويق تاريخه وتعداد إصلاحاته» كما يقول مصطفى السباعي الذي أضاف: «وتناست ـ هذه الصحف ـ ما يخالفنا به في ديننا

وقوميتنا. وآخر ذلك إساءة حكومته إلى الشعب السوري في قضية الإسكندورن، تناسوا هذا وأغفلوا ما يوجبه عليهم الدين والوطنية والمصلحة العامة من الكف عن تزويق المناقب لجماعة وقفوا من الإسلام موقفاً سيحاسبهم الله عليه، وسيلقون منه جزاءهم كما يستحقون. وأساؤوا إلى الوطن باقتطاع جزء غالٍ من أراضيه اعتماداً على قوة السلاح وغدر الأوصياء من الأوروبيين المستبشرين الشامتين بما كان للإسلام على أيدي الكماليين»[1].

بل إن واحداً من أبرز أعضاء الكتلة الوطنية - من دمشق - وهو الدكتور عبد الرحمن الشهبندر هوّن - في مقالٍ له - من شأن الرابطة الدينية بدليل أن «كمال أتاتورك رغم موقفه من الإسلام لا يزال كثير من المسلمين المتنورين!! يعجبون بإصلاحاته!!، ويغتفرون له ما فعل في

---

(١) مجلة الفتح العدد (٦٣٤)، ص٦ في ٧ ذي القعدة ١٣٥٧هـ. وانظر تلخيصاً وافياً لقضية لواء إسكندرون ومراحل تطورها حتى انتهت إلى ما انتهت إليه في مقالة للسباعي في مجلة الفتح العدد (٦٣٣) في ٣٠ شوال ١٣٥٧هـ وقد عرض لها في أكثر من مقالة من هذه المقالات رحمه الله. ومن العجيب - بهذه المناسبة - أن ما فعلته تركية الكمالية بهذا الجزء السليب من الوطن السوري كان إحدى حجج القوميين في توهين الرابطة الإسلامية أو التهوين من شأنها، بحجة أن تركية دولة إسلامية! علماً بأن الكماليين كانوا يكرهون الإسلام والعروبة جميعاً، وأن علمانيتهم - التي لم تكن بعيدة عن القوميين أنفسهم بأي مفهوم كان! - كانت أقرب إلى الإلحاد، إن لم تكن تحمل أسوأ صور الإلحاد والطعن على الإسلام خاصّة.

سبيل رقي بلاده وتحريرها من كل ما يعوق نهضتها!» كما أنه كتب بعد موت أتاتورك مقالاً آخر أبدى فيه إعجابه الشديد بشخصية الراحل وخطواته الجريئة في تحرير أمته من قيود الرجعية!![1].

يقول الأستاذ السباعي: «وهؤلاء الذين يرددون أساليب الاستحسان لنهضة الكماليين يعلمون تمام العلم أن تركية تطمع منذ زمن بعيد في بلاد الشام وترغب في تجريدها من قوميّتها وإسلامها، وأن الاستيلاء على الإسكندرون مقدمة لهذا، وأن أي مدح أو ثناء على الكماليين ونهضتهم! سيكون من أمضى الأسلحة التي يتذرّعون بها للوصول إلى ما يريدون».

ويضيف: «فإن لم تدفعهم العقيدة إلى تذكير الأمة بما أساء به أولئك الطامعون في البلاد إلى دينها، فلتدفعهم الوطنية التي يتبجحون بها إلى تذكير الأمة بما أساؤوا به إلى وطنها وكرامتها، وإن لم يحملهم هذا ولا ذاك على ذكر مساوئهم وعيوبهم فليعذرونا إذا اعتبرناهم سماسرة يتجرون بالوطنية على حساب هذا الشعب المسكين»[2].

ويبدو أن صدمة الجمهور بموقف الحكومة الوطنية من المسألة الدينية أو من (الوضع) العلماني المشار إليه كانت شديدة؛ يقول الأستاذ السباعي: «وشاء الله أن ينتهي كفاح سورية السلبي بمعاهدة وقع عليها

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

ممثلو سورية وفرنسة، ورضيتها سورية بعيوبها رجاء أن تتولى شؤونها حكومة دستورية تحت إشراف (الكتلة الوطنية) التي انتهت إليها ثقة الأغلبية العظمى من جمهور الأمة.

وتسلَّم رجال الكتلة الحكم فتقدمت إليهم الأمة بمطالب منها: جعل التعليم الديني إجبارياً في جميع أدوار التعليم، وإصلاح الأوقاف الإسلامية، وإنشاء كلية دينية يتخرج منها القضاة والمفتون، وإصلاح القضاء الشرعي إصلاحاً يتفق مع مكانته في نفوس الأمة، فأجابت الحكومة الوطنية على هذه المطالب بالوعود المعسولة، والخطب المملوءة بالغيرة على الدين وأهله...»[1]!! أي بالكلام.

وكانت الصدمة الأشد حين تبين أن الحكومة كانت على علم بنظام الأحوال الشخصية للطوائف المشار إليه في الفقرة السابقة، بل إنها شاركت في وضعه؛ فقد طلبت المفوضية الفرنسية منها إرسال مندوبين ليشتركوا في سَنِّه ووضع موادّه، فأرسلت السادة: نعيم الأنطاكي مدير الخارجية السابق، وعارف نكد مدير العدلية، وعبد الرحمن الكيالي وزير المعارف والعدلية السابق! فاشتركوا مع المندوبين الفرنسيين في وضع ذلك النظام الممقوت الذي أثار حفيظة المسلمين من أقصى البلاد إلى أقصاها.

وبغضّ النظر عن مدى معرفة هؤلاء بالشريعة وأحكام الإسلام - علماً بأن الأول مسيحي - فإن الثاني هو (بطل القانون الذي تقدمت به

---

(١) مجلة الفتح العدد (٥٧٦) في ١٥ رمضان ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م.

الحكومـة السورية للإسراع في القضاء على المحاكم الشـرعية). أما الثالث فكان صاحب موقف سلبي معروف من التعليم الديني والبعثات العلمية للأزهر. يقول الأستاذ السباعي:

«فإذا كان هؤلاء هم الذين وكل إليهم الاشتراك مع الفرنسيين في وضع نظام يتعلق بدين البلاد وعقائدها وأحوالها الشخصية، فماذا تنتظر أن يكون هذا النظام؟ وكيف نرجو أن يقف هؤلاء موقف المدافعين عن دين الأمة وعقائد أبنائها أمام الفرنسيين الطامعين في نقض بناء الإسلام في بلاد الشام كما أرادوا أن ينقضوه في المغرب؟»[1].

وأسوأ من هذا أن رجال الأحزاب ـ أو بعضهم على الأقل ـ كانوا «يتخذون الدفاع عن الدين وسيلة للنيل من خصومهم، حتى إذا تمكنوا من الحكم كانوا أشد منهم عدواة له ونيلاً من كرامته»، يقول السباعي: «وهذا سلاح خطير جداً وإن أفاد الدين في بعض الأحيان، لكنه يخلق في النفوس شكاً في كل من يدافع عن الدين من رجال السياسة والحكم، من غير تفرقة بين المخلصين والمهرّجين!» ويضيف قائلاً:

«وهذا هو ما حدث أخيراً من رجال بعض الأحزاب في حمص، فإنهم ما كادوا يرون النقمة عظيمة جداً على نظام الطوائف حتى استغلوا هذا الشعور البريء فدعوا الناس إلى إقفال المتاجر وتعطيل الأعمال والتظاهر احتجاجاً على ذلك النظام، فاستجاب الناس نداءهم وقاموا

---

(١) مجلة الفتح السنة ١٣ العدد (٦٤٥) تاريخ ٢٥ المحرم ١٣٥٨هـ (١٩٣٨)م.

بمظاهرات عظيمة أزهقت فيها روح شاب طاهر بريء، وجرح ما يزيد على مئة وعشرين من قوى الحكومة والأهلين. وسرعان ما تبين للناس ـ والأسى يملأ قلوبهم ـ أن الغرض الحقيقي للمحرِّضين هو تعكير صفو الأمن وحمل الحكومة على الاستقالة لأغراض حزبية معلومة!..».

وقال رحمه الله: «وبلغني أن كبيراً من زعماء المعارضة في دمشق أخذ يشنّع في المجالس حين كانت أزمة الطوائف مشتدة أن الحكومة أخطأت كل الخطأ في عدم الرجوع إلى العلماء قبل إقرار النظام، وأنه لو كان هو في الحكم وطلب منه الفرنسيون إرسال مندوبين يشتركون في وضع القانون لما استشار إلا علماء الدين، ولما أناب إلا من يرضونه منهم! أجل هكذا قال ذلك الرجل، وهو هو الذي قال لي حين كان في مصر وكنت أتباحث معه في شأن الوحدة الإسلامية والوحدة العربية: «إن الواجب علينا إرضاء الأقليات كيفما كان، حتى لو طلبوا منا أن نجعل العطلة الرسمية للحكومة والمدارس يوم الأحد بدلاً من الجمعة لفعلنا، ولو طلبوا أن يكون التعليم في المدارس علمانياً (لا دينياً) لأجبناهم إليه بلا تردد» فقارن بين هذا القول وبين ما سبق، ثم قل: رحمة الله على أخلاق الرجال في هذا الزمان»[1].

هذا، وقد اجتمعت مسائل كثيرة تركت انطباعاً عاماً عند الناس أن حكومتهم الوطنية لم تكن عند حسن الظن بها من الوجهة الدينية! ونشير

---

(١) المصدر السابق نفسه.

من هذه المسائل ـ على سبيل المثال ـ إلى **محاولة إلغاء القضاء الشرعي تدريجياً، وإلى حلّ الأوقاف الأهلية، وأخيراً إلى المشكلة التي أثارها السيد ميشيل عفلق** الذي كان يدرّس التاريخ الإسلامي في مدرسة التجهيز الأولى ـ أو ثانوية دمشق ـ وذلك بالمعنى القومي ـ الجاهلي ـ الذي فسّر به الرسالة المحمدية، وبما قاله حول حركة الفتوح ـ العربية ـ التي انطلقت من الجزيرة العربية تحت راية الإسلام.. إلى غير ذلك من المسائل التي ألقاها على مسامع الطلاب، والتي حملت الأستاذ الشيخ علي الطنطاوي على وصفه ـ بهذه المناسبة ـ بأنه «مسيحي شيوعي لا يؤمن بدين ولا يقرّ بإلـه»! في حين اتهمه الأستاذ السباعي بأن ما قاله لم يكن أكثر من ترديد لافتراءات بعض المستشرقين المغرضين! وتعكس حدّة المقالة التي كتبها الأستاذ السباعي ـ بالإضافة إلى الاتهام الطنطاوي المشار إليه ـ مدى الصدمة العامة التي أحدثتها آراء ميشيل عفلق، حتى إن الحكومة تدخلت ومنعته من التدريس، وأسندت تدريس التاريخ الإسلامي إلى أستاذ مسلم[1].

---

(١) هو الأستاذ عبد الوهاب الأزرق. ولكن سرعان بعد ماهدأت العاصفة أن أزاحته وعينت أستاذاً لبنانياً هو السيد عارف العارف، الذي وُصف باختصار بأنه: (ربيب اليسوعيين وصديق للمستشار الفرنسي)، قال الأستاذ السباعي في مقالة أخرى مهمة: «إن البلاد عانت في عهد الاحتلال من وزارة المعارف نكبات لا تزال آثارها ماثلة في أخلاق الشباب وعقائدهم، فلما تنسّمت الأمة نسيم الحرية أهابت برجالاتها الذين أولتهم الحكم أن يحوّلوا دفّة المعارف إلى وجهة هي أقرب إلى المحافظة على الأخلاق والوفاء للإسلام من أي =

قال الأستاذ السباعي: «دعونا من التعصب للدين والتعصب للقومية، أفلا تتعصبون للحق والتاريخ، مطلقاً من أي اعتبار.. لو أن هذا الجاهل الدساس قال ما قاله عن بحث وتحقيق لكان هنالك مجال للاعتذار عنه بأنه بحث فأخطأ، ولكنه هو وأشباهه إنما يتخبطون في مثل هذا الهذيان ترديداً لافتراءات بعض المستشرقين المغرضين على الإسلام...»[1].

في مثل هذه الأجواء بدأت الثقافة الدينية، (التقليدية) السائدة أو الموروثة من العهد العثماني تتلمس طريقها إلى التجديد، وبدأت (الدعوة) الإسلامية خطواتها في المقاومة والإصلاح.. وهكذا بدأت المؤسسات الأهلية محاولات النهوض بما تخلّت عنه الحكومات أو بما تدعو إليه الحاجة. كما سنرى عند الحديث عن السباعي الداعية رحمه الله.

= وجهة أخرى. فنحن نسأل وزارة المعارف ونريد أن تجيبنا بكل صراحة: هل من الوفاء للإسلام أن يدرس تاريخه ميشيل عفلق، فيطعن في الإسلام ونبيّه وصحابته بما هو كفيل بتقديمه إلى محكمة الجنايات في كل قانون من قوانين العالم، ثم لا يكون من وزارة المعارف إلا أن تنقله من وظيفته إلى وظيفة أخرى؟ ثم تعمد إلى آخر أخبث منه طوية وأعمى قلباً ليخلف ميشيل عفلق في وظيفته، متسترة بما يحمله من اسم إسلامي مزّيف» مجلة الفتح العدد (٥٩٠) تاريخ ٢٣ من ذي الحجة ١٣٥٦هـ.

(١) راجع مجلة (الفتح) العدد (٥٨١) في ٢٠ شوال ١٣٥٦هـ-١٩٣٧م.

وأخيراً فإن القضيــة الفلســطينية ـ وأعرض لها هنـا من الوجهـة الثقافية ـ إذا كانت قد دخلت في طور حاسم مع قرار التقسيم والحرب وتوقيـع اتفاقيات الهدنـة، فإن الفترة الممتدة ما بيـن عامي ١٩١٩م و١٩٤٨م قد شـهدت ذهولاً عن أبعاد هذه القضيـة، ومدى خطورتها على حاضر العرب والمسلمين ومستقبلهم ـ خصوصاً في ظل الاستعمار الفرنسـي ـ بل شهدت ذهولاً عن طبيعة الحركة الصهيونية في المناخ القومي السائد، حتى إن بعض القادة بشّروا بالتعاون بين القوميتين أو الحركتين الصهيونيـة والعربيـة، وربما كان ذلك محاولـة جديدة لكسب الغرب بعد أن قام بخيانة الحركة العربية في اتفاقيات (سايكس ـ بيكو) التي تحدثنا عنها، وما تبعها من الزراية بكل مطامح العرب في الوحدة والاستقلال[١]. . ويفسر هذا من بعض الوجوه: الجهد الخارق الذي بـذلـه مصطفـى السبـاعـي للتعـريـف بـالقضيـة الفلسطينيـة، والجهـاد الموصـول الدائم الذي لم ينقطـع ـ على كل صعيد ـ في سـبيلها كما سنتحدث عن ذلك فيما بعد.

لقد توصلت الحركـة الصهيونيـة في أواخر العهد العثمـاني «إلى إيجاد التعاون في بعض المناطق بين ممثلي الحركتين في انتخابات عام ١٩٠٩م إلى مجلس المبعوثان، وإلى قبول المؤتمر العربي الأول الذي

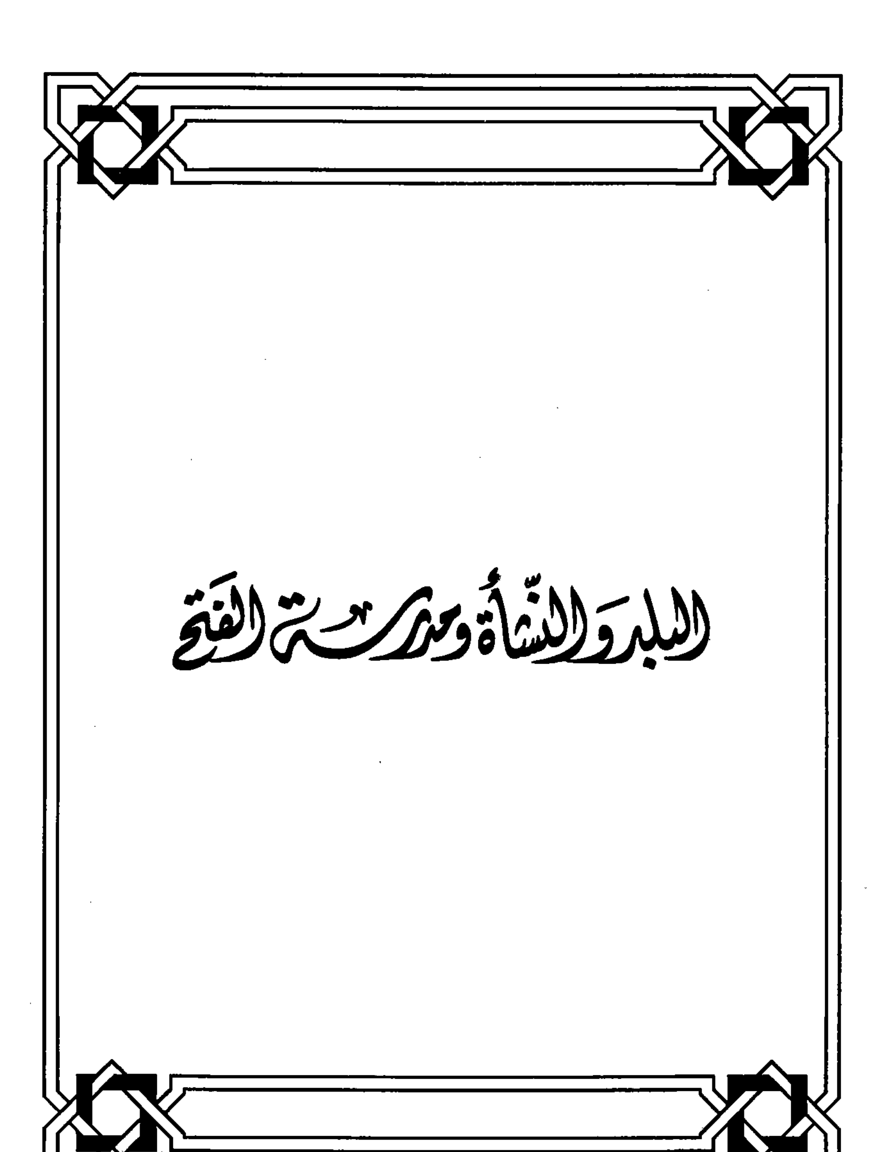
---

(١) انظر نص المذكرة التي قدمها الأمير فيصل إلى مؤتمر الصلح الذي عقد في باريس في أعقاب الحرب العالمية الأولى، د. ذوقان قرقوط: المشرق العربي في مواجهة الاستعمار، ص٤٩ فما بعدها.

عقد في باريس عام ١٩١٣م بحضور ممثل الحركة الصهيونية حيث نجح في إقناع المؤتمرين بعدم التعرض للهجرة اليهودية إلى فلسطين»[١].

* * *

(١) المصدر السابق، ص٤٦؛ وراجع ص٢٢.



البلد والنشأة ومدرسة الفتح

البلد والنشأة ومدرسة (الفتح)

ولد مصطفى السباعي بمدينة حمص عام ١٣٣٤هـ ـ ١٩١٥م، وحمص في أوهام الناس أو في أمثالهم التي ترددت يوماً بين الجد والهزل، قبل أن تصير إلى الهزل الذي لا جدّ فيه: بلد الغفلة! ويبدو أنها قد وصفت بذلك أول ما وصفت خروجاً مما رماها به ياقوت ـ الحموي ـ من الحماقة، وقد علّل ذلك بفساد هوائها وتربتها اللذين يفسدان العقل!! على حد قوله[١].

وإذا كان هذا التعليل في ميزان العلم ليس بصحيح، بل هو إلى الجهل أقرب، فلم يبق إلا أنها تهمة (حموية) أو تحامل حموي.. من ذلك التحامل المعهود بين هاتين المدينتين: حمص وحماه.. وإن كان هذا التحامل بدوره دخل في باب المزاح في نهاية المطاف.

وقد أشار الأستاذ السباعي نفسه رحمه الله إلى طبائع بعض المدن السورية. فقال إن طابع دمشق: الدماثة والاستئثار، وطابع حمص: الصفاء والإيثار، وطابع حماه: الحمية واللدد.. إلخ وعلّق قائلاً: إن

---

(١) معجم البلدان: ٢/ ٣٠٤، دار صادر ١٩٨٤م.

(البساطة) هو التعبير الصحيح عن وصف الحمويين للحمصيين تحاملاً بالغفلة (أو الجذبة) وإن (اللدد) ـ أي العنف في الخصومة ـ هو التعبير الصحيح عن وصف الحمصيين للحمويين بالحقد أو اللؤم[1].

أما سائر ما ذكره ياقوت عن أهل حمص من أنهم كانوا أشد الناس على عليّ رضي الله عنه يوم صفّين، فلما (انقضت تلك الحروب، ومضى ذلك الزمان صاروا من غلاة الشيعة)! فإننا لا نعلم له سنداً من التاريخ أو الواقع. وإن صح فليس فيه أكثر من الدلالة على عاطفتهم الشديدة وسرعة تأثرهم! ولا يبدو أن ذلك من باب البساطة أو التقلب، وهما الوصفان اللذان وصف بهما الأستاذ السباعي: اللاذقية.. وليس في وسعنا تأكيد هذا أو مناقشته في هذا السياق.

ولعل (حمص) التي بالأندلس أدلّ على طبيعة أهل حمص الشام؛ قال ابن بسام: دخل جند من جنود حمص إلى الأندلس فسكنوا إشبيلية فسميت بهم، وكان بنو أمية قد سموا عدة مدن بالأندلس بأسماء مدن الشام؛ قال محمد بن عبدون يذكر حمص الأندلسية هذه:

هل تذكر العهد الذي لم أنسه ومودة ممزوجة بصفاء
ومبيتنا في أرض حمصٍ والحجى قد حُلَّ عقدُ حُباه بالصهباء
ودموع طل الليل تخلق أعيناً ترنو إلينا من عيون الماء!

ليست المودة والعاطفة والخيال وحب الجمال في حمص

(١) هكذا علّمتني الحياة ـ القسم الأول، الفقرة رقم (٨٧١).

الأندلس بعيداً عن حمص الشام. . . علماً بأن إشبيلية سكنها جند من جنود حمص وليس قوماً من الأدباء والشعراء!

وأيّاً ما كان الأمر فقد كان السباعي رحمه الله مفطوراً على الصدق والصراحة ورهافة الحس وقوة العاطفة. . بل إن هذه القوة حين التقت بعزيمة الإيمان وقوة الاعتقاد، فجّرت في نفس الشيخ رحمه الله أقصى درجات الحماسة والثورة ضد المستعمرين والطغاة والمستبدين، في الوقت الذي كانت تنكسر هذه النفس وتدمع عيناها لمنظر من مناظر البؤس والفاقة. . حتى لكأن البطل الثائر يرنو إلى الدنيا بعيني شاعر. ويبدو أن صفاء النفس وقوة العاطفة لم يحتجبا في أي مرحلة من مراحل حياة الشيخ رحمه الله. . ولكنهما عادا في أيام مرضه الأخيرة ليظهرا كأشد ما يكون الظهور على صفحة تلك النفس الكبيرة. . كما تهدأ الأنهار العظيمة وتترقرق مياهها بين يدي دخولها في البحار بعد صخبها وتدافعها في منابعها ومسيرة رحلتها بين الجبال والوديان. . . وهي في كلتا الحالتين مياه صافية عذبة كما تفجرت من صخور المنبع لم تغير الرحلة الطويلة من صفائها وعذوبتها من شيء!.

الأسرة:

السباعي سليل أسرة عريقة وبيت علمي منذ مئات السنين، كان أجداده يتولون الخطابة في الجامع الكبير بحمص جيلاً بعد جليل، وكان لأبيه مجالس علمية مع لفيف من فقهاء المدينة يجتمعون فيها و(يتدارسون الفقه ويتناقشون في أدلة مسائله) على تعدد مذاهبهم. يقول

الشيخ: «وكان أبي رحمه الله يحضرني معه هذه الحلقات على صغر سني مما حبّب إليَّ هذه الأجواء» ويضيف: «حتى إذا تهيأت للدراسة العلمية وجهني إلى دراسة علوم الشريعة، وبخاصة دراسة الفقه المقارن ومسالك الأئمة في اجتهادهم»[1].

وندع السباعي يحدثنا عن أبرز صفات والده التي تركت أكبر الأثر في حياته واتجاهاته على أكثر من صعيد. والواقع الذي تنبئ عنه حياة الابن أنه ورث تلك الصفات من أبيه وتربّى عليها حتى صارت أبرز صفاته هو. وكأنه يتحدث عن نفسه رحمهما الله تعالى.

قال عن والده: «وكان يرحمه الله قوي الشكيمة مع أعداء البلاد، مسارعاً إلى الجهاد.. مؤيداً للحركات الوطنية قولاً وعملاً. ولا أزال أذكر وأنا ابن ست سنين كيف رأيته مع أكثر علماء حمص ـ وهو أصغرهم سناً ـ يطوفون في شوارع المدينة وأسواقها وقد تمنطقوا بأحزمة الرصاص، وبأيديهم البنادق، يمشون على مهل صفوفاً منتظمة، مكبّرين مهلّلين، داعين الشعب إلى مقاومة الإفرنسيين حين اقتربوا من حمص عند احتلالهم لسورية، وقد تقدمهم الشيخ عبد الغفار عيون السود... فاستجاب الناس إلى دعوتهم للجهاد. واشتروا السلاح والذخيرة، واستعدوا لمقاتلة الجيش الفرنسي الذي كان قادماً من طريق طرابلس. ولا أزال أذكر تلك الليلة التي غاب فيها أبي عن البيت ليخرج مع المجاهدين، وكيف سهرنا

---

(١) مجلة حضارة الإسلام ـ دمشق، العددان السادس والسابع ـ كانون الأول وكانون الثاني ١٩٦١م.

الليل كله مع أخي نسمع أزيز الرصاص وطلقات المدافع. وأمي تضمني وأخي إلى صدرها وهي تدعو الله أن ينصر المجاهدين».

ويضيف: «ولما نشبت الثورة السورية في حمص عام ١٩٢٧م كان والدي رحمه الله يجتمع بكثير من الثوار سراً في بعض البيوت ليسلمهم ما جمع لهم من إعانات مع بعض إخوانه. وكان يرسل معي إلى بعضهم جريدة المقطم التي كانت تنشر أنباء معارك الثورة بالتفصيل وكان الفرنسيون قد منعوا دخولها. . .».

هذا طرف من حديث الأستاذ السباعي عن روح الجهاد التي كانت تسري في بيته، ويشهد واقعها في أسرته وبلده. . . وقد تحدث كذلك عن تحدي والده ـ بعد ذلك ـ للأحكام العرفية التي فرضتها فرنسة وللمستشار الفرنسي في بعض حوادث الإضراب التي شهدتها حمص.

أما الصفة الثانية فحب الخير والإسهام في تأسيس الجمعيات الخيرية ورعاية الأيتام، وفي جمع الأموال والتبرعات لأصحاب الفاقة، يقول الشيخ: «ولما حصل الإضراب العام ضد الفرنسيين في سورية عام ١٩٣٦م واستمر ستين أو سبعين يوماً أصابت العمال منها ضائقة شديدة، فألّف ـ أي والده ـ لجنة من إخوانه لجمع التبرعات لهم. . وطافوا على التجار فجمعوا من الأقمشة آلاف الأمتار، ومن الرز والسمن مقادير كبيرة وزّعت كلها على العمال المتضررين».

وأخيراً وصف الشيخ والده بأنه «كان يحب دعوة الإصلاح ويشجع عليها» قال: «وإني لا أذكر في حياتي التي قمت فيها بدعوة الإصلاح

ـ وقد بدأت ذلك في سن مبكرة ـ أنه انتهرني مرة أو ثناني عن طريقي، ولقد كان يستقبل سجني واعتقالي بهدوء. حدثني أخي الشيخ محمد الحامد أنه قابل أبي بعد اعتقالي في مصر في أوائل الحرب العالمية الثانية ونقلي إلى معسكر صرفند في فلسطين ـ وكان أبي لم يعلم بالخبر بعد ـ وأخبره بأمر اعتقالي فتبسم وقال: «لا بأس فالسجن للرجال!»[1].

ما كان لهذه الأسرة إلا أن تُعد الرجال وتخرج الأبطال! ولهذا فإن الأستاذ السباعي حين هبّ للجهاد على أرض فلسطين ـ وله من العمر ثلاث وثلاثون عاماً ـ لم يجد من والده سوى الدعاء بالنصر والتأييد في وقت كانت فيه (الجندية) مغرماً ثقيلاً لا يُسعى إليه بعد ما كان من أمرها في أواخر العهد العثماني ما كان! وهذا الموقف من الوالد الكريم يستحق التسجيل بقلم الابن الذي عاش يحمل روح الشهادة بين جنبيه طيلة حياته. قال رحمه الله:

«ولما قامت معركة فلسطين بعد قرار التقسيم عام ١٩٤٨م وهبَّت سورية مع البلاد العربية للتطوع في الحرب إلى جانب إخواننا أبناء فلسطين، كنت قد مررت بحمص عائداً من محافظات الشمال مع نفر من شباب الإخوان المسلمين بأسلحتهم وذخيرتهم ونحن في طريقنا إلى دمشق، فلم أخبر أبي بعزمي على الجهاد في فلسطين مع هؤلاء الشباب المؤمنين لخوفي من أن يحاول صرفي عن الجهاد معهم لما يعلم فيَّ من مرض (ارتفاع ضغط الدم) قد يؤدي ذهابي إلى فلسطين للقتال فيها إلى

---

(١) مجلة حضارة الإسلام ـ السنة الثانية، العدد السادس والسابع ١٩٦١م.

تفاقمه وخطره على حيـاتي. واتفق أن أصرّ أحـد إخواني الصغار على التطوع في هذه القافلة فلم يستطع والدي إقناعه بأنه صغير لا يصلح لذلك، وتابعنا سيرنا إلى دمشق، وفي اليوم الثاني قرأ والدي في بعض صحف دمشق أني سأذهب على رأس تلك القافلة إلى فلسطين. فحضر إلى دمشق من حمص وسألني عن صحة الخبر فأجبته بأنه صحيح.

ففكر قليلاً ثم قال: ألا ترى أن سفرك يعرض حياتك للخطر دون أن تقاتل فكيف إذا قاتلت؟ قلت له: أنت تعلم يا أبي أن الآجال بيد الله، ولأن يموت الإنسان شهيداً خير من أن يموت مريضاً! فقال: إني لا أحاول أن أثنيك عن الجهاد، فوالله لو كنت مستطيعاً القتال لكنت أول من يقاتل معكم، ولكنك تعلم أن أخاك صغير، وأمك لا تتحمل أن تذهب أنت وأخوك معاً إلى فلسطين لتقاتلا، فهلا نصحت أخاك بالعدول عن السفر معكم؟ قلت له: فعلت فلم يستمع، فما تمالك أن فاضت من عينيه دمعتان، ثم قال لي: سلمتكما إلى الله، والله يحفظك وإخوانك المجاهدين، أيدكم الله وأعانكم. ثم عاد إلى حمص»[1].

محب الدين الخطيب ومدرسة (الفتح):

لم تعد أبرز صفات الشيخ بعد هذه النشأة تحتاج إلى بيان، ولكن الإحاطة بهذه الصفات ومحاولة فهم منابعها في نفسه لا يكمل فيما نقدر دون الإشارة إلى مدى تأثره بمجلة (الفتح) وشخصية صاحبها السيد

---

(١) مجلة حضارة الإسلام ـ السنة الثانية، العدد السادس والسابع ١٩٦١م.

محب الدين الخطيب، لأن هذا التأثر فعل فعله على نحو قريب أو مماثل للأسرة المجاهدة النبيلة. . . بل جاء مكملاً له ومضافاً إليه في الوقت المناسب. . فقدح في نفسه الشرارة في الوقت الذي كان ما يزال في بداية طلبه العلم يحاول ملء الوعاء. . وهذا سر نهوضه بأعباء العمل العام في سنٍّ مبكرة جداً لم تكن تتجاوز الثلاثة عشر ربيعاً!.

كتب في عام ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م يقول:

«لا أعرف أن لأحد فضلاً عليَّ فيما أجده في نفسي من غيرة على الإسلام وحمية في الدفاع عنه، وآلام بالغة مما وصلت إليه حالة المسلمين، إلا لرجل واحد أحببته قبل أن أراه، ثم لم تزدني معرفتي به إلا حباً فوق حبي له، وإكباراً لا يدانيه إكباري لأحد من رجالات المسلمين اليوم. ذلك هو المسلم الذي فهم الإسلام حق فهمه، وخدمه حق خدمته: الأستاذ محب الدين الخطيب.

«منذ بضع سنوات كنت أتلقى العلم في إحدى دور العلم في مدينتي (حمص) وكان شأني كشأن إخواني من طلبة العلم لا نعلم عن الإسلام إلا أنه دين لا يتبعه المسلمون اليوم، ولا نعلم عن المسلمين إلا أنهم في ذلة واستكانة، ولا نقرأ من الصحف إلا الصحف السياسية ذات الغايات المختلفة، أما الصحف الإسلامية فما كانت أيدينا تصل إلى شيء منها إذ لم تكن قد خلقت بعد! فكنا في عزلة تامة عن العالم الإسلامي: لا نعلم من حوادثه إلا ما تتكرم به علينا صحفنا السياسية بعد أن تلوّن تلك الحوادث باللون الذي تشاؤه. وحسبك أننا كنا نعد أعمال الكماليين في تركية إصلاحاً ونهوضاً! وأعمال أمان الله خان رقياً وتمدناً!

ونعجب كيف يثور الأفغان على إصلاحات مليكهم!».

وهنا تقع المفاجأة ويحدث التحول، يقول الفتى: «في هذه الفترة اطلعت على صحيفة (الفتح) وكانت في سنتها الثالثة[1]، فما تصفحتها حتى غدوت إلى إخواني أبشرهم بها، وكنت في فرحي كأنما هديت إلى شيء ثمين كنت أنشده منذ زمن بعيد، وفرح إخواني بالفتح كما فرحت، وغدونا نبشر به كل مجلس، حتى أصبح له أحباء كثيرون يكنّون له من الحب والحرمة أوفر نصيب».

ويضيف: «وما كدنا نتصل بالفتح حتى بدأنا نعرف واجبنا في الحياة كشبّان مسلمين. وأخذنا ندرك خطر ما يبيته الاستعمار من وسائل الكيد للمسلمين. وتأجّجت في أفئدتنا نار الحمية لدين الله، والنقمة على أعدائه، وشعرنا بأن الفتح هو همزة الوصل بيننا وبين أقطار الإسلام».

ووصف (الفتح) مرة بأنه «خادم الإسلام، ومحطم الأصنام.. وعدو الاستعمار، وخاذل الفتنة، وقاصم ظهور الملاحدة والمفتونين»[2].

ثم عاد لتأكيد جملة هذه المعاني وبيان المزايا التي اجتمعت في (الفتح) وجعلتها تفوز بإعجاب (الغيورين من شباب الإسلام وقادته) وذلك في مستهل عام المجلة الرابع عشر.. وكان مما قال: «ولا أزال

---

(١) أي في عام ١٣٤٧هـ-١٩٢٨م، وكان طالباً في مرحلة التعليم الإعدادي.

(٢) مجلة الفتح العدد (٥٤٣) في١٩ المحرم ١٣٥٦هـ.

أذكر كيف تفتحت عيناي لحقائق المجتمع الإسلامي بعد أن اتصلت بها، وكيف كانت تلاوتها تلهب في فؤادي حمية الشباب وعصبية الإسلام، فإذا أنا ثائر هائج، وإذا أنا بين جدران السجون تارة، وفي غرف التحقيق تارة أخرى. . .»[1].

فرح الفتى بمجلة الفتح وملكت عليه مشاعره عام ١٣٤٧هـ كأنما اهتدى إلى شيء ثمين كان ينشده من زمن بعيد. . ولكن أيُّ زمن بعيد هذا كان قد مضى عليه وهو لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره؟ وما الذي كانت تنشده هذه النفس الأبية من ذلك الزمن البعيد؟ اللهم إلا أن تكون قد فطرت على معالي الأمور، وأن تكون الثورة الكامنة فيها هبة من هبات الخلق والتكوين! **وهكذا جاء معول الفتح ليفجر النبع القريب بضربة واحدة!** فكان فتحاً جديداً مبيناً في دنيا العروبة والإسلام، ولهذا فإن السيد محب الدين لم يجد بأساً بأن يعهد لهذا الشاب بعد أن التحق بالأزهر طالباً في كلية الشريعة عام ١٣٥٢هـ بأن يكتب الكثير من (افتتاحيات) الفتح بدءاً من عام ١٣٥٤هـ وأن يكون من أبرز كتَّابها، بل أن يزيّن أحد أعدادها بصورة هذا الشاب البهيّ الطلعة الذكي النظرات بعمته وجبّة الشاميتين، وأن يكتب تحتها ما يلي: «الشيخ مصطفى حسني السباعي منشئ المقالات النفيسة التي نالت إعجاب أهل الفضل»[2]. رحم الله الأستاذ الخطيب فقد كان من هؤلاء.

---

(١) مجلة الفتح العدد (٦٥١) في ٨ ربيع الأول ١٣٥٨.

(٢) مجلة الفتح العدد (٥٥١) في ١٧ ربيع الأول ١٣٥٦هـ. ويبدو أنه بدأ يتردد=

أما تلك المقالات النفيسة حقاً، والتي استشهدنا بشذرات منها فيما تقدم ـ في المشهد السياسي والثقافي ـ فقد بدأها الشاب ولما يكمل العشرين من عمره رحمه الله.

سائر نشأته وحياته في حمص:

كان لهذا النبع رفد من أسرة عريقة ووالد كريم ـ أشرنا إليه ـ ورفد آخر من حفظ القرآن وطلب العلم، وإذا كانت بدايات هذا الرفد الثاني تمت على يدي والده نفسه قبل أن تؤهله سنّه للالتحاق بالمدرسة الابتدائية، فإنه ما لبث أن التحق بالمدرسة المسعودية. وهي مدرسة خاصة أسسها الشيخ طاهر الرئيس بالمدينة، ثم التحق بالثانوية الشرعية

= على (الفتح) بعد وصوله إلى مصر مباشرة، وقبل أن يبدأ الكتابة فيها بنحو عامين. فقد جاء في العدد (٣٧٢) في ٥ شعبان ١٣٥٢هـ حول البراءة من القاديانية ما يلي: «وقد زارنا في إدارة الفتح أثناء كتابة هذه الكلمات الشاب الفاضل السيد مصطفى السباعي من أدباء حمص، وأخبرنا أنه بالرغم من منع دخول الفتح إلى الديار الشامية فإن العدد الذي كنا نشرنا فيه مقاله (رابطة قاديانية لا رابطة إسلامية) وصل إلى هناك، وكان وصوله أثناء زيارة صاحب مجلة (الرابطة الإسلامية) مدينة حمص، فأطلعه شبابها على مقالة الفتح، وذكروا له أن الأحمديين أعلنوا اسم مجلته في عِداد مجلاتهم، فاعتذر بأنه لم يعلم أن الأحمدية هم القاديانية، وأنه خدع بدعواهم خدمة الإسلام، وأعلن براءته منهم ومن غلام أحمد القادياني، وكفّ من ذلك الحين عن نشر شيء للأحمدية».

(إعدادي وثانوي) وتخرج فيها عام ١٩٣٠م[1]. . وكانت نفسه الطلعة قد التقت بالفتح ومدرسة محب الدين الخطيب قبل ذلك بنحو عامين. . كما حدثنا هو رحمه الله. ولهذا فإننا نستطيع أن نقدر معنى كلماته عن الفتح إذا علمنا أن دراسته الشرعية التي كان قد قطع فيها أربع سنوات قبل التقائه بالفتح أتاحت له الفرصة للإلمام بمحاسن الإسلام وبطرف من الثقافة الإسلامية وعلوم الشريعة، قام بمقارنته بأوضاع المسلمين وبعدهم عن الشريعة. على الرغم من أن هذه العلوم تراثية أو يغلب عليها الطابع التراثي الذي توضَّع عليه المسلمون أو انحدر إليهم عبر عشرات السنين. ولكن فهم تلك الأوضاع أو تفسيرها على وجهها الصحيح لم يكن في وسعه أن يقف عليه وهو يتلقاه عبر الصحافة ـ السياسية ـ السائدة أو القائمة. . حتى إذا ظفر بمجلة الفتح وقع على ما كان بأمسّ الحاجة إليه. . ولهذا عبّر عن فرحه الشديد بهذه المجلة الرائدة بقوله الذي أشرنا إليه: «كأنما هديت إلى شيء ثمين كنت أنشده منذ زمن بعيد»!.

لعلَّ من نافلة القول أن نذكر هنا ما قيل عن شغفه بالمطالعة وعدم الاقتصار على كتب المدرسة ومناهج التدريس. . وعن مدى تقدير أساتذته ومعلّميه لهذه الموهبة الواعدة. . التي ما لبثت أن عبرت عن نفسها ليس بالنجاح الباهر والتفوق على الأقران على مقعد الدرس. . فحسب، ولكن بالانطلاق أيضاً في ميدان العمل العام. . خطيباً على منبر

---

(١) الأستاذ محمد بسام الأسطواني: مجلة حضارة الإسلام، ص١٢٦ العدد الرابع ١٣٨٤هـ.

أبيه في المسجد الجامع. . ومقاوماً للثقافة التبشيرية ومدارس المبشرين. . ومحرّضاً شديد المراس والتأثير على الاستعمار والاحتلال. . ليس فقط ضد سياسة فرنسة في بلده سورية. . بل كذلك ضد سياستها في المغرب العربي[1].

وبهذه المناسبة فإن الناظر في خطبه وأقواله. . بل المتتبع لسيرته وحياته سوف يلاحظ أن السباعي في مراحل حياته جميعاً، وبدءاً من هذه المرحلة المبكرة التي نتحدث عنها، كان يكافح في سبيل القضايا الوطنية والعربية والإسلامية، وأنه كان ـ على الدوام ـ رجل الوطنية والعروبة والإسلام. ويعكس هذا مدى فهمه لشمول الدعوة الإسلامية في وقت مبكر من جهة، ومدى تأثره الشديد بالأستاذ محب الدين الخطيب الذي احتلت العروبة والفكرة القومية ـ البريئة من أي معنى من معاني التعصب والجاهلية ـ مكاناً بارزاً في كتبه ومقالاته ومنهجه الإصلاحي، من جهة أخرى.

وقد انتسب السباعي في حمص إلى جماعة (الرابطة الدينية) التي أسسها بعض العلماء ـ وعلى رأسهم الشيخ محمود جنيد ـ رحمه الله ـ وقد ذكر هو ذلك بمناسبة حديثه عن المؤتمر الأول الذي عقده (شباب محمد) مما سنفصل فيه القول فيما بعد؛ قال رحمه الله: إنه لم يكن يعرف قبل هذه الجمعية ـ جمعية شباب محمد ـ سوى إخوانه جماعة الرابطة الدينية في حمص، قال: «وكنت وأنا في مصر على صلة بهم عن

---

(١) المصدر السابق، ص١٣٢.

طريق المراسلة»[1]، علماً بأن الأخ الزميل الفاضل الأستاذ محمد بسام الأسطواني الذي أوجز في مقالته الجامعة التي كتبها عن السباعي بعد وفاته، واستقى معلوماته من أسرة الشيخ وإخوانه ومعارفه، ذكر فيها أن أول عمل قام به السباعي في حمص كان «تأليف جميعة سرية لمقاومة مدارس التبشير الأجنبية التي أنشئت بمساعدة وحماية السلطات الاستعمارية الفرنسية أيام الانتداب..»[2]. وأنه كان يتولى بنفسه كتابة المنشورات التي تحذر الآباء والأسر من هذه المدارس. ثم يتولّى توزيعها مع زملائه أعضاء الجمعية. وسواء أكان هذا العمل مستقلاً عن (الرابطة الدينية) أم جزءاً ـ خاصاً به ـ منها، وإن كنا لا نستبعد أن يكون هذا العمل مستقلاً، وأنه جاء بعد اتصاله بمجلة (الفتح)؛ فإن من الراجح أن السباعي قام بالتحذير من هذه المدارس، وبيان مدى خطورتها على أجيال المسلمين.. بل لا نبعد أن يكون هذا العمل فاتحة مشاركته في العمل العام أو فاتحة نزوله إلى ميدانه.. نظراً لمدى خطورة هذه المدارس ومدى تعويل الاستعمار الفرنسي عليها.. كما عرضنا لذلك في المشهدين السياسي والثقافي.

بل لقد بقي أمر هذه المدارس ـ وبخاصة في ظل الاحتلال ومرحلة المقاومة هذه ـ يقضّ مضجعه، فكتب عنها في (الفتح) بعد أن ذهب إلى

---

(١) مجلة الفتح ـ العدد (٦٣٩)، ص٤ تاريخ ١٣ ذي الحجة ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٩م.

(٢) مجلة حضارة الإسلام ـ العدد الخاص بالسباعي الأعداد (٤ ـ ٦)، ص١٣٢، دمشق ١٣٨٤هـ.

مصر، بل كانت كتابته عنها من أوائل ما كتب في هذه المجلة عام ١٣٥٤هـ. . حتى لكأن هذه الكتابة استمرار لكتاباته السابقة في حمص، ومن ذلك قوله:

«قد يكون لبعض الناس العذر في وضع أبنائهم في هذه المعاهد قبل أن ينكشف الستار عن مقاصدهم الخبيثة! أما وقد اتضح الأمر لكل ذي عينين، وأتوا من الأعمال ما ضجّت منه البلاد على اختلاف طبقاتها، فلن يصح لأحد بعد هذا أن يلقي بثمرة فؤاده في هذه البؤر من الجحيم إلا إذا كان ممن ماتت فيه العاطفة، وفقد حنان الأبوة ورحمتها، وادّعى الإسلام دعوى يشهد الله ببطلانها!».

ثم توجه إلى الآباء قائلاً:

«أيها الآباء، إن هؤلاء الأجانب لم ينفقوا الأموال الطائلة على معاهدهم في بلادنا حبّاً بنا، وشغفاً بسواد عيوننا! ولم ينفقوها خدمة للعلم ورحمة بالإنسانية؛ فإن بلادهم وأمّتهم أحق بذلك منّا، ومتى كانوا للإنسانية خدماً ونحن نرى من فظائعهم ما تشيب لهوله الإنسانية ويتفطر له قلب الحليم؟.

«وإنما أنشأوا هذه المعاهد رغبة في نشر دينهم وثقافتهم، وتلقيح عقول أبنائكم بها، فهل ارتضيتم لأبنائكم أن ينقش زعانفة الكفر والباطل في عقولهم مبادئ الإلحاد والضلال؟ وكيف تستبدلون بنور الإسلام: ظلام الشرك، وبهدى الله: ضلال البشر؟»[1].

---

(١) مجلة الفتح، ص٧ السنة العاشرة العدد (٤٦٥)، تاريخ ٥ رجب ١٣٥٤هـ.

وعلى أية حال، فقد أتبع السباعي تلك المنشورات في مدينة حمص ـ وفي ظل الاحتلال والأحكام العرفية ـ بمنشورات وصفت بأنها نارية[1] ضد سياسة فرنسة في المغرب، فألقى القبض عليه لأول مرة، وكان ذلك في عام ١٩٣١م ـ وهو ابن ستة عشر عاماً ـ وبعد أن تم الإفراج عنه تابع ثورته عبر خطبه ـ النارية حقاً ـ على المنابر وعلى رؤوس المظاهرات الصاخبة التي كان يقودها بعد صلاة الجمعة في معظم الأحيان. ومن الملاحظ هنا أن خطبه كانت سياسية وطنية ضد الاحتلال الفرنسي، وإصلاحية دعويّة ضد الجهل والخرافة.

ويبدو أن الذي لفت نظره إلى هذا البُعد الثاني أن الفرنسيين أنفسهم كانوا يحاولون توظيف هذا الجهل لتبرير الاحتلال وتكريسه! فقد دعا مرة في إحدى هذه الخطب إلى إلغاء ما كان يسمى (خميس المشايخ) وعلى طريقته الحماسية الحادة! وقد وصف هو هذا الخميس فيما بعد ـ في المقالة التي رثى فيها أباه ـ بأنه: «موسم يقع في شهر نيسان (إبريل) من كل عام كانت تخرج فيه مواكب مشايخ الطرق بطبولهم وأعلامهم، ويقع فيه من المنكرات والشعوذة باسم الدين ما يخجل منه كل مسلم، وكان الفرنسيون يلتقطون لهذا الموسم أفلاماً يعرضونها في أوروبة لتشويه سمعة الشعب السوري خاصة والمسلمين عامّة»[2].

---

(١) محمد بسام الأسطواني، مصدر سابق، ١٣٢.

(٢) مجلة حضارة الإسلام، ص١٠٦ ـ السنة الثانية ـ العددان السادس والسابع ١٩٦١م.

ونظن أن هذا التوظيف من قبل الفرنسيين هو الذي ضاعف من شعوره نحو خميس المشايخ أو خميس الشعوذة هذا! فثار عليه فتألبت عليه العامّة، يقول: «حتى كان بعضهم يبحث عني ليسفك دمي تقرباً ـ في زعمه ـ إلى الله بحجة أني كافر أريد القضاء على أمجاد الإسلام وهيبته»!![1] وكان ذلك على الرغم من الإعجاب الشديد الذي لقيه من جمهور المصلّين عقب أول خطبة ألقاها مكان أبيه في المسجد الجامع بحمص ـ ربما في عام ١٩٢٨م أو ١٩٢٩م ـ فقد حدثني مرة أنه بعد أن ألقى هذه الخطبة في هذه السنّ وخرج من المسجد بعد انقضاء الصلاة كان العرق يتصبب منه، فأخذه أبوه وبعض إخوانه وجلسوا في بعض الحوانيت القريبة من المسجد، فكان الناس يمرون ويشير بعضهم إلى بعض إلى الخطيب الفتى الذي ألهب مشاعرهم وأسال عبراتهم!.

ويبدو أن محاربته للبدع وثورته على الخرافات، وحتى على الخميس المشار إليه! لم تقتصر على خطبة أو اثنتين، ولكن خطبته المشار إليها عن خميس المشايخ كانت بالغة العنف حتى وصل الأمر عند العامة إلى ما وصل، ولهذا تقدم منه أبوه ـ على إثرها ـ قائلاً: «يا بني! إنك على حق فيما تدعو إليه، ولكنك كنت عنيفاً في محاربة هذه البدعة، أتظن أن بدعة مضى عليها أكثر من خمسة قرون تستطيع أن تقضي عليها نهائياً في بعض خطب ومحاضرات تلقيها؟ أشفق على نفسك، وحسبك

(١) المصدر السابق نفسه.

أنك نبّهت الأذهان إلى أضرارها، ولا بد من أن يُحدث ذلك أثره في المستقبل القريب. . » يقول الأستاذ السباعي: وقد كان[1].

أما السياسة، بمعنى مقارعة الاستعمار الفرنسي، فقد كانت محور خطبه ومحاضراته بوجه عام، ولكن الأمر في هذه الخطب كالأمر في خميس المشايخ. . توالى بعضها في إثر بعض حتى كانت خطبة ألقاها في الجامع الكبير بحمص عام ١٩٣٢م «ألهب فيها الشعور وهيج الجماهير»[2] غير عابئ بالأحكام العرفية وأوامر المفوض السامي! فألقت السلطات الإفرنسية القبض عليه وأودعته السجن لبضعة شهور. ولم يلبث حين تم الإفراج عنه أن غادر حمص والتحق بالدراسة بالأزهر، ليدخل في مرحلة جديدة من مراحل حياته التي اختلط فيها الكفاح بطلب العلم! لأنه لم يكن في مصر أقل ثورة على الاستعمار البريطاني منه على الاستعمار الفرنسي في سورية. . وقد حمل على عاتقه هموم العرب والمسلمين. . بل إن خطبه ومقالاته عن الوحدة العربية بوجه عام ـ وعن مدى التشابه والتقارب بين السوريين والمصريين بوجه خاص كقاعدة لهذه الوحدة ـ لم تنقطع . . كما سنرى في الفقرة التالية:

السباعي في مصر:

التحق مصطفى السباعي طالباً بكلية الشريعة بالأزهر الشريف

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق، ص١٣٣.

(تخصص الفقه والأصول) بين يدي التجربة التي كان يقوم بها هذا المعهد العريق لتجديد أنظمته والانتقال من حياة الأروقة إلى نظام الكليات، ولم يمض على السباعي عام واحد حتى كان هو المعبر عن حاجات الطلبة غير المصريين، ومطالبهم في الأزهر الجديد. قال المحرر في مجلة (الفتح) وهو يتحدث عن (الحركة المباركة في الأزهر): «ولعل أصح ما يعبر عن ذلك خطبة ألقاها النجيب الفاضل الشيخ مصطفى السباعي بطلب من إخوانه الطلبة غير المصريين في الأزهر»[1]، بحسب عبارة الفتح التي لم يكن قد بدأ الكتابة بها بعد.

وقد ألقى هذه الخطبة (أثناء قيام الأزهريين ـ المصريين ـ بالإعراب عن مطالبهم في الأسابيع الأخيرة) تقول المجلة: «فأراد أبناء الأزهر الذين شدوا إليه الرحال من مختلف أقطار العالم الإسلامي أن يُعربوا هم أيضاً عن ملاحظاتهم وما قد لا يعرفه الجمهور من دخائل علاقتهم بالأزهر»، فجاءت خطبة مصطفى السباعي تعبيراً عما يريده هؤلاء ـ الغرباء ـ من الأزهر.

وقد استهل هذه الخطبة بالإشادة بمصر ـ وقد أشاد بها في مناسبات كثيرة بعد ذلك ـ فقال: «بوركت يا مصر! مهد الحضارة، وموئل العلم، ومنبعث العرفان، موطن العظماء، ومحط رحال العلماء، وحاملة لواء الإسلام» ثم وصف الأزهر بأنه: «مهد النبوغ، وكعبة العلماء، وقبلة أنظار المسلمين في الشرق والغرب، ما زال يجالد الدهر ألف عام ناشراً

(١) مجلة الفتح العام التاسع، العدد (٤٢٣) في ٢١ شعبان ١٣٥٣هـ.

العلم، باثاً للمعارف، غير عابئ بصروف الأيام ومصائب الحدثان. . »
وتوجه إلى الطلبة المصريين قائلاً: «إنكم يا إخواني الطلبة المصريين اجتمعتم هنا لترفعوا الصوت عالياً ببيان ما ترونه من مواطن الضعف في حالتكم العامة، ونحن معاشر الغرباء أولى منكم ببيان ما أصيبت به أواصر الأزهر بالعالم الإسلامي، حتى غدت مهددة بالانفصام، ومن حق الأمانة والإخلاص أن لا يكتم هذه الأمور من يعرفها» ثم بعد أن انتقد بعض المسائل الإدارية والعلمية. . لم يتردد في أن يقول: «والغريب أن الدوائر الأزهرية حينما تسمع بشكايات الغرباء على صفحات الجرائد!! تبادر إلى تكذيبها بدعوى أن للغرباء حقوقاً كثيرة ليست للمصريين، فأين هي هذه الحقوق؟ وأين العناية بهم؟».

وأخيراً ختم كلمته بقوله: «فباسم ألف طالب غريب أضم صوتي إلى أصواتكم راجياً ضم أصواتكم إلينا حتى يتم الإصلاح المنشود، ويد الله مع الجماعة»[١].

وسرعان ما قادت هذه الموهبة طلبة الأزهر ـ في العام نفسه ١٩٣٤م ـ في مظاهرة ضخمة ضد الاحتلال البريطاني، فألقت السلطات الاستعمارية القبض عليه وأودعته السجن[٢]. وليس بين أيدينا معلومات عن المدة التي قضاها في السجن، وعن ظروف الإفراج عنه. . ولكن من

---

(١) المصدر السابق، ص٢٣ شعبان ١٣٥٣هـ ١٩٣٤م.
(٢) محمد بسام الأسطواني: مجلة حضارة الإسلام: مرجع سابق، ص٤٩١.

الراجح أن هذه المدة لم تكن طويلة. وأن بعض شيوخه في الأزهر عمل على تحقيق هذا الإفراج؛ لأنه قال في أكثر من مناسبة إن بعض أساتذته في الأزهر وقفوا إلى جانبه في (المحن) التي تعرض لها في مصر.

ومضت بضع سنوات حتى عام ١٩٤١م حيث اتهمته القيادة البريطانية بتشكيل جمعية سرية لتأييد ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق، وبتحريض المصرين على الثورة، فألقت عليه القبض وسجنته لمدة أربعة أشهر[١]، ومعنى ذلك أنه لم يدع العمل العام في الفترة المذكورة ـ حتى إذا وجد رياح الثورة قد هبت من العراق سارع إلى المناصرة والتأييد ـ ولكنه وجد في الكتابة والخطابة وسيلة للتعبير عما يجيش في نفسه من آلام وآمال.. فقد بدأ الكتابة على صفحات مجلة (الفتح) في العام التالي مباشرة لاعتقاله الأول السابق عام ١٣٥٣هـ. وقد تم ذلك بعد شهور قليلة، لأن بين أيدينا مقالات كتبها في الشهور الأولى من عام ١٣٥٤هـ.. ولهذا لم يعد عجيباً ـ في هذا السياق ـ أن نقرأ له من هذه المقالات مقالة بعنوان: (قوة الحق وحق القوة) نشرها في الثاني من جمادى الأولى من العام المذكور (العدد رقم ٤٥٦) وجاء في هذه المقالة قوله المعبر الذي ما نزال نعيش ما أشار إليه من مأساة حتى الآن بعد نحو خمسة وستين عاماً!.

قال: «لم يبق بعد هذا شك في سوء مقاصد المستعمرين، وأن عهودهم إنما كانت حبراً على ورق اتخذوها شباكاً وحبائل! فكان ضربة

---

(١) مجلة حضارة الإسلام ـ جمادى الآخرة ـ شعبان ١٣٨٤هـ.

لازب علينا بعد هذا كله أن نعمل على ما يصون كرامتنا ويرد إلينا حقوقنا، وأن نسيء الظن بكل ما يقدمه إلينا هؤلاء مهما زيّنوه بشتى الزخرفة والبهرجة.

«ولكن المؤسف المؤلم أن الجمهرة من هذه الأمة ما برحت تعتقد أنه لايزال في الدنيا عدل ورحمة، فكلما أصابتهم شدة من دول الاستعمار لجؤوا إلى أساليب النساء فأبرقوا واحتجوا، ولكن إلى من؟ إلى عصبة الأمم!.. إلى وزارة الخارجية!.. إلى المندوب السامي! إلى الصحف والمجلات. والمستعمرون يقابلون هذا كله بابتسامة طويلة عريضة فيها كل معنى الهزء والازدراء... ثم يضحكون علينا بتأليف لجان للتحقيق وما أشبهها حتى تهدأ ثورتنا الكلامية وتخف حملاتنا الثرثارة»[1].

أرأيت إلى الرجولة المستعلية التي تمقت أساليب النساء! وإلى الثورة الحقيقية التي تفضح ثورات الكلام! وحملات الثرثرة!.

وهكذا جاءت مقالاته في مجلة (الفتح) التي فجّرت في نفسه هذه الطاقات والمواهب.. ثم اتسعت صفحاتها ـ بعد ذلك ـ لاحتضانها والتعبير عنها!.

وقد تحدث هو نفسه عن هذه الرجولة في الكلمة التي ألقاها في ٢٩ من شهر شوال من العام نفسه (١٣٥٤) في الاجتماع الذي عقده الطلبة السوريون والفلسطينيون لتأسيس نادٍ لهم! وتدل بعض مقاطع هذه

---

(١) مجلة الفتح، السنة العاشرة العدد (٤٥٦)، ص٦.

الكلمة على أنه كان وراء تأسيس هذا النادي، وقد قال في وصفه بعد ذلك: «نحن لا نريد هذا النادي للسهر والسمر، ولا نريده للهو والعبث، فحرام على شباب أمة مضطهدة معذبة أن يسمروا وبلادهم في عناء وقومهم في شقاء. وحرام على شباب أمة علقت عليهم الآمال أن يخيبوا لها الرجاء. ولكننا نريد هذا النادي لنؤكد بيننا أواصر الإخاء، ونوطد دعائم الثقة، ونتعرف مواضع العلل في نفوس أمتنا، ونتمرن على القيادة كما يتمرن الجندي على أساليب القتال».

ثم تحدث عن الرجولة الناضجة في سائر مقاطع هذه الكلمة، فتوجه إلى زملائه قائلاً:

«أي إخواني جنودَ اليوم وقادة المستقبل! إن رجولتنا اليوم في كفة الميزان، فإما أن نثبت أننا أهل لأن نتولى تربية النشء وقيادة الأمة والأخذ بيدها إلى طريق الفلاح والسعادة، وأننا أهل لثقة أمّتنا بنا فنقوم بإنشاء هذا النادي غير وكلين ولا متوانين ولا آبهين لما يعترضنا في طريقنا من عقبات، وإما أن نثبت أن رجولتنا لم تنضج بعد! وأننا لم نقم بالأمانة التي وكلنا بها فنبوء بالخزي والإثم، وذلك عار لا أظنكم ترضون به مطلقاً. . إننا الآن على مفترق الطرق:

- فإما رجولة ترفع شأن الديار.

- وإما طفولة تطأطئ الرأس وتغض الأبصار».

ثم ختم كلمته بمناشدتهم ومناشدة: «كل شاب ينوي القيام بخدمة

أمته أنْ يضع بين عينيه هذه المبادئ الثلاثة: الإقدام، والإخلاص، والثبات»[1].

لم يعد تقديم (الإقدام) ورفع شعار الإخلاص والثبات بحاجة إلى تعليل في هذه الموهبة القيادية الشامخة برجولتها والمتحملة لمسؤولياتها.. وهي لم تتجاوز العشرين بحساب السنين!.

ثم ألّف مع نفر من زملائه الأزهريين لجنة باسم **(لجنة الشؤون الإسلامية بالأزهر)** في أوائل عام ١٣٥٨هـ ـ منهم محمد نايل وسيد الحكيم ومحمد عبد الوهاب بحيري وعبد المعز عبد الستار ومحمد الحسيني عبد الغفار ـ غايتها أو من غاياتها: ١ ـ رفع صوت الأزهر عالياً بالدفاع عن الإسلام وتشريعه، ورد كيد أعدائه. ٢ ـ تتبع نهضات المسلمين وأخبارهم وإذاعة ذلك على أبناء الأزهر. ٣ ـ احتجاج الأزهر واستنكاره لكل عدوان يقع على أمة مسلمة في بلد إسلامي...

ولا شك في أن اللجنة ـ كما عبرت عن نفسها ـ «فتحت صفحة جديدة من تاريخ الأزهر الناصع، وجهاده في خدمة دين الله وشعوب المسلمين»[2].

---

(١) مجلة الفتح السنة العاشرة العدد (٤٨٤) في ٢٠ من ذي القعدة ١٣٥٤هـ.
(٢) انظر مقالة بعنوان: حركة مباركة في الأزهر الشريف. مجلة الفتح السنة ١٣ العدد (٦٤٧) في ٩ صفر ١٣٥٨هـ. وكان قد شارك قبل ذلك ـ وبعد وصوله إلى مصر ـ في تأسيس (جماعة التعارف الإسلامي) وقد عبر بعض شباب حمص عن سرورهم بتأسيس هذه الجماعة عندما أطلعهم الأستاذ السباعي =

وتضاف هذه الصفحة الجديدة إلى صفحات مصطفى السباعي الناصعة في أرض الكنانة.

ولكن الصفحة المهمة أو التي سوف يقف عندها المؤرخون هي تعريفه بالقضية الفلسطينية ومحاولة الوصول بها إلى مختلف طبقات الشعب المصري، بوصفها قضية هذا الشعب وقضية سائر العرب والمسلمين. أقول إن التاريخ سوف يذكر لمصطفى السباعي أنه واحد من أبرز الشخصيات ـ في تاريخ مصر الحديث ـ الذي عرّفوا المصريين بهذه القضية ووصلوهم بها، لأن صلات مصر بالعالم العربي في ذلك الحين لم تكن كما هي عليه الآن.. وربما أيضاً لأن عروبة مصر ـ وبخاصة في الطبقة الحاكمة وفي أوساط كثير من المثقفين وقادة الفكر ـ لم تكن قد حسمت على هذا النحو الذي لا رجعة فيه! حتى إن السباعي يذكر بمرارة ظاهرة أن فلسطين حين «نكبت بحوادث الثورة الأخيرة ثلاث سنوات متلاحقة أتت على الطريف والتالد من أموالهم وأقواتهم، وأوقعتهم في مجاعة شاملة عامة لم يبلغ عطف مصر على شقيقتها مبلغ عطفها على فنلندة وبولندة، فضلاً عن الحبشة وتركية!»[1]

= على قانونها الأساسي. راجع مجلة الفتح العدد (٣٩٤) في ٢٦ المحرم ١٣٥٣هـ.

(١) مقالة بعنوان: بين مصر والشام، مجلة الفتح، ص٩ العام الرابع عشر، العدد (٦٩٣) في ٧ المحرم ١٣٥٩هـ.

ويضيف: «نحن لا نجحد الجميل، ولا ننكر ما في الأمر من أسباب وبواعث، ولكننا نعتقد أن مصر التي اتخذتها الأقطار العربية شقيقة كبرى لها، والتي حفزها باعث الشفقة والرحمة بالإنسانية المعذَّبة إلى مساعدة فنلندة المجاهدة مع ضعف الصلة بينهما، كان يرجى أن تتجلى شفقتها ورحمتها بالطفولة المشردة في شوارع فلسطين، وباليتم المتجلّي في ثلاثين ألفاً من أبناء عربها المشتتين المساكين، ومع قربها منهم واتصالها بهم بمواثيق خالدة من اللغة والجوار والدين...»[1].

وقد جاءت هذه الملاحظات في سياق حديثه عن الروابط التي تربط بين القطرين الشقيقين مصر والشام بوجه عام، وعن مآخذ الشاميين على إخوانهم المصريين بوجه خاص. قال رحمه الله:

«مصر والشام قطران شقيقان تربط بينهما روابط الدين واللغة والجوار والقومية منذ قرون طويلة... بيد أن الاتصال بين البلدين لم يكن قبل الحرب العامة ـ الأولى ـ كشأنه الآن، فقد كانت الآستانة دار الخلافة ومركز العلم والملك والثقافة، فكان أبناء الشام حينئذٍ أشد ارتباطاً بها منهم بالقاهرة. حتى إذا وضعت الحرب أوزارها وانقطعت العلاقات بين الآستانة والبلاد العربية والإسلامية أخذت القاهرة تحتل مركز الآستانة من قبل رويداً رويداً، وما هي إلا سنوات معدودة حتى أصحبت محطّ رحال أبناء العربية والإسلام بأزهرها وجامعتها

---

(١) المصدر السابق نفسه.

وصحافتها ومطابعها واتساعها وغناها وتقدمها الاجتماعي والعمراني، فازداد اتصال الشام بمصر وتطلعت إليها أنظار المتعلمين والمثقفين والمشتغلين بالمسائل العامة. . .».

أما العتب فقد عبَّر عنه بقوله: «يتمنى الشاميون على إخوانهم المصريين أن تزداد عنايتهم بتتبع أخبارهم ومعرفة أحوالهم والوقوف على مدى ثقافتهم وتقدمهم، كما يفعل الشاميون فيما يتعلق بمصر إذ لا تكاد تخفى عليهم صغيرة ولا كبيرة من أحوالها وتقلباتها ومدى نهضتها. وقد شاهد ذلك واختبره كل من زار الشام أدناها أو أقصاها من أعيان المصريين في العشرين سنة الأخيرة. وإنك لتختلط برجل الشارع في الشام فتبهرك إحاطته الشاملة بشؤون مصر دقيقها وجليلها، حتى ليعرف أسماء زعمائها ووزرائها وتاريخ حياتهم ومواقفهم من القضية الوطنية ويحفظ من أقوالهم ما يحتمل أن يكونوا هم أنفسهم قد نسوه، ويعرف أسماء البلدان المصرية والمشهور منها وما تمتاز به كل منها على غيرها. . .

وتختلط بالرجل المثقف فتراه واقفاً على حركة التعليم. . .

وتجتمع برجل السياسة فيقصّ عليك من سياسة مصر الداخلية والخارجية وحوادث الأحزاب. .

وتلقى رجال الجمعيات الإسلامية فيحدثونك عن الجمعيات الإسلامية في مصر وعن رؤسائها وأعمالها، حتى ليخيل إليك أنهم من أعضائها العاملين فيها المبرّزين في خدمتها. وتستمع إلى رجال

الأدب.. وتصغي إلى رجال الشرع... إلخ»[1].

ويتساءل السباعي في المقابل عن موقف (إخوانهم المصريين منهم ومن بلادهم وحركاتهم) ثم يقول: «أنا لا أريد التبسيط في هذا الجواب، فقد يعزّ على بعض إخواننا المصريين أن يسمعوه كاملاً على وجهه الحق! وحسبي أن أشير الآن إلى أننا كثيراً ما نُسأل ونحن في مصر عن سورية وأين موقعها؟ وما الفرق بينها وبين لبنان، ومن يحكم فلسطين وسورية، ومن هو ملك الشام! بمثل هذا تعلم مبلغ إحاطة بعض إخواننا في مصر بشؤون الشام. ولست أزعم أن هذا صنيع الجمهرة منهم، ولكنه بلا ريب هو صنيع الكثير من متعلميهم، فما بالك بالعامة والدهماء؟».

ويضيف رحمه الله: «قد يكون هناك أسباب كثيرة حملت أبناء الشام على العناية بشؤون مصر وتتبع أخبارها ليست موجودة عند أبناء مصر، ولكن مهما يكن الأمر، ومهما يكن غنى مصر وسعتها ورقيّها، ومهما تكن حاجة الشام إلى ثقافتها ومعاهدها، فهذا لا يصحح أبداً أن يكون بين الشعبين مثل هذا التفاوت الكبير في معرفة أحدهما بالآخر، لأن هذا النوع من المعرفة يتوقف عليه التعارف الإسلامي والتعاون المنشود»[2].

---

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) المصدر السابق نفسه.

أطلنا في هذا النقل والاقتباس لبيان المناخ الثقافي السائد الذي لم يكن يتيح لإخواننا المصريين معرفة بطبيعة القضية الفلسطينية أو معرفة دقيقة وواسعة النطاق على أقل تقدير. . ومن هنا كان تعريف السباعي بها في مقالاته ومحاضراته؛ وبخاصة في ذكرى وعد بلفور وبمناسبة بعض الحوادث التي كانت تقع على أرض فلسطين، والتي يبدو أن الصحافة المصرية في ذلك الحين لم تكن تسلط عليها الأضواء بأكثر مما ينقله المراسلون الأجانب ووكالات الأنباء!

حتى إن السباعي في مقالة له بعنوان: (أنقذوا فلسطين قبل أن تبيد)[1] ينقل وقائع التنكيل التي أقدم عليها الإنكليز بحق الشعب الفلسطيني من (كتاب ورد من فلسطين لصديق له في القاهرة يبين له فيها شيئاً مما ينالهم من أذى وإعنات)، وكان ذلك بمناسبة حوادث اللد والظاهرية والخليل. . وقد قتل في هذه الحادثة الأخيرة حاكم الجليل ومرافقه البريطانيين. . فقام الإنكليز بنفي الزعماء وحل الهيئات السياسية وتجريد المفتي الأكبر من رئاسته الدينية. وزج قضاة الشرع وعلماء المسلمين في السجون[2]، وإذا كان هذا مما تحدثت عنه الصحافة، فإن صاحب الرسالة يقول: «إنهم ساقوا الناس إلى السجون بالعشرات دون أن يستطيع أحد المراجعة أو المجادلة أو المدافعة أو حتى رفع الصوت».

---

(١) مجلة الفتح ـ القاهرة السنة ١٢ العدد (٥٧٥)، تاريخ ٨ رمضان ١٣٥٦هـ.
(٢) المصدر السابق، ص١١.

أيامه الأخيرة في مصر :

إذا بقينا في إطار جهود السباعي في الدفاع عن القضية الفلسطينية والتعريف بها في مصر ، قبل أن نعود لمتابعة الحديث عن اعتقاله عام ١٩٤١م من قبل السلطات البريطانية وسجنه ، ثم ترحيله من أرض الكنانة فإننا ندع الحديث في هذا كله لكل من فضيلة الشيخ مشهور الضامن وسماحة الأستاذ الدكتور عبد العزيز الخياط اللذين شهدا هذه المرحلة مع الأستاذ السباعي وشاركا في أحداثها .

يقول سماحة الأستاذ الخياط ـ أمدّ الله في عمره ـ «لم يكن الشعب المصري على وعي عميق بالقضايا العربية ، وعلى سبيل المثال فإن محمود باشا وعلي ماهر باشا كانا واعيين بتلك القضايا ، لكن مصطفى النحاس باشا لم تكن لديه معلومات كافية عن القضية الفلسطينية . وهكذا رأى الطلاب العرب ضرورة التوعية بما يجري سواء في العراق حيث ثورة رشيد عالي الكيلاني أو بالحرب العالمية الثانية ، خصوصاً بعد ما وصل (رومل) إلى العلمين وكان الشعب المصري يهتف : إلى الأمام يا رومل! »[١] .

وقد تحدث عن هذه التوعية بثورة رشيد عالي الكيلاني ، وكيف قام بها نفر من هؤلاء الطلبة ، وذلك في سياق حديثه عن الأستاذ السباعي ، ومعرفته به ، وإفادته منه وتعاونه معه في الأزهر[٢] . يقول سماحته :

---

(١) مجلة الوسط ، ص٣٠ ، العدد (١٨٠) في ١٠/ ٧/ ١٩٩٥م .

(٢) في مقابلة أجراها معه في عمان بتاريخ ٢١/ ٣/ ١٩٩٤م . الأستاذ حسني أدهم=

«عرفت المرحوم الشيخ مصطفى السباعي في القاهرة عام ١٩٤٠م ١٣٥٩هـ مع زمرة طيبة كانت تجتمع كل أسبوع أو أسبوعين في بيت أحدهم، منهم الشيخ إبراهيم القطان من الأردن، والشيخ محمد الحامد ونصوح السباعي ـ شقيق الدكتور مصطفى ـ من سورية، والشيخ مشهور الضامن وواصف عبده وممدوح الخياط من فلسطين. وكانت تدور في الجلسة أحاديث علمية، وتطرح قضايا سياسية، وتلقى أشعار، وتقرأ أدبيات يعدّها الإخوة الطلبة ويجري عليها النقاش، وكنا نستفيد من الطلبة القدامى في الدراسة كالشيخ مصطفى رحمه الله.

«وفي عام ١٩٤١م حدثت ثورة رشيد عالي الكيلاني بالعراق، وعلى الرغم من التكتيم الإعلامي عن تطورها فإن أخبارها كانت تصلنا أولاً بأوّل.. وثارت مشاعرنا باعتبارنا طلاباً عرباً مسلمين، وقررنا أن نعمل من أجل قضية إخوتنا في العراق.. وماذا يمكن أن نعمل أكثر من إثارة الشعب المصري وتنويره بما يحدث في العراق لنصرته. وكانت قبضة البوليس المصري والمخابرات البريطانية مشدّدة محكمة، والمطابع والصحف مراقبة، ولم يكن يسمح بطبع منشور أو كتاب إلا بتصريح رسمي من الجهات المسؤولة».

ولكن (الأربعة الكبار) كما يصفهم سماحة الخياط قرروا إعداد

= جرار. انظر: الدكتور مصطفى السباعي قائد جيل ورائد أمة، ص٧٧ فما بعدها؛ دار البشير ـ عمان ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

المنشورات وتوزيعها، وهم (الشيخ مصطفى السباعي الذي صار رئيساً للإخوان المسلمين في سورية، والشيخ إبراهيم القطان (الذي أصبح وزيراً وقاضياً للقضاة في الأردن)، والشيخ هاشم الخزندار من غزة (اغتالته حركة فلسطينية في الثمانينيات)، والشيخ مشهور ضامن بركات (أصبح نائباً في البرلمان الأردني في الخمسينيات)[1].

وقام بتوزيع هذه المنشورات الشيخ الخياط والشيخ واصف جمعة وصغار الطلبة، يقول سماحة الشيخ الخياط: «فكنّا نتدلى بواسطة حبل من إحدى الغرف إلى سطح الجامع الأزهر، ونلقي المنشورات من فتحات السقف على المصلين في الركعة الأخيرة من صلاة الجمعة، ثم نرجع إلى الغرفة، ونذهب إلى جامع صغير خلف الأزهر دون أن يشعر بنا أحد» وربما اتفقوا مع إمام هذا المسجد على إطالة خطبة الجمعة[2].

ويضيف الشيخ الخياط قائلاً: «وكان الشيخ مصطفى رحمه الله يكتب هذه المنشورات التي أذكر من عناوينها عنوان: (الشعب العراقي جزء من الأمة الإسلامية: دماؤه دماؤنا، وحرّيته حريّتنا)، وتتالت المنشورات، وتوالى التوزيع. أما كيفية طباعتها مع وجود الرقابة الشديدة، فلذلك قصة رائعة بطلها الشيخ هاشم الخزندار، إذ كان يتفق مع صاحب مطبعة وطني، ومع أحد حرسها المناوب على أن يلبس لباسه ويحل محلّه فترة المناوبة، وتستغرق عادة ثلاث ساعات، وتطبع

---

(١) مجلة الوسط، مصدر سابق، ص٣١.

(٢) المصدران السابقان.

المناشير، ويعود الجندي الحارس، في آخر الفترة، وكان إذا مرّ ضابط التفتيش به يسأله عن الأمور، فيقول له: «تمام يا فندم» وتمر المسألة بسلام، وأعصاب الشيخ الخزندار ثابتة هادئة كالحديد».

ثم يصف سماحة الشيخ الأستاذ السباعي بقوله: «وكان الشيخ مصطفى ـ بخاصة ـ على اتصال مع جماعة الإخوان المسلمين ومع الشيخ حسن البنا رحمة الله عليه، كما كانت صلته بجمعية الشبان المسلمين قوية، وكان يلقي المحاضرات في دور الإخوان وبعض النوادي والمساجد، وكانت حرية الكلمة في مصر على الرغم من الاحتلال البريطاني أكثر منها في أي بلد عربي»[1]. كما وصفه كذلك بأنه: «كان دائم الحركة والعمل.. يحاضر ويخطب، وكان أسلوبه أسلوباً حماسياً بالإضافة إلى علمه وفقهه».

أما فضيلة الشيخ مشهور ضامن ـ أحد الأربعة الكبار كما وصفهم الأستاذ الدكتور الخياط ـ الذي روى كذلك حادثة توزيع المنشورات بعد ثورة رشيد عالي الكيلاني على نحو مماثل، فقد قال: «كنا ونحن ندرس في الأزهر نخطب في المساجد ونتكلم ضد الاحتلال الإنكليزي.. وبعد ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق، اتفقنا مع السباعي أنا وهاشم الخازندار وإبراهيم القطان على إصدار بيان للشعب المصري للتعريف بالقضية الفلسطينية، ومهاجمة السياسة البريطانية في فلسطين والمنطقة

---

(١) حسني أدهم جرار؛ المصدر السابق، ص٧٩.

العربية . . وقررنا توزيعه يوم الجمعة من أسطح المساجد . . وقام عدد من الشباب بإلقاء البيان على المصلّين . . .

وثارت ثائرة الإنكليز، وبدؤوا يفتّشون عن الذين خططوا لهذا العمل وقاموا بتنفيذه. وكان أحد المخبرين واسمه : عزت العطار يحضر إلى الأزهر كطالب ويتابع تحركاتنا وينقل أخبارنا . . وقد اكتشفه الأستاذ محمد علي الطاهر وكتب عنه مقالاً في جريدته (الشورى).

«وكنا نسكن في خان الخليلي . . وبعد ثلاثة أيام من توزيع البيان، دخل علينا في الليل ستة عشر رجلاً من المباحث واعتقلوني واعتقلوا السباعي والخازندار والقطان ووضعونا في سجن (التخشيبة) في باب الخلق، وهو أسوأ سجن في مصر، وكان تحت الأرض»[1] وكان ـ كما وصفه الأستاذ الشيخ الخياط ـ سجناً مؤقتاً ينقل منه المجرمون إلى السجون الدائمة بعد الحكم عليهم.

ويتابع فضيلة الشيخ مشهور قائلاً : «واستدعاني مدير المباحث العامة واسمه (محمد يوسف) وسألني من أين أنت؟ فقلت : من نابلس . . قال : من بلد محمد علي الطاهر[2] . . لقد عملت معه معروفاً وساعدته

---

(١) حسني أدهم جرار : (الدكتور مصفطى السباعي) : مرجع سابق، ص٧٦.

(٢) الأستاذ محمد علي الطاهر رحمه الله من أعلام العمل السياسي العربي في القاهرة، اعتقل في أعقاب ثورة رشيد عالي الكيلاني. يقول سماحة الشيخ الخياط : «وكنت واحداً من الذين تولّوا تهريبه من المعتقل بعدما نقل إلى مستشفى الدمرداش في حي العباسية». انظر العدد السابق من مجلة الوسط، ص٣٠.

على الخروج فهرب من السجن.. وإن دلّيتوني عليه أساعدكم على الخروج من السجن. فقلت له: لا أعرف أين هو ـ وكنا نلتقي معه سراً في مكانٍ ما قبل دخولنا السجن ـ فأمر بإعادتي إلى السجن.. وانفرد بي الشيخ مصطفى في زاوية من زوايا السجن وسألني عما حدث معي، فرويت له القصة، فقال لي: اثبت على وفائك، ولا تخبر أحداً عنه لأنه رجل مخلص، وجريدته (الشورى) لها دور كبير في خدمة قضايانا الوطنية»[1].

ويضيف: «وبقينا في السجن ثلاثة أشهر، وتدخَّل الشيخ المراغي في موضوعنا، واتفقوا على أن نخرج من مصر.. واستلمتنا السلطات البريطانية في فلسطين، ووصلنا غزة وبصّمونا، وكان الدم ينزف من أنف السباعي من شدة الحر في ذلك اليوم، وأدخلونا معتقل صرفند مدة أربعة أشهر.

«وتدخل أخي الأمير عبد الله الضامن عميد عشيرة المساعيد، وكان له منزلة في منطقته، وطلب من المندوب السامي إخراجي من المعتقل، فأرسل من يخرجني فرفضت إلا مع إخواني الستة الذين دخلوا السجن معي[2]، فاتصلوا بالمندوب السامي فجاء الجواب بالإفراج عنا

---

(١) حسني أدهم جزار: (الدكتور مصطفى السباعي)، (عن مقابلة معه في عمان بتاريخ ٦/ ١/ ١٩٩٤م.

(٢) اعتقل مع الأربعة أيضاً كل من الشيخ فارس حمدان والشيخ عبد الحي الدويك بالإضافة إلى طالب من الكويت هو السيد يوسف مشاري. انظر الدكتور =

جميعاً، وذهب السباعي معي إلى نابلس وبقي عندي يومين ثم سافر إلى الشام».

وتَحْسُن الإشارة هنا إلى أن الشيخ الخياط مع المرحوم الشيخ محمد عبده هاشم كانا يطوفان على (التجار الشوام) ـ أو بحسب عبارة الأستاذ الخياط المعبّرة: «كنا نتسوّل من التجار الشوام في مصر» ـ للإنفاق على المعتقلين وتأمين الطعام اليومي لهم قبل ترحيلهم إلى معتقل صرفند[1].

كما تحسن الإشارة ـ أخيراً ـ إلى أمر مهم تحدث عنه سماحة الدكتور الخياط، وهو أن التأثير السياسي للأزهر كان ـ آنذاك ـ كبيراً، وكان شيخ الأزهر محمد مصطفى المراغي ـ الذي تدخل للإفراج عن المعتقلين ـ شخصية بارزة، يقول الأستاذ الخياط: «وأذكر أنه عندما ساءت الأحوال الاقتصادية وارتفعت الأسعار، بسبب توريد معظم المحاصيل المصرية للحلفاء مساهمة في الحرب العالمية الثانية التي قررت مصر دخولها مع الحلفاء على إثر قرار لمجلس النواب برئاسة أحمد ماهر باشا (شقيق علي ماهر وكان على النقيض منه!) سيَّر الأزهر بتظاهرة حاشدة خرجت من الجامع الأزهر قبل صلاة الجمعة، وكان الملك فاروق يصلي ومعه رئيس وزرائه حسين سرِّي باشا، وطالب المتظاهرون من داخل الجامع بإقالة رئيس الوزراء، ثم خرجوا إلى ساحة

= الخياط في المصدر السابق، ص٨٠.

(١) مجلة المجلة، مصدر سابق، ص٣١.

سراي عابدين بعد ما انضم إليها عشرات الآلاف . . .

«أكثر من عشرة آلاف كانوا يرتدون العمائم، وعشرات الآلاف من المواطنين، وعندما حاولت الشرطة التعرض للتظاهرة نزع الشبان عمائمهم واستخدموها لرشق الشرطة بالحجارة في ساحة قصر عابدين، ولم يتفرقوا حتى استجاب الملك فاروق وحلّ الوزارة»[١].

السباعي والقضية الفلسطينية:

شاء الله تعالى أن يكون ترحيل السباعي إلى فلسطين قبل أن يفرج عنه ويعود إلى سورية. . فقد استلمته مع زملائه وإخوانه السلطات البريطانية في فلسطين كما حدثنا فضيلة الشيخ مشهور الضامن الذي كان لأخيه الأمير عبد الله الضامن الفضل في الإفراج عنه وعن السباعي وسائر المعتقلين، بعد أن قضوا في معتقل صرفند أربعة أشهر. ولكن الإنكليز بعد أن أفرجوا عن السباعي أسلموه إلى الفرنسيين في الشام ـ بتنسيق أو بغير تنسيق ـ فما أن وطئت قدماه أرض الشام حتى اعتقلته السلطات الفرنسية وزجّت به في السجن لمدة سنتين ونيف متنقلاً بين سجون حمص وبيروت، ومعتقل (الميّة وميّة) وقلعة راشيّا بلبنان[٢].

---

(١) مجلة المجلة ـ المصدر السابق.

(٢) أشار الأستاذ السباعي إلى أنه كان في سجن (قلعة راشيّا) الواقعة في سفح جبل الشيخ من الجهة الغربية الواقعة في لبنان. . في الحرب العالمية الثانية، وقد ذكر ذلك في سياق حديثه عن الصوم. انظر: افتتاحية العدد التاسع من السنة=

وقد تعرض في بعض هذه السجون والمعتقلات للتعذيب.. أملاً فيما يبدو في إطفاء شعلة الكفاح التي لم تهدأ في صدر هذا الشاب في حمص والقاهرة.. ولكن هيهات، فقد ضاعفت قسوة التنكيل الذي عاناه من اندفاعه وحماسته وعزمه وتصميمه على متابعة الجهاد والكفاح[1].

لقد ساقته الأقدار إلى فلسطين التي حمل همها في قلبه طيلة حياته.. دخلها معتقلاً.. وهو ما زال ـ وسيبقى ـ يجاهد جهاده النبيل الطويل ليفك قيودها ويطلق حريتها في دنيا العروبة والإسلام. لقد جاهد فيها بقلمه ولسانه، وجاهد على أرضها بدمه وماله. ولو جمعت المقالات التي كتبها عنها في مصر لبلغت مجلداً.

أما الخطب التي ألقاها في هذه المرحلة ـ وبين عامي ١٩٤٣م ـ ١٩٤٥م عقب الإفراج عنه فتبلغ مجلّدات.. نعم قد يكون سماحة مفتي فلسطين الأكبر الحاج أمين الحسيني هو المحرك الأول لشعور الأمة.. ولكن مصطفى السباعي طاف المدن السورية وذرع البلاد من

= الثانية من مجلة حضارة الإسلام رمضان ١٣٨١هـ آذار ـ مارس ١٩٦٢م بعنوان: (المدرسة الاجتماعية العملية).

(١) محمد بسام الأسطواني: حضارة الإسلام ـ مصدر سابق، ص١٣٤ ـ ١٣٥. وقد أشار الأستاذ السباعي إلى أنه أفرج عنه في أواسط الحرب العالمية الأخيرة. راجع (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي)، ص٢١ الطبعة الثالثة ١٩٨٢م، بيروت.

أقصاها إلى أقصاها يعرّف بالقضية الفلسطينية ويحذّر وينذر، ويلهب بخطبه الحماسية الجماهير المؤمنة. . ويأخذ عليها العهود والمواثيق بأن تبذل لفلسطين كل غال ورخيص.

وبقيت فلسطين بعد ذلك همه الوطني والقومي والإسلامي الأول لم يشغله عنها شيء. . كما تشهد مساجد سورية وأنديتها وبرلمانها وصحفها. . وأخيراً مجلته التي أصدرها في دمشق ـ حضارة الإسلام ـ حيث أفرد لأخبار فلسطين باباً ثابتاً تحت عنوان: (الدّرة المغتصبة) بالإضافة إلى بعض (الافتتاحيات) التي خصّها بالحديث عن هذه الكارثة! وكان من آخرها افتتاحية العددين السادس والسابع من السنة الثانية تحت عنوان: (دروس الكارثة). . والتي ختمها بقوله:

«والآن يجب أن نصحح خط السير الذي بدأناه في معالجة القضية الفلسطينية فنسلّم بالقيادة لأبنائها، ونرفع مستوى المشردين منهم روحياً وخلقياً ومادياً لتجنيدهم لخوض المعركة المقبلة، ونترفع عن استغلالهم واستغلال قضيتهم لأغراضنا الخاصة، وأن نرفدهم بكل إمكانياتنا من مال وسلاح، ونستمر على تبني قضية فلسطين في المحافل الدولية بتضامن وتنظيم دقيقين.

«كما يجب أن نعدّ شعوبنا لخوض المعركة المقبلة مع إخواننا أهل فلسطين، وذلك إنما يكون بتحرير شعوبنا من مختلف أنواع العبودية والمهانة، وتربيتها تربية الأحرار الذين تفيض نفوسهم بالإيمان بالله، وترتفع رؤوسهم بالخلق الكريم، وتهوى أفئدتهم مصارع الشهداء

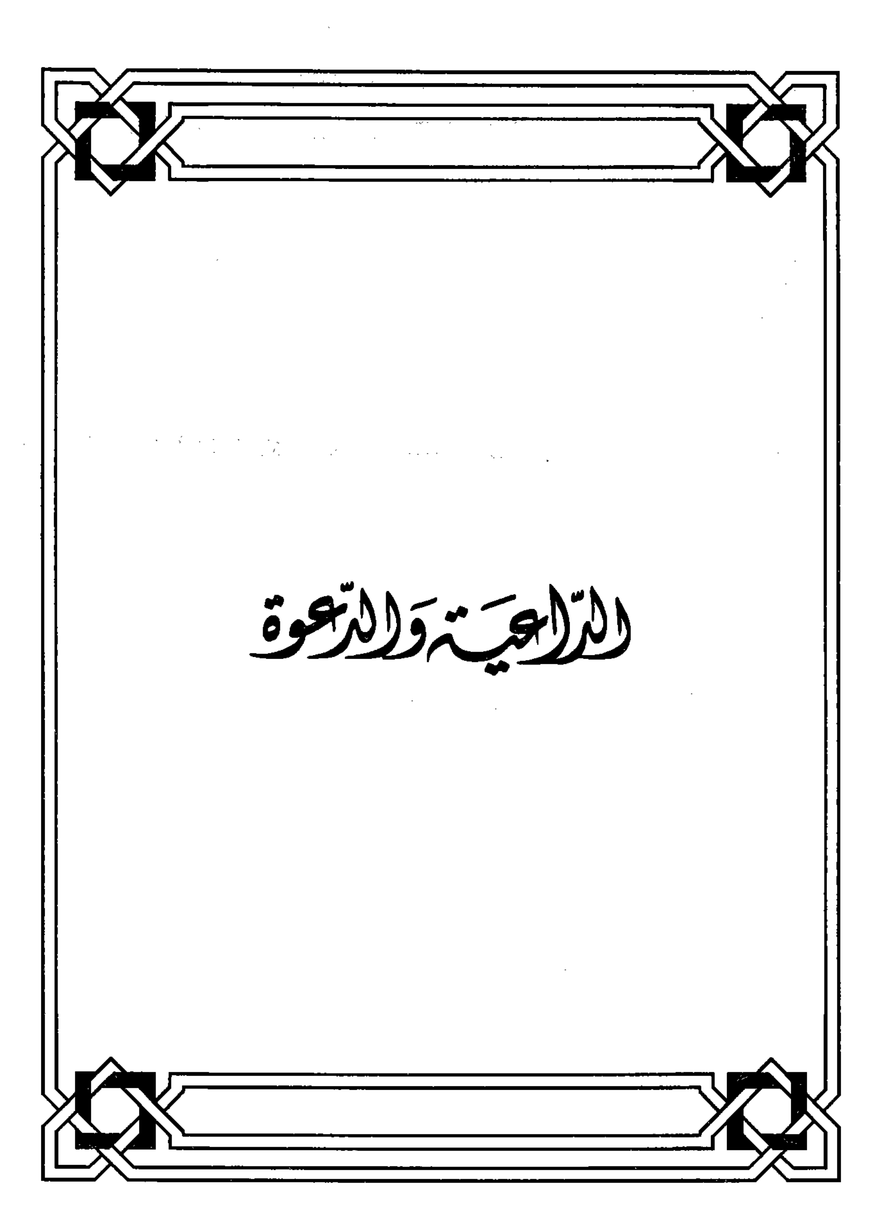
لينعموا بالخلد في جنات النعيم.

«إن معركة الحرية لا ينتصر فيها إلا الأحرار، فلنعمل لتظلل الحرية الكاملة سماء وطننا الكبير»[1].

نكتفي هنا بهذه الإلماعة السريعة عن (السباعي والقضية الفلسطينية) التي جاءت بمثابة تعقيب على خروجه من مصر وسجنه في فلسطين.. على أن نعود للحديث عن جهاده في سبيل هذه القضية في فصل خاص.

* * *

(١) جمادى الآخرة ورجب ١٣٨١هـ، كانون الأول وكانون الثاني ١٩٦١م.



الداعية والدعوة



الدّاعية والدعوة

لقد عبّرت هذه الموهبة القيادية الشابّة عن نفسها خلال بضعة عشر عاماً من الكفاح الوطني والدعوة الدينية . . بدءاً من مقاومته لمدارس التبشير في حمص، وانتهاء بخروجه من المعتقلات الفرنسية ليبدأ عملاً تنظيمياً في نطاق الشباب على وجه الخصوص، بعد أن فقد الأمل منذ بعض الوقت في جيل القادة الذي كان قائماً في ذلك الحين . . مع ما كان يشعر به من أن هموم القيادة سوف تلقى على كاهله في نهاية المطاف . .

وإذا كان في عام ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م قد توجه بخطابه أو وضع آماله في جماعة مثل (شباب محمد) التي كانت قائمة في البلاد في ذلك الحين، والتي جاءت ولادتها استجابة للتحديات التي شهدها العصر ـ والتي رسمنا بعض ملامحها في المشهدين السياسي والثقافي، وفي المشهد الثاني منهما بخاصة ـ فإنه ما لبث أن أدرك بعد قليل أنه لا بد من عمل ديني ثقافي ينتظم البلاد من أقصاها إلى أقصاها، بل يتطلع إلى التعاون والتنسيق مع مصر بوجه خاص، ومع سائر بقاع العروبة والإسلام بوجه عام.

قال في مقال له يعكس مدى فقدانه الأمل في الزعامات القائمة في البلاد ـ والتي بقي يثق بها ويهيب بها، ويتلمس لها الأعذار مدة طويلة ـ

في الوقت الذي «ضحّى فيه الشعب وناضل وجاهد تحت ألوية الوحدة منذ عشرين عاماً دون أن يتأخر عن تلبية نداء الخير مرة واحدة» على حد قوله، قال في ختام هذا المقال الذي وضع له عنوان: (الجهد الضائع): [(١)].

«والآن وقد استحكم الخلاف بين القادة، واستيقظت أنانية بعضهم، وتعذر جمعهم تحت راية الوطن، فإننا نضع الرجاء في رجال المستقبل من شباب محمد ﷺ وشباب الجامعة والمعاهد، وشباب الجيل الحاضر ممن سمت أرواحهم، وقويت عقائدهم، وحسنت أخلاقهم.

«بهؤلاء نضع الثقة في أن يحملوا الزعماء والكبراء حملاً على الاتحاد، واطراح الشخصيات والعمل للمصلحة العامة، لعلهم يقلعون عما هم فيه، خشية أن تفلت من أيديهم مقاليد الزعامة، التي شغفوا بها حباً، وإن لم يفعلوا، فسيبقى هذا الشعب المسكين ضحية الأهواء والشهوات، حتى يقيض الله له الرجل الذي يقوده إلى مواطن النصر والمجد!.

«أيها الشباب عزمة من عزماتكم الجبارة، وصرخة من صرخاتكم المدويّة، تنصر الحق وتخذل الباطل، ولن تعجزوا ـ **وأنتم مجتمعون** ـ

---

(١) مجلة الفتح العام الرابع عشر، العدد (٦٦٥)، في ٦ ربيع الآخر ١٣٥٨هـ ١٩٣٩م.

عن أن يكون منكم ما كان من الفاروق، وهو منفرد وحده، حين زأر زئير الآساد في بطاح مكة يتحدى الباطل وزعماءه، فكانت صرخة أخزى الله بها جموعهم، وألقى الرعب في قلوبهم، وأعلى بها كلمة الحق ونصر بعدها أهله!.

«أيها الشباب إن صحائف التاريخ تنشر اليوم بيضاء، ليدونَ فيها ما دُوّن لأسلافكم فتية الإسلام الأطهار عند انبثاق نوره. فحققوا فيكم أمل الإسلام، وأمل الأجيال من قبلكم، والأجيال من بعدكم.

«واحرصوا على أن تلقوا على من يأتي بعدكم من الشباب دروساً يتعلَّمون فيها كيف يذود الفتيان عن الحق إذا تخلّى عنه الرجال، وكيف يثور الأبناء للمجد إذا دبّ دبيب التخاذل في صفوف الآباء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤]». اهـ.

إنها دعوة للشباب بوجه عام، ولشباب محمد بوجه خاص.. وكان قد أشـار في مناسبات سابقة منذ أكثر من عام إلى شـباب محمد بوصفهم (قرة عين الإسلام) في بلاد الشام، أو (في تلك الديار) على حد قوله، لأنه كان يكتب من مصر كما جاء في مقالة له بعنوان: (الدعاية الكمالية في سورية)[1]، وكما تحدَّث عن بعض عناصرهم المبرزة في مقالة أخرى مثل (الأخوين الصالحين النشيطين: الشيخ مصطفى الزرقا

---

(١) مجلة الفتح العام الثالث عشر، العدد (٦٣٥)، بتاريخ ١٤ ذي القعدة ١٣٥٧هـ.

والشيخ معروف الدواليبي) اللذين تخرجا في المدرسة الخسروية الشرعية في حلب، ثم نالا شهادة البكالورية السورية بجدّهما ونشاطهما، ودخلا الجامعة السورية، فنالا إجازة الحقوق فيها. قال:

«وأولهما الآن محام ومدرس في المدرسة الخسروية، وقائد الحركة الإسلامية في الشهباء.

وثانيهما في باريس، أوفدته الحكومة السورية منذ شهرين لدراسة التشريع الروماني والمدني»[1].

والواقع أن حديثه عن هذين الشيخين ـ وقد تتلمذنا عليهما فيما بعد في كلّيتي الشريعة والحقوق ـ جاء في سياق حديثه عن (جمعيات العلماء ومؤتمرهم الأول) الذي عزا فيه الفضلَ للأستاذ الشيخ محمد كامل القصاب، وأشار فيه إلى «تعاون شيوخ العلماء، مع الشباب منهم بإخلاص ينشرح له الصدر» فكأن الشيخين الشابّين ـ كما وصفهما ـ شهدا المؤتمر مع العلماء أو بصفتهم هذه، في حين أن حديثه المسهب عن (شباب محمد) جاء بعد ذلك في عدد آخر من (مجلة الفتح) بعد أسبوعين فقط من المقالة السابقة. وقد استهلّه بهذه العبارات التي تدل على مدى تأثره بهؤلاء الشباب، وانفعاله بأخلاقهم وأعمالهم: قال رحمه الله:

«روحي الفداء لمشرق النور ومبعث الهدى وصفوة خلق الله

---

(١) مجلة الفتح العام الثالث عشر، العدد (٦٣٧)، بتاريخ ٢٨ ذو القعدة ١٣٥٧هـ. مقالة بعنوان: (الحالة الدينية في سورية: جمعيات العلماء ومؤتمرهم الأول).

محمد بن عبد الله ﷺ، وبنفسي أفدي أولئك الشباب الذين كان لهم من خلق رسول الله نصيب، ومن هدايته حظ، ومن نوره قسط، ومن النسبة إليه شرف كبير، فكانوا بحق شباب محمد ﷺ لا انتحالاً ولا ادّعاء».

ثم قال: «وإذا تحدثتُ اليوم عن هذه الفئة العاملة من شباب المسلمين فإنما أتحدث عن أول هيئة مسلمة فتيّة فيما أعلم، تعمل لدين الله بقلوب لا تعرف الرياء، وبأفئدة لا تحب الفخر، وبنفوس قوية لا يداخلها وهن ولا يأس ولا فتور».

وبعد أن أشار إلى التربية الإسلامية الصوفية التي أخذ هؤلاء النفر من الطلبة الجامعيين - سبعة أو ثمانية - أنفسهم بها، وكيف أنهم «مدّوا الأيدي متعاهدين على أن ينزلوا إلى الميدان لينافحوا عن دين الله الذي تكاثرت عليه السهام، وعن خُلق الإسلام الذي شوّهته صروف الحدثان، وليبثوا في الأمة روح اليقظة والحمية والعزة» قال:

«وما هي إلا برهة من الزمن حتى كانت دار الأرقم في حلب، وجمعية الشبان المسلمين في دمشق، وجمعية الرابطة الدينية في حمص، وجمعية مكارم الأخلاق الإسلامية في بيروت، وجمعيات عديدة في القدس ولندن وباريس. . كلها تنضوي تحت رابطة شباب محمد ﷺ.

«ومنذ ذلك الحين أخذ الناس يشعرون بجهود هذه الكتلة المنظمة في سبيل الدين والأخلاق، مما أحلّها في نفوسهم مقاماً سامياً، وبوّأ رجالها في بعض البلدان مقام الزعامة الدينية رغم حداثة سنّهم».

كان السباعي في الشام في زيارة استمرت أربعة أشهر، شهد

خلالها المؤتمر الأول لجمعيات العلماء، الذي انعقد بدمشق صيف عام ١٣٥٧هـ من (من ١١ـ١٣ رجب) ١٩٣٨م، والمؤتمر الأول كذلك لجمعيات شباب محمد الذي انعقد في أواخر شعبان من العام نفسه. ثم كتب عن كل واحد من المؤتمرين مقالاً في مجلة (الفتح) بعد عودته إلى القاهرة[1].. وأثنى في مقاله هذا عن هؤلاء الشباب على كلٍ من الأستاذ عمر صدقي بهاء الأميري، والأستاذ عبد الرؤوف الأسطواني، والأستاذ عبد الوهاب الأزرق، الذي قال فيه:

«ولما ثار الرأي العام السوري على وزارة المعارف لتعيينها الخواجه ميشيل عفلق مدرساً للتاريخ الإسلامي في تجهيزية دمشق، بعد أن تطاول على الإسلام وأئمته، لم تجد الحكومة السورية فيمن يملأ هذا الكرسي خيراً من الأخ الأستاذ الأزرق، فعهدت إليه بذلك».

كما أشار إلى غيرهم من الإخوة الأفاضل الأبرار كالشيخ عمر خياطة، وصلاح الدين الشاش، وصلاح الدين دعدوش، وجمال العش، وعزت المرادي، وإسماعيل المرادي، وعبد الفتاح الحمصي، وحيدر حجار وغيرهم[2]. قال: «أما إخواني شباب محمد ﷺ في حمص فأخشى أن أُتهم إن ذكرت واحداً دون آخر، أو ذكرتهم جميعاً وذكرت

---

(١) مقال شباب محمد بعنوان (شباب محمد ﷺ: جمعياتهم ومؤتمرهم الأول) العدد (٦٣٩) من الفتح، بتاريخ ١٣ ذي الحجة ١٣٥٧هـ.

(٢) قال الشيخ: وسمعت الثناء الجزيل على كثيرين لم يسعفني الحظ بلقائهم كالأخ الأستاذ عبد الوهاب ألتونجي، والأستاذ عبد القادر السبسبي وغيرهم».

ما أعرف عنهم من نبل وفضل، فهم رفاق الصبا وزملاء الطلب وفّقهم الله وأعانهم».

وأبرز ما تمخض عنه هذا المؤتمر: «تنظيم الشباب المسلم تنظيماً ثقافياً عسكرياً، وتوحيد جهود المراكز المتعددة لشباب محمد ﷺ واتخاذ مركز رئيسي لها» قال: «**وقد انعقد الإجماع على أن تكون دار الأرقم - في حلب - هي المركز الرئيسي**».

وقد يكون من المفيد أن نشير إلى أمرين آخرين من الأمور التي أقرها المؤتمر. وهما: «العمل على إسعاف فلسطين بطرق أقرها المؤتمر.. وتأييد مؤتمر العلماء في مسائل الأوقاف والتعليم والقضاء الشرعي والسكة الحجازية...».

وهاهنا ملاحظات:

الأولى: أن هؤلاء الشباب على الرغم من تأييدهم المشار إليه لمقررات مؤتمر العلماء الذي سبق مؤتمرهم بنحو شهر أو خمسة أسابيع، فإن اهتمامات الفريقين ووسائل عملهم لم تكن واحدة.. وربما جاز لنا أن نقول إن مسافة معينة باعدت بينهما أو بقيت تفصل أحد الفريقين عن الآخر. ولسوف يعاني الدكتور السباعي رحمه الله من هذا الوضع في قادمات الأيام معاناة تضعف أو تشتد! وربما ساهمت حماسة السباعي الشديدة، وتحرّقه على أوضاع المسلمين في (تضخيم) الحالة السلبية التي كان عليها (العلماء) في هذا الوقت، ومن ثم: النقد الشديد الذي وجهه لهم. وسنفرد لهذه المسألة المهمة فِقْرة خاصة بعد قليل.

الملاحظة الثانية: أن مسافة أخرى فصلت من الآن.. بين هؤلاء الشباب ـ وإن شئت قلت: بين الحركة الإسلامية عموماً ـ وبين الحكومة! فإن (هذه الهيئة الفتية المنظمة) كما وصفها الأستاذ السباعي (لم يقدرها الزعماء ورجال الحكومة قدرها)! بل إن الأمر كان على العكس من ذلك «حتى إن الحكومة كانت قد اعتزمت إلغاء دار الأرقم، لأنها أرسلت إليها احتجاجاً على تعطيل فريضة الجمعة في يوم الاحتفال بذكرى الزعيم المغفور له إبراهيم هنانو!» وفحوى ذلك أن المسافة ـ أو المشكلة ـ كانت من قبل الحكومة! أو كما عبّر الأستاذ السباعي نفسه حين قال: «وكثيراً ما أقيمت في سبيل هذه الهيئة العراقيل لأسباب لا حاجة إلى ذكرها»!.

الملاحظة الثالثة: إن اسم (**شباب محمَّد**) بقي حتى بعد هذا المؤتمر يعبر عن المنهج الديني، والتوجهات الإسلامية، التي جمعت بين هؤلاء الشباب في مختلف المدن.. ولم يُرد له أن يكون قاضياً على تعدد الأسماء واللافتات أو ناسخاً لها.. لأن الدمشقيين من الأسماء التي ذكرها الأستاذ السباعي هم المؤسسون **لجمعية الشباب المسلمين** بدمشق، أو كانوا من هؤلاء المؤسسين. وقد بقي السباعي على صلة بهم بعد أن عاد إلى القاهرة وقد استأثروا بفؤاده، واحتلوا حبّته كما قال: «فما فيه إلا حبّهم، وما في النفس إلا إكبارهم والإعجاب بغاياتهم»، ويترجح عندنا أنه رحمه الله عدّ نفسه واحداً منهم، حتى إنه تحدث باسمهم أو مثّلهم في حفل تأبين الأستاذ عبد الحميد سعيد رئيس جمعية الشبان المسلمين في مصر، فقد وُصفت كلمته التي ألقاها بهذه المناسبة بأنها

«باسم جمعية الشبان المسلمين بدمشق» في الوقت الذي كان فيه السباعي في مصر شديد الصلة بهذه الجمعية هناك. بل إنّه عدّ جمعية الشبان المسلمين بدمشق وجمعيات شباب محمد ثمرة من ثمار جمعية الشبان المسلمين بمصر؛ قال رحمه الله في الكلمة المشار إليها: «ذلك أن الفقيد الكريم كان له أثر كبير في قيام الحركات الإسلامية المنظمة في سورية، وما جمعية الشبان المسلمين بدمشق مع أخواتها من جمعيات شباب محمد ﷺ المنبثة في أنحاء بلاد الشام إلا ثمرة من ثمار هذه الجمعية المباركة، التي كان يغذّيها الفقيد بقوة إيمانه وصدق بلائه. وبهذا أفاد الفقيد الحركة الإسلامية قوة وتنظيماً، كما رفع شأن مصر المسلمة في تلك البلاد وفي بلاد الإسلام الأخرى»[1].

كانت هذه الكلمة آخر أو من أواخر ما كتب أو خطب السباعي في مصر.. حيث تم بعد ذلك اعتقاله وترحيله من مصر، كما تحدثنا عن ذلك فيما سبق. وعندما خرج من المعتقلات والسجون الفرنسية في سورية ولبنان كان قد مضى على عمل هذه الجمعيات بضع سنوات. **وهكذا جاء تأسيسها تالياً لتأسيس بعض الأحزاب القومية ومواكباً لتأسيس بعضها الآخر.. وفي جميع الأحوال: جاء في ظل المناخ العلماني والأفكار والشعارات القومية والاشتراكية التي أشرنا إليها في المشهد الثقافي.**

---

(١) راجع نص هذه الكلمة الجامعة في (الفتح)، العدد (٧٥٣) في ٢٧ ربيع الأول ١٣٦٠هـ.

أما اسم (الإخوان المسلمين) الذي غلب على الحركة الإسلامية فيما بعد، فيعود إلى عام ١٩٤١م حين أسست جمعية بهذا الاسم في مدينة حماه[1]، وإلى عام ١٩٤٢م حين أسس السباعي نفسه جمعية بهذا الاسم في مدينة حمص، عقب وصوله إليها رحمه الله، وهكذا صار في حمص جمعية العلماء وجمعية الإخوان.

ثم قام السباعي في العام نفسه ـ ١٩٤٢م ـ بعد التشاور مع إخوانه في جمعية الشبان المسلمين بدمشق وشبان محمد في سائر المدن السورية ـ ومنها دار الأنصار في دير الزور ـ بتوجيه الدعوة إلى جميع هذه المراكز، لتوحيد العمل الإسلامي تحت راية واحدة. .

وتم عقد الاجتماع في حلب ـ المركز الرئيسي لشباب محمد ـ وتقرر فيه توحيد تلك الجمعيات والمراكز باسم (جماعة الإخوان المسلمين) وتلاه بعد ذلك اجتماعات تنسيقية عقدت في وقت لاحق في كل من حلب ودمشق، وتقرر أن يكون رئيس مركز دمشق ـ أو رئيس جمعية الشبان المسلمين فيها ـ هو (المراقب العام) للجماعة.

وحين تم الدمج والتوحيد على أرض الواقع كان رئيس المركز المذكور هو الأستاذ محمد المبارك، ولكنه تنازل للأستاذ السباعي عن هذا المنصب.

وهكذا كان الشيخ مصطفى السباعي أول مراقب عام للإخوان

---

(١) حسني أدهم جرار: الدكتور مصطفى السباعي، ص٤٩.

المسلمين في سورية عام ١٩٤٤[١]. وانتقل من بلده حمص ليعيش في دمشق ويعمل فيها مديراً للمعهد العربي الإسلامي[٢] (مؤسسة تربوية خاصة)، وقد جاء تأسيس هذا المعهد فيما يبدو رداً على مدارس الإرساليات ومعاهد التبشير التي بقيت تشغله وتقضُّ مضجعه رحمه الله.

القائد:

كان السباعي في نحو التاسعة والعشرين من عمره حين انتهت إليه

---

(١) المصدر السابق نقلاً عن مقابلة مع الدكتور حسن هويدي الذي كان رئيساً لدار الأنصار في دير الزور.

(٢) المصدر السابق، وافتتح الإخوان مركزاً لهم في كل محافظة من المحافظات السورية، وفي دمشق تم افتتاح المركز العام في السنجقدار ـ وسط المدينة ـ في عام ١٩٤٦م بعد زوال الاحتلال. أما مركزهم الثاني في باب الجابية فكان خاصاً بالفتوة وحركة الإخوان الكشفية. ثم نقل المركز العام إلى (الشهداء) في طريق الصالحية عام ١٩٥٤م ومن إحدى نوافذه المطلة على طريق السكة ـ أو الطريق العام ـ ألقى الأستاذ السباعي في ٥/ ١٢/ ١٩٥٤م واحدة من أعنف خطبه في الجماهير المحتشدة في أضخم مظاهرة عرفتها البلاد. بمناسبة إعدام ستة من قادة الإخوان في مصر، الذي تم على يد جمال عبد الناصر، وقد دبّت الحماسة ـ على وجه الخصوص ـ في الشيوعيين الذين شاركوا في هذه المظاهرة ـ مع سائر الأحزاب والهيئات النقابية ـ حين هاجم السباعي سياسة الأحلاف، وأشار إلى التأثير الأمريكي في السياسة المصرية. وعندما قامت الوحدة بين سورية ومصر عام ١٩٥٨م قام الإخوان بحل تنظيمهم ـ أسوة بباقي الأحزاب ـ في كتاب بعث به السيد عصام العطار، وتلي في إذاعة دمشق، وتمَّ نشره في الصحف.

قيادة العمل الإسلامي في سورية. . وإن شئت قلت قيادة حركة التجديد والبعث الإسلامي في بلاد الشام. . وقد جاءت هذه القيادة في موعدها المقرر أو قدرها المقدور بعد سبعة عشر عاماً من الكفاح الوطني والعمل الإسلامي على أكثر من مستوى وفي أكثر من قُطر، لم تقعد بصاحبها همّة، ولم تضعُف له عزيمة. . أو تلن له قناة. ولم ينقطع خلال تلك الفترة عن أخبار سورية، وأخبار البلاد العربية والإسلامية، منذ أن وقعت عينه ـ وهو ابن ثلاث عشرة سنة ـ على مجلة (الفتح) التي كان يصدرها في القاهرة السيد محب الدين الخطيب.

وقد برزت موهبته القيادية أو الطابع القيادي لهذه الشخصية في جميع مراحل هذا العمل وخطوات ذلك الكفاح: قاد المظاهرات في حمص، وكتب لإخوانه الفتيان المنشورات قبل أن يشاركهم بتوزيعها ضد مدارس الإرساليات ومعاهد التبشير. . وكان الناطق باسم الطلبة غير المصريين في الأزهر. . قبل أن يقود طلبته جميعاً في مظاهرة صاخبة ضد الاحتلال البريطاني. . وانخرط في الكتابة في مجلة (الفتح) على هذا المستوى الرفيع من الفكر والنقد والتحليل وتحمل المسؤولية. وأسس في القاهرة (جماعة التعارف الإسلامي) وشارك في تأليف (لجنة الشؤون الإسلامية في الأزهر)، وقام بتأسيس نادٍ للطلبة السوريين والفلسطينيين في القاهرة. . ولم يفته أن يتحدث في أول كلمة تلقى في هذا النادي عن قيادة الأمة، والأخذ بيدها إلى طريق الفلاح والسعادة. . وكتب المنشورات التي انتصر فيها للعراق ودافع عن ثورة رشيد عالي الكيلاني. . وتعرض للسجن والاعتقال وهو في ذلك كله عالي الهمة،

موفور الكرامة، شامخ الرأس. . يقول لأخيه في السجن: اثبت على وفائك. . ولا تدل على فلان فإنه في جريدته يدافع عن القضايا الوطنية!.

لقد كانت القيادة وتقدم الركب هبة من هبات الخلق والتكوين في هذا الشاب الثائر، الذي كانت نفسه تعاف الدنايا، وتترفع عن الصغائر. وفي الوقت الذي صقلت فيه التجارب والمعارك هذه الموهبة؛ فإنها دلّت أيضاً على مدى إيمانه بالعمل الجماعي المنظم والمسؤول. . ولهذا وجدناه حين فقد ثقته بجيل القادة والزعماء ـ في مقالته: (الجهد الضائع) التي أشرنا إليها ـ يضع ثقته بجيل الشباب الذين لن يعجزوا إذا كانوا **مجتمعين** عن أن ينصروا الحق ويزهقوا الباطل.

ويقول: «إن هذا الشعب المسكين سوف يبقى ضحية الأهواء والشهوات حتى يقيض له الرجل الذي يقوده إلى مواطن النصر والمجد».

إنه الجهد المجتمع أو المنظم والقائد السابق والمسؤول.

ومن الطبيعي ـ أو مما لا يحتاج إلى تفسير ـ أن يتم هذا العمل بالتنسيق مع مصر. . بل بالعمل في ظلها أو تحت لوائها: بعدما قرأنا من إكباره لمصر وحبّه لأهلها وإيمانه بمكانتها في القيادة والريادة. . ولكن الذي يحتاج إلى تفسير انحيازه لجماعة الإخوان المسلمين وليس لجمعية الشبان المسلمين، على الرغم من عمله المبكر مع هؤلاء الشبان، وعدّة الجمعيات الإسلامية في سورية ـ التي انضوت الآن تحت قيادته ـ من آثار جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة. ويعود ذلك في تقديرنا لأمرين:

الأول: الفهم الشمولي والمتميز للإسلام في دعوة الإخوان،

وسعة انتشار هذه الدعوة في مختلف الأوساط، وبخاصة في أوساط الشبان والمثقفين.

والأمر الثاني: ـ وهو الأهم ـ تأثره الشديد بشخصية الأستاذ حسن البنا، وإعجابه بمواهبه وقيادته للجماعة.. وما انطوت عليه هذه الشخصية من معاني التضحية والإيثار، والإخلاص والتفاني، والإقدام.. وسائر الصفات التي وجد صداها في نفسه، والتي جعلته فيما يبدو يرجح جانب (دعوة البنا) ـ إن صح التعبير ـ على سائر الدعوات، ويكفي أنه قال في حسن البنا: «فوالله ما رأيت إنساناً أروع في الفداء، وأخلص في النصح، وأنبل في التربية، وأكرم في النفس، وأعمق أثراً في الإصلاح، من حسن البنا رحمه الله».

لقد كان البنّا شخصية قيادية فذّة، وكان السباعي شخصية قيادية نادرة! وحريٌّ بكل واحد من هذين الرجلين العظيمين أن يفهم الآخر ويقدّره حقَّ قدره.. ولهذا فنحن لا نستغرب ما حدّثنا به أحد الزملاء من أن محرراً في مجلة الدعوة نشر صورة تجمع بين البنا والسباعي وكتب تحتها: جندي وقائده أو خير جندي لخير قائد! فما كان من الأستاذ البنا إلا أن استدعاه حين وقعت عينه على الصورة، وقال له: من قال لك إن مصطفى السباعي جندي؟ إنك لا تعرف الرجال[1]!!.

---

(١) ولهذا فإننا لا نستبعد إطلاقاً ما قيل من أن الإمام البنا رشحه لخلافته، وطلب منه البقاء في مصر. كما نقل السيد حسني جرار عن الأستاذ الفاضل السيد عادل كنعان في مقابلة معه بتاريخ ٢٠/ ١٢/ ١٩٩٣م. راجع كتاب الأستاذ=

تحدثنا هنا عن جملة الأسباب التي أهّلت السباعي لقيادة الإخوان المسلمين أو العمل الإسلامي الحديث في سورية في السياق التاريخي لهذه الأسباب، أي من خلال الأعمال التي قام بها قبل تسلّمه هذه القيادة.

أما صفاته التي أهّلته لذلك فسوف نعرض للحديث عنها عند الحديث عن صفاته وأخلاقه.. أو عبقريته رحمه الله.

بين السباعي والعلماء (أو الإخوان والمشايخ):

كان مصطفى السباعي وهو يدرس في مصر متابعاً للقضية الوطنية والشأن السوري أو بلاد الشام، فقد كان هذا الشأن همّه الأول بطبيعة الحال، وكل ما استشهدنا به من مقالاته في الصفحات السابقة ـ حول هذا الشأن وكما هو معلوم ـ كتبه في القاهرة. بل إنه كتب بعض هذه المقالات (على الطبيعة) كما يقال، أي من خلال زيارته لبلده، ومتابعته المباشرة لما يجري على الأرض! وقد كتب مرة خمس مقالات عن أحوال البلاد السياسية والدينية وغيرها تحت هذا العنوان الجانبي الثابت: «أربعة أشهر في بلاد الشام» وهي المدة التي قضاها في تلك الزيارة، واجتمع فيها كما لاحظنا ببعض المسؤولين، وألقى بعض الخطب، وحضر بعض الاجتماعات والمؤتمرات، منها المؤتمر الأول لجمعيات العلماء (المقالة الرابعة) والمؤتمر الأول لجمعيات شباب

= حسني: الدكتور مصطفى السباعي، ص٤٨.

محمد (المقالة الخامسة).

وقد فرّق في صدر مقاله عن مؤتمر جمعيات العلماء بين الزعماء والقادة. حيث خصَّ الزعماء بالسياسة أو قصرهم عليها، **في حين جعل القيادة للعلماء**؛ قال: «ولست أعرف فئة أحق بقيادة المسلمين منهم كما بينت ذلك في مقالات سابقة في الفتح»، ثم نقدهم بعد ذلك، لأنهم تخلوا عن هذه المسؤولية. وقبل أن نقف على هذا النقد لابد لنا أن نذكر أن مقالاته السابقة التي أشار إليها حول العلماء كانت قبل نحو عام واحد من المقالة المذكورة؛ فقد نشرت هذه المقالة بتاريخ ٢٨ ذي القعدة ١٣٥٧هـ[١] في حين أن المقالات الثلاث السابقة نشرت في ١١ و٢٥ من ذي القعدة، والثالث من ذي الحجة ١٣٥٦هـ[٢]. وكانت على التوالي بالعناوين التالية: (نكبة الدين في أخلاق علمائه) ـ (نكبة الدين في انحراف علمائه) ـ (العلماء والسياسة). وما كتبه في هذه المقالات الثلاث ـ وله من العمر اثنان وعشرون عاماً ـ جدير بالتأمل والرجوع إليه مرة بعد أخرى! وتكفينا من هذه المقالات الثلاث: السطور التالية التي استهل بها المقالة الأولى:

قال: «إذا أراد الباحث في تاريخ الإسلام والمسلمين أن يكشف الستار عن الداء الذي كان مبعث تشتت المسلمين وخذلان أمرهم في العصور الأخيرة، فسيبدو له أن لعلماء المسلمين النصيب الأوفر في

---

(١) العدد (٦٣٧) العام الثالث عشر.

(٢) وأرقامها ٥٨٤ و٥٨٦ و٥٨٧ العام الثاني عشر.

ذلك» ثم يؤكد على أنه لا يقول هذا جزافاً، وأنه عندما يقوله أو يقرره لا يلتفت إلى ما يلحقه من ذلك من تحامل! لأن الذي يعنيه هو تشخيص الداء، وقول كلمة الحق، فيقول:

«ونحن نقول هذا بعد تتبع لوقائع التاريخ، غير آبهين بما سيَلِمِزْنا به بعضهم من تحامل أو تجاهل، فما كنّا لنقول غير الحق، وما كنّا لندعو إلا إليه. ولئن كان في الجهر بالحق بعض الألم؛ فإن في السكوت عليه كل الألم وكل البلاء. وما نحسب أحداً يرضى من الشيء بأكثره وهو كارهٌ لأقله، أو يتحمل من العناء أشده وهو متبرم بيسيره، غير مكترثين بنفرة المريض من الدواء، ولا بحزن أهله من تفاقم الداء، وإلا كانوا غاشّين مخادعين»[1].

نعود إلى نقده ـ الموجز ـ الذي صدّر به مقالته عن جمعيات العلماء ومؤتمرهم الأول الذي عقد كما أشرنا في دمشق (من ١١ ـ ١٣ رجب) من صيف عام ١٣٥٧هـ-١٩٣٨م قبل أن يثني الثناء كله على الشيخ محمد كامل القصاب رحمه الله، وعلى التحرك الذي قام به العلماء آخراً أو في نهاية المطاف.

قال رحمه الله: «وأما القادة ـ وأعني بهم العلماء. . ـ فقد تخلّوا عن المسؤولية، وقبعوا في البيوت والمعابد، ومكّنوا الفوضى والإباحية أن تجوس خلال الديار! ولم يكن منهم إلا قول في مسجد لا يتجاوز

---

(١) مجلة الفتح العدد (٥٨٤) بتاريخ ١١/ ١١/ ١٣٥٦هـ.

الآذان، وأنّةٌ في درس لا يسمعها إلا العجزة والشيوخ، وحوقلة واسترجاع هما عُدّة العاجز وتُكأة المهزوم!..».

وتابع يقول ـ وهو يعلم شدة هذا الحكم ـ: «قد يكون هذا الحكم قاسياً، ولكنه الواقع، وقد يكون مؤلماً، ولكن الألم في السكوت عنه أشد. وكيف لا يذوب القلب أسى حين يرى أشد الناس صلة بالدين، وأحقهم بالدفاع عن عقائد المسلمين، ينزوي كل واحدٍ منهم في وظيفة أو مسجد أو بيت، بينما تشاد معاهد التبشير، وتؤسس بيوت الدعاية الأجنبية، وتحارب أحكام الله عمداً يوماً بعد يوم من قبل الحاكمين على شؤون البلاد، ولا يرتفع للعلماء صوت، ولا يرى لهم أثر، ولا يحس لهم بوجود؟ وإذا لقيتَ أحدهم فذكرت له ما يعانيه المسلمون اعتذر لك بفساد الزمان وضعف الدين، وأنبأك أن هذا من علامات قرب الساعة، والسعيد من لزم بيته وحفظ نفسه!».

وقال: إن هذا كان شأنهم حتى زمن قريب «ثم شاء الله أن يبعث الحمية في نفوس أفراد منهم فألّفوا عدّة جمعيات، كان صوتها ضعيفاً وعملها قاصراً، ولكنها كانت خيراً من العدم على كل حال. وبقي الأمر على هذا حتى عاد إلى دمشق فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد كامل القصاب، فرأى في تفرق العلماء وسكوتهم ما يؤذن بخطر كبير، فعمل على تأليف جمعية تضم صفوفهم، وتدافع عن كرامتهم، وتسعى إلى رفع كلمة الله، وإبلاغ صوت الدين إلى القلوب».

الذي كان وراء تأليف هذه الجمعية إذن هو الشيخ محمد كامل القصاب، أما مهمتها فقد حددتها هذه الكلمات. وقد وصف الأستاذ

السباعي فضيلة الأستاذ القصاب بأنه «أمة وحده! لا تكاد تحدّثه وتخالطه حتى ترى فيه همة الشباب وحكمة الشيوخ، ودهاء الساسة وعلم الفحول، وإيمان السلف الصالح من علماء المسلمين: يعمل فلا يكلّ، ويهاجم فلا يتراجع، ويدعو فلا يسكت، ويجاهد فلا يفتخر. وهو في كل هذا يبذل من حرّ ماله في سبيل الله ما يضنّ عن بذل أقله كثير من أغنياء المسلمين المعاصرين..».

وقد وصف الأستاذ السباعي الذين استجابوا لدعوة الشيخ القصاب بأنهم «طائفة كبيرة من خيرة العلماء»[1] وذكر أن هذه الجمعية ـ التي رأسها فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ القصاب ـ «استهلّت تاريخها الناصع بعملين عظيمين...: الحيلولة دون إلغاء القضاء الشرعي تدريجياً، ومعارضة حلّ الأوقاف الأهلية».

ويهمنا في هذا السياق: التأكيد على أن هذا المؤتمر ـ كما ذكر الأستاذ السباعي ـ «نجح نجاحاً كبيراً، وكان له صدى عظيم في مختلف الأوساط، وحضره أركان الحكومة في ليلته الأولى، كما افتتحه رئيس الحكومة بإيفاد نائب عنه، وعُنيت الصحف على اختلاف نزعاتها بنشر أخباره ومقرراته» كما يهمّنا التأكيد على أن من أهم نتائج المؤتمر التي عدّدها: «تضامن العلماء وعزمهم على افتتاح عهد جديد من النشاط

---

(١) ووصف المؤتمر بأنه (كان بعثاً جديداً لنشاط العلماء) قال: «وأظنه أول مؤتمر من نوعه شهدته البلاد السورية منذ بضعة قرون، وربما كان أول مؤتمر يعقده علماء الإسلام في أقطار الأرض في شؤون إسلامية بحتة».

والعمل المستمر لمصلحة العلم والدين»[1] قال رحمه الله: «وقد ظهر هذا التضامن جلياً في مقررات المؤتمر وفي جلساته التاريخية. وأشد ما كان ظهوراً في الحفلة التي أقامها رئيس الوزراء لتكريمهم، فقد كانت حفلة مشهودة في تاريخ العلماء؛ إذ لم يكد دولة الرئيس يرحب بهم حتى أخذ يلمح ـ عن طيب سريرة ـ بالغض من جهود العلماء، فانبرى له أول وثان وثالث يدافعون عن كرامة العلماء، ويذكرون جهودهم في القديم والحديث، وينوّهون بمقدار خدماتهم للدين والأمة، ويعلّلون ما ظهر على العلماء من تقصير بإعراض الحكام عن تشجيعهم في الإخلاص والنهوض». قال الشيخ: «وكانت كلمات مملوءة بقوة الحق وعزة العلم، فعلت في النفوس فعل السحر. وكانت معركة أدبية خرج منها العلماء موفوري الكرامة، حتى قال رئيس الحكومة لبعض من حضر من الوزراء والكبراء: ما كنت أظن أن في العلماء مثل هذه القوة». اهـ.

قلت: ولم تكن هذه الكلمات المملوءة بقوة الحق وعزة العلم، غير كلمات المتحدث الثالث الشيخ مصطفى السباعي الذي هاله أن

---

(١) ذكر من هذه النتائج: (تعارف علماء الساحل والداخل، وتقوية أواصر الإخوة بينهم) قال: «بل تعدى ذلك إلى تعارف علماء السنة والشيعة بحضور الأستاذ الكبير الشيخ عبد الكريم الزنجاني، فقد خطب فضيلته في وجوب تعاون علماء المسلمين جميعاً على دفع الخطر الخارجي عن الإسلام، وتوحيد الجهود لتقوية أصوله في نفوس أشياعه، فأيد فكرته غير واحد من الخطباء. ثم وضع المؤتمر قراراً لتأييد اقتراحه والعمل على تنفيذه...».

المتحدث الأول والثاني لم يبلغا في الرد على دولة رئيس الوزراء ما يشفي الصدور، وقد عرّض بالعلماء تعريضاً شديداً كان أقرب إلى التجريح والتقريع.. حتى وقع في نفوس الحاضرين أنه لم يَدْعُهم إلا لهذا!! فنهض السباعي بخبرته وبلاغة قلمه وحماسته فكال له الصاع صاعين، وحقق فوزاً باهراً على دولة الرئيس.. ببيان ساحر وأدب جم وجرأة أدبية عالية.. حتى شفى صدور الحضور، وكأنه إنما كان يعبر ـ في هذا الموقف الحرج ـ عما يريد كل واحد منهم أن يقوله أو يبلغه من الانتصاف لنفسه وإخوانه.

هذا الذي أكتبه ليس من عندي، ولكنه مما حدّثني به شيخنا الجليل العلاّمة فضيلة الشيخ حسن حبنكة الميداني رحمه الله رحمة واسعة، وكان من أبرز العلماء الذين حضروا الحفل المذكور.

وإذا كان السباعي لم ينسب شيئاً من ذلك لنفسه في ذلك اليوم المشهود ـ على عادة العلماء الدعاة المخلصين ـ فما أعجب المقادير التي جعلت الأستاذ الجليل الشيخ حسن حبنكة يحدثني بهذا الحديث.. ليذكر كل امرئ بعمله، أو لتوضع الأمور في نصابها ولو بعد حين.

كان فضيلة الشيخ حسن يتعاهد والدي بالزيارة بين الحين والحين، وكان والدي ـ تغمده الله بواسع رحمته وغفرانه، وجزاه عني أحسن ما يجزي عباده الصالحين ـ يَعدُّ نفسه من (مريدي) الشيخ، إذا استعملنا مصطلحات الصوفية في هذا السياق، وكنت أعدّ نفسي من طلابه وتلاميذه.. وبقيت لنحو عشرة أعوام أصلّي الجمعة في مسجده الذي

كان يخطب فيه بحي الميدان بدمشق ـ جامع مَنْجك ـ وكان خطيباً مفوّهاً مهيب الطلعة جليل القدر، عالماً بأحوال المجتمع والناس.. ومشاركاً في السياسة وصنع الأحداث..

وفي ضحى أحد الأيام من عام ١٩٦٠م ـ وكنت في العام الأخير من دراستي في الجامعة ـ شرّفنا الشيخ بزيارته بعد خروجه من زيارة لشيخ القرّاء بدمشق فضيلة الأستاذ الشيخ حسين خطاب رحمه الله ـ وكان بيته ملاصقاً لبيت الوالد رحمه الله ـ وشاء القدر أن يكون كتاب (اشتراكية الإسلام) للأستاذ السباعي في غرفة الضيوف، وكنت قد اقتنيته منذ بعض الوقت.. فدار الحديث حول اجتهاد السباعي في عنوان الكتاب وحول بعض الآراء والاجتهادات التي تضمّنها، والتي لم تكن محل موافقة من الشيخ حسن رحمه الله.

وكانت حماستي للكتاب شديدة، خصوصاً وأنني كنت قد استمعت إليه عندما كان ـ في أصله ـ محاضرة حاشدة ألقاها الأستاذ السباعي على مدرج جامعة دمشق، وقوبلت لا أقول بعاصفة ولكن بعواصف من التصفيق! فما كان مني وقد شعرت ـ أو توهمت ـ أن نبرة حديث الشيخ عن الأستاذ السباعي كانت حادّة بعض الشيء، إلا أن فتحت الكتاب على ملحق فيه بعنوان: (مع المعترضين: خطتان مختلفتان) وطلبت من الشيخ أن يقرأه أو يطلع عليه! لأن فيه كما زعمت رداً على اعتراضات أو ملاحظات الشيخ! وفي هذا الملحق يذكر الأستاذ السباعي أو يتَّهمُ «أكثر فقهاء الشريعة وعلمائها بأنهم بعيدون كل البعد عن تفهم مشكلات المجتمع الإسلامي الحديث..!» ولا أعتقد أني كنت موفقاً

يومها في هذا الذي فعلت لأسباب كثيرة لا تخفى. . ولكن الشيخ حسن رحمه الله بعد أن تصفح الفصل أو الملحق المذكور في دقائق لم يبد عليه أي انفعال، وكأنه عدّ ذلك من حماسة الشباب التي لا يوقَف عندها أو لا تستحق المساءلة والعتاب. . ثم قال لي: أحدثك أولاً عن ذكاء الشيخ مصطفى ومواهبه وجرأته في الحق. . وقصَّ عليَّ ما كان منه في أول مؤتمر عقده العلماء في دمشق. . وقال قريباً مما ذكرت قبل قليل. بل لعله أفاض في الثناء على هذا الشاب بأكثر مما قلت. وسماحة الشيخ هو الذي شرح الموقف الحقيقي لرئيس الوزراء على النحو المذكور قبل قليل. . رحم الله الجميع.

قلت: هذه المواهب كانت عند عالم جليل مثل الشيخ حسن حبنكة موضع إطراء وإعجاب. . لأنه كان يرى فيها دفاعاً عن الإسلام وقوة للإسلام والمسلمين. . ولكنها كانت عند آخرين موضع حسد، وباعثاً على تصيّد الأخطاء والبحث عن المثالب. . . وقد تصل عند نفر قليل إلى محاولة الإساءة والتشويه. . وليس هذا عالم النفوس البشرية فحسب، بل هي كذلك طبيعة الفروق بين العالم الحقيقي ومن لم يكن له من الانتساب إلى العلماء سوى حفظ بعض المسائل مرة! أو اتخاذ شاراتهم ولبس ثيابهم بعيداً عن أي تحصيلٍ علمّي مرة أخرى. وما تزال مثل هذه النماذج موجودة في جميع العصور[١].

---

(١) قال السباعي في كتابه: هكذا علمتني الحياة: «كلما عظم نفع الرجل لقومه كثر حاسدوه، وكثر محبّوه أيضاً» وقال: «الشجرة المثمرة تهفو إليه النفوس، =

وعلى أية حال فقد بقيت تجربة الأستاذ السباعي مع العلماء بوجه عام قاسية، وقد تقترب المسافة بين جماعته وجماعة العلماء مرة وتبتعد أخرى. وبقي السباعي يعبر على وجه العموم عن حاجات الجيل الجديد ويجيب عن تساؤلاته ويتجاوب مع تطلعاته. وإن كنا لا نستبعد السبب السياسي، بوصفه أحد الأسباب الفاعلة أو المؤثرة في هذه التجربة. ولا أعني بذلك الموقف السلبي للعلماء والمشايخ من السياسة والعمل السياسي.. ولكن أعني أن بعضهم عندما اتخذ من السياسة سلّماً للوصول إلى المال والمناصب لم يجد من العلماء الآخرين، أو من جمهورهم، سوى المناصرة والتأييد أو السكوت ـ الذي يفضي إلى هذه المناصرة ـ في أحسن الأحوال.

لقد عرَّض السباعي فيما نعتقد بالشيخ تاج الدين الحسني، وتحدث عن ممالأته للاستعمار الفرنسي، وسلكه في «العلماء الذين اتخذ منهم أعداء الإسلام أطوع أداة لتنفيذ مآربهم وإنجاح خططهم» قال: «ألم يكن في بلاد الشام واحد من هؤلاء بلغ أقصى مرتبة في الوظائف الدينية، فما هو إلا أن انغمس في السياسة، حتى تواطأ مع المستعمرين على امتصاص دم أمته وإفساد عقائدها وأخلاقها، فتسنَّى له بذلك أن يصل إلى أسمى مرتبة في الدولة..».

= وتتطلع إليها الأنظار، وتتساقط عليه الأحجار». وقال أيضاً: «ما يلقاه الرجل من حسد أقرانه أشد مما يلقاه من كيد أعدائه» الفقرات ٧١٩، ٧٢٠، ٧٢١.

ثم تساءل الأستاذ السباعي قائلاً: «ألم يكن هناك من العلماء من يشدّون أزره، ويدعون الناس إلى تأييده، ويحاولون أن يصرفوا الأنظار عن جرائمه وسيئاته؟»[1].

فإذا تذكرنا موقف الأستاذ السباعي من الكتلة الوطنية ومناصرته لاتجاهاتها العامّة ودفاعه عنها، وبخاصة في أيام الكفاح الأولى.. أو في الثلاثينيات.. أدركنا طرفاً مهماً من الأسباب السياسية - الإضافية - التي باعدت بينه وبين المشايخ في وقت مبكر.

وعلى الرغم من التقارب والتعاون الذي حصل في بعض المراحل أو المراقف، أو على الرغم من إقامة الجسور وهدم الحواجز الذي حصل فيما بعد، فإن مناهج التفكير ووسائل العمل بقيت متعددة أو متغايرة. وما كتبه السباعي في كتاب (اشتراكية الإسلام) المشار إليه بعد عشرين عاماً مضت على مقالاته النقدية التي تحدثنا عنها تشير إلى ذلك. فقد تحدث في هذا الكتاب عن فئة تؤمن بأن في الإسلام حلاً لمشكلات الأمة والمجتمع، «ولكنها لا تعرف كيف يحلها، وتظن أن من الممكن تطبيق الإسلام بنفس الأشكال التي طبقت في عصر الخلفاء الراشدين» ثم قال: «هؤلاء هم أكثر فقهاء الشريعة وعلمائها، وهم بعيدون كل البعد عن تفهم مشكلات المجتمع الإسلام الحديث، ويقفون منها دائماً

---

(١) مجلة الفتح - العدد السابق المشار إليه: (العلماء والسياسة) رقم (٥٨٧)، تاريخ ٣ ذي الحجة ١٣٥٦هـ.

موقفاً سلبياً، وكل ما يقدمونه للناس قولهم: إن الرجوع إلى الإسلام هو الذي ينقذنا من مشكلاتنا.. ولكنْ كيف؟ وإلى أي مدى؟ وما هو رأي الإسلام في المشكلات التي لم يعرفها السلف في عصور الخلفاء الراشدين فما بعدهم؟».

وأضاف: «وأبعد من هذا أنهم يحاربون كل اتجاه لحل هذه المشكلات في ضوء مبادئ الإسلام ومقاصده العامة، بل على ضوء تطبيق الرسول ﷺ نفسه لهذه النصوص، وفهم علماء السلف في عصور الاجتهاد لها فهماً نيِّراً صادقاً، يلتقي مع روح الإسلام وأهدافه العامة. إنهم يحاربون هذه الحلول في هذا الاتجاه، مستمسكين بنصوص للفقهاء أو لبعضهم حين جَمُد العقل الإسلامي، ورانت البدع على المجتمع الإسلامي، ونُسيت مقاصد التشريع، بل تُنوسي تاريخ الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين وتطبيقهم العملي الرشيد لتلك النصوص.

«إن الشريعة عندهم هي هذه (النصوص) والآراء الفقهية التي وضعت في عصور متأخرة، والتي لا يتلاءم كثير منها مع مشكلاتنا الحاضرة، ولا ينسجم مع روح الشريعة السمحة التي جاءت بالعدل والحق وسعادة الناس في دنياهم وأخراهم».

الروح الدعوية والبعد السياسي:

يصعب علينا الإحاطة بآفاق الدعوة التي نهض بها الداعية مصطفى السباعي، فضلاً عن الصعوبات التي واجهها، والعقبات التي اعترضته في الطريق.. وقد لا يكون ذلك جميعه من مهمتنا في هذه الدراسة،

ولهذا فإننا سوف نحاول الإشارة إلى تلك الآفاق، أو إيجازها من خلال التعريف، أو المقدمات التي كتبها هو بقلمه رحمه الله، بالإضافة إلى تقديم بعض الإيضاحات أو التفسيرات التي تضع تلك الآفاق في موضعها أو سياقها التاريخي، وتجعلها من ثم مفهومة أو مبرّرة في عالم الأسباب والمسببات. غير مغفلين أو غافلين في ذلك كله عن أثر الشخصية أو العامل الشخصي في ارتياد هذه الآفاق، وفي ملاحظة ذلك السياق الذي نعتقد جازمين أن مصطفى السباعي فهمه وأحسن التعامل معه.

ونحن لا نرتاب في أن السباعي رحمه الله طبع دعوة الإخوان في سورية بطابعه الخاص، وترك بصماته على أفكارها ومنهجها الإصلاحي ومسيرتها التاريخية بوجه عام أو حتى واقعة مرضه في أواخر عام ١٩٥٧م؛ أي مدة خمسة عشر عاماً أو ستة عشر عاماً.

فإذا تذكرنا أنه كان في الثالثة عشرة من عمره حين تعرّف على مجلة (الفتح)، وبدأ مسيرة الإصلاح والعمل العام؛ علمنا أنه حين تصدّى لقيادة حركة الإخوان، أو عندما ألقت المقادير على عاتقه مهمة القيادة والتأسيس، أو إعادة التأسيس ـ بعبارة أدق ـ كان قد أمضى حياة حافلة بالعمل، ارتقت به إلى تلك الدرجة العالية من النضج الفكري والدعوي والسياسي كما أشرنا إلى طرف من ذلك قبل قليل.

أقول (إعادة التأسيس) وأنا ألاحظ أن تأسيس (الجمعيات) التي (وحّدها) وقادها كان سابقاً لهذه القيادة ببضع سنوات..

ولهذا كان بقيادته التاريخية طيلة المدّة المذكورة قادراً على معالجة أي نتوء أو نزوع إلى ذلك الطابع (الفردي) للتأسيس. . بل إن مثل هذا النزوع ما كان له أن يظهر في ظل تلك القيادة. . ولا نعتقد ـ بهذه المناسبة ـ أن الأمر كان من الممكن أن يبقى على هذا النحو في ظل قيادات ليست في وزن قيادة السباعي رحمه الله.

إن السياق التاريخي الذي أشرنا إليه يذكّرنا بالتحديات والأفكار السائدة في عصر السباعي أو التي واجهها وحاول التصدي لها وبيان الموقف منها. .

وإذا لاحظنا أن أبرز تلك الأفكار كانت القومية أو الأفكار القومية والاشتراكية التي كانت تستبطن العلمانية بشكل عام، أو: (الحداثة الغربية) بشروطها العلمانية الإقصائية للدين، أو مناصبته العداء في كثير من الأحيان؛ فإن عبئاً كبيراً ومهمة جليلة وقعت على كاهل زميل الأستاذ السباعي وأخيه في حقل الدعوة والعمل العام الأستاذ محمد المبارك رحمه الله. ونحن لا نبعد إذا قلنا: إن أستاذنا المبارك هو الوحيد الذي شارك الأستاذ السباعي في مهمة النقاش العلمي الموضوعي والمعمّق للأفكار القومية، وقام في الوقت نفسه أو بوجه عام بقسط كبير في بناء القاعدة الفكرية لشباب الإخوان. . بهدوئه وأناته وما كان يتمتع به رحمه الله من ذكاء وقّاد، وسياسة حكيمة، واطلاع واسع على الأفكار والثقافات من خلال صلاته بمختلف التيارات، وتمكنه من ناصية اللغة الفرنسية.

نعود للحديث عن (**الروح الدعوية**) كما يمكن أن تدعى ، لنقول : إن الأستاذ السباعي رحمه الله خط بقلمه ألوف الصفحات في الصحف والمجلات، وألقى مئات الخطب والمحاضرات. كما قام بتأليف العديد من الكتب والرسائل في حقول العلم والحضارة والاجتماع. ولا يصعب على الناظر في هذا كله. . أو المتتبع له أو المتابع أن يلمس روح الداعية تسري في كل جانب من جوانبه، وطرف من أطرافه. . ولا استثناء في ذلك لكتاب مثل (السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي) الذي نال به درجة العالمية من درجة أستاذ (الدكتوراه) من الأزهر. . أو لشرح قانون الأحوال الشخصية (السوري ـ المقارن) وحتى لكتابه في الوصايا والفرائض أو أحكام المواريث. .

ويعود السبب في ذلك إلى مهمة الإصلاح الذي ندب نفسه له، و(التحدي) الذي كان يحسّ به في ذلك العصر المضطرب الذي تتنازعه الأهواء والتيارات. . والذي كان عليه أن يدافع فيه عن الحضارة الإسلامية والمجتمع الإسلامي ـ في مقابل الحضارة الغربية والمجتمعات الأوروبية على وجه الخصوص ـ وأن يعمل على تثبيت عقائد الإسلام وقيمه ومبادئه وأحكامه في النفوس والعقول، ويزرعها في تربة الشباب أو الجيل الذي سوف يقع على عاتقه عبء البناء والنهضة والتقدم، بل كان يتوجب عليه ـ قبل ذلك ومعه ـ أن(يصحّح) صورة الإسلام في عقيدته وأحكامه، على النحو الذي انتهت إليه في أواخر العهد العثماني، أو في أعقاب هذا العهد، الذي شاع فيه الجبر والتواكل، وجمدت فيه الثقافة الإسلامية عند حدود موروثات فقهية بيئية

محدودة وأخرى قاصرة منذ أن دخل المسلمون في عصر الركود أو (الفتور) ـ إذا استعملنا مصطلح عبد الرحمن الكواكبي رحمه الله ـ من سنوات طوال.

ومن هنا كان الحديث عن السباعي الداعية ميسوراً أو سهلاً، لأن الكاتب سوف يجد (الداعية) حيث نظر في أي طرفٍ من تلك الكتب والمقالات، لكن الأمر ليس كذلك لمن أراد الجمع والاستقصاء، وملاحظة مراحل الكتابة وزمن التأليف؛ لأنه سوف يجد نفسه أمام بحر زاخرٍ من المعارف والتجارب، وبخاصة إذا حاول أن يمتحن أو يفسر الحِكَمَ التي ضمنّها كتابه: (هكذا علمتني الحياة) في ضوء التجارب الطويلة المديدة التي مرّ بها أو عصفت به، أو ـ كما قلنا في مقدمتنا لكتابه (عظماؤنا في التاريخ) ـ التي «عاشها بكل جوارحه وأحاسيسه، وآلامه وآماله، اهتدى بنورها مرة، واكتوى بنارها مرة، وعاش في دخانها وظلالها مرات ومرات»[1]. ولكن أيُّ طول هذا وقد توفي وهو في الخمسين أو التاسعة والأربعين؟ ويأتي الجواب في واحدة من هذه الحكم ذاتها حين قال: «الحياة طويلة بجلائل الأعمال قصيرة بسفافها»!.

وأعتقد أن استعراض أعمال السباعي الداعية، في مختلف الحقول التي أشرنا إليها، ومن أي منظور كان، سوف يكون موضع دراسة أو دراسات جامعية معمّقة تتناولها بالتصنيف والدراسة والنقد والتحليل

---

(١) من مقدمتنا لكتابه (عظماؤنا في التاريخ)، ص٦؛ المكتب الإسلامي ـ الطبعة الرابعة ١٩٨٥م.

ويخاصة من قبل طلبة كليات الدعوة وأقسامها في الجامعات.

ونكتفي برسم ملامح دعوته أو (دعوة الإخوان) على النحو الذي خطه بقلمه أو أسسه نظرياً، وترك ما استطاع منه ماثلاً في واقع التطبيق.. مع الإشارة أو التأكيد على أن انتقال السباعي بتلك الجمعيات الدينية التي كانت قائمة إلى دعوة الإخوان، صحبه نقلة مهمة لا على مستوى القيادة المتميزة فقط، ولكن كذلك على مستوى أبعاد الدعوة أو الدعوات التي كانت تنهض بها هذه الجمعيات. وأخص منها البعد السياسي الذي جاء في نطاق منظومة الشمول التي ميّزت فهم الإخوان للإسلام أو ميّز دعوتهم في العصر الحديث.

وهكذا اشتغل الإخوان بالسياسة، لا على أنها كل عملهم، ولكن على أنها جزء من دعوة الإسلام؛ يقول السباعي: «ليس الإخوان المسلمون حزباً سياسياً بالمعنى المفهوم من كلمة (حزب) في عرف الناس، وإنما دعاة إسلام، آمنوا به على أنه رسالة الانقاذ والتحرر والقوة والحضارة، واعتنقوها على هذه الأسس، ونادوا بها في الناس بهذا المفهوم، ونذروا أنفسهم لتحقيقها في المجتمع كرسالة سامية لأبناء الوطن جميعاً، وبذلك لم يسعهم إلا أن يساهموا في الحركات السياسية، لا غاية يسعون إليها، بل وسيلة لتحقيق فكرة الإسلام التي آمنوا بها».

بل إن السباعي يذهب إلى القول: إن هذا الفهم للإسلام هو جوهر المشكلة بين الإخوان والأحزاب السياسية جميعاً، قال: «وهذا النزاع ينحصر في نقطة جوهرية ـ هي بالنسبة لدعوة الإخوان كالأساس من البناء وكالعمود الفقري من جسم الإنسان ـ وهي أن الإخوان يرون بحق أن

الإسلام دين وسياسة، عبادة وقيادة، مصحف وسيف؛ نظام شامل كامل يهيمن على جميع مرافق الحياة» وأضاف: «والأحزاب تنكر على الإخوان هذا الفهم الصحيح للإسلام، وتريد أن تحصر هذا الدين في الصوامع والمساجد، وتفصل بينه وبين السياسة والحكم ونظم الحياة! كما فعلت أوروبة، متجاهلة الفرق بين المسيحية والإسلام..»[1].

الدعوة: ضرورات وشبهات

هذه الحركة التجديدية التي قامت على هذا الفهم (الشمولي) للإسلام - والذي جاء كما قلنا في أعقاب عصر الركود والفهم المغلوط للإسلام، ولدور الدين في المجتمع والسلطة - كان لا بد أن تثار في وجهها الشبهات وتوضع في طريقها العقبات من أطراف شتى..

وقد وصف السباعي هذه الأطراف - على اختلاف نزعاتها ومشاربها - بالخصوم، ورفض أن يطلق على أي ممن اختلف معهم في نطاق الوطن بالأعداء! لأن هذا الوصف عنده خاص بالعدو (الخارجي) الذي يهدد الوطن خارج الحدود[2].. وكما يخاصم الولد أباه والأخ

---

(١) دروس في دعوة الإخوان المسلمين، ص١٧٨؛ منشورات قسم الطلاب - دمشق ١٩٥٥م.

(٢) قال: «لا تطلق لفظ (العدو) إلا على الأجنبي المحارب؛ أما المواطن الذي تختلف معه فهو (خصم) والعدو لا تنفع معه إلا الشدة، والخصم يفيد معه كثيراً حسن الخلق، والإغضاء عن الإساءة، وترك الفرصة ليفهمك»؛ الفقرة رقم (١٠٧) من كتابه: هكذا علمتني الحياة-القسم الثاني. المكتب الإسلامي.

أخاه، والزوجة زوجها ـ في ساحة القضاء ـ تحدث السباعي عن الخصومة التي قامت ـ في ساحة الوطن ـ بين دعوة الإخوان وسائر الأحزاب، التي قلّصت دور الدين في حياة المجتمع والدولة، أو حاولت في بعض الحالات الشاذّة ـ الحالة الشيوعية حصراً أو على سبيل المثال ـ إلغاء هذا الدور! وقد اشتدت هذه الخصومة، أو اشتطت مع النجاحات الباهرة التي حققتها الدعوة، والمد الجماهيري الذي أصابته، أو وصلت إليه بعد أحد عشر عاماً أو بضعة عشر عاماً مرّت على التأسيس والانطلاق.

في الثاني من شهر جمادى الآخرة ١٣٧٤هـ الموافق ٢٥/ ١/ ١٩٥٥م كتب السباعي يقول: «لقد نشأت دعوة الإخوان المسلمين في سورية منذ بضعة عشر عاماً، وتطورت حتى بلغت ما بلغت إليه اليوم من سعة وقوة، وحتى غدت محط آمال المسلمين في الدفاع عن دينهم، وتحرير مجتمعهم من الفساد والانحطاط، وتحرير وطنهم من الضعف والاستعمار. وهذه الدعوة التي برزت على الناس، في سورية ومصر وبلاد العرب والإسلام منذ ربع قرن تقريباً، وما تزال شغلهم في الحديث عنها حتى اليوم؛ جديرة بأن يزاح عنها ستار الأضاليل التي أقامها أعداء الإسلام حولها! فلقد زعموا أنها **دعوة رجعية** تريد أن ترجع بالمسلمين إلى الوراء عشرة قرون أو تزيد، وزعموا أنها **دعوة طائفية** تثير النعرات بين أبناء الوطن الواحد، وزعموا أنها **دعوة استغلالية** تقصد استغلال السذّج في عواطفهم الدينية البريئة. . وهكذا ذهبوا في الزعم طرائق قددا».

ثم قال: «والله يعلم أنها بريئة من كل ما اتهموها به. وقد أثبت تاريخها الحافل بجلائل الأعمال أنها فوق مستوى الشبهات في أهدافها

ووسائلها، وأنها أصدق حركة إسلامية في العصر الحديث، وكان لها من التأثير في المجتمع الإسلامي ما لم يكن لحركة ما في التاريخ الإسلامي كله. وعلى قدر نجاحها في إيقاظ المسلمين، وإظهار عظمة الإسلام، ومقاومة الضلال والفساد والطغيان والاستعمار، كانت ـ وستكون ـ أكاذيبُ أعداء الإسلام نحوها، وعملهم على محاربتها بكل وسيلة ممكنة»[1].

ولابدّ قبل إيجاز القول في أهداف الدعوة ووسائلها، وفي أعمالها وإنجازاتها.. من الإشارة إلى أن السباعي رأى في هذه الدعوة ـ في ظل الأوضاع السائدة ـ ضرورة ملحّة، ولكنها ليست ضرورة دينية واجتماعية ووطنية فحسب، بل رأى فيها كذلك ضرورة قومية وإنسانية[2].. إنها إذاً ضرورات عدّة.

فالضرورة الدينية من أجل إعادة المسلمين إلى صفاء الإسلام وقوته وسعة آفاقه، والعمل على كشف وجوه الخير فيه، ونواحي القوة والصفاء والروعة في عقيدته ونظامه.

والضرورة الاجتماعية لأن كل ما نحاوله من إصلاح الحقل الداخلي في المجتمع سيذهب عبثاً ما لم يستند إلى جذور عميقة في نفوس الشعب.. وهذه الجذور لن تكون بالعلم وحده، ولا بالتربية

---

(١) دروس في دعوة الإخوان المسلمين، ص٧.

(٢) انظر تفصيل القول في هذه الضرورات في المصدر السابق، ص١٤٤ ـ ١٥٢.

الوطنية وحدها، ولا بالتربية القومية. . «ولا بغير ذلك من كل ما يلهج به دعاة المذاهب الفكرية والسياسية في عصرنا الحاضر. . وإنما يكون بالدين حين يفهم على وجهه الصحيح».

أما **الضرورة الوطنية** فلأن المعاني النبيلة الكثيرة التي يتطلبها الوطن من أبنائه إنما تدور حول أمرين رئيسين:

١ ـ الوحدة في العاطفة والشعور بين أبنائه قاطبة على اختلاف أديانهم وأعمالهم.

٢ ـ التضحية في سبيل المصلحة العامة بما يحرص عليه كل إنسان من نفس ومال وراحة ولذة.

ولا خلاف على أن الدين هو الذي يغرس هذه التضحية في نفس المؤمن خالصة لوجه الله.

أما الوحدة في العاطفة والشعور فإنها لا تتجلى في شيء كما تتجلى في عمل الدين، لأنه «يغرس في أتباعه وجوب التعاون مع الناس على الخير ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]. ولأنه هو الذي يضع مقاييس التفاضل في المجتمع لا على أساس الجاه والحسب والثراء والقوة، بل على أساس التفاضل في التقوى. وهي عمل الخير للنفس وللناس جميعاً: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال النبي ﷺ: «الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله».

ولم يفت السباعي أن يشير في هذا السياق إلى أن هذه التربية الدينية العميقة تغرس التسامح غرساً بين أبناء الديانات المختلفة، فلا يكون اختلاف الناس في الأديان أداة من أدوات التفرقة[1].

ونقف قليلاً عند الضرورة القومية لنرى السباعي يقرُّ المعنى القومي، ويشيد بخصائص العروبة، ويتحدث عن الأمة العربية، في الوقت الذي ينفي عن هذه القومية معنيين اثنين هما:

المعنى الجاهلي، والمعنى النازي والفاشي.. أو بحسب عبارته: «قومية الجاهلية وقومية العدوان». وقال: إن قومية الجاهلية يراد بها «الاعتزاز بالجنس إلى درجة تؤدي إلى انتقاص الأجناس الأخرى، والعدوان عليها، والتضحية بها في سبيل عزة أمةٍ وبقائها...»[2]. وكأني به في هذا وذاك يرفض طروحات كل من ميشيل عفلق وزكي الأرسوذي.

وهو مع ذلك لا يتنكر لخصائص العروبة ولا ينكرها، ولطالما ندّد بالشعوبية والشعوبيين في مقالات ومواقف كثيرة؛ قال: «ولسنا مع ذلك ننكر خصائص الأمم ومميزاتها الخلْقية، فنحن نعلم أن الشعوب في هذا تتفاوت وتتفاضل، ونعتقد أن العروبة لها من ذلك النصيب الأوفى..»[3] إنما تعني القومية عنده وحدة شمل الأمة الواحدة وتحررها

---

(١) المصدر السابق، ص١٤٨.
(٢) المصدر السابق، ص٦٦.
(٣) المصدر السابق، ص٦٧.

ونهضتها؛ قال: «وأمّتنا العربيـة اليوم تكافح في سـبيل وحدة أجزائها المبعثرة، وتحررها من الاستعمار والطغيان، ونهوضها حتى تكون أمة قوية عالمة تعيد سيرتها في التاريخ».

وأضاف: «والإخـوان المسـلمون يتبنّون مثل هذه الأهـداف، ويعملون لها، فهم يؤمنون بوحدة العرب وتحررهم ونهضتهم، كما يؤمن بذلك دعاة القومية، ويزيدون عليهم ربط العرب حين يتحررون وينهضون بشعوب العالم الإسلامي».

والقومية بهذا المعنى ليست فقط لا تتعارض مع الإسلام، بل هي بحاجة إليه من ناحيتين: مادية ومعنوية. قال: «أما حاجة القومية العربية إلى الإسلام من الناحية المعنوية فهي أنها لا تستطيع إلا أن تتبنى نظام الإسلام كفلسفة لها ونظام يجعلها بين القوميات ذات رسالة إنسانية كاملة كريمة.

وأما حاجتها إلى الإسلام من الناحية المادية فهو أن الإسلام يجمع حولها خمسمئة مليون مسلم يعدُّون تاريخ العرب تاريخاً لهم، وأبطال العرب أبطالهم؛ وتراث العرب تراثهم»[١].

وقد احتلت قضية العرب والعروبة مكاناً بارزاً في فكر السباعي ودعوة الإخوان ـ في وسطٍ تناول هذه القضية تناولاً مغلوطاً، أو اتّخذ منها سلّماً لتوهين العقيدة ورباط الإسلام ـ حتى إنّه عدّ (توحيد العرب

(١) المصدر السابق، ص١٥٠.

والمسلمين) أحد أهداف دعوة الإخوان، وقد حدّد هذه الأهداف في خمسة. ونورد فيما يلي رأيه في هذا الهدف استكمالاً لما أسماه الضرورة القومية، قبل أن ننتقل للحديث عن سائر هذه الأهداف في الفقرة التالية:

قال السباعي: «هذا الوطن العربي الكبير واحد في جغرافيته ولغته وعقائده وأخلاقه وتاريخه وخصائصه؛ فيجب أن يكون كذلك في واقعه السياسي. هكذا آمن الإخوان بوحدة الوطن العربي، وهكذا يعملون لتوحيد الأمة العربية في هذه الكيانات المجزأة المبعثرة التي أقامها الاستعمار لتكون لقمة سائغة لمطامعه وعدوانه»[1].

«وهذا العالم الإسلامي الذي يضم ما يزيد على خمسمئة مليون.. ويحتل أخصب الأرض وأهمها في كل من آسية وأفريقية، يشكل وحدة عقائدية لا مثيل لها في الكيانات السياسية القائمة على وحدة العقيدة في عصرنا الحديث.. وهو يشكل قوة سياسية هائلة تستطيع أن تكون مركز الثقل في الصراع السياسي العنيف بين الشرق والغرب، وهو في حد ذاته قوة كبرى للأمة العربية، يمنحها نفوذاً سياسياً واقتصادياً وفكرياً.. وليس فيه أي ضرر بمصالحها وكيانها الخاص بها».

قال: «ومن أجل ذلك يؤمن الإخوان المسلمون بوجوب تكتل العالم الإسلامي في اتحاد سياسي واقتصادي كالاتحاد السوفييتي - على سبيل المثال - وفي ظل هذا الاتحاد يستطيع العرب، وكل شعب من

---

(١) المصدر السابق، ص١٤.

شعوب العالم الإسلامي أن يعملوا لبلادهم ولكياناتهم الخاصة في إطار من التعاون العملي، الذي يجعل منهم أمة مرهوبة الجانب، محترمة الكيان، تلعب دوراً خطيراً في صيانة السلام في العالم، وتوفير الرغد والأمن لشعوبه».

ويخلص أخيراً إلى تقرير الملاحظة أو النتيجة التالية في هذا الرابط أو الاتحاد بين الأمة العربية والعالم الإسلامي؛ فيقول: «إنّ تعاون العرب مع العالم الإسلامي لا يضرهم، بل يجعلهم في مكان القيادة لهذا العالم الفسيح. وهي قيادة لا يستهين بها إلا من جهل قدر نفسه وأمّته، وناءت كواهله بحمل أعباء المجد، ودفع ثمن الخلود!»[1].

ولا نعتقد أن تعريضَه هذا بمن حاول الانتماء إلى (العالم الاشتراكي) أو منظومة الدول الاشتراكية أو عدَّه الدائرة الاشتراكية هي التي تلي الدائرة العربية أو القومية.. لا نعتقد أن هذا يحتاج إلى تعليق[2].

أهداف الدعوة وأبعادها الإصلاحية:

حدد السباعي مهمة الإخوان المسلمين بالأمور الثلاثة التالية:

١ ـ تربية جيل تتمثل فيه أخلاق الإسلام وعقيدته، ويحمل في

---

(١) المصدر السابق، ص ١٤ ـ ١٥.

(٢) راجع مقالة للدكتور السباعي بعنوان (لماذا حاربت القوميات الدين في أوروبة؟) في مجلة (المسلمون)، ص٨١؛ السنة الثانية ـ العدد الأول؛ القاهرة. تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٢م.

الحياة رسالة الإسلام ويسعى إلى تحقيق نظامه.

٢ ـ الدفاع عن الإسلام كدعوة ودولة ونظام، ورد عادية المعتدين على الوطن الإسلامي، وكفّ أذى الظالمين حكاماً أو أفراداً.

٣ ـ رفع مستوى الشعب في عقيدته وتربيته وثقافته ومعيشته حتى يصل إلى المستوى الإنساني الكريم الذي يريده الإسلام، وإقناعه أن سعادته به[١].

وقد جعل السباعي السبيل إلى تحقيق هذه الأهداف: إصلاح الفرد والأسرة والمجتمع. بالإضافة إلى الكفاح ضد الاستعمار، وتوحيد العرب والمسلمين الذي أشرنا إليه قبل قليل. وشرح نواحي الإصلاح وآثاره في الأهداف الثلاثة الأولى، ونشير من ذلك إلى طرف من رأيه في الأسرة والمجتمع:

قال في إصلاح الأسرة: «**وإنما يتم ذلك بتربية المرأة وتعليمها تعليماً يهيئها لتنهض برسالتها في المجتمع كزوجة عفيفة مخلصة، توفر لزوجها وأطفالها الراحة والسعادة، وكأم مربية فاضلة تمد الأمة بأكرم نشء وأقومه أخلاقاً، وأصلبه عوداً**».

وقال: «**وعلاقة الزوج بزوجه، والأولاد بأبيهم وأمهم، علاقة متكاملة تقوم على التوازن بين الحقوق والواجبات**».

---

(١) دروس في دعوة الإخوان المسلمين، ص١٦٤.

وقال في **إصلاح المجتمع**: إن الإسلام يتشدد في بناء المجتمع على الأسس التالية:

١ ـ التحرر من الجهل والخوف والرذيلة والجوع والمرض والمهانة[1].

٢ ـ النظام القائم على الشورى، والذي يجمع ـ في توازن محكم ـ بين القوة والرحمة، والعدالة والتسامح، ويحفظ فيه حق الفرد وحق الجماعة، قال: «فإذا تعارضا كان حق الجماعة أرجح، ورعاية مصلحتها أوجب».

٣ ـ أما الأساس الثالث فهو «القوة التي تحفظ الأمة في داخل المجتمع، وتصد العدوان عن حدوده وسيادته، وتحارب الظلم والطغيان أينما كان، وتمد يد الإنقاذ لكل مضطهد مظلوم»[2].

كانت الدعوة إذاً ذات أبعاد إصلاحية، ولم يشر السباعي إلى أي بعد ثوري أو (كفاحي) إلا عند حديثه عن (كفاح الاستعمار). . بل إنه ـ كما سنرى بعد قليل ـ لمّا تحدث عن أعمال الإخوان أو الإنجازات التي

---

(١) قال: «وهذا هو هدف اشتراكيته المتميزة عن مختلف أنواع الاشتراكية بواقعيتها واتزانها وروحانيتها».

(٢) المصدر السابق، ص١٢ ـ ١٣؛ وانظر حول أصول هذا الأساس وأسبابه مقالاته في مجلة الفتح القاهرية: العدد ٤٥٦ بتاريخ ٢ جمادى الأولى ١٣٥٤هـ بعنوان: (قوة الحق وحق القوة)؛ والعدد (٥٧٨) بتاريخ ٢٩ رمضان ١٣٥٦هـ بعنوان: رمضان يحاضر.

حققوها على أرض الواقع عبر عنها كذلك بـ (الإصلاحات) التي شملت عدة ميادين[1] وهذا أمر طبيعي في وسط التنافس الحزبي الديمقراطي، ومشاركة الأستاذ السباعي والإخوان في الحياة السياسية والبرلمانية السورية. ويقي الأمر على هذا النحو طيلة فترة قيادة السباعي بل طيلة حياته رحمه الله، بل طيلة استقرار الخط العام للدعوة.

ولكن السباعي الثائر الذي عرفناه في فتوته السابقة وكفاحه ضد الاستعمار والاحتلال في مصر والشام.. يعود ليجعل من هذا الكفاح المستمر أحد أهداف الإخوان المسلمين.

ولكن الجديد الآن أنّ السباعي يضيف إلى كفاح الاستعمار كفاح آثاره وأعوانه من طغاة ومستبدين.. ملاحظاً أن الطغيان والاستبداد كان دائماً في خدمة الاستعمار والاحتلال.

يقول السباعي: «والإخوان المسلمون لا يرون لكفاح الاستعمار حداً يقفون عنده، حتى تتحرر أمتهم من كل آثاره العسكرية والسياسية والاقتصادية والفكرية. وهم لا يرون استعماراً أولى بالمهادنة من استعمار؛ فكل عدوان على بلادهم وعلى عقائدهم وعلى كرامتهم وأموالهم يعد استعماراً تجب محاربته بكل وسيلة، حتى تكون مقدراتهم بأيديهم، وثرواتهم تحت تصرفهم تستعمل لمصلحتهم وخير بلادهم».

ويضيف: «ويرى الإخوان أن كفاح أعوان المستعمرين من طغاة

---

(١) الدروس: مرجع سابق، ص١٥٣.

ومستبدين ومستثمرين هو كفاح للاستعمار ذاته، لا يهادنون فيه أحداً! فمن استبد بشؤونهم، وامتصَّ دماءهم، ونعم بالترف والرفاهية على أشلائهم وشقائهم وجهالتهم، كان ظالماً باغياً يجب كفاحه حتى يفيء إلى أمر الله، وينزل عند إرادة الشعب، ويطهر يده من دمائه وأمواله وأعراضه».

ثم يجمع بين الفريقين ـ المستعمرين وأعوانهم ـ في أن كفاحهم عبادة يتقرب بها إلى الله وتشترى بها الجنة، فهي كالصلاة والصوم «بل إن الله لا يقبل صلاة ولا صياماً ممن يفرط في جهاد أعداء الأمة أو يقبل سلطانهم على أمته وبلاده».

ويستدل على هذا الحكم أو هذا الاجتهاد بقياس رائع على حديث نبوي شريف؛ «فقد قيل لرسول الله ﷺ: إن امرأة تقوم الليل وتصوم النهار ولكنها تؤذي جيرانها! فقال هي في النار!». فلم تشفع لها صلاتها ولا قيامها من عذاب الله وهي تؤذي جيرانها. قال السباعي: «فكيف بمن يؤذي أمّته بممالأة المستعمر، وتأييد الطاغي، وتملّق الظالم؟»[1].

الداعية والدعوة: الأعمال والإنجازات[2].

أشرنا قبل قليل إلى أن السباعي عبّر عن هذه الأعمال والإنجازات بالإصلاحات. وقد شملت هذه الإصلاحات الميادين الثقافية

---

(١) دروس في دعوة الإخوان المسلمين، ص١٣.
(٢) راجع في هذه الفقرة المصدر السابق، ص١٥٣ ـ ١٦٣.

والاجتماعية والسياسية. ونحاول تلخيص القول في هذه الميادين بأقل قدر ممكن من السطور والكلمات:

أ ـ في ميدان الإصلاح الفكري والثقافي:

لم يتردد السباعي في القول: إن أول ما عنيت به الجماعة إصلاح العقيدة الإسلامية مما علق بها من آثار الجهالات والخرافات، وفي القول إن الدعوة أصابت في ذلك نجاحاً ملحوظاً «فتقلّص نفوذ الخرافيين والمدجّلين والمرتزقين باسم الدين، كما تقلّص نفوذ الزعماء المستغلّين والأغنياء المستثمرين».

ثم نجحت الدعوة في بَلْوَرة المفهوم الحقيقي للإسلام ـ بعد غياب طويل ـ فبعد أن كان جمهور المسلمين يفهم الإسلام عبادات ظاهرية، وأنه بُعدٌ عن الحياة وتخلٍّ عن الدنيا، في الوقت الذي كانت تسري بينهم «روح تعصبية عمياء، تسيء إلى جمال الإسلام وسماحته وتعاليمه.. جاءت الدعوة تبين للمسلمين أن حقيقة الإسلام في ذاته: سماحة في التعامل، وصدق في القول، ورغبة في نفع الناس جميعاً، ثم نظام شامل لشؤون الحياة، يصلح الفرد والأسرة والشعب والحكومة».

كما «أعلنت الدعوة وجوب تحرير التعليم من آثار الاستعمار وتوجيهه، بحيث يكون الهدف منه إنشاء جيل مؤمن قوي منتج يبني مجد أمته على أساس من الإيمان والعلم الناضج، والأخلاق النبيلة..».

في الوقت الذي أسست (المعهد العربي بدمشق) على إثر حوادث العدوان الفرنسي، وقد انضمّ إليه فيما بعد: مدرسة التمدن الإسلامي ـ

بناء على اتفاق بين القائمين على المعهد ومدرسة التمدن[1] ـ وأصبح اسم المعهد بعد ذلك: (المعهد العربي الإسلامي)، وكان له نظراء أو معاهد مماثلة في كل من حمص وحماة وحلب.

ب ـ في ميادين الإصلاح الاجتماعي:

١ ـ أول ما تجب الإشارة إليه: تبنّي حركة العمال، وإنشاء المدارس لتعليمهم، ومحاربة الأميّة في وسطهم، وقد تمَّ افتتاح هذه المدارس في كل مركز من مراكز الدعوة في المحافظات، وفي كل الفروع الكبيرة في القرى.

ويمكن القول هنا: إن دعوة الإخوان عنيت أكثر ما عنيت بالطلاب والعمال، بل إنها أقامت عملها في ميدان الدعوة والإصلاح العام على دعامتين كبيرتين هما **الطلاب والعمال** ـ وفي هذا تأكيد على الأبعاد الإصلاحية للدعوة كما قلنا قبل قليل ـ يقول الأستاذ السباعي: «لقد حملت الدعوة عبء توجيه العمال إلى الخير، وإفهامهم حقوقهم وواجباتهم، فأنشأت لهم المدارس.. وألقت عليهم المحاضرات، وشجعتهم على تأليف النقابات.. كما تبنت مطالبهم العادلة، ودافع عنها نواب الإخوان في المجلس النيابي، وكان لهم فضل كبير في النص

---

(١) مدرسة التمدن أسستها جمعية التمدن الإسلامي بدمشق التي كان يرأسها الأستاذ المجاهد أحمد مظهر العظمة رحمه الله. وهي إحدى الجمعيات الدينية التجديدية على أصول السلف، وكانت تصدر مجلة باسم (التمدن الإسلامي).

على حقوق العمال في الدستور السوري».

ويضيف الأستاذ السباعي قائلاً: «وقد كانت مدارسنا قبل عهد الطغيان الذي حلَّ الجمعية وصادر مؤسساتها تضم ما يزيد على خمسة آلاف عامل يتعلم أكثرهم بالمجان، وتؤخذ من بعضهم في بعض المدارس رسوم بسيطة».

ويشير السباعي بعهد الطغيان إلى عهد أديب الشيشكلي الذي كان للأستاذ معه مواقف سوف نشير إلى بعضها فيما بعد.

٢ ـ وقد وجهت الدعوة كذلك عنايتها إلى **القرية**، وعملت على رفع مستوى **الفلاح** فيها، فأخذت تطالب بإنصاف الفلاح، ورفع مستواه وتحقيق العدالة الاجتماعية في محيطه، يقول الأستاذ السباعي أو يضيف: «ولنواب الدعوة وخطبائها وكتّابها مواقف مشهورة في الدفاع عن كرامة الفلاحين وحقوقهم. كما نظمت الدعوة رحلات أسبوعية إلى القرى يتوجه فيها أطباء الإخوان وعلماؤهم وطلابهم وفتيانهم في كل مركز إلى القرى المحيطة به، ويرشدون الفلاحين إلى الطرق الصحية التي تحفظ لهم صحتهم، وتدفع عنهم الأمراض، كما ترشدهم إلى ما يجب أن يكونوا عليه من خلق وتعاون ووئام»[١].

٣ ـ دعا الإخوان إلى «**إنصاف الطبقات المظلومة**، وإلى تنفيذ أحكام الإسلام في نظامه المالي، كما وقفوا في وجه **الإقطاعية المجرمة**

---

(١) دروس في دعوة الإخوان السملمين، ص١٥٦ ـ ١٥٧.

التي تعيش على بؤس الجماهير وشقائها، وقد وفّقوا في ذلك إلى حد كبير، واستجابت الجماهير لدعوتهم»[1].

وقد علل الأستاذ السباعي هذه الاستجابة بأن «اشتراكية الإخوان المسلمين تقوم على أساس الإسلام الذي تؤمن به الجماهير وتقدسه» بل لقد جعل الدعوة إلى «الاشتراكية الإسلامية» أحد إنجازات الإخوان في الحقل الاجتماعي، وتنبأ بأن هذه الاشتراكية «هي التي سوف تشقُّ طريقها في المستقبل إلى الخلود، وهي التي تحقق ما تصبو إليه الجماهير من حياة رغدة كريمة دون فتنٍ أو ثورات أو إراقة دماء»[2].

وقد عبر السباعي بلفظ أو مصطلح «الاشتراكية» عن النظام المالي في الإسلام، وعن مبادئ التملك، ونظرة الإسلام إلى المال. وسوف نفرد لهذا الاجتهاد من قبل الشيخ رحمه الله فقرة خاصة فيما بعد، نظراً لما أثير حوله من تساؤلات، وتوجه إليه من انتقادات.

٤ ـ ونكتفي هنا بالإشارة إلى أن (**أعمال التعاون الخيري**) التي قامت بها مراكز الإخوان كانت منطلقة من روح العدالة الاجتماعية في الإسلام أو (من الروح الاشتراكية الإسلامية) بحسب عبارة الأستاذ السباعي. قال رحمه الله: «بهذه الروح تأسست لجان في كلِّ مركز لجمع **الإعلانات** والتبرعات من أعضاء الجماعة وأصدقائهم، وتوزيعها على

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

المحتاجين من المرضى والمنقطعين، ورفع مستوى المعيشة لبعض العائلات الفقيرة. . كما نظموا في بعض المراكز أياماً في السنة باسم (يـوم الفقير) ألّفوا فيـه لجاناً طافت على الأسـواق والأحياء لجمع الإعانات للفقراء في بدء مواسم الشتاء، وكان لها أثر محمود في تأمين المواد اللازمة في فصل الشتاء للعائلات المحتاجة. . »[1].

٥ ـ ولا يمكن أن نغفل ـ أخيراً ـ من أعمال الإخوان في حقل الإصلاح الاجتماعي: **الفتوّة، والأندية الرياضية**، فقد كان في أكثر مراكز المحافظات أندية رياضية قوية، تعنى بمختلف وسائل الرياضة وأنواعها.

أما الفتوة فقد كانت «العصب الحساس للدعوة» كما وصفها الأستاذ السباعي «لأنها المدرسة التي تخرج للأمة جيلاً قوياً مؤمناً تملؤه الرجولة، وتشيع في جنباته روح التضحية والطاقة والنظام». وقال: «وفي كل مركز من مراكز الإخوان في المحافظات وفي أكثر فروع الإخوان في القرى والأقضية: فرق للفتوة تتدرب على الأعمال الرياضية، وتقوم بمختلف الرحلات. ولها في كل عام معسكر عام يجتمع فيه فتيان الإخوان أياماً متتالية. . ».

جـ ـ في ميدان الإصلاح السياسي:

تجلّت في هذا الميدان شخصية السباعي الثائر الذي أدرك خطورة الإصلاح السياسي في وقت مبكر، كما عهدناه في بلده حمص، وفي

---

(١) المصدر السابق، ص١٥٨.

مصر بعد أن انتقل إليها للدراسة. ولا شك في أن مصر صقلت موهبته وطموحاته.. وعمَّقت الأبعاد الوطنية والعروبية والإسلامية في شخصيته، ووسعت ـ على وجه الخصوص ـ آفاقه واهتماماته السياسية.

وبما أن القضية الوطنية في سورية كانت موضع اهتمام جمعيات شباب محمد وسائر الجمعيات الإسلامية؛ فإن انضواء الجميع تحت راية الإخوان المسلمين، وفي ظل قيادة السباعي، جعل مشاركتهم في هذه القضية متميزة! يقول السباعي: «**إن الإخوان ساهموا بقسطهم من النضال الوطني حين وقوع العدوان الفرنسي على سورية**»[1]. بُعيد نشأتهم أو تجمعهم المذكور «فقد وقفوا وقفة رائعة أثناء حوادثه في كل من دمشق وحمص وحماه وحلب وغيرها من المدن السورية» وهو العدوان الذي بدأ في ٢٩/ ٥/ ١٩٤٥م. «فكانت فتوتهم تحمل الطعام والسلاح إلى جنود الدرك، وتنقذ الجرحى من الدرك والمساجين، وتحملهم إلى مقرها تحت وابل الرصاص والقنابل. كما كانت مراكزهم مبعث حماس الجماهير في مقاومة العدوان الفرنسي، وكان أعضاؤهم في مقدمة المناضلين من أبناء الشعب، فاستشهد منهم من استشهد وجرح من جرح»[2].

---

(١) المصدر السابق. وانظر خلاصة عن هذا العدوان في كتاب: (يوم ميسلون)، للأستاذ ساطع الحصري، ص٤٢٩ ـ ٤٣١.

(٢) دروس في دعوة الإخوان، ص١٥٩، وقد أوفد الإمام حسن البنا بعثة من الإخوان المسلمين إلى سورية، تضم نفراً من الدعاة والأطباء لإسعاف =

ثم تابعوا نضالهم الوطني بعد جلاء الاستعمار عن سورية في الدعوة إلى إقامة حكم صالح، يزيل مساوئ الاستعمار «فوجهوا النصح إلى الحكومات الوطنية المتعاقبة، وقاوموا كل انحراف عن الخطة الوطنية المثلى في الحكم والإدارة والسياسة، ولم يجاملوا في ذلك رئيساً ولا حكومة ولا زعيماً ولا كبيراً».

ويقول الأستاذ السباعي: إن المحافظة على النظام الجمهوري، وصيانته من الزوال ومن كل طغيان من أبرز - وأهم - النقاط التي تجلى فيها النضال الوطني للإخوان، ولهذا قاوموا مشروع (سورية الكبرى) لأنه مشروع استعماري، يقضي على الروح الشعبية التي تتجلّى في الحكم الجمهوري.

بل إن الأستاذ السباعي تحدث عما هو أخطر من ذلك حين قال:

= الجرحى ومواساة المنكوبين. كما دعا في مصر إلى إضراب عام شمل أنحاء القطر، وطالب فيه الحكومة بالتدخل، كما طلب أن تسمح الحكومة للإخوان بإرسال خمسة آلاف من المتطوعين لشد أزر النضال ضد القوات الفرنسية المعتدية، وتدخلت الحكومة المصرية، واحتجّ رئيس الوزراء - وكان آنذاك مصطفى النحاس - ببرقيات شديدة اللهجة على العدوان الفرنسي، ولكنه رفض السماح لمتطوعي الإخوان بالسفر إلى سورية. انظر مقالة بعنوان (بعض الذكريات عن الإمام الشهيد حسن البنا) للكاتب الأستاذ عمر عودة الخطيب في مجلة حضارة الإسلام. عدد شوال ١٣٨٢هـ الموافق آذار (مارس) ١٩٦٣م.

«إن الإخوان المسلمين لن يتساهلوا أبداً في محاربة كل حركة تقضي على الحكم الشعبي الجمهوري الدستوري في سورية»[1]. وهذا - فيما نرى - موقف جدير بالاهتمام والملاحظة؛ لأنه لا يعني فقط أن الإخوان لا يؤمنون بسياسة الانقلابات والوصول إلى الحكم على ظهور الدبابات.. بل يعني أن الإخوان مستعدون للوقوف في وجه من يحاول ذلك، أو يحاول القضاء على الحياة الدستورية في البلاد.

ويعكس هذا الموقف مدى إيمان الأستاذ السباعي والإخوان بالحرية والديمقراطية والحياة النيابية، ومدى إدانتهم للطغيان، ورفضهم للعنف والانقلابات العسكرية[2]، كما يعكس إيماناً عميقاً بأنهم يعبرون عن أماني الأمّة، ويتحدثون بلسان الأكثرية.. أو أنهم قادرون على تحقيق ذلك على أقل تقدير.

وسوف نتحدث عن مواقف السباعي من الطغيان والاستبداد السياسي.. والأذى الذي ناله من حكم أديب الشيشكلي، عند الكلام على السباعي السياسي والبرلماني في فصل قادم.

نذكر بعد هذا النضال الوطني الذي قام به الإخوان وقادوه أيام العدوان الفرنسي، وفي ظل الحكم الوطني بعد ذلك، نذكر تأييدهم

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) انظر الفقرات التالية من كتاب: هكذا علمتني الحياة - القسم السياسي للأستاذ السباعي: ٦، ١٠، ١٢، ١٣، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠.. حول الطغيان والطغاة والانقلابات المذكورة، بغض النظر عن التسميات.

للقضايا العربية والإسلامية. وتأتي في مقدمة القضايا العربية: القضية الفلسطينية وقضية مصر. أما **القضية الفلسطينية**، فسنفرد لها فقرة خاصة، نتحدث فيها عن جهاد السباعي الذي لم ينقطع في سبيل هذه القضية، وبكل وسائل الجهاد المادّي والمعنوي، مكتفين هنا بقوله ـ الذي صدّقته الأرقام والوقائع والسجلات، التي لن تنسى في الدنيا وعند الله تعالى في الآخرة! ـ «نستطيع أن نؤكد بأن هيئة أو حزباً أو جماعة ما في بلادنا لم تساهم بنشاط عملي شعبي واسع في سبيل نصرة فلسطين وإنقاذها كما ساهم الإخوان المسلمون».

أما **قضية مصر** فقد أيد الإخوان المسلمون ـ في سورية بالطبع ـ مطلبيها الرئيسين: الجلاء ووحدة وادي النيل «بوسائل مختلفة من التأييد كالبرقيات والمحاضرات والمقالات والمؤتمرات في الأندية والمساجد، والاجتماعات الشعبية في المدن والقرى، والاقتراحات في الندوة النيابية».

ولما وُقعت اتفاقية الجلاء عام ١٩٥٤م بين الإنكليز وحكومة الثورة[١]، ورأى الإخوان أنها ليست أحسن حالاً من معاهدة ١٩٣٦م بين الإنكليز وحكومة الوفد ـ مع اختلاف الظروف ـ بل رأوا فيها «غلاً جديداً يوضع في عنق مصر والبلاد العربية» سارعوا إلى استنكارها، وتحذير حكومة مصر من أضرارها. وكانت هذه المعاهدة ـ استطراداً ـ أحد

---

(١) تم توقيع هذه الاتفاقية ـ التي بلغت مع ملحقاتها ١١٠ صفحات! ـ بتاريخ ١٩/١٠/١٩٥٤.

أسباب الخلاف الجوهرية بين الثورة والإخوان في مصر . . ولم تجد حكومة الثورة ما تتهم به إخوان مصر ـ في هذه المرحلة ـ سوى أنهم (وطنيون متطرفون) لأنهم رفضوا الاتفاقية المذكورة![1].

ولم يكن تأييد الإخوان لنضال الشعب العربي المغربي ضد الاستعمار الفرنسي بأقل من تأييدهم لمصر .

بل أثار الإخوان المسلمون في مذكرة رفعوها إلى مجلس الجامعة العربية المنعقد في دمشق بتاريخ ٩ شعبان ١٣٧٠هـ الموافق ١٥/ ٥/ ١٩٥١م قضية الإمارات العربية على الخليج الفارسي ـ كما كان يدعى في ذلك الحين ـ وطالبوا الجامعة بوجوب العمل لتحريرها واستقلالها .

أما تأييدهم للقضايا الإسلامية، الذي جاء تأكيداً لروابط الإخاء بين البلاد العربية والأقطار الإسلامية، ومن منطلق «أن إحكام الصلات والتعاون مع هذه الأقطار قوة كبيرة للقومية العربية وللوطن العربي» . على حد تعبير الأستاذ السباعي رحمه الله؛ فقد هبّ الإخوان لنصرة هذه الأقطار وتأييدها في قضاياها الاستقلالية والتحررية «وهكذا أيدوا

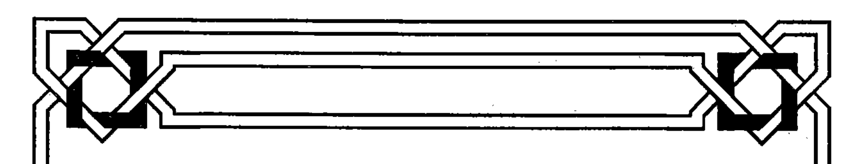
---

(١) لقد ذبح من أجلها ستة من قادة الإخوان، على حد تعبير الصاغ صلاح سالم، واعتقل أكثر من خمسين ألفاً. وكان هذا في الفترة الممتدة من حادثة ميدان المنشية بالإسكندرية ليلة الأربعاء في ٢٦/ ١٠/ ١٩٥٤م حتى الإعدامات التي تمت في أوائل شهر (١٢) مروراً بإقالة محمد نجيب في ١٤/ ١١ واعتقال الهضيبي مرشد الإخوان في ٣٠/ ١١ ؛ راجع العدد (٢٤) من جريدة الشهاب بتاريخ ٢٣/ ١١/ ١٩٥٥ .

أندونيسية في كفاحها مع هولندة بمؤتمر عام عقدوه في مركز الإخوان بدمشق، كما أيدوا باكستان في كشمير، وكان لهم يد في إرسال برقية المجلس النيابي السوري موقعة من خمسين نائباً من ألمع نواب المجلس ومختلف أديانه وأحزابه إلى مجلس الأمن بتأييد حق الباكستان في كشمير، وهو أول عمل من نوعه في المجالس النيابية في البلاد العربية، مما كان له أجمل الأثر في نفوس أبناء هذه الدولة الإسلامية الكبرى. وقد تجلى ذلك في تأييد الباكستان لسورية في نضالها ضد العدوان اليهودي تأييداً قوياً رائعاً أشاد به رئيس الوزراء في المجلس النيابي. وقد اشترك الإخوان المسلمون في المؤتمر العالمي الإسلامي الثاني في كراتشي، وكان لهم فضل كبير في صياغة قرارته الخطيرة، كما اشتركوا في قيام المؤتمر الإسلامي الشعبي في القدس. . »[١].

* * *

(١) دروس في دعوة الإخوان، ص١٦١ ـ ١٦٢.



المجاهد السباعي
والقضية الفلسطينية



المجاهد

السباعي والقضية الفلسطينية

أشرنا قبل قليل ـ وفي موضع سابق ـ إلى طرف من موقف الأستاذ السباعي من القضية الفلسطينية. ونحاول في هذا الفصل أو الجزء الإلمام بمراحل جهاده من أجل هذه القضية ـ الذي امتد لثلاثة عقود من الزمان ـ والميادين المتعددة لهذا الجهاد؛ مؤكدين على أنه ليس في وسعنا الدخول في تفصيلات هذا الجهاد أو استقصاء أخباره، لأن ذلك يحتاج إلى أن يفرد بمؤلفٍ مستقل، خصوصاً إذا أردنا جمع مقالاته التي كتبها، والمذكرات التي قدمها، والمحاضرات التي ألقاها حول هذه القضية؛ ناهيك عن الخطب التي لا سبيل لنا إلى الوقوف عليها أو إحصائها؛ وربما كان بعضها منشوراً في الصحف أو مسجلاً على أشرطة في بعض البيوت.

من مقالاته الأولى التي كتبها في مجلة (الفتح) مقالة بعنوان (مأساة فلسطين) يعود تاريخها إلى الخامس من شهر ربيع الأول ١٣٥٤هـ[١]

---

(١) العدد رقم (٤٤٨).

(ولد الشيخ عام ١٣٣٤هـ، وتوفي عام ١٣٨٤هـ) وقد استهلها بقوله: «مأساة الأندلس تمثل مرة ثانية على مسرح الحياة في تاريخ العرب والإسلام، تلك هي مأساة فلسطين»! ووصف فلسطين بأنها قلب العرب النابض، ومفتاح جزيرة العرب، وأن كل ذرة من أرضها امتزجت بقطرة من دماء أجدادنا الطاهرين[١].

وقد جاء تعبيره بالمأساة بليغ الدلالة على قراءته المبكرة لمستقبل هذه القضية. وقد حمله على ذلك ما رآه من اجتماع اليهود وتقاعس العرب.. بل من تفرقهم وتنازعهم ليس على مستوى البلاد العربية فحسب، بل على المستوى الفلسطيني أو على أرض فلسطين التي كان يجري تهويدها على قدم وساق!

لقد كان اليهود يومها يمثلون ـ على أثر الهجرة إليها بعد الحرب العظمى ـ ربع سكان فلسطين، وكان لهم مئة وثمانون مستعمرة في أخصب البقاع وأجملها.. وكان «كل يهودي على وجه الأرض يحنو على الصهيونية في فلسطين، ويمدها بما يقدر عليه من مال أو نفس أو بيان أو دعاية»[٢].

قال: «ثم هم يغرسون مبادئها في نفوس أطفالهم منذ الصغر. ولقد كنت مرة أجتاز كوبري قصر النيل بالقاهرة، فشاهدت ـ كما شاهد

---

(١) المصدر السابق، ص٢.
(٢) المصدر السابق نفسه.

غيري ـ فرقة من كشافة اليهود تتجول في تلك الأنحاء، وهي تنشد أنشودة الأمل! ـ أمل الاستيلاء على فلسطين من أيدي العرب ـ ينشدون هذا جهرة، وعلى مسمع من أبناء مصر، وهم أطفال لا يعرفون من الحياة شيئاً. أما العرب والمسلمون فمن كان منهم خارج فلسطين فقلَّ أن تجد منهم من يبلغ عطفه على فلسطين إلى حد أن تكون له نتيجة»[1].

في حين تعددت مشارب أهل فلسطين وتضاربت أهواؤهم. وقد ركز السباعي على (المعارك) التي كانت قائمة في نطاق الأحزاب والعائلات، أو العائلات والوجهاء بشكل خاصٍ، حتى قال: إن قضية فلسطين ليست خاصة بهؤلاء الوجهاء، يتصرّفون فيها كما يشاؤون، ولكنها قضية الفلسطينيين كلهم، وقضية العرب والمسلمين.. بل «هي قضيـة تخصُّ كل مسلم ومسـلمة على وجه الأرض، فلا يجوز بحال من الأحوال التغاضي عما يحدث اليوم بين الوجهاء في فلسطين، بل يجب أن ينبّه العالمُ الإسلامي أهلَ الحلِّ والعقد من عرب فلسطين إلى هذا الخطر الداهم، وينذرهم بالعاقبة القريبة لهذه المهاترات التي لا تشرّف أصحابها، ولا تعود على البلاد إلا بالخراب والدمار!».

ثم قال: «إنَّ قضية فلسطين اليوم لعلى أشد ما تكون من الخطورة، وإن حالـة أبنائها لعلى غايـة ما تكون من الغرابة: المهاجرون اليهود يغزونهم من البر والبحر سراً وعلانية، والسلطة تخرج من أيدي أصحاب

---

(١) المصدر السابق نفسه.

البلاد يوماً بعد يوم، والأموال تضيع، والأراضي تباع، والأخلاق تنحط، ومتشرّدو الدنيا يتحكمون اليوم في رقاب من كانوا بالأمس سادة الأرض»![1].

وكتب بعد ذلك ـ وهو ما يزال في مصر ـ مقالات كثيرة عبّرت كلها عن رؤية مبكرة لطبيعة الصراع مع اليهود والصهيونية، ومدى مسؤولية العرب والمسلمين في كل مكان عن القضية الفلسطينية. . ولا شك في أنه كان يستشعر عظم هذه المسؤولية حين دخل فلسطين مجاهداً على أرضها، ومدافعاً عن القدس والمسجد الأقصى. كما عبرت تلك المقالات عن فهم عميق لطبيعة السياسة البريطانية الكاذبة والمراوغة والداعمة لليهود في الهجرة إلى فلسطين، ونشير من ذلك إلى توعده لبريطانية وقراءته لمستقبلها السياسي كدولة عظمى في ذلك التاريخ، وإلى نظرة الإنكليز إلى الأعمال الفدائية والمقاومة التي أبداها الفلسطينيون على أنها أعمال عصابات شريرة! حتى لكأن التاريخ ـ اليوم ـ يعيد نفسه تحت مسمّى الإرهاب والتطرف!

قال في خطابه للإنكليز: «تقول صحفكم لطمس الحقيقة الناصعة. . إن حوادث فلسطين هي حوادث عصابات شريرة مجرمة تود إراقة الدماء ونهب الأموال! لا ياهؤلاء! فما في عرب فلسطين أشرار ولا مجرمون، وإنما فيهم كل أبيٍّ وكل هُمام. إن من يطالب بحقه ويدافع عن كرامته ليس مجرماً، والذين يذودون عن بلادهم ويريدون

(١) المصدر السابق نفسه.

استخلاصها من أيدي مغتصبيها سيسميهم التاريخ أبطالاً ومجاهدين.

وأنتم سمّوا بما شئتم أولئك الذين يحاولون أن يبيدوا شعباً أبيّاً كريماً ليقيموا مكانه شعباً طريداً شريداً!

سمّوا بما شئتم أولئك الذين يسفكون دماء الأبرياء، ويهدمون بيوت الآمنين، ويسلبون أموال الناس بغير حق، ويمنعون المؤمنين من دخول أماكن العبادة.

سمّوا بما شئتم أولئك الذين أعطوا عهدين متناقضين لشعبين متباينين..»[1].

وحذر هؤلاء الإنكليز في مقالة أخرى بقوله: «إن للدول آجالاً كآجال الأفراد، فإذا جاء الأجل لم تنفع الحيل!» ثم خاطبهم قائلاً: «وسيبحث أبناؤكم غداً عن أسباب إنحلال دولتهم، وضياع هيبتهم. وسيقول أبناؤنا لأبنائكم يومئذ: تعالوا نخبركم عن السبب؛ إن آباءكم كانوا يلبسون مسوح الرهبان في حرب الحبشة، وينثرون دموع الصيادين في حرب الصين، ولكنهم كانوا يكشّرون عن أنياب الثعالب في مسألة فلسطين»[2].

وقال في مقالة مهمة بعنوان: «موقف سورية من فلسطين»: إن

---

(١) مجلة الفتح؛ العدد (٥٧٥) بتاريخ ٨ رمضان ١٣٥٦هـ.

(٢) مجلة الفتح، ص١٦؛ العدد (٥٧٣) بتاريخ ٢٣ شعبان ١٣٥٦هـ (مقالة بعنوان: صبراً فلسطين).

مؤتمر العلماء الذي انعقد في دمشق أيّد الفتوى القائلة: إن جهاد فلسطين جهاد شرعي يجب على كل مسلم أن يشارك فيه، وهي الفتوى التي كان بعض العلماء قد أطلقها في خطبه على المنابر. قال السباعي: «وكان لهذه الفتاوى والخطب أثر كبير في نفوس العامة، فعقدت الاجتماعات المتتالية لتنظيم الاتصال بالثورة.. وتطوع ألوف الشباب للجهاد في مختلف المحافظات.. وحين وردت الأنباء من مقر الثورة تفيد بأن المجاهدين الفلسطينيين لا ينقصهم الرجال.. تداعى الناس إلى بذل المال، وخصصوا يوم ٢٧ رجب لجمع الإعلانات، وأطلقوا عليه (يوم فلسطين).

يقول الأستاذ السباعي: «وكان يوماً مشهوداً من أيام سورية الباسلة، برهنت فيه على مدى حبّها لشقيقتها المجاهدة وتأييدها لها، ومما هو أبلغ في التأثير أن إقبال الطبقات الفقيرة على التبرع فاق إقبال الأغنياء. ولقد رأيت في ذلك اليوم من الأمثلة التي ضربها الفقراء في الجود والسخاء ما أسال عبرتي وملأ قلبي إيماناً بأن هذه الأمة التي يبلغ عطف بعض أبنائها على بعض إلى هذا الحد لن تموت أبداً!»[١]

أشرنا فيما سبق إلى أن السباعي حين طردته السلطات البريطانية من مصر، جرى سجنه في معتقل صرفند بفلسطين لمدة أربعة أشهر، قبل أن تستقبله السجون الفرنسية في سورية ولبنان.

---

(١) مجلة الفتح، ص٩ العدد (٦٣٥) بتاريخ ١٤ ذي القعدة ١٣٥٧هـ.

ونذكر هنا أنه ما لبث حين خرج من هذه المعتقلات أن استأنف نشاطه في سبيل القضية الفلسطينية على الصعيدين الرسمي والشعبي. ويمكن عد هذا النشاط استكمالاً ومتابعة لنشاطه السابق في القاهرة من جهة، واستجابة للوضع الخطير الذي كانت القضية قد بلغته أو وصلت إليه في أواسط الحرب العالمية الثانية من جهة أخرى. وفي هذا يحدثنا السباعي نفسه عليه الرحمة والرضوان فيقول: «اجتمعت في عام ١٩٤٣م بالأخ المجاهد الشيخ نمر الخطيب في فندق أمية بدمشق، وكنت أرحّب بزيارته لدمشق قادماً من فلسطين، فحدثني عن استفادة يهود فلسطين من الحرب العالمية الثانية حيث شكّلت السلطات البريطانية لهم كتائب تتدرب على القتال، وأمدّتهم بالأسلحة والذخائر.. وقال لي: إن الوضع خطير، ونحن عرب فلسطين يحظر علينا حمل أبسط أنواع السلاح، والعرب والمسلمون غافلون عما يبيّت لفلسطين من شر بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. فهل لنا أن نعلن صوت النذير والإيقاظ؟»

يقول الشيخ رحمه الله: «وكان حديثاً دمعت له عينانا، وتعاهدنا على أن نبدأ العمل...»[1].

لقد توجه سماحة الشيخ الخطيب بهذا الحديث إلى الأستاذ

---

(١) انظر مذكرات الأستاذ الدكتور السباعي عن مشاركته وإخوانه في معركة فلسطين في مقالته: «الإخوان المسلمون في معارك فلسطين» مجلة حضارة الإسلام، ص١٦٠ ـ ١٨٣ العددان (٦ ـ ٧) كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦١م؛ وكانون الثاني (يناير) ١٩٦٢م.

السباعي، وتعاهد معه هذا العهد ـ السوري الفلسطيني ـ وهو يعلم دوره القيادي في الدعوة الإسلامية، ودوره الريادي في حمل أعباء القضية الفلسطينية. وقبل أن نتحدث بإيجاز عن العمل الذي نهض به السباعي في هذا الوقت: نشير إلى أن حديثه مع الشيخ الخطيب أتى على ذكر الشيخ عز الدين القسّام، فروى السباعي حين كتب مذكراته عن هذا اللقاء أنه حضر للشيخ القسام درساً في بعض مساجد حيفا ليلة الإسراء والمعراج ـ وكان السباعي في طريق عودته إلى القاهرة بعد زيارته لسورية التي تحدثنا عنها فيما سبق ـ وقال: «لقد أدهشتني قوة روحه وتوجيهه، وما يبثُّه في الناس من آيات الفداء والاستشهاد.. على تقدمه في السن!».

لقد كانت هذه الآيات تسكن في نفس الشاب الجريء، وتتردد في خاطره حين سمعها في تلك الليلة المباركة، وهي تُبثّ في جموع المصلّين على لسان الشيخ الشهيد الجليل رحمه الله.

التعبئة والإعداد النفسي:

انطلق السباعي بالعمل من مدينة دمشق، فألقى في مقر (الشبان المسلمين) في باحة مسجد الدرويشية أول محاضرة عن فلسطين.. وانتهت هذه المحاضرة ـ التي نشرتها كاملة جريدة (القبس) الدمشقية ـ بحماسة شديدة من الحاضرين، خرجوا على إثرها ـ كما يروي الأستاذ السباعي نفسه رحمه الله ـ: «في مظاهرة كبرى تهتف لفلسطين، وتدعو إلى العمل من أجلها. حتى إذا وصلت المظاهرة أمام مديرية الشرطة العامة على ضفة نهر بردى خرج مدير الشرطة العام ـ وكان يومئذ الدكتور

عبد الكريم العائدي ـ وأبدى دهشته من مثل هذه المظاهرة الليلية، حيث كانت الأحكام العرفية معلنة، والتجمعات ممنوعة بمناسبة الحرب، وحاول فض المظاهرة بالحسنى، فأبى الجمهور إلا أن تصل إلى فندق الشرق، حيث كان يقيم رئيس الوزراء السيد سعد الله الجابري رحمه الله، ولما وصلت إلى ساحة محطة الحجاز حيث فندق الشرق، رغب المتظاهرون في إرسال وفد منهم لمقابلة رئيس الوزراء حتى يشرحوا له خطورة القضية الفلسطينية فأبى استقبال الوفد، وأرسل مدير الشرطة العام ليحمِّله المتظاهرون مطالبهم، ثم تفرقت المظاهرة»[1].

ثم انتقل السباعي بعد ذلك إلى «جميع المدن السورية» يشرح للجماهير خطورة الوضع الذي آلت إليه القضية الفلسطينية، والمخاوف التي تحيط بمستقبلها، يقول السباعي: «حتى اتهمني الغافلون عن حقائق الأمور في فلسطين بأني أبالغ كثيراً فيما أسرده من حقائق».

ولما وضعت الحرب الثانية أوزارها انتظم عمل الإخوان المسلمين لفلسطين ـ بقيادة السباعي، وبعد أن ضمّهم هذا الاسم الجديد كما قدمنا ـ في ثلاثة ميادين:

---

(١) المصدر السابق، ص١٦١ والنقول هنا وفي الصفحات التالية من المقالة أو المذكرات المشار إليها. مع الإشارة إلى أنها طبعت في كتاب بعنوان: «الإخوان المسلمون في حرب فلسطين: الجبهة المصرية: كامل الشريف ـ الجبهة السورية: د. مصطفى السباعي». دار التوزيع والنشر الإسلامية ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

١ ـ الصعيد الرسمي: بتقديم المذكرات للحكومة وللجامعة العربية.

٢ ـ الصعيد الشعبي: بالمحاضرات والاجتماعات العامة في المدن والقرى.

٣ ـ الصعيد العملي: حيث أرسل الإخوان بعض شبابهم ليزوروا فلسطين، ويطلعوا بأنفسهم على أحوال اليهود فيها، فزاروا يافا وتل أبيب وحيفا والقدس وكثيراً من المستعمرات اليهودية.

الجهاد العسكري : ميثاق وعقبات

بدأ التحضير لجهاد السلاح حين وقعت كارثة التقسيم بقرار من الأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٤٧م وهبَّ الشعب في جميع البلاد العربية يطالب بالتطوع في القتال للإبقاء على عروبة فلسطين ومنع التقسيم.

فقام الإخوان المسلمون بوضع ميثاق أخذوه على الجماهير بتأليف جيش لتحرير فلسطين، يتطوع فيه كل قادر على القتال.. وانطلقوا في الاجتماعات العامة الحاشدة يبيّنون خطر الكارثة، ويعلنون فتح باب التطوع في مراكزهم في جميع أنحاء البلاد.

يقول الأستاذ السباعي رحمه الله: «وأقبل الشعب إقبالاً منقطع النظير على تسجيل أسمائهم كمتطوعين في جيش التحرير المرتقب، ولكنَّ الحكومة فاجأتنا بقرار يمنع أي هيئة من تسجيل المتطوعين ـ وكان واضحاً أننا نحن المقصودون بهذا القرار، إذ لم تكن هنالك هيئة أعلنت

قبول المتطوعين غير الإخوان ـ **ثم اتخذت الجامعة العربية قراراً بتأليف جيش الإنقاذ**، وافتتحت الحكومة مراكز للتطوع، فطلبنا منها أن يكون شبابنا منضمّين في كتائب خاصة بهم تحت قيادة جيش الإنقاذ فرفضت ذلك، مما دعا إخواننا إلى الاندماج في كتائب المتطوعين، ولكن ما سارت أفواج المتطوعين إلى فلسطين حتى جاءتنا رسائل الإخوان المتطوعين من كل مكان تستغيث من الجو الذي يعيشون فيه، ويطلبون إلينا أن تكون لهم كتائب خاصة بهم، ينسجمون فيها مع عقيدتهم وعبادتهم وأخلاقهم»[1].

وقد علّل السباعي هذا الوضع بان فكرة المسؤولين كانت قائمة على أن المتطوعين يجب أن يكونوا من العامّة وذوي السوابق في الإجرام أو المتعطلين عن العمل! قال رحمه الله: «فقد قال لي مسؤول كبير: إنك تحمّس الشباب المتعلّمين للتطوع في حرب فلسطين، ومن الحرام أن نرسل بهذه الزهرات ليموتوا هناك، وخير منهم العاطلون من القبضايات! (أي الشطّار وأهل الفتوة ممن عرفوا بالجرأة في القتل والضرب) وهؤلاء موجودون بلا عمل فلنرسلهم إلى هناك! فقلت له: إن معركتنا مع اليهود ليست معركة أجسام وزنود بقدر ماهي معركة وعي وتضحية وإيمان، وإننا سنقاتل في فلسطين شباباً من اليهود أعدوا فكرياً وعسكرياً لهذه المهمة منذ سنوات»[2].

---

(١) حضارة الإسلام: المرجع السابق، ص١٦٣.
(٢) المصدر السابق نفسه.

يقول: «هذا هو السبب في أننا طلبنا أن يكون لشبابنا كتائب خاصة بهم تحت قيادة جيش الإنقاذ، وأخيراً عدنا إلى الإلحاح مرة أخرى في السماح لشبابنا بتشكيل كتائب خاصة بهم!.

«فكان الجواب: إذا أردتم أن تذهبوا في أفواج خاصة فنحن لا نقدم لكم سلاحاً، بل يجب أن يكون سلاحكم منكم، هذا مع أن الجامعة العربية أرصدت لجيش الإنقاذ مبالغ طائلة، وكل المتطوعين عندهم يقدمون لهم أسلحتهم وذخيرتهم وألبستهم، فليس امتناع المسؤولين عن إعطائنا السلاح إلا تحملينا مالا نقدر عليه، فقد بلغ ثمن البندقية ألف ليرة سورية (مائة جنيه استرليني) وأكثر شبابنا المتحمسين للقتال طلاب وعمال، فكيف نستطيع أن نتحمل ثمن أسلحتهم؟ ولم نجد بداً من عرض الأمر على الإخوان المتطوعين، فكان من حماستهم ما يذهل ويدهش، فمنهم من تبرع بثمن بندقية، ومنهم من اشترك مع أخ أو أخوين في ثمن بندقية»[1].

ويضيف الأستاذ المجاهد الذي دوّن المذكرات حول جهاد الإخوان في فلسطين قبل وفاته بنحو ثلاثة أعوام رحمه الله.. قائلاً: «ولا أستطيع الآن أن أفيض في تسجيل هذه المآثر، وحسبي أن أذكر شيئاً مما تيقّنته بنفسي؛ فقد رأيت بعضهم وكان على أهبة الزواج يبيع إحدى سجّاديته ـ قطيفتيه ـ اللتين اشتراهما لزواجه، ورأيت منهم من باع بعض ثيابه، ورأيت من استدان، وهكذا..».

---

(١) المصدر السابق، ص١٦٤.

«وأخذنا نفتش عن السلاح وكان نادراً وغالياً، واضطرني ذلك لإقامة شهر كامل في محافظة حلب، نتجول في كل يوم في القرى المتاخمة للحدود التركية لشراء البنادق والمسدسات، حتى إذا تم لنا تجهيز السلاح لكتيبة كاملة، انتقينا من مئات إخواننا المتطوعين في مختلف المحافظات السورية، من نعلم خلوّهم من عوائق القتال في فلسطين، واضطررنا للاقتراع بينهم، فغضب لذلك كثيرون، حتى إن بعضهم قدم استقالته من الإخوان، لأننا حلنا بينه وبين الجهاد في سبيل الله!»[1].

التدريب والالتحاق بالجهاد:

ويذكر الأستاذ السباعي بعد ذلك أن الاتفاق تم مع طه الهاشمي ـ مسؤول جيش الإنقاذ ـ على أن تذهب كتيبة الإخوان للتدرب على أساليب القتال في معسكر قطنا ـ قرب دمشق ـ وأن يكون المكان الذي يقاتلون فيه هو مدينة القدس «وكان القتال فيها من أخطر المعارك»، لأنه كان بين بيت وبيت، ولا يفصل بين مواقع المجاهدين العرب وبين اليهود إلا شارع ضيق لا يزيد عرضه عن بضعة أمتار في كثير من الأحيان. .

وبعد شهر ونصف من التدريب التحقت الكتيبة بالمجاهدين العرب على أرض فلسطين على دفعتين: الأولى بقيادة الملازم عبد الرحمن الملوحي وصحبة البطل الشهيد عبد القادر الحسيني، وقد حضر هذا

---

(١) المصدر السابق نفسه.

الفوج معه معركة (القسطل) التي استشهد فيها رحمه الله. ثم سافر الفوج الثـاني بقيادة مصطفى السـباعي. . وهو الفوج الذي تحدث الأستاذ السباعي عن سيره، حتى وصل إلى بيت المقدس، لأنه كان على رأسه وإن كان هو لم يذكر ذلك، واكتفى بالقول: «ثم سافر الفوج الثاني. . وكان معنا مجاهدون آخرون بقيادة ضابط مسيحي من أبناء فلسطين أذكر أن اسمه ـ عيسى ـ واجتزنا جسر اللنبي إلى فلسطين . وتقرر أن نتجه إلى ـ أريحا ـ قرب القدس، ثم ننتقل منها إلى القدس».

قال رحمه الله[1]: «وتوزعنا على بيوت قرية مجاورة اسمها ـ البيرة ـ على ما أظن، وكان من نصيبي أن أبيت تلك الليلة في بيت خوري القرية ـ رجل الدين المسيحي فيها ـ وقد لقيت منه ومن أسرته كل ترحاب وإكرام» ثم انتقلوا بعد ظهر اليوم التالي إلى القدس ليجدوا فيها فوجاً من العراقيين المتطوعين يرأسهم المجاهد السيد فاضل رشيد عبد الله، بالإضافة إلى من كان فيها من مجاهدي القدس أو المجاهدين المقدسيين الذين تضمهم منظمة (**الجهاد المقدس**) التابعة للهيئة العربية العليا بزعامة مفتي فلسطين الأكبر الحاج أمين الحسيني رحمه الله.

وقام السباعي بتوزيع الإخوان على مناطق القدس العربية التالية: الشيخ جراح، المصرارة، سعد وسعيد، القطمون. وكانت مسؤولية القيادة فيها موزعة على المجاهدين السادة: عدنان الدبس، وزهير شاويش، وكامل حتاحت. وكان مقر السباعي في غرفة القيادة (بالروضة)

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٦٥.

المطلة على المسجد الأقصى مع الضابط فاضل عبد الله والملازمين عبد الرحمن الملوحي وجمال الصوفي.

المعارك ضد يهود القدس:

وليس في وسعنا هنا أن نفصل القول في المعارك التي خاضها الإخوان دفاعاً عن القدس والأقصى. وأن نذكر أسماء الشهداء والملاحم التي سطروها؛ فقد كتب في هذا بعض المؤرخين، ونفر ممن كانوا معه في فلسطين[1]، وتأتي مذكرات الأستاذ السباعي في مقدمة هذه الكتابات. ولكننا نكتفي بالحديث عن الاستراتيجية العامة للدفاع عن القدس، وكيف وزعت مهمات هذا الدفاع بين المجاهدين، الذين اندفعوا إلى فلسطين من أكثر من بلد من البلاد العربية، ثم نذكر لمحة عن أهم المعارك التي خاضها الأستاذ السباعي، ونقف عند مشكلة السلاح والذخيرة أو الذخيرة التي واجهتهم في معركة (القدس الكبرى)، قبل أن نعقب بملاحظات السباعي حول هذه الحرب وملاحظاتنا على جهاد السباعي فيها رحمه الله.

---

(١) راجع كتاب: نكبة بيت المقدس للمؤرخ عارف العارف، وانظر المقابلات التي أجراها السيد حسني جرار مع كل من المجاهد عدنان الدبس والمجاهد محمد أمير العرقسوسي في كتاب: الدكتور مصطفى السباعي. وانظر في مجلة حضارة الإسلام: الأعداد (٤ ـ ٦) عام ١٩٦٤م؛ كلمة السيد أميل الغوري بعنوان: «ذكريات من جهاد السباعي في حرب فلسطين، ص١٠٠ـ١٠٣.

قال رحمه الله: «كان من واجبنا أن نضيّق الخناق على يهود القدس الحديثة والقديمة (الغربية والشرقية)، وكان فريق من مجاهدي الإخوان المصريين بإشراف الأخ محمود عبده وقيادة البطل الشهيد أحمد عبد العزيز يرابطون في (صور باهر) القرية العربية الواقعة جنوبي القدس، كما كان فريق من إخواننا الأردنيين بقيادة الأخ الحاج عبد اللطيف أبو قورة يرابطون في (عين كارم) الواقعة غربي القدس. وقد استطاع المجاهدون الفلسطينيون قطع الطريق الموصل من تل أبيب إلى القدس بعد معارك طويلة عند (باب الواد) اشتركت فيها مدفعية جيش الإنقاذ وحضرنا جزءاً منها.

وبذلك أصبح يهود القدس ومستعمراتها القريبة منها مطوّقين تطويقاً تاماً؛ إذ كان العرب أيضاً يسيطرون على طريق القدس الشرقي لأنه طريق أريحا وعمان، كما كانوا يسيطرون على طريق القدس الشمالي، إذ كان طريق نابلس العربية، ويسيطر على مدخله حي الشيخ جراح العربي.

«كانت المعارك بيننا وبين اليهود في أطراف القدس وداخلها مستمرة، لا ينقطع فيها أزيز الرصاص والرشاشات والقنابل ساعة واحدة في ليل أو نهار من خلال نوافذ البيوت أو منعطفات الطرق أو الهجمات المباغتة على مراكزهم أو هجماتهم على مراكزنا، وكثيراً ما كانت ترسل النجدات المتعددة في يوم واحد إلى مراكزنا من المجاهدين الاحتياطيين الموجودين في مقر القيادة».

واشتدت هذه المعارك بعد أن جلا اليهود عن فلسطين في ١٥ أيار

(مايو) ١٩٤٨م تاركين مراكزهم التي كانوا يحتلونها في منطقة القدس لليهود. وكانت هذه المراكز حاجزاً بين جماهير العرب وجماهير اليهود! فأصبح وضع العرب في القدس محرجاً لقلة المقاتلين والذخيرة عندهم (مما يستحيل معه احتفاظهم بأكثر أحيائهم العربية في القدس الحديثة)، وكان حي القطمون أهم هذه الأحياء، واشترك الإخوان في الدفاع عنه مع المجاهدين الفلسطينيين المرابطين فيه بقيادة الشهيد البطل (أبو دية) رحمه الله.

واستشهد عدد منهم وثبتوا فيه حتى اضطر المجاهد أبو دية للانسحاب بعد إصابته واستشهاد معظم إخوانه.

أما معركة الحي اليهودي في القدس القديمة: التي ابتدأت قبل جلاء الإنكليز عن القدس بخمسة أيام فقد كانت ـ كما وصفها السباعي ـ «من أشد المعارك التي خضناها في القدس، أظهر فيها المجاهدون من البطولات ما يعجز عنه الوصف، فقد كانوا يتقدمون لنسف الحي اليهودي بيتاً بيتاً بأيديهم الرشاشات والقنابل تحت وابل من الرصاص والقنابل الذي كان يقذفه اليهود عليهم من نوافذ البيوت..

«ولما غادر الإنكليز القدس اشتدت هجمات المجاهدين العرب على الحي، كما اشتدت مقاومة اليهود، ثم اضطروا للتسليم لنفاد ذخيرتهم بعد وقوع معركة القدس الكبرى» ـ التي سوف نشير إليها بعد قليل ـ وقد تولى السباعي المفاوضة مع الوفد اليهودي قبل أن يحضر قائد الجيش العربي ـ الذي حضرت منه مدفعية صغيرة في معركة القدس

المذكورة ـ ويتولى أمور المفاوضات مع اليهود. وقد تمّ أسر المقاتلين، فلم يتجاوزوا برأي القائد مئة، مع أن المقاتلين منهم كانوا يزيدون على خمسمئة. . فقد أخرج من بينهم رجال الدين ولو كانوا شباباً، والنساء مع أنهن كن مقاتلات. . يقول السباعي: «وانتقلنا إلى المستشفى فوجدناه مليئاً بمن يتظاهرون أنهم من الجرحى، إذ كانوا قد عصبوا أيديهم ورؤوسهم وأرجلهم بعصائب، فأبينا إلا أن نفتش عن كل واحد منهم، وكان معنا طبيب عربي، وتبين بعد الفحص أن أكثر عصاباتهم كانت تمويهاً، فضممناهم إلى الأسرى من الشباب. .» يقول السباعي: وغادرنا الحي اليهودي والدمار قد حاق بأكثره، والحرائق التي أشعلها اليهود قبل مغادرتهم قد أتت على الباقي.

معركة القدس الكبرى ومشكلة الذخيرة:

يقول الأستاذ السباعي: «لما تم جلاء الإنكليز عن القدس، وكان الحي اليهودي لم يستسلم بعد؛ أدركنا حرج موقف حامياتنا في القدس الحديثة (الغربية)، وأن اليهود سيبذلون قصارى جهدهم لإنقاذ إخوانهم المحاصرين في الحي اليهودي، وكانت الذخيرة عندنا قليلة، بل إن (فوج اليرموك) وكان فيه إخواننا، وعدده أكثر من خمسمئة مجاهد، كانت بنادقه ورشاشاته كلها من النموذج الألماني، ولم يبق لديهم من الذخيرة إلا نزر قليل جداً، مما حملني على أن أغادر القدس إلى دمشق طالباً من قيادة جيش الإنقاذ تزويدنا بما نحتاج إليه من الذخيرة استعداداً للمعركة المرتقبة، وقابلت طه الهاشمي، وعرضت عليه ما جئت من

أجله، ففاجأني بقوله: إنّ فوج اليرموك قد سحب من القدس إلى مقر قيادة القاوقجي فلماذا تطلب الذخيرة الألمانية؟».

يقول الأستاذ المجاهد رحمه الله: «وهنا أدركت مصير معركتنا التي وضعت بأيدي مثل هذا الرجل! فقلت له: ومتى سحب فوج اليرموك؟ قال: منذ أسبوع! فقلت: إنك أرسلت برقية إلى قائد فوج اليرموك تطلب إليه أن يلتحق شخصياً بفوزي القاوقجي نظراً لتبرم المجاهدين من جهله وغباوته وجبنه! أما فوج اليرموك فلايزال في القدس، وإخواننا فيه، وأنا الآن قادم من القدس، وبنادقنا خاوية من الذخيرة، فأجابني بكل صلف: «ماكو عندنا ذخيرة ألمانية» أي لا يوجد.

فخرجت من عنده إلى رئيس الجمهورية وعرضت عليه الأمر، فاتصل بالهاشمي، وطلب إليه أن يعطيني ذخيرة ألمانية، فلما عدت إلى الهاشمي، وجدته مربد الوجه، وخاطبني بقوله: «كيف ننجح وكل شيء عندنا بالوساطات؟..» قلت له: **إنني لا أتوسط لوظيفة عندك، ولكن أتوسط لنموت في المعركة موت الشرفاء!..** فأجابني: إنني أمرت بإعطائك خمسة آلاف طلقة إكراماً لرئيس الجمهورية!. فقلت له: هذه سينال منها كل بندقية عشر طلقات، ونحن في القدس نتناوش مع اليهود في كل ساعة، فماذا نستطيع أن نقاوم بهذه الرصاصات العشر؟ فألحّ في عناده، وخرجت من عنده مغضباً إلى وزير الدفاع، فعرضت عليه الأمر، فاعتذر بأنه ليس عندهم ذخيرة ألمانية، وفي نهاية الحديث قال: إنه

سيتصل بالقيادة العربية العليا للجيوش العربية في عمان، ويطلب منها إجابتي إلى طلبي. وقبل مغادرتي دمشق اتصلت به هاتفياً، فأكد أنه اتصل بعمان ووعدوه بإجابة طلبي. وذهبت إلى عمان في نفس اليوم واتصلت بالقيادة العامة، فكانوا مدهوشين من دعوى وزير الدفاع اتصاله بهم، وقالوا: إنه يعلم أن ذخيرتنا كلها إنكليزية، فمن أين نأتيك بالذخيرة الألمانية[1]؟ . .

ولما يئست منهم اتصلت بأعضاء **(لجنة الدفاع عن فلسطين)** في عمان، وكلهم من خيرة التجار السوريين والأردنيين في العاصمة، وعرضت عليهم الأمر، وطلبت منهم النجدة، فأسرعوا يشترون كل ما وجدوه في السوق من ذلك، وزادوا عليه عديداً من القنابل وبعض الأسلحة، فعدت إلى القدس، وقد حملت من عمان آلاف الطلقات التي تمكننا من الاستمرار في المعركة ساعات، وكان وصولي قبيل الغروب بدقائق، **ووجدت معركة الحي اليهودي مشتدة في ذلك اليوم، وقد جرح فيها الملازم الملوحي، وما يزيد على أربعين من إخواننا، واستشهد فيها ما يزيد على سبعة من شهداء الإخوان،** ووجدت القائد فاضل عبد الله مستلقياً على فراشه، مستغرقاً في نوم عميق من شدة الإعياء والسهر في الليالي الخمس المواضي، حتى إذا كان الوقت الساعة العاشرة ليلاً جاءتنا أنباء من جميع حامياتنا على أبواب مدينة القدس بأن اليهود قد

---

(١) كان رئيس الجمهورية في ذلك الحين فخامة شكري القوتلي، ووزير الدفاع السيد أحمد الشرباتي.

شنوا هجوماً عاماً على مختلف الأبواب، وركزوا هجومهم على باب الخليل الملاصق للحي اليهودي؛ عندئذ بدأتُ أوزّع الرصاص على المجاهدين، ولما اشتد الهجوم الذي شنه اليهود على باب الخليل بما يقرب من عشرة مصفحات وآلاف المقاتلين ـ حوال ستة آلاف من الهستدروت[1] ـ لم أجد بداً من الاستنجاد بإحدى العواصم القريبة، فطلبت كبار المسؤولين باسم قائد حامية القدس، ثم أيقظت القائد فاضل عبد الله، وأخبرته بخطورة الوضع، وأني قد طلبت كبار المسؤولين في العاصمة العربية باسمه، وتم الاتصال بينه وبين كبير منهم، وأعلمه بخطورة الوضع في القدس، وطلب منه إرسال نجدة عسكرية على وجه السرعة، فاعتذر عن ذلك، وقال له وأنا أسمع: إذا وجدتم أنفسكم في موقف حرج فانسحبوا من القدس، فأجابه القائد: إنَّ في القدس عدا أهلها ما يزيد على عشرين ألفاً من اللاجئين إليها بعد مجزرة دير ياسين، فإذا احتلها اليهود فستكون مجزرة لم يسمع بها التاريخ! فأجابه المسؤول الكبير وهو يظن أن حامية القدس كلها من بلده: أنا آمرك بالانسحاب وأنتم عندنا أغلى!!!

يقول السباعي القائد المجاهد: «وهنا لم أتمالك من أن أقول له: **إنّ الحامية تقسم أن لا يدخل اليهود القدس إلا على أشلائها، فإما أن تنجدونا وإما أن نقاتل حتى نستشهد جميعاً**، وهنا جاء من يقول لنا: إن اليهود قد اقتحموا باب الخليل، فتركنا الحديث مع تلك العاصمة

---

(١) انظر المقابلة المشار إليها مع الدكتور العرقسوسي.

العربية، وأسـرعنا إلى إخراج من كان في القيـادة من الجنـود حتى الجرحى، ووزعنا عليهم كل ما كنتُ استحضرته من الرصاص والذخيرة من عمان، **وأسرعنا إلى باب الخليل**. وشاع في البلدة أن اليهود قد اقتحمـوا باب الخليل، فخرج النسـاء والأطفال من بيوتهم، وكـان الكهرباء منقطعاً، وسمعنا منادياً يقول: يا أهل القدس كلٌّ من عنده سلاح فليذهب إلى باب الخليل، وهُرع الشباب والمقاتلون إلى هناك، حيث تبين لنا أن اليهود لم يستطيعوا اقتحام باب الخليل للدفاع البطولي الذي قامت به الحامية هناك، وتحصّن المجاهدون ومن هُرع من أهل القدس وراء المتاريس عند باب الخليل وفوق أسواره، وابتدأت المعركة الكبرى منذ الساعة الحادية عشرة ليلاً حتى الخامسة صباحاً كان فيها صوت الرصاص والقنابل والديناميت يضج الآذان بلا انقطاع، فلما انبلج الصباح، انسحب اليهود، وردَّهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً، وخلفوا وراءهم مصفحة قد دمّرت وبعض القتلى الذي لم يستطيعوا سحبهم معهم، وعاد المجاهدون إلى أماكنهم، والمناضلون المقادسة إلى بيوتهم».

ويضيف الشيخ المجاهد رحمه الله: «وعدنا إلى مقر القيادة، فوجدنا ذلك المسؤول العربي الكبير يتصل بنا هاتفياً، ليسألنا عن أنباء المعركة، فأجابه قائد حامية القدس بأن الله قد نصرنا وأعاننا على صد هجوم اليهود، ولكن ذخيرتنا قد نفدت، فإذا لم تصلنا نجدة عسكرية في هذا اليوم فإننا في خطر شديد إذا عاود اليهود الهجوم. وفي عصر ذلك اليوم وصلت قوة من المدفعية الصغيرة معها بعض الجنود، وبدأت

تضرب الحي اليهودي من مشارف القدس، فارتفعت معنويات سكان القدس، ودبّ الهلع في قلوب اليهود المحاصرين، وبعد ثلاثة أيام استسلم الحي اليهودي كما أسلفنا قبل قليل».

بعد انتهاء معركة الحي اليهودي عاد السباعي إلى دمشق، وقابل كبار المسؤولين وحكى لهم قصة القدس، فتعجبوا وقالوا: إن الأخبار التي تذاع وتنشرها الصحف تفيد أن القدس الحديثة قد استسلمت للعرب! فكيف تقول: إنكم محاصرون في القدس القديمة؟ فأجابهم بأنه قادم الساعة من القدس، وأنه يحكي لهم ما حدث! فاتصلوا بأمين عام الجامعة العربية، فأكد له صدق ما قاله السباعي، وأن الحالة سيئة، وهنا قال أحدهم: لقد دخلنا معركة فلسطين ونحن لا نعلم حقيقة قوة الأعداء! فقال الآخر مستدركاً: لقد كنا نعلم حقيقتهم تماماً، وهذا تقرير صفوت باشا قد تبيّن لنا انطباقُه على الواقع. يقول الأستاذ السباعي: «وهنا قلت له: إذا كنتم تعلمون حقيقة استعداد اليهود، فكيف أعددتم جيش الإنقاذ لينقذ فلسطين، وهو لا يزيد على أربعة آلاف غير مدرّبين تدريباً كافياً، وليست له قوة جوية ولا مدفعية إلا مدفعية بسيطة جداً، مع أن في القدس الحديثة وحدها عشرة آلاف مقاتل يهودي؟ فأجابني: **إننا لم نرسل جيش الإنقاذ ليحارب، بل ليقوم بمهمات مؤقتة!..** فقلت له: ولهذا كان أكثر جيش الإنقاذ يتنزه في مناطق عربية بحتة كنابلس، بينما كانت حيفا ويافا وغيرها تسقط بأيدي اليهود، وكانت مجازر دير ياسين تقع على سمع هذا الجيش وبصره!.. فسكتوا جميعاً..».

وعاد السباعي إلى القدس مع الأستاذ عمر الأميري الذي جاءها لأول مرة. وبعد أيام وقعت الهدنة المشؤومة ـ كما وصفها السباعي رحمه الله ـ قال: «وجاءتنا الأوامر من قيادة جيش الإنقاذ بدمشق بالانسحاب من القدس، وتسليمها للجيش العربي بحجة أننا سنرسل إلى الجبهة السورية»!.

ملاحظات وحقائق:

وهنا وجد السباعي أنّ من واجبه أن يكشف للجماهير التي شرح لها خطورة القضية الفلسطينية وحضّها على التبرع والتطوع، أن يكشف لها الحقائق التي تبينها بنفسه على أرض المعارك..

فقام بإلقاء محاضرات في كل من دمشق وحمص وحماة وحلب واللاذقية ودير الزور وغيرها من المدن السورية. يقول رحمه الله: «وذهل الجمهور لما أبديته من حقائق لم تكن معروفة لديهم تماماً حتى شك بعضهم فيها، ثم انكشف الأمر، وتبين صدق ما أدّعي عن العوامل الخفية والظاهرة التي كانت تسيّر معركة فلسطين..» بل لقد شعر السباعي وهو في قلب معارك القدس «أن هناك مناورات تجري في الصعيد الدولي، وفي أوساط السياسات العربية الرسمية العليا لجعل التقسيم أمراً مفروغاً منه، ولجعل القدس تخرج من أيدي العرب والمسلمين!» بحسب كلماته الخطيرة والمعبّرة رحمه الله.

وأبدى بعد ذلك الملاحظات التالية:

١ ـ إن جيش الإنقاذ الذي شكلته الجامعة العربية، ووكلت قيادته إلى فوزي القاوقجي لم يكن إلا تسكيناً لشعور العرب الهائج في كل بلد، وإنه لم يكن يقصد منه جدياً أن يقاتل ويمنع سقوط المدن والقرى العربية بأيدي اليهود.

إن قيادة جيش الإنقاذ لم تخض معركة جدية واحدة في فلسطين، فالقاوقجي كان مقيماً قرب نابلس في منطقة عربية بحتة، وصفوت باشا وطه الهاشمي لم يدخلا فلسطين قط، ولم يكونا يعرفان حقيقة الأوضاع في فلسطين، بل كان مقر الهاشمي في دمشق، وكان صفوت باشا يتنقل بين القاهرة ودمشق.

٣ ـ إن جيش الإنقاذ كانت مهمته تحطيم منظمة (الجهاد المقدس) التي انخرط فيها شباب الفلسطينيين وأبدوا من البطولات ما سجّله لهم التاريخ بإعجاب وإكبار. وكان قائدها الشهيد البطل عبد القادر الحسيني يحاول أن يحصل من الجامعة العربية على قدر كاف من الأسلحة، فخاب مسعاه! يقول السباعي أو يضيف: «حتى إنه حين جاء إلى معسكر قطنا ليأخذ الفوج الأول من إخواننا قال: إنني طلبت منهم مدفعاً واحداً فرفضوا. . وأعطوني مئة بندقية لا تصلح إلا لوقود النار، وهذه هي معي في السيارة، ونظرنا فإذا ببنادق من العهد الفيصلي في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وأكثرها معصّب بعصائب من الحديد، ثم تابع الشهيد قوله: إنني ذاهب إلى فلسطين لأسترد (القسطل) وسأموت ولن أترك بلادي فلسطين طعمة للأعداء! رحمه الله.

تعقيب وإضافات:

١ ـ هذه صفحة من صفحات جهاد السباعي رحمه الله عوّلنا في خطوطها العامة وفي بعض التفاصيل المهمة على ما كتبه هو بقلمه رحمه الله. ولكننا حين قابلنا بين مذكراته وما كتب عنه سواء كان بأقلام إخوانه أو من عرفه لأول مرة على أرض فلسطين؛ أدركنا أنه تحدث عن نفسه، بالقدر الذي لا فكاك له عنه؛ أو بوصفه مسؤولاً أو قائداً يقع على عاتقه عبء التنظيم أو تأمين السلاح والذخيرة.. ولم يشر من خلال ذلك إلى شيء من مواقفه وبطولاته في ساحة القتال.. بل كان يحاول إهمال حق نفسه أو تجاوزه إن صح التعبير. لاحظنا ذلك عندما تحدث عن الفوج الثاني للمجاهدين الذي غادر قطنا متوجهاً إلى فلسطين بقيادته ـ كما علمنا من المصادر الأخرى[1] ـ أما هو فلم يزد على القول: «ثم سافر الفوج الثاني ـ وكان معنا مجاهدون آخرون بقيادة ضابط مسيحي ـ واجتزنا جسر اللنبي».

ولا حظنا ذلك في قيامه بمفاوضة الوفد الذي قام بهذه المهمة عن سكان الحي اليهودي في القدس الشرقية حين استسلموا.. وحتى عندما قاد ملحمة الدفاع والصمود البطولي عند باب الخليل بعيد وصوله من عمان محملاً بالذخائر.. لم يزد أن قال: «وسارعنا إلى باب الخليل»

---

(١) انظر عدنان الدبس وأميل الغوري (عضو الهيئة العربية العليا) للدفاع عن فلسطين.

وقد وصف السيد أميل الغوري الفوج الثاني المشار إليه بأنه «قوة سورية مؤلفة من نحو (١٥٠) رجلاً، جُلّهم من الشبان، يتحرّقون شوقاً لخوض غمار القتال». قال: «وكان على رأس هـذه القوة: المرحوم الشيخ مصطفى السباعي في لباس الميدان، متمنطقاً سلاحه للجهاد في سبيل الله»[1].

فإذا أضفنا إلى هذا: موقفه في المؤتمر الأول للعلماء الذي عقد بدمشق، والذي لم يشر هو إليه عند حديثه عن الكلمات التي جوبه بها رئيس الوزراء، وجاءت تعبيراً عن قوة الحق وعزة العلم. . بل نسبها لبعض المتحدثين؛ أدركنا سبباً مهماً ـ ولعله أهم الأسباب ـ في أنه لم يكتب مذكرات، لأنه لا رغبة لديه في أن يكون محور الأحداث، أو أن يسلط الأضواء على نفسه من خلال ما يختاره أو يركز عليه من الأخبار والوقائع، أو بالقدر الذي يحقق تلك الرغبة! بل الأمر عنده على العكس من ذلك تماماً. . وما تزال معظم المذكرات والسير الذاتية تبعث عليها هذه الرغبة، أو أغراض الكاتب بوجه عام.

أما الصفحات العشرون التي ضمّنها مذكراته عن دور «الإخوان المسلمين في معارك فلسطين» فقد جاءت استثناءً حملت عليه الضرورة. وهذا ما أوضحه في مقدمة هذه الصفحات حين قال: «لم يحن بعد نشر المذكرات التي دوّنتها عما شاهدته في معركة فلسطين بعد قرار التقسيم؛

---

(١) من مقالة للأستاذ أميل الغوري بعنوان: (ذكريات من جهاد السباعي في حرب فلسطين) مجلة الحضارة، ص١٠٠.

لظروف واعتبارات متعددة[1] . وإنما أوجز القول هنا في دور الإخوان المسلمين في تلك المعركة وقبلها، لا تبجحاً بما قاموا به من ضروب التضحيات، فقد علّمنا الإسلام كراهية التفاخر بالأعمال، والتحدث عنها إلا لضرورة، ولكن تسجيلاً لتاريخ قد يطمسه بعض المؤرخين والكتّاب عن سهو أو عدم اطلاع أو سوء نيّـة»[2] .

---

(١) في مقابلة صحفية متأخرة تمت قبيل وفاته رحمه الله، سأله المحرر قائلاً: بمناسبة الحديث عن فلسطين قد عرفنا سيادتكم في طليعة الذين أبلوا في سبيل استعادتها بلاءً حسناً، إلا أننا يجب أن توضحوا لنا كيف تم تراجع العرب منهزمين أمام الصهاينة، والعرب أكثر منهم عدة وأكبر عدداً؟ فأجاب بقوله: «لم أكن وإخواني الذين شرّفنا الله بالجهاد في أرض فلسطين، وشرّف بالشهادة أكرم شباب هذه الأمة، لم نكن إلا قائمين بما يوجبه الإسلام من الجهاد في سبيل الله. أما الهزيمة فحسبي أن ألخّص لك سببها بكلمة واحدة هي (الخيانة)! ». حضارة الإسلام، ص٥١ عدد آب (أغسطس) ١٩٦٤م.
وقد أشار إلى هذا في وقت سابق بمناسبة ما وصفه بـ«الحملة المسعورة الظالمة على الهيئة العربية العليا، وعلى رئيسها الزعيم المجاهد المؤمن الصابر الحاج أمين الحسيني». فقال في افتتاحية العدد السادس من السنة الثالثة من مجلته (حضارة الإسلام): «وهذا ما يدعونا ويدعو كل عاقل مخلص إلى الربط ما بين نشاط إسرائيل وحلفائها، وبين الهجوم والافتراء الرخيص على الهيئة العربية ورئيسها، وبذلك سيثبت التاريخ مرة أخرى أن كارثة فلسطين ما كانت لتقع، لولا ارتباط بعض المسؤولين في البلاد العربية بدول الاستعمار، وخضوعهم التام لها». عدد شعبان ١٣٨٢هـ ـ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٣م.

(٢) الإخوان المسلمون في معارك فلسطين: مجلة حضارة الإسلام: السنة الثانية: العددان ٦ ـ ٧: كانون الأول ١٩٦١م وكانون الثاني ١٩٦٢م، ص١٦٠.

٢ ـ على الرغم من أنه حصر ملاحظاته أو قصرها على جيش الإنقاذ؛ فإن الإشارات التي جاءت في عُرض حديثه وروايته للأحداث والوقائع تدل على ما كان يبيّت للقضية الفلسطينية. وأقل ما تدل عليه تلك الإشارات: الطبيعة القاصرة لنظرة المسؤولين في ذلك الحين إلى هذه القضية، وعقليتهم (البيروقراطية) في التعامل معها.. في الوقت الذي قدمت الشعوب ـ وفي مقدمتها الشعب الفلسطيني ـ ما تستطيع، وفوق ما تستطيع.

٣ ـ قام السباعي بإنذار اليهود ـ بواسطة مكبرات الصوت ـ أكثر من مرة بأن المجاهدين سوف ينتقمون منهم إذا استمروا في استغلال أماكن العبادة للأعمال العدوانية. وكان اليهود قد اتخذوا من الكنيس القديم الواقع في حيّهم في القدس، والمشرف على المسجد الأقصى، مركزاً حربياً يطلقون منه نيران بنادقهم ورشاشاتهم على المتجولين في حرم المسجد الأقصى. والكنيس عبارة عن بناء ضخم مستدير له قبة عالية، ويعدّ أقدم كنيس في فلسطين وربما في العالم كله.

يقول الأستاذ السباعي: «ولكنهم ازدادوا في العناد، فوضعوا أكياس الرمل على سطح الكنيس حول قبّته، واستمروا يطلقون من ورائها النيران على الحرم القدسي وعلى مقر قيادتنا في الروضة.

حتى إذا بدأت معركة الحي اليهودي، وتمكن المجاهدون من نسف قسم كبير من بيوته، وأصبحوا على مقربة منه قرروا نسف الكنيس. وفي ساعة من ساعات النضال في هذه المعركة، وضعت المتفجرات في

أنحاء متعددة من أسسه، بما يزن أكثر من نصف طن من الديناميت، ثم أشعلت النيران في أسلاك الديناميت، فما أتت دقائق حتى كان هذا الكنيس الضخم تتهاوى جدرانه السميكة، وينقض جزء من قبته، ويملأ الركام أرجاؤه. . »[1]. ويضيف قائلاً: «ولما استسلم اليهود. ووقفنا في ساحة الحي نشرف على تنفيذ شروط الاستسلام، قال لي أحد أعضاء وفد الاستسلام اليهودي والمرارة تأكل قلبه: لقد أخطأتم بنسف الكنيس، وستندمون!!. فقلت له: لقد أنذرناكم أكثر من مرة بعدم اتخاذه مركزاً للعدوان فلم تستجيبوا، أما أن نندم فهذه معركة قائمة بيننا وبينكم، ولم يمنعكم إجرامكم من قبلها أن تعتدوا على قبة الصخرة، وتنسفوا المساجد في يافا وحيفا ودير ياسين وغيرها»[2].

قلت: لعل الندم الذي تُوعِّد به الأستاذ السباعي من قبل هذا اليهودي أخص مما توحي به أو تدل عليه هذه الإجابة، وغني عن البيان أن السباعي كان يجاهد عن أمة العرب والمسلمين التي وقع عليها العدوان اليهودي في فلسطين. . أو بوصفه طليعة من طلائع الجهاد في هذه الأمة، ولهذا فقد أجاب بلسانها، وبالوقائع التي ارتكبتها العصابات الصهيونية بحقها.

٤ ـ لقد كان الشيخ المجاهد مصطفى السباعي مثالاً للقيادة المسؤولة والمبادرة، بل كان في قيادته وجنديته مثالاً يحتذى في

---

(١) المصدر السابق، ص١٧٢.

(٢) المصدر السابق، ص١٧٣.

الشـجاعة والإقدام. لقد تحرك للحصول على الذخيـرة في الوقـت المناسب، وتمكن من الحصول عليها ووضعها بين أيدي المجاهدين في ساعة المعركة الكبيرة والحاسمة مع اليهود. . وربما لم يكن في وسع أحد أن يحصل على هذه الذخيرة بعد أن وقفنا على طرفٍ من ملابسات الحرب التي دخلتهـا الجيوش العربيـة في فلسـطين. . وبعد أن رأينـا السـباعي يطرق أبواب كبار المسـؤولين وباب كرام التجار، فقد كان موضع ثقة الجميع، وكانت هيبته وحماسته وإخلاصه وترفعه تفرض احترامه وإجابته في طلب ما يريد.

إننا نتحدث هنا بلسان التاريخ، أو نكتب بقلم المؤرخ حين نقول: **إن مصطفى السباعي هو الذي قرر مصير معركة القدس الكبرى ومعركة الحي اليهودي . . فحال بذلك دون سقوط القدس الشرقية بأيدي اليهود عام ١٩٤٨م، وحمى دماء العرب والمسلمين وأعراضهم وأموالهم،** نعم، لقد طُهرت القدس من الحي اليهودي والكنيس اليهودي، وحُمي أهلها ومن التجأ إليها بعزيمة المؤمنين وجهاد المجاهدين. . ولكن قبل ذلك بعزيمة وجهاد ذلك القائد الشجاع والبطل الجريء الشيخ مصطفى حسني السباعي رحمه الله وسائر الشهداء والمناضلين.

قال الأسـتاذ الدكتور محمد الفاضل رحمـه الله: «ولقد شوهد السـباعي وإخوان السـباعي في حومة فلسـطين ـ رعى الله فلسـطين ـ يتسعّرون بالإقدام، ويتفجرون بالحمية الوطنية، ويهتفون بالتضحية، ويجدعون بالإيمان أنف النكبة. . بينما كان الغواة المضلّلون يلتهمون

زاد الأمة العربية مع الوحش! ويُنضِجون شواءهم في حريقها . . »[1] .

جهاد لا ينقطع (الجهاد بالكلمة) :

وضع السباعي السلاح، وقام مع إخوانه المجاهدين بتسليم أسلحتهم إلى جيش الإنقاذ، وإلى الجيش العربي الأردني الذي أنيط به الدفاع عن القدس . ولكنه لم يضع القضية عن عاتقه . .

بل لقد زادت حماسته للتعريف بهاوحمل أعبائها . . إن كان في ذلك زيادة لمستزيد! عاد ليكتب ويخطب ويحاضر، وعاد مع إخوانه ينشرون الوثائق والاحصاءات حول فلسطين حتى تكون قضيتها «في نظر

---

(١) من الكلمة المؤثرة التي ألقاها الدكتور الفاضل في حفل التأبين الذي أقامته جامعة دمشق للدكتور السباعي . انظر هذه الكلمة وعنوانها : «السباعي رائد الطليعة في الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي» . في مجلة (حضارة الإسلام) مصدر سابق، ص٥٨ ـ ٦٤ . وقد درسنا على الدكتور الفاضل الحقوق الجزائية ـ أو القانون الجنائي ـ في كلية الحقوق، وكان عالماً متمكّناً ومحاضراً بليغاً رحمه الله . وحين أُسندت إليه رئاسة جامعة دمشق كنت أحد أعضاء هيئة التدريس بكلية الشريعة . وكانت فترة رئاسته من أزهى الفترات التي مرت على الكلية والجامعة، وكان واحداً من الرؤساء البارزين الذين شهدتهم جامعة دمشق ـ الجامعة السورية سابقاً ـ في تاريخها الطويل . وقد أشارت بعض الكلمات التي أُلقيت في حفل التأبين الذي أقيم له على أحد مدرجات كلية الهندسة بجامعة دمشق إلى المكانة المرموقة التي كان يتمتع بها في القانون الجنائي على المستوى العالمي . وكانت الخسارة بفقده ـ وقد قُتل غيلة ـ كبيرة ومؤلمة . . رحمه الله .

الشعب قضية قومية واضح المعالم»[1] بحسب عبارته الدقيقة. وبوصفها قضية «شديدة الأثر في حياة العرب وخاصة أبناء سورية»[2] على حد قوله.

هل كان السباعي يخشى عليها - في ضوء ما رآه ووقف عليه أو شعر به على أرض المعركة - أن تفقد هذه الصفة القومية في المستقبل؟ بحيث تصبح في عدٍّ تنازلي جديد قضية الشعب الفلسطيني وحده؟ أو ينظر إليها على أنها قضية لاجئين على سبيل المثال؟ أو نحو ذلك مما يعني القبول بالهزيمة أو تصفية القضية؟ نعتقد أن كلماته السابقة - ونحوها كثير - واضحة في ذلك! إن النزول بالقضية الفلسطينية عن طبيعتها القومية هذه يمثل من وجهة نظره أولى خطوات الضياع والاضمحلال!.

ولهذ بقي يجاهد في سبيل بقاء هذه القضية المقدسة على هذا النحو.. لأنه كان يرى في ذلك عنوان الصمود ومفتاح التحرير.. ولطالما توجّه ببيانه المؤثر وحماسته المتّقدة إلى الشباب - على وجه الخصوص - ليذكروا فلسطين، ويذكروا موقعها في قلب العروبة والإسلام! فقال في بعض هذه النداءات: «هذه فلسطينكم! أضاعتها الأطماع الجائعة، والشهوات الظامئة، والغفلة المسترسلة، والأحقاد الصليبية الكامنة، ولن تكون فلسطين بعد كل هذه المؤامرات إلا لنا.. نحن العرب.. نحن المسلمين.. فلسطين لنا.

---

(١) دروس في دعوة الإخوان المسلمين للسباعي، ص١٦٠.
(٢) المصدر السابق.

يا شباب اذكروا فلسطين.. يقظتكم ومنامكم، واذكروها مغداكم ومراحكم، واذكروها في عبادتكم ورياضتكم.. واذكروها لأطفالكم وأمهاتكم. اذكروها فهي قلب وطنكم الكبير الواحد.. اذكروها فهي طريق الإسلام إلى عاصمته (مكة)... اذكروها فهي ثغر جزيرتكم التي يربض فيها محمد ﷺ..»[1].

أما أبرز المجالات والإنجازات في خدمة القضية الفلسطينية ـ بعد توقف القتال المشار إليه ـ فيمكن إجمالها فيما يلي:

١ ـ دعا السباعي إلى تخصيص أسبوع في كل عام باسم (أسبوع الخطر الصهيوني) تقام فيه المهرجانات، وتلقى فيها الخطب، وتوزع المنشورات في جميع أنحاء البلاد.

وقد بادر هو إلى إقامة هذا الأسبوع في عام ١٩٥٥م ـ بعد زوال الحكم العسكري في سورية ـ ودعا قادة الحركة الإسلامية في الوطن العربي للاشتراك في هذا الأسبوع، وطاف معهم في شتى أنحاء سورية، معرّفين بالخطر الصهيوني لا على فلسطين ومستقبل القضية الفلسطينية وحسب، بل على مستقبل العرب والمسلمين، ومطالبين الحكومات العربية بإعداد الشعوب للمعركة الفاصلة مع اليهود[2].

ونذكر بهذه المناسبة أن الحكومة أقامت في هذا العام ـ ١٩٥٥م ـ

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: مرجع سابق، ص٢٠٧، وراجع جريدة الشهاب.

(٢) المصدر السابق، ص١٤٤.

أسبوعاً دعته (أسبوع التسلح) دعت فيه المواطنين إلى التبرع من أجل الجيش، وألقى الأستاذ السباعي خطبة الجمعة في (مسجد الجامعة السورية) حول هذا الوضوع، وتولت إذاعة دمشق نقلها على جميع محطاتها. . وكان لهذه الخطبة الحماسية الملتهبة وقع السحر في مبادرة المواطنين إلى التبرع. .[1]. وقد شهد هذا الأسبوع وقائع ومناظر مؤثرة. . حتى إن الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله كتب مقالة بعنوان: (شعب لن يموت): بمناسبة أسبوع التسلح في سورية»: أشار فيها إلى بعض هذه الوقائع والمشاهد. . وقد نشرت هذه المقالة في مجلة (المسلمون) التي كان الأستاذ السباعي قد بدأ بإصدارها في دمشق في العام المذكور.

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: مرجع سابق، ص١٤٤ ـ ١٤٥. وانظر فقرات من هذا الخطاب في جريدة (الشهاب) العدد(٣١) السنة الأولى تاريخ ٢٦ ربيع الثاني ١٣٧٥هـ و١١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٥م. وانظر فيه نص الكتاب الذي سلّمه الأستاذ السباعي ـ بوصفه المراقب العام للإخوان المسلمين ـ لمعالي وزير الدفاع، وقد زاره في مكتبه، وأبلغه قرار الإخوان وضع جميع إمكانياتهم تحت تصرف وزارة الدفاع خلال أسبوع التسلح. وانظر كذلك نص النداء الذي توجه به الأستاذ السباعي لشبان الإخوان، والذي حثهم فيه على أن يكونوا: «أسبق إلى البذل. . وأكثرهم قياماً بالواجب، وأشدهم حرصاً على نجاح هذا الأسبوع بدعوة الشعب إلى التبرع، والاشتراك في اللجان المحلية التي تؤلف لهذا الغرض، حتى يضرب شباب الإخوان المثل الطيب في الإسراع إلى كل عمل فيه رضا الله وخير الأمة».

٢ ـ كانت هذه المجلة ـ المسلمون ـ تعد امتداداً للمجلة التي كان يصدرها في مصر الأستاذ سعيد رمضان، عادت للظهور في دمشق بامتياز حصل عليه الأستاذ السباعي، وكان ذلك بعد نحو عام من مشكلة الرئيس جمال عبد الناصر مع الإخوان المسلمين في مصر، والإعدامات التي نفذها بحق ستة من قادتهم، كان بينهم علماء ومجاهدون، إلى جانب الملاحقات والسجون والمعتقلات. وكانت بعض افتتاحيات المجلة تحمل توقيع (أبو أيمن) أي سعيد رمضان[١]، وكانت متقطعة، وليست منتظمة. ثم جدد الأستاذ السباعي صدورها عام ١٩٦٠م باسم (حضارة الإسلام) وصارت تعبّر عن آرائه وتوجهاته بعيداً عن أي مشاركة أو تنسيق.

والنقطة التي نود الإشارة إليها أنه رحمه الله خصص لفلسطين في هذه المجلة باباً ثابتاً لا ينقطع بعنوان: (الدرة المغتصبة) تتصدره صورة المسجد الأقصى، ويعنى بالقضية الفلسطينية وأخبارها وآخر تطوراتها. .

٣ ـ ذكر الأستاذ السباعي أن نواب الإخوان في المجلس النيابي اقترحوا جعل دراسة القضية الفلسطينية مادة دراسية مستقلة في فحوص الشهادات. . »[٢].

---

(١) جرى (مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية) على تصنيف هذه الافتتاحيات، وسائر المقالات التي تحمل التوقيع المذكور على أنها للأستاذ السباعي.

(٢) دروس في دعوة الإخوان، ص١٦١.

في ميدان الصحافة:

وبمناسبة هذه الإشارة إلى مجلته العلمية الدعوية أو (الفكرية الجامعة) ـ (حضارة الإسلام) ـ كما وصفها هو رحمه الله، نستكمل هذا الحديث ـ الموجز ـ عن جهاد الكلمة عند السباعي وكفاحه في ميدان الصحافة والإعلام.

١ ـ أسس السباعي ـ بعيد قيادته لحركة الإخوان ـ جريدة «المنار» عام ١٩٤٧م[1]. وقد اقتبس هذا الاسم من الشيخ محمد رشيد رضا الذي أسس مجلة ومطبعة بهذا الاسم، بل كتب تفسيراً للقرآن الكريم يحمل هذا الاسم: (تفسير المنار) ويمكن عدّ (المنار) مدرسة سلفية إصلاحية عوّل فيها الشيخ رشيد رحمه الله على منهج الإمام محمد عبده وأفكاره الإصلاحية، أو انطلق منها.

ولاقتباس هذا الاسم دلالته فيما نقدر لأنني سمعت الأستاذ السباعي يثني على الشيخ رشيد، ويبدي إعجابه ودهشته بما كتبه عن تاريخ الإمام محمد عبده، ويبدو لنا أن تشابهاً في غزارة المادة، وقوة العرض كان يجمع بين الأستاذ السباعي والشيخ رشيد. وربما كان السبب في أن السباعي لم يختر اسم (الفتح) الذي أشاد به أيما إشادة في وقت سابق؛ أنّه عدّ المنار طوراً أعلى أو يحتل مواقع أكثر تقدماً ـ في حومة

---

(١) راجع مجلة حضارة الإسلام: مرجع سابق، ص١٤٦ وهكذا علمتني الحياة ـ القسم السياسي، ص٥٦، الطبعة الثالثة.

الصراع والصدام بين المناهج وطرق الإصلاح في ذلك الحين ـ من موقع (الفتح): يدل على ذلك أن الإمام حسن البنا نفسه عدّ مدرسته أو عمله استمراراً لمدرسة المنار ولو من بعض الوجوه. بالإضافة إلى الدلالة الخاصة أو (المطلوبة) لهذا الاسم في تلك المرحلة أو في ذلك الوسط؛ فلا غرو إذاً أن يحيي الأستاذ السباعي اسم (المنار) في جريدته اليومية التي كتب فيها مئات الافتتاحيات التي تناول فيها القضايا الوطنية والعربية والإسلامية، ومختلف الشؤون الدولية. وكان قلم السباعي في ذلك الحين يتمتع بالألق والنضج من الوجهتين الفكرية والمهنية أو الفنية، فإذا أضفنا إلى ذلك: المعهودَ من حماسته وجرأته ـ وأسلوبه الخطابي في كثير من الأحيان ـ أدركنا مدى نجاح الجريدة في أداء رسالتها، ومدى الإقبال الجماهيري الذي تمتعت به وسط صحافة الأخبار أو وسط صحافةٍ تفتقر إلى مزايا الأداء التي كان يتمتع بها السباعي، والذي لم يكن صحافياً فقط[1]، بمعنى أن صلته بالجماهير لم تكن عبر الصحافة فحسب، فقد

---

(١) بعد أن أقرّت الجمعية التأسيسية (البرلمان) قانون الصحافة في الجلسة الخامسة والثلاثين التي عقدت في ٣ تموز (يوليو) ١٩٥٠م، أعطى رئيس الجمعية الكلمة لدولة رئيس الوزراء السيد ناظم القدسي، ثم للسيد مصطفى السباعي فقال: «أما وقد انتهينا من إقرار هذا القانون أريد أن أقول كلمة عامة حول مستوى الصحافة في بلادنا، إن مستوى الصحافة لم يصل إلى الدرجة التي يتوخّاها الصحفيون من الصحفيين أنفسهم»، ورَجَع ذلك إلى أسباب عديدة منها عدم تطبيق قانون المطبوعات تطبيقاً جدياً، وأشار إلى المادة الخاصة بفرض الرقابة المالية على وجه الخصوص.

=

كان خطيباً مفوّهاً. . بل لعله كما سنتحدث فيما بعد أحد الخطباء المعدودين في تاريخ البلاغة والبيان العربي.

ومن هنا فإننا لا نستغرب أن ينتظر جمهور عريض من الشعب هذه الجريدة كل صباح. . وأن تنفد أعدادها في كثير من الأيام في ساعة من ساعات الصباح الباكر، وأن يغالي بعض بائعي الصحف بثمنها في بعض الأحيان[1]!.

وقد تعرّض السباعي لهجوم شديد من قبل معظم الصحف التي كانت تصدر في دمشق. . ولكنني لا أستطيع تحديد الفترة الزمنية التي تم

= قال: «وأنا كصحفي سابق اشتغلت بالصحافة زمناً قصيراً أعلن أنه من أكبر أسباب انحطاط المستوى الصحفي في بلادنا: عدم فرض الرقابة المالية على الصحف. ولقد دخل في الصحفيين المخلصين أناس لا يهمهم من الصحافة إلا أن يبتزوا، وإلا أن يشهّروا بالناس. . كما أن هناك مصادر أجنبية تغذي بعض الصحف في بلادنا لتشويه كرامة هذا الوطن، وللتشويش على العاملين في الحقل الوطني، وهناك أشخاص يغذون بعض الصحف بالأموال في بلادنا لأغراض يعلمها الناس جميعاً، ولذلك أرجو من دولة رئيس مجلس الوزراء أن ينتبه إلى هذه الناحية، وأن يطبق هذا المبدأ بفرض الرقابة المالية على الصحف تطبيقاً عملياً حازماً لا شكلياً، حتى تعلم الأمة الفرق بين الصحافي المخلص في مهنته الذي يعيش من الاشتراكات ومن وارد صحيفته، وبين الصحافي الذي يعيش من موارد أخرى لا تمت إلى مهنة الصحافة ومثلها العليا. .».

(١) راجع مجلة الحضارة: عدد سابق، ص١٤٦.

فيها هذا الهجوم. . أهو في هذا الوقت حتى قام حسني الزعيم بانقلابه عام ١٩٤٩م، أو في الفترة الدستورية عام ١٩٥٠م حين كان نائباً في الجمعية التأسيسية ـ لأن صحف ذلك العهد ليست تحت يدنا الآن ـ فقد حدثني مرة بأن فترة مرّت عليه كان يضع أمامه الصحف الصادرة صباحاً ليرى عناوينها الكبرى ـ المانشيتات ـ تتناوله جميعاً، وعددها نحو تسع صحف، بالشتم والنقد اللاذع! والذي نرجحه أنها كانت في هذا الوقت الذي اشتغل هو فيه بالصحافة، وحقق نجاحاً ساحقاً يخاف منه ويحسد عليه! واستمرت جريدة المنار حتى ١٩٤٩م حين قام الزعيم حسني الزعيم بانقلابه العسكري، أو بفاتحة الانقلابات العسكرية المشؤومة في البلاد العربية. وعُطلت الصحيفة. . ثم تملّك امتيازها السيد بشير العوف واستأنف إصدارها كجريدة سياسية مستقلة بعد عهد الزعيم[1].

٢ ـ في عام ١٩٥٥م ـ المشار إليه ـ وبعد عودة الحياة الدستورية للبلاد في أعقاب الإطاحة بالعقيد أديب الشيشكلي بنحو عام، عاد السباعي للعمل في ميدان الصحافة، حيث أصدر الإخوان جريدة أسبوعية باسم (الشهاب)[2] ـ وربما استعاروا هذا الاسم من المجلة العلمية الدعوية التي أسسها الإمام حسن البنا بهذا الاسم ـ وكان

---

(١) الصحافة السورية منذ الجلاء حتى انقلاب الزعيم تستحق أن تفرد بدراسة علمية، وكذلك: دور السباعي وأثره في الصحافة.

(٢) صدر عددها الأول في ٢ رمضان ١٣٧٤هـ ـ ٢٤ نيسان (ابريل) ١٩٥٥؛ وكان البرلمان الجديد المنتخب قد عقد أول جلساته في ١٤/ ١٠/ ١٩٥٤م.

السباعي مشرفاً على تحريرها وسياستها العامة[1]. وكتب فيها كثيراً من المقالات، وشارك في تحرير أكثر من باب مثل (في مدرسة الروح) و(عظماؤنا في التاريخ). وقد كانت حملة هذه الجريدة على نظام عبد الناصر في مصر شديدة وممتدة، وكانت تتنبأ له بمصير كمصير ديكتاتور سورية المرتحل العقيد أديب الشيشكلي رحمه الله[2].

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: مقال الأخ الأستاذ محمد بسام الأسطواني: مصدر سابق، ص١٤٧.

(٢) وتحدثت في أعداد كثيرة عن وقائع التعذيب البشعة التي تعرض لها المرشد العام للإخوان في مصر الأستاذ حسن الهضيبي رحمه الله وكبار الشخصيات الإخوانية، وعن صور التعذيب وأساليبه التي كانت تمارس ضد المعتقلين من أعضاء الجماعة. راجع على سبيل المثال سلسلة من المقالات تحت عنوان (مصر تحت وطأة الحكم الإرهابي) في الأعداد من(٦ ـ ١٠) تاريخ ١٦ شوال ١٣٧٤هـ و٥ حزيران (يونيو) ١٩٥٥م فما بعده من الجريدة المذكورة. وانظر في العدد الثامن كذلك (كلمة الشهاب) أي افتتاحية العدد التي تحدت (السلطات المصرية أن تنكر حوادث التعذيب.. وفي أن تسمح لوفد من صحفيي البلاد العربية أن يزور المعتقلين والمسجونين. ويكتب عما شاهده وسمعه من هؤلاء المعتقلين). يقول باتريك سيل: «إن الهجوم الصحفي المستمر في سورية، مع نشاطات اللاجئين من أعضاء الإخوان المسلمين قد دعا مصر إلى استدعاء سفيرها في دمشق في أوائل تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٤م. وفي الواقع فإن إحدى المهام الرئيسية التي كلف بها مبعوث مصر الجديد إلى سورية محمود رياض كانت امتصاص هذه الموجة من النقمة على مصر». الصراع على سورية، ص٢٣٩ ترجمة سمير عبده ومحمود فلاحة؛ طلاس للدراسات والترجمة والنشر ـ دمشق ١٩٨٣م.

وقد استمرت في الصدور حتى قيام الوحدة مع مصر عام ١٩٥٨م.

وقد أيد الإخوان هذه الوحدة بدون تحفظ، وقد سبق للسباعي في عام ١٩٥٦م أن دعا للوقوف إلى جانب مصر عقب تأميم قناة السويس، وسارع هو بنفسه إلى الانخراط في المقاومة الشعبية حين وقع العدوان الثلاثي على مصر، وقام بحض زملائه وتلاميذه على أن يحذو حذوه ويقوموا بالتدريب على استعمال السلاح، فكان صاحب الفضل الأول في تحويل الجامعة إلى ما يشبه الثكنة العسكرية، وظل يلبس زي المقاومة الشعبية العسكري أثناء العدوان الثلاثي، وكان يرغب في أن يجعل منه زياً شعبياً لعموم أبناء الشعب[1].

ونشير هنا إلى النشاط الذي قام به ضد هذا العدوان؛ فقد بعث إلى ملوك ورؤساء الدول العربية البرقية التالية، بوصفه رئيس المكتب التنفيذي لقادة الإخوان في البلاد العربية:

«العدوان الإنكليزي الفرنسي الإسرائيلي على مصر مقدمة للعدوان على حرية العرب والمسلمين وشرفهم ومستقبلهم. أخوّة الإسلام ووحدة المصير تحتم أن تسارعوا لنجدة مصر، وإلا فإن الله لا يرحم أمة تتخاذل عند النكبات».

كما بعث بالبرقية التالية إلى الهيئات والأحزاب في كل من باكستان وإندونيسية وأفغانستان وإيران:

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: مرجع سابق، ص١٤٧.

«مصر والبلاد العربية تخوض أخطر المعارك ضد الاستعمار والصهيونية، وتدافع عن شرف العالم الإسلامي وحريته. يجب أن يظهر تأييد العالم الإسلامي فعّالاً يثبت قوة الإخاء الإسلامي، ووحدة المصير بين البلاد العربية والإسلامية»[1].

وقد قام مع بعض قادة الإخوان بالطواف على السفارتين الروسية والأمريكية «وطلبوا منهما أن يكون التأييد لمصر عملياً سريعاً مطلقاً» وزاروا مفوضيات الباكستان وإيران وتركية، وطلبوا من الوزراء المفوّضين إبلاغ حكوماتهم رغبة العرب والمسلمين بإنهاء التحالف مع بريطانية، وقطع العلاقات معها ومع فرنسة؛ استجابة للشعور العربي والإسلامي العام، كما طلبوا الإسراع إلى نجدة مصر بكل وسائل النجدة العسكرية والمالية والطبيّة[2].

وبهذه المناسبة، فإن الجهد الذي بذله في التدريب العسكري الذي أشرنا إليه أثرّ سلباً على صحته، لأنه كان يعاني منذ وقت طويل من تصلب الشرايين وارتفاع ضغط الدم[3]. وقد سمعته يقول: إن الطبيب

---

(١) جريدة الشهاب ـ العدد رقم (٧٦) تاريخ ٦ ربيع الآخر ١٣٧٦هـ.

(٢) المصدر السابق.

(٣) في سياق الأحاديث التي قدمتها الإذاعة السورية، والتي عبّر فيها رجال الأحزاب والهيئات السياسية وقادة الفكر عن آرائهم في (المعركة التي تخوضها الأمة ضد الصهيونية والاستعمار) أيام العدوان الثلاثي الذي تحدثنا عنه: أعد الأستاذ السباعي كلمة صدّرها بقوله: «نحن أمة لها كيانها ورسالتها، فلن نكون=

نصحه ذات يوم بأن لا يجهد نفسه، وبأن (يؤدّم) في قلبه، على حد قول الطبيب ـ أي يقتصد في إجهاده بمنزله من عنده (إدام) قليل ـ حتى تكتب له الحياة فترة أطول الله أعلم بها. . ولكن أين؟

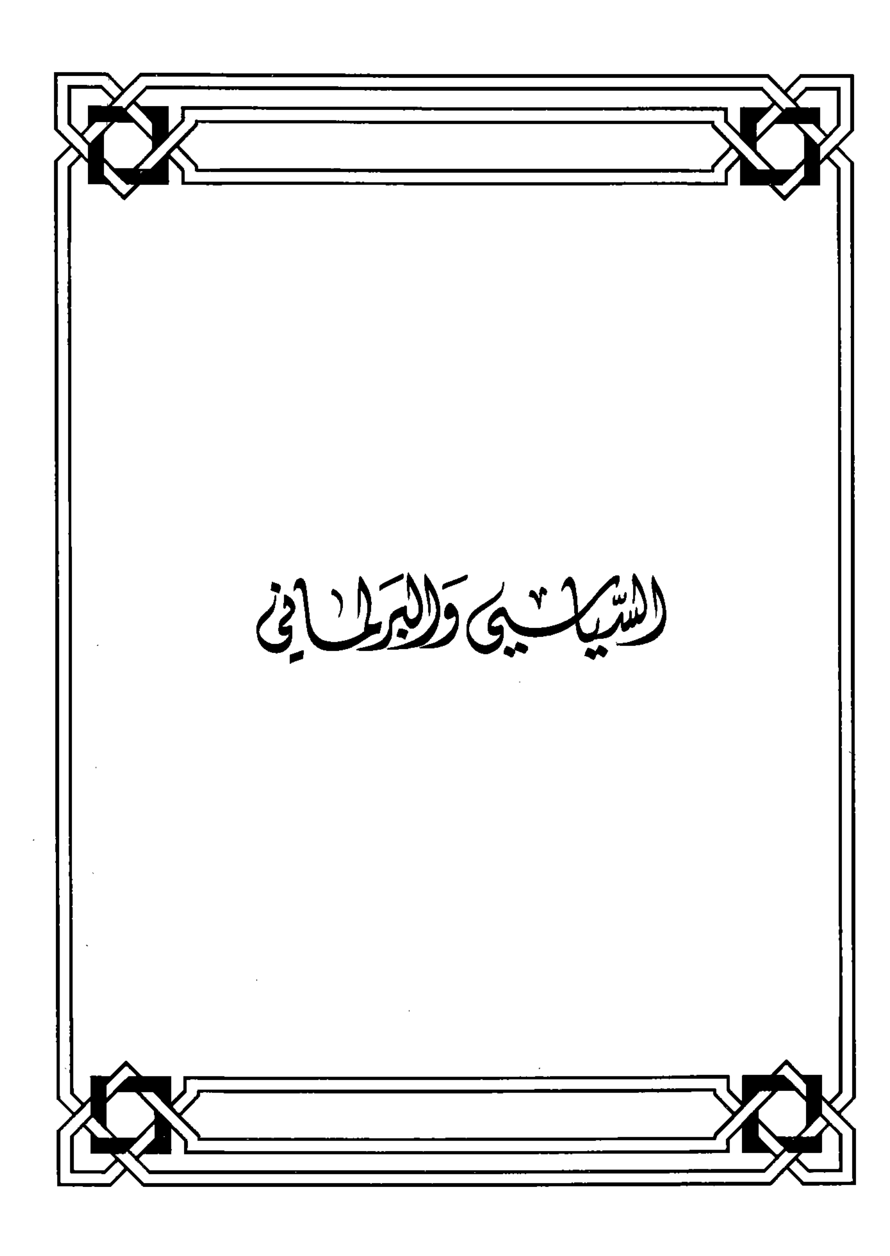
رحم الله أبا الطيب حين قال وهو يضرب في الأرض ويسافر في العنفوان:

وإذا كـــانـــت النفـــوس كبـــاراً
تعبـــت فـــي مـــرادهـــا الأجســـام

رحمك الله يا أبا الطيب! تعبت. . فقط؟ لو شئت قلت: شقيت. أو: كثرت في جسومها الأسقام!.

* * *

= تبعاً لأحد، وسيكون صراعنا مع الاستعمار عنيفاً حتى نطهر أرضنا من سلطانه».
ولكنه لم يتمكن من إلقائها بنفسه، لأنه انتقل إلى المستشفى للمعالجة تحت إشراف نخبة من كبار الأطباء، فألقيت نيابة عنه» رحمه الله؛ انظر جريدة الشهاب العدد (٨٠) في ٨ جمادى الأولى ١٣٧٦هـ و٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٦م.



السياسي والبرلماني



السياسي والبرلماني

لم يكن السباعي في معالم حياته السابقة أو التي عرضنا لها حتى الآن بعيداً عن السياسة والسياسيين منذ أن انطلق في كفاحه الوطني ضد الاستعمار الفرنسي والبريطاني في الشام ومصر إلى أن دخل البرلمان نائباً عن مدينة دمشق في أواخر عام ١٩٤٩ . . مروراً بكتاباته السياسية في مجلة (الفتح) ولقائه بممثلي الأحزاب والجمعيات في مكتب الكتلة الوطنية بحمص. . . ومتابعته لأعمال الكتلة وتعاطفه معها، ومقابلته للرئيس هاشم الأتاسي، وإعجابه به، وثنائه عليه. ثم دخوله المعترك السياسي من أوسع أبوابه. وأعني الصحافة، حين أصدر جريدة (المنار) التي تحدثنا عنها. . وأخيراً وليس آخراً جهاده على أرض فلسطين، والرؤية التي أتيحت له من خلال ذلك للواقع السياسي، ليس في سورية ومصر فحسب، ولكن في الجامعة العربية والوطن العربي بوجه عام.

بل إن السباعي نجح ـ وأكاد أقول تفرّد ـ بعد أن مرّ بجميع هذه المراحل في إدراكه العميق لطبيعة الموقف السياسي، وفهمه لنفسية الطبقة السياسية التي قادت حركة الاستقلال قبل أن تبدأ الأحزاب الناشئة التي تحدثنا عنها في العمل وخوض غمار السياسة: الأمر الذي حدّد له طريقه، أو أعانه على تبين ملامحه. ففي مقالة له بعنوان: «يا شيوخنا في

السياسة لقد آذانا ضعفكم فاتركونا نسير»[1] قال:

«ما أعتقد أن جيلين اصطدما في عصر واحد كما يصطدم الشباب العربي مع شيوخ السياسة العربية في عصرنا الحاضر؛ فشيوخ السياسة عندنا نشؤوا في عصر الضغط والإرهاق، وفي عهد التملق والحذر والمداراة؛ فلما خاضوا معركة السياسة ألفوا أنفسهم أمام دول طامعة قوية، تدل بقوتها وتتيه بكبريائها، ولم يحاولوا أن يكونوا خياليين في مطالبهم من هذه الدول، فقصروا حركتهم على ما يمكن تحقيقه من مطالب الأمة، ولم يشاؤوا أن يصطدموا مع المستعمرين إلا مكرهين! فإذا أصابهم نفي أو سجن أو عنت أو عذاب، كان ذلك نتيجة تعسف المستعمر أكثر من أن يكون نتيجةً عملوا لها بأنفسهم، وعرفوا خاتمتها، وهم في أول خطواتها..

«ومن حسن حظ هؤلاء الزعماء أنْ كان في الأمة بقية من إيمان! حفزها للعمل والتضحية، ونفخ فيها روح الأنفة والكرامة، ثم ألقاها في أتون الثورات والمعارك والاصطدامات، فقوافل الضحايا والشهداء والجرحى والمشوهين، وآثار الخراب والثكل واليتم والفقر، إنما كان نتيجة لازمة لثورة الأمة النفسية، التي أجّج الإيمان أوارها، ولم يكن نتيجة روح أثارها زعماؤها الشيوخ، ولا خطط أحكموا وضعها!».

«ولما حاول المستعمرون أن يفاوضوا الأمة الثائرة لم يكن أمامهم

---

(١) من افتتاحياته لجريدة المنار ـ العدد (١٦٨) السنة الأولى.

إلا هؤلاء الشيوخ، وهم على وطنيتهم وإخلاص كثير منهم ورغبتهم في إنقاذ أمتهم لم يكونوا على قدر كبير من متانة الأعصاب؛ لأنهم في الواقع كانوا يجهلون حيوية الأمة، وطبيعة الاستعمار. ومن ثَمَّ كانوا يعتقدون بضعف أمتهم وقوة أعدائهم، فكان أقل ما يلوّح لهم به المستعمر كافياً لأن يعدّوه كسباً عظيماً ونصراً مبيناً. كذلك فعلوا عام ١٩٣٦م في سورية وفي مصر، إذ كانوا ينعتون ما حصلوا عليه من معاهدات يومئذٍ بينهم وبين المستعمرين بأنها وثائق الشرف والاستقلال! هذا بينما لم يتورعوا عن إضافة ذيول سرية للمعاهدة تفقد ما بقي للأمة فيها من مظاهر الاستقلال».

ويضيف ناعياً على هذا الجيل الضعيف، وداعياً إلى فسح الطريق أمام جيل الشباب الثائر الذي ينتمي هو إليه ويتحدث باسمه.. بعبارات غاية في القوة والثورة!.

«ذلك الجيل الضعيف في أعصابه، الشاك في حيوية أمته، الفزع من قوة أعدائه، البسيط الطيب الذي يخدع بالمواثيق.. بل بالابتسامات والتحيات! هو الذي يقف اليوم حائلاً دون اندلاع النار! نار الشباب الذي يستهين بالصعاب، نار الإيمان الذي يهزأ بقوى الأرض، نار الكرامة التي لا تعرف أنصاف الحلول ولا متوسط الأمور! هذه النار هي التي تضطرم في نفوس الجيل الجديد، ولكن شيوخ السياسة يحاولون إطفاءها، لأن الحكمة تقضي بالوقوف في وجه السياسة الهوجاء! ويريدون بالهوجاء كل تطرف في الوطنية، وتصلّب في الحقوق، واعتزاز بالكرامة. ويرون من مظاهر هذه السياسة الهوجاء: كل ثورة وكل تظاهر، وكل عنف مع

المستعمر، لأنهم أعطوه الموثق الأكيد أن يسيروا معه إلى نهاية الشوط، فكيف يتركون هؤلاء الشباب يغضبونه ويثيرون حفيظته، فتضيع الكراسي، ويذهب الجاه، وتفوت الغنائم، وذلك كله عندهم معناه: ضياع الاستقلال!...».

أطلنا في هذا النقل والاستشهاد لنعطي كذلك مثالاً أو صورة لكتاباته السياسية في جريدة (المنار) ولنقف على طرف من أسباب إعجاب الجماهير بها وتعاطفهم معها، وعلى المكانة السياسية المرموقة التي احتلها السباعي قبل أن يدخل البرلمان عام١٩٤٩م نائباً عن مدينة دمشق وليس عن مدينته حمص.

ولكن السباعي كان رجل دعوة، أي أنه كان أكبر من سياسي، أو أنه لم يكن سياسياً فحسب، بمعنى أن اشتغاله بالسياسة كان جزءاً من رسالته كداعية ومجدّد، أو جاء في هذا السياق.

وقد ضاعف من اهتمامه بالسياسة فيما يبدو: الظروفُ الانتقالية التي كانت تمر بها البلاد، والتي حتمت جعل السياسة قدراً مشتركاً بين جميع العاملين في الحقل العام، أو فرضت الكفاح الوطني كجزء من رسالة جميع المصلحين ورجالات الأحزاب.

يضاف إلى ذلك: أن المناخ السياسي السائد ـ والذي ألمحنا إلى طرف منه في أوائل هذا الكتاب، وقبل قليل على لسان الأستاذ السباعي نفسه ـ يجعل داعيةً مثل السباعي يلتفت إلى وجوب اشتمال الدعوة على السياسة، لا بوصفها جزءاً من الدعوة نفسها فحسب، بل لأن السياسة

كـانت كذلك بحاجـة إلى إصلاح. ولطالما ربـط كثيـرون بينها وبيـن الألاعيب والأكاذيب.. أو بالأهواء والمصالح على أقل تقدير.

ولعل هذا ما أشار إليه أستاذنا محمد المبارك حين قال عن أخيه السباعي إنه «لم يستغل الدين في سبيل السياسة، بل جعل السياسة خادماً للدين، محققاً لأهدافه السامية، ووسيلة لخدمة الشعب وتحريره من الشرور والمفاسد والمظالم»[1].

وربما كان السباعي يشير إلى هذا حين كتب في وقت لاحق - في حكمه أو كلماته المأثورة - «أصعب شيء على السياسي المستقيم أن يرى الدجّالين في السياسة يستهوون الغوغاء بكاذب من القول، ومعسول الوعـود»[2]، وحين قال: «بعض السياسيين في أمتنا يبدؤون حياتهم السياسية كالعاشقة، وينتهون إلى أن يكونوا كبائعة الهوى»[3] بل حين أشار إلى أطوار السياسة التي مرت على البلاد؛ قال رحمه الله: «كانت السياسـة في بلادنا وطنيـة، ثم غدت اسـتغلالاً، ثم حاولت أن تكون إصلاحاً، ثم أصبحت اليوم: إما تضحية تجعل صاحبها من الأبطال، وإما وصولية تجعل صاحبها من الأنذال»[4]!.

وقد عبّر عن سـخطه وتبرّمه الشـديد بالسياسـيين الذين يخونون

(١) مجلة حضارة الإسلام: مرجع سابق، ص١٧.
(٢) الفقرة (٢٢١) من كتابه: هكذا علمتني الحياة: القسم الثاني.
(٣) الفقرة (٢٢٢) من المصدر السابق.
(٤) الفقرة (٢٢٣) من المصدر السابق.

الأمانة، وبالرعاديد من أشباه الرجال! قال رحمه الله: «لنا الله من حراس يردعوننا، وأمناء يخونوننا، ووكلاء يتآمرون علينا، وعيون لنا يصبحون علينا، وأطباء أصبحوا مرضى، ومضمّدين انقلبوا جرّاحين، وأساة صاروا شامتين»[1] وقال: «لنا الله من أشباه الرجال! رعاديد حين يكون السلاح في وجوههم، أبطال حين يكون السلاح في ظهورهم»[2].

وقد حدد في مقالة له بـ (المنار) مواصفات الحكم الصالح.. كتبها بلغة قانونية وأدبية معاً أو في وقت واحد، وأشار فيها إلى القادة والسياسيين.. فجعل من أبرز صفات الصلاح فيهم أن يعملوا في وضح النهار لا في الظلام، وأن تكون رجولتهم في أعمالهم أبين منها في خطبهم وأقوالهم. وأن «يكون الدهاء عندهم طريقاً لانتزاع حق الأمة من الغاصبين، لا للتغرير بها والتحكم في شؤونها، والتمكن من خيراتها وأموالها، ولو أدى ذلك إلى وضع القيود في أعناقها لتذل للظالمين والمستعمرين»!.

لقد رفض الكذب في مواصفات السياسي، وأقر الوضوح والدهاء معاً أو في وقت واحد. ولكنه وضع (الدهاء) في مكانه، وحدد له مهمّته، وقدم عليه في إحدى كلماته الأخرى: الأخلاق! قال رحمه الله: «الأخلاق أولاً ثم العلم والدهاء، هذ ما تنتفع به الأمة ممن يتصدّون

---

(١) الفقرة رقم (٢٢٤).

(٢) الفقرة رقم (٢٢٥).

لسياستها»[1]، والذي نراه في هذا السياق أنه كان ذا حظٍّ وافر من هذه الأمور الثلاثة، وإن كان حظّه من العلم والأخلاق فوق حظّه من الدهاء، فقد بلغ في الأخلاق مرتبةً لا يدانيه فيها أحدٌ من رجالات عصره، وكان له في العلم ـ أياً كان نوعه أو المقصود به في هذا السياق ـ أقران ونظراء. . أم في الدهاء فقد وجد من يسبقه ويتقدم عليه![2].

وأياً ما كان الأمر فقد كان السباعي من ألمع السياسيين الذين عرفتهم البلاد. . وربما كان ألمع برلماني عرفته الجمعية التأسيسية السورية التي وضعت دستوراً للبلاد عم ١٩٥٠م، كما سنرى فيما يلي:

في البرلمان:

تقدم السباعي مع نفر من إخوانه إلى الانتخابات التي عقدت في أواخر عام ١٩٤٩م[3] بعد زوال عهد حسني الزعيم في ١٤ آب من العام المذكور. وقام بترشيح نفسه عن مدينة دمشق، ولما يمضِ على إقامته بها بضعة أعوام، وحقق فيها نجاحاً ساحقاً من الدورة الانتخابية الأولى، ونجح معه كذلك الدكتور عارف الطرقجي، والأستاذ محمد المبارك. .

وقد عكس هذا النجاح: الشعبية الكبيرة التي بات الأستاذ السباعي

---

(١) الفقرة رقم (٢٢٨).

(٢) قال رحمه الله: البصر بالسياسية موهبة لا يكفي فيها الإخلاص ولا الاستقامة. الفقرة رقم (٣٢) من المصدر السابق.

(٣) أعلنت نتائج هذه الانتخابات بتاريخ ٨/ ١٢/ ١٩٤٩م، وافتتحت الجمعية بتاريخ ١٢/ ١٢/ ١٩٤٩م.

يحظى بها على مستوى البلاد السورية بوجه عام. . فإذا لاحظنا أن الدكتور الطرقجي حلبي المولد والنشأة، وأن ترشيحه عن مدينة دمشق يماثل ترشيح الأستاذ السباعي عنها. . أدركنا معنى الملاحظة التي سمعتها منه مرة، والتي نقلها عن دولة السيد ناظم القدسي ـ الذي رأس المجلس النيابي في معظم دوراته، وشكّل بعض الوزارات قبل أن يصبح رئيساً للجمهورية ـ وقد عبّر فيها عن دهشته من نجاح كلٍّ من السباعي والطرقجي عن مدينة دمشق. وقد رأى في ذلك دليلاً على قوة الحركة الإسلامية في بلاد الشام[1]. ولا شك في أن نمو حركة الإخوان في هذه البلاد،

---

(١) قارن هذا بفشل السيد ميشيل عفلق الدمشقي ـ والذي كان ينتمي إلى طائفة الروم الأرثوذكس ـ في انتخابات عامي ١٩٤٧م و ١٩٤٩م مع الإشارة إلى أن دمشق كان لها عشرة مقاعد للمسلمين ومقعدان للمسيحيين، وأن الانتخابات كانت تجري على أساس غير طائفي، بمعنى أن كل مواطن ينتخب اثني عشر نائباً على الوجه المذكور. يقول السيد أكرم الحوراني: «في أواخر شهر آب (أغسطس) ١٩٦٥م تم تعيين المجلس الوطني الموسع من خمسة وتسعين عضواً من ممثلي القيادة القومية والقطرية ومن أعضاء البعث والمستقلين، ومن ستة عشر ضابطاً من بينهم اللواءان صلاح جديد وحافظ أسد. وقد دخل ميشيل عفلق في اليوم الأول لانعقاد هذا المجلس بتاريخ ١/ ٩/ ١٩٦٥م قاعة المجلس النيابي السوري بمظاهرة احتفالية، هذا المجلس الذي حرمه الشعب من دخوله طيلة العهود الديمقراطية السابقة، لقد سقط ميشيل عفلق في الانتخابات مرتين في عامي ١٩٤٧ ـ ١٩٤٩م فشكل هذا السقوط لديه عقدة نفسية من الطريقة الديمقراطية التي تقضي بانتخاب النواب من قبل الشعب»؛ انظر الحلقة (١٠١) من مذكرات أكرم الحوراني: جريدة القدس العربي ـ العدد (٣١٤٤) بتاريخ ١٧/ ٦/ ١٩٩٩م.

وبخاصة في دمشق كان مطرداً.. بل إن التيار الإسلامي أصبح هو الغالب بغض النظر عن عدد (المنتظمين) في سلك الإخوان المسلمين[1]. وقد مكّن هذا السباعي من تشكيل جبهة سياسية إسلامية خاض بها الانتخابات المذكورة، وقد سمّى السباعي هذه الجبهة (الجبهة الاشتراكية الإسلامية) وأعلن برنامجها الانتخابي في خطاب ألقاه في اجتماع شعبي كبير عقد في مقهى الحجاز بدمشق في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٤٩م.

---

(١) يقول الدكتور فايز المط: إن عدد المنتسبين للإخوان زاد على مئة ألف في السنوات الأولى (راجع كتاب حسني جرار، ص٥١) ونذكر بهذه المناسبة أن حزب البعث ـ الذي أشرنا إليه في المقدمات ـ كان وضعه في دمشق على النحو التالي، الذي ذكره الأستاذ سامي الجندي ـ أحد أعضاء الحزب الأوائل ـ قال: «كان كل المنتسبين للحزب في دمشق من العناصر الشابة الطلابية القروية، التي كانت تؤم الجامعات والثانويات بين عامي ١٩٤٠ ـ ١٩٥٥م، حتى إذا انتهت عادت إلى مسقط رأسها فتوالي نشاطها. ولقد كانت الشروط الاجتماعية في الريف مواتية لنشوء الحزب وامتداده، فتضخم فيه وظل هزيلاً في المدن، وخاصة دمشق. ومع الزمن أصبح جسماً كبيراً برأس صغير». وينقل الدكتور نيقولاس فان دام عن التقرير التنظيمي للحزب عام ١٩٦٥م إعداد حنا بطاطو ـ أي بعد الفترة التي نتحدث عنها بنحو خمسة عشر عاماً ـ أنه لم يكن هناك سوى اثني عشر دمشقياً من بين حوالي ستمئة عضو بالحرس القومي البعثي بالعاصمة السورية عام ١٩٦٤م. راجع كتاب الصراع على السلطة في سوريا لـ(فان دام)، ص(٣٩ ـ ٤٢).

وسوف نعرض لوصف هذه الجبهة بالاشتراكية في صفحات قادمة عند الحديث عن كتاب الأستاذ السباعي (اشتراكية الإسلام) مكتفين هنا بلفت النظر إلى هذه التسمية المبكرة، ومكتفين كذلك بالحديث عن موقف الأستاذ السباعي - والجبهة - من الشيوعية، وتبنّيه لسياسة عدم الانحياز في بادرة غير مسبوقة في السياسة العربية. وقد عاد للتأكيد على هذه السياسة أمام البرلمان في عام ١٩٥٥م الأستاذ محمد المبارك بعد زوال حكم أديب الشيشكلي[١].

قال الأستاذ السباعي: «ولعل من أكبر أسباب الهزائم السياسية التي تنتابنا: انحيازنا إلى معسكر واحد من المعسكرين العالميين المتناحرين! ولا نعلم لذلك سبباً - مقبولاً - سوى ما يخوّفنا به من الشيوعية وسيطرة روسية على بلادنا»! قال: «أما الشيوعية كفكرة وعقيدة فلسنا نخاف أن تطغى على فكرتنا وعقيدتنا، وإن لنا من مناعة الإسلام ما يحول دون طغيان الأفكار المخالفة له في الاتجاهات والأهداف.. وأما الشيوعية

---

(١) كان ذلك في شهر تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٩٥٥م في سياق حديثه أو دفاعه عن حق مصر في شراء السلاح من الدول الاشتراكية. وقد وصف سياسة بعض الدول الغربية في التدخل في هذا الشأن بـ«الوقاحة» ورفض التسوية بين الدول التي تصارحنا بالعداوة، ودول تسير معنا في كثير من القضايا في الميدان الدولي! وتساءل: «إذاً كيف يمكن أن تكون المساواة بين هذين المعسكرين، أو بين هذين النوعين من الدول»؟ مع الإشارة إلى أن الانتخابات للبرلمان المذكور جرت في جولتين: (٢٤ - ٢٥) أيلول و(٤ - ٥) تشرين الأول عام ١٩٥٤م وهو البرلمان الذي دخله الأستاذ المبارك كمرشح مستقل.

كمذهب اقتصادي فنحن لا نخاف منها، إذ ليس عند جماهيرنا ما تأخذه الشيوعية وتقضي عليه!.. فليسفروا عن وجوههم، وليعلنوها لنا بصراحة: إن الخوف من الشيوعية ليس علينا نحن أبناء الشعب، بل على إقطاعياتهم وعروشهم وزعاماتهم وثرواتهم التي باعدت بينهم وبيننا! ألا إن ذهب (ترومان) و(أتلي) لو صُب علينا صباً لن يحول دون انتشار الشيوعية ما دامت الجماهير في هذه الحال المحزنة. كما أن استعمال العنف والقوة في مقاومة الشيوعية لن يزيدها إلا شدة، وما على الذين يخافون منها إن كانوا يغارون على مصلحة شعوبهم إلا أن يعملوا على رفع مستواها والقضاء على شكواها، وتحطيم قيود العبودية عن أفكارها وآرائها وأجسادها وبطونها!.

«وأما الشيوعية كغزو استعماري فنحن لنا من دمائنا ومن آيات الكرامة ما يجعلنا نقف في وجه كل اعتداء وغزو، وأمام أية قوة مهما عظمت. ولكنا نسأل هؤلاء الذين يخوفونا بالغزو الروسي: لماذا لم يعملوا على جلاء القوى الاستعمارية عن أوطاننا وبلادنا إذا كانوا حقاً يكرهون الغزو الأجنبي؟».

وقال أخيراً: «إننا نعلن بكل وضوح: **إن علاقاتنا مع الدول الكبرى يجب أن تكون على قدم المساواة، لا أن تفضّل دولة على أخرى!**»[1].

---

(١) جريدة الشهاب العدد (٢٣) في ١٦/ ١٠/ ١٩٥٥م. وانظر فيه نص الكلمة =

ويمكننا عدّ هذه السياسة المتوازنة في العلاقات مع الدول الكبرى، والتي تحكمها مصالحنا واستقلالنا وموقف هذه الدول من هذا الاستقلال وتلك المصالح.. حجر الزاوية في السياسة الخارجية التي نادى بها السباعي رحمه الله. وقد لا نكون بحاجة إلى الحديث عن إنجازات الإخوان في الحقل السياسي. ولكننا قبل الحديث عن أبرز قضية داخلية دافع عنها السباعي وشغلت الرأي العام، وهي قضية دين الدولة التي برزت خلال وضع الدستور.. نشير إلى مساجلة برلمانية له حول **الوحدة العربية** تظهر مدى إيمانه بهذه الوحدة ودفاعه عنها، من جهة، و(**الطبيعة الديموقراطية الشعبية**) التي كان يطلبها لهذه الوحدة، من جهة أخرى:

في الجلسة الرابعة التي عقدتها الجمعية التأسيسية بتاريخ ٢٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٩م تقدمت (لجنة وضع صيغة القسم) الذي

= المهمة التي ألقاها الأستاذ المبارك حول رأيه في السياسة الخارجية. ويذكر باتريك سيل أن السباعي قال في الاجتماع التي عقدته الجبهة الاشتراكية الإسلامية في الثاني من آذار (مارس) ١٩٥٠م: «نعتزم التوجه إلى المعسكر الشرقي إذا لم ينصفنا الديمقراطيون.. ونجيب أولئك الذين يقولون: إن المعسكر الشرقي هو عدونا: متى كان المعسكر الغربي صديقاً لنا؟ إننا سنربط أنفسنا بروسية ولو كانت الشيطان نفسه!»؛ قال باتريك سيل معلقاً: «كانت هذه واحدة من عدة انفجارات مشابهة. وما يجدر ذكره هنا هو أن الجبهة الإسلامية الاشتراكية على نقيض الإخوان المسلمين في مصر، بعيدة عن كونها تنظيماً شبه عسكري أو أداة سياسية، كانت وبحق ناطقاً أصيلاً عن الجماهير السورية التي كانت وستبقى مسلمة غيورة»؛ الصراع على سورية، ص١٣٩.

كان على أعضاء الجمعية أن يؤدوه، باقتراح الصيغة التالية: «أقسم بالله العظيم أن أحترم قوانين الدولة وأحافظ على استقلال الوطن وسيادته وسلامة أراضيه، وأصون أموال الدولة، وأعمل لتحقيق وحدة الأقطار العربية».

وطال النقاش حول المراد بقوانين الدولة، أهي القوانين الدستورية أم العادية؟.. وحول الفقرة الأخيرة المتعلقة بوحدة الأقطار العربية.. وشارك في هذا النقاش الكثير من النوّاب منهم الأستاذ أكرم الحوراني والأستاذ السباعي، اللذين شاركا أكثر من مرة.. وحسم النقاش تقريباً حين توجه الأستاذ الحوراني إلى النواب يرجوهم الموافقة - فقط - على وضع الفقرة المتعلقة بالحفاظ على النظام الجمهوري، وكانت هذه الفقرة قد اقترحت في سياق النقاش؛ قال الأستاذ أكرم: «لأننا نؤمن بأن هذا النظام هو النظام الأفضل لتحقيق الوحدة العربية الصحيحة. أما المشاريع الاستعمارية التي يراد فرضها على البلاد العربية فهي ليست لتحقيق هذه الوحدة، بل للحيلولة دون تحقيقها. ونحن نخشى أن نقيم عروشاً لنمنع وحدة صحيحة». كان السيد الحوراني يعرّض بما سمي مملكة سورية الكبرى، أو مشروع الهلال الخصيب الذي كان يرمي إلى ربط سورية بالعرش الهاشمي في العراق! ثم أتبعه في المساجلة والحديث الأستاذ السباعي.. وكان مما قاله: «إننا دعاة وحدة عربية منذ الصغر.. ولكن هذه الوحدة تحول دونها مطامع وأهواء. ومن هذه المطامع والأهواء مطامع دول أجنبية في بلاد العرب. ولقد علّمتنا تجربة فلسطين أن من أكبر أسباب الهزيمة التي منينا بها:

تضارب أهواء الملوك والرؤساء والأمراء، ولذلك فإن في لفظ هذه الكلمة التي تدل على وحدة البلاد العربية دون الإشارة إلى المحافظة على نظامنا الجمهوري ما يفيد أن المجلس يريد القضاء على هذا النظام من أساسه.

«إن هذه البلاد أحبت النظام الجمهوري واعتنقته واعتقدت بصلاحه. وإننا نعلن بكلِّ إيمان وصراحة ووضوح بأننا لا نريد عن النظامِ الجمهوري بديلاً.. إننا نريد لوطننا نظاماً شعبياً ديموقراطياً، يقوم على إرادة الشعب وتتمثل فيه إرادة الشعب..» ثم أضاف متحدثاً بلسان المجلس كله: «وليس هنا من أحد يكره الوحدة العربية، ولكننا نريدها وحدة شعوب لا وحدة ملوك، ولا وحدة عروش، ولا وحدة تيجان»!.

وكان في هذا القول تعريضٌ واضح بالسيد عصام المحايري، النائب عن الحزب السوري القومي، الذي كان يتبنى فكرة الأمة السورية وليس العربية، كما أسلفنا، فاعترض قائلاً «إن ثمة عائقاً يحول دون تحقيق الوحدة العربية، وهو عائق طبيعي فرضته الطبيعة بجعلها أقطار العالم العربي أقطاراً منفردة بعضها عن بعض»! فأحدث هذا القول ضجة في البرلمان، اضطر معها رئيس الجمعية السيد رشدي الكيخيا إلى مقاطعته وتوقيفه قائلاً: «إنَّ ما يثيره هو من المبادئ الحزبية التي لا مجال لها الآن». وكان الأستاذ السباعي نائباً لرئيس الجمعية أو أحد نائبي الرئيس.

المعركة الدستورية حول دين الدولة:

قامت حول (المادة) المتعلقة بدين الدولة معركة كبيرة داخل أروقة البرلمان وخارجه كذلك. ولعل الشارع السوري والرأي العام لم ينشغل بقضية دستورية كما انشغل بهذه القضية. وكانت الجمعية التأسيسية قد انتخبت لجنة من تسعة أعضاء، سميت لجنة الدستور، عهدت إليها بوضع مشروع الدستور تمهيداً لمناقشته وإقراره من قبل الجمعية، وكانت برئاسة الأستاذ سهيل فارس الخوري نائب دمشق، ومقررها الأستاذ عبد الوهاب حومد نائب حلب.

وكان الأستاذ السباعي أحد أعضاء هذه اللجنة، ولهذا كان رحمه الله «يؤثر أن يظل النقاش حول دين الدولة محصوراً بين أعضاء لجنة الدستور والمجلس التأسيسي» كما قال: حتى إنه «أوقف كل نشاط في الدعاية لهذه الفكرة ـ قضية دين الدولة ـ سواء في أوساط الجمهور أو الأندية العامة أو على صفحات الصحف» قال: «ولم أبد رأيي من قبل إلا حين طلبت مني (المنار) الإجابة عن أسئلة تتعلّق بهذه الفكرة، فأجبت بما أعتقد أنه في غاية الصراحة واللياقة ومراعاة شعور المعارضين لنا، وخاصة أبناء الطوائف الأخرى».

ولكنه وجد نفسه مضطراً إلى أن يكتب في ذلك بياناً ـ تاريخياً ـ يتوجه به إلى أبناء الأمة حين وجد أولئك المعارضين ينشرون البيانات التي تعبر عن رفضهم لإقرار المادة المذكورة في الدستور. وفي ذلك

يقول الأستاذ السباعي:

«ولكني قرأت أول أمس بياناً نشرته بعض الصحف لمن أسموا أنفسهم خريجي الجامعات العليا، وزعموا أنهم كلهم مسلمون، وقد خانتهم الجرأة والشجاعة، فلم يذكروا لنا اسماً من أسمائهم لنعرف مبلغ الصدق فيما ادعوه من تخرجهم من الجامعات العليا، ومن انتسابهم إلى الدين الإسلامي.

«وقرأت أمس بياناً من بطريركية الروم الكاثوليك بدمشق، كما قرأت مثله في معناه لبعض أحبار النصرانية في المدن السورية[١].

«وحيث نزل أصحاب الرأي الثاني إلى الميدان الصحفي الشعبي يدلون بآرائهم وحججهم، أصبح من واجبنا أن ندلي بحججنا وآرائنا، وأن نطلع الرأي العام على حقيقة فكرتنا، وأن نناقش أدلة المخالفين ونفندها. والأمر بعد ذلك كله للشعب؛ إذ هو مصدر كل سلطة، وسيادته هي السيادة الحاكمة التي تتمثل في مجلسه التأسيسي وحكومته الدستورية».

---

(١) يقول باتريك سيل: «وقد نشرت صحيفة البعث بأن(٢٣٥) طالباً جامعياً قد التمسوا من رئيس الدولة أن يقضي على كل الفوارق الطائفية، واهتمت الطوائف المسيحية كثيراً بالأمر، وعالجت معظم عظات عيد الفصح هذا الموضوع، وقال بطريريك اليونان الكاثوليك لجموع المصلين: «عليكم أن تناضلوا لتبرهنوا على أن الحق إلى جانبكم، وأنكم لستم لاجئين في وطنكم».
الصراع على سورية، ص١٢٩. مرجع سابق.

وسوف نثبت نص هذا البيان بعد قليل، ولكننا نشير هنا إلى أن هذا البيان الصادر بتاريخ الثامن من شباط (فبراير) عام ١٩٥٠م يُعدُّ المرافعة المكتوبة التي قدمها السباعي للرأي العام السوري الذي بقي مشغولاً بهذه القضية أكثر من سبعة شهور.. وقد أوضح السباعي في هذه الوثيقة الأسباب التي تدعو إلى النص في الدستور على دين الدولة، ولماذا يجب أن يكون دين الدولة هو الإسلام.. فأبان عن ديموقراطية هذا النص، وعن المصلحة الداخلية والمصلحة القومية والمصلحة السياسية التي تدعو إليه، قبل أن يناقش اعتراضات الطوائف المسيحية في البلاد، واعتراضات كل من القوميين والعلمانيين وبعض الحقوقيين. وقد صيغت هذه الوثيقة أو هذه المرافعة بلغة علمية رفيعة، وبأسلوب بعيد عن الإثارة والنعرة الطائفية التي طالما كرهها السباعي، وندّد بها في مواقفه وكتبه وخطبه ومحاضراته.

ثم قام بعد هذا البيان بشرح موقفه في كثير من الخطب، في الوقت الذي تقدم فيه الشعب (بآلاف العرائض والبرقيات) كما أشار هو إليها في بعض جلسات الجمعية التأسيسية، بل في أول جلسة عقدتها لمناقشة مشروع الدستور الذي تقدمت به اللجنة. فقد اضطر السباعي في هذه الجلسة التي عقدت بتاريخ ٢٤ تموز (يوليو) عام ١٩٥٠م أن يبدأ مرافعته في هذه القضية، بدلاً من أن تبدأ اللجنة بالحديث عن مشروع الدستور بصورة عامة، ثم تأخذ في مناقشته مادة مادة! فقد بادر نائب دمشق ـ عن الروم الكاثوليك فيما أعتقد ـ السيد الياس دمّر بإثارة هذه المسألة..

متهماً الذين ينادون بها بأنهم يعملون بوحي الأجنبي!!!.

ويبدو لنا ونحن ننظر الآن في هذه المسألة، ونتصفح المساجلات الطويلة التي شهدتها تحت قبة البرلمان أن مثل هذه البذاءة من قبل دمّر كانت مقصودة حتى لا يتم النقاش في جوّ علمي ووطني هادئ ومسؤول! كانت المواد المقترحة كما جاءت في بيان الأستاذ السباعي المشار إليه، على النحو التالي:

١ ـ الإسلام دين الدولة.

٢ ـ الأديان السماوية محترمة ومقدسة.

٣ ـ الأحوال الشخصية للطوائف الدينية مصونة ومرعية.

٤ ـ المواطنون متساوون في الحقوق لا يحال بين المواطن وبين الوصول إلى أعلى مناصب الدولة بسبب الدين أو الجنس أو اللغة.

التفت الأستاذ السباعي إلى الزميل السيد الياس دمّر قائلاً إنه: «عبر عن معارضته بشكل بعيد عن الذوق واللياقة، إذ تعرض لزملائه تعرضاً غير جميل، ونعتهم بأنهم يعملون بوحي الأجنبي»، واستنكر الأستاذ السباعي إثارة هذه العاصفة في أول جلسة يعقدها المجلس لمناقشة الدستور بعد أن طال انتظار الشعب له، وقال: «أرجو أن يعتقد معي الزميل بأنه لم يكن موفقاً في موقفه هذا، وأنه كان أبعد الناس عن رعاية المصلحة العامة في هذه الجلسات التاريخية»! ثم قال: «إنَّ الذين نادوا بمبدأ دين الدولة ولي الشرف أن أكون أحدهم في هذا المجلس، لم

يكونوا يستوحون إلهاماً أجنبياً، وإنما استوحوا الأكثرية الساحقة من هذا الشعب ، الذين تجدون تصميمه على تسجيل هذه المادة في الدستور بآلاف العرائض والبرقيات والرسائل، هذا الشعب الذي تعلمون مقدار تمسكه بدينه وخاصة في دمشق التي جعلت رجلاً كإلياس دمر لا يستطيع أن ينجح في الانتخابات إلا بعد أن تقرب إلى المسلمين فيها بأن سمّى نفسه «محمد الياس دمر»! وعندما قاطعه السيد دمر قائلاً: «أنا لم أقل ذلك وإنما الشعب هو الذي سماني بذلك»! أجابه الأستاذ السباعي بقوله: «بل أنت الذي كنت تقول ذلك، وقد قلت لي منذ شهر في غرفة المحاسبة بهذا المجلس بأنك لا تزال تسمى محمد الياس دمّر، ولقد ذهبت في الانتخابات إلى أبعد من هذا، فكنت تقول للمسلمين بأنك رجل مسلم، وأنه لا يمنعك من إعلان إسلامك إلا خوفك من أذى المسيحيين.. بل ذهبت إلى أبعد من هذا وذاك..»!.

ثم توجه إلى أعضاء المجلس قائلاً:

«إنَّ الشعور الديني العميق لدى أكثر أبناء الشعب إذا أدى بالسيد الياس دمر إلى أن يتملّق له بكل هذه الأساليب إنما هو شعور بريء، ومن الظلم له ولممثليه في هذا المجلس أن يتَّهم ويتهموا بأنهم حين يطلبون النص على دين الدولة يعملون بوحي أجنبي هبط عليهم»!.

وأضاف قائلاً: «أما الزعم بأن النص على دين الدولة تفرقة بين أبناء الشعب وإثارة للنعرة الطائفية فهو زعم باطل، لأننا لا نريد بهذا النص تمييز المسلمين عن غيرهم، ولا افتئاتاً على حقوق المواطنين

المسيحيين. وحسبكم أن ترجعوا إلى نص المادة كما جاءت في المشروع لتعلموا أنها كتبت بروح نبيلة تشعر بالإخاء بين المواطنين، وليس القصد منها إلا تحقيق أهداف سياسية وقومية واجتماعية هي في مصلحة هذا الشعب مسلميه ومسيحييه على السواء. ولو كان النص على دين الدولة يؤدي إلى التفرقة بين أبناء الوطن الواحد لما جاز لكثير من دول أوروبة وأمريكة أن تنص عليه في دساتيرها. . »[1].

وبعد أن استعرض بعض هذه الدول، إلى جانب بعض الدول العربية. . وفنّد الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة. . عرض لحجةٍ أو لشبهةٍ أخرى كان يرددها الطرف الآخر، فقال:

«وأما أن الغرب يسره أن نقيم دولتنا على أساس الدين، فهذا وهم خاطئ، وتجاهل لحقيقة موقف الغرب من الإسلام! . . إن أوروبة ما زالت تشنّ الحروب الفكرية والسياسية والأخلاقية لتبعدنا عن الإسلام وعن أدياننا. . إن تاريخ الشرق الحديث طافح بالثورات ضد الاستعمار، والغرب يعلم تماماً أن مبعث هذه الثورات هو الإسلام الذي قامت ثورته الكبرى على محاربة الظلم والطغيان والاستبداد، وحسبكم أن تعلموا أن المغرب العربي، وأخص منه الجزائر ما برح منذ مئة وعشرين سنة يكافح الاستعمار الفرنسي بروح الإسلام وروح محمد ﷺ والقرآن».

وختم كلمته بالحديث عن أهم مزايا المشروع من وجهة نظره،

---

(١) مذاكرات الجمعية التأسيسية ـ الجلسة الثامنة والثلاثون بتاريخ ٢٤/ ٧/ ١٩٥٠م، ص٦٣٧.

وعدّ منها: «النصوص المتعلقة بملكية الأراضي، ورفع مستوى الفلاح، وحماية العامل، والضمان الاجتماعي، مما يسبغ على دستورنا ثوباً اشتراكياً معتدلاً، هو في رأيي قريب من الاشتراكية الإسلامية المعتدلة»[1].

الحديث عن مساجلات الجمعية التأسيسية حول دين الدولة طويل.. وقد انقلبت هذه المساجلات إلى معارك في بعض الأحيان. وهي جديرة بأن تفرد بالبحث، وقد كتب فيها فيما أذكر أكثر من مقالة الزميل الدكتور جورج جبور على صفحات جريدة (الحياة)، وليس في وسعنا متابعة هذه المساجلات، فضلاً عن تحليلها والتعقيب عليها، في هذا الكتاب. ولكننا نذكر أن الأستاذ السباعي والجبهة الاشتراكية الإسلامية وطائفة أخرى من النواب لم تنجح في إقرار المادة الأولى السابقة على هذا النحو، وهي المادة التي عرفت في بعض المداولات بمادة الكلمات الثلاث!! ولكنها نجحت في إقرار بعض المبادئ والنصوص الإسلامية المهمة الأخرى. ونرى لزاماً علينا أن نعرض ـ بعد قليل ـ لهذه النصوص، لنقف على مدح النجاح الذي حققه السباعي على صعيد الفكر والدعوة الإسلامية وعلى الصعيد السياسي.. أو الأمانة السياسية حين وفّى لجماهير دمشق التي أحبّته وانتخبته ليعبر عن أمانيها في وضع دستور ذي صبغة إسلامية يعبر عن دينها وقيمها. ولكننا نشير قبل ذلك إلى طرف عابر من العنت والمعاناة التي لقيها السباعي في سبيل

---

(١) المصدر السابق، ص٦٣٨.

ذلك داخل المجلس وخارجه على حد سواء!

حدثني ذات يوم أنه قام بزيارة الأستاذ أكرم الحوراني لإقناعه بالتصويت مع النـواب الاشتراكيين لصالح المادة المذكـورة ـ وكان الحوراني كما تشهد مذاكرات الجمعية التأسيسية شخصية فاعلة ومؤثرة، ونعتقد أنه في هذا كان لا يقل عن الأستاذ السباعي[1] ـ وبعد حديث طويل، قال السيد الحوراني: اسمع يا شيخ مصطفى أنا مسلم سنّي ولا أجهل منزلة المسلمين السنّة في حماية هذا البلد والدفاع عنه، ولكنني لن أصوّت في المجلس لصالح المادة! لقد قرأتُ الدهشـة التي ارتسمت على وجه الأسـتاذ السباعي وهو يحدث بهذا بعد عقد كامل من الزمان[2]!.

---

(١) مع ملاحظة أن السباعي أسد والحوراني ثعلب، وأن أولهما كان يستند إلى الشعب، والثاني إلى الجيش والشعب. وعلى الرغم من أن الحوراني يعد أبرز شخصية في تاريخ سورية السياسي؛ فإنه هو المسؤول الأول عن إقحام الجيش في السياسة، وعن تكريس الطائفية في الحياة السياسية السورية على عكس ما يبدو من الشعارات، وقد عاد باللائمة على نفسه في ذلك في وقت متأخر، كما قال للأستاذ السباعي ذات يوم حين ذكّره بموقفه من مسألة (دين الدولة).

(٢) عقد السيد أكرم الحوراني مؤتمراً صحفياً بتاريخ ١٥/ ٤/ ١٩٥٠م تحدث فيه عن قضية فلسطين، وعن مسألة دين الدولة.. وقال عن هذه المسألة: إن الجمعية التأسيسية عاكفة على وضع دستور البلاد، وهي حرة من كل تأثير وضغط مهما كان نوعه! وأكد أن هناك عناصر أجنبية ذات سياسة معينة تعمل في هـذا المجال بشكل يهدد اسـتقرار الشـعب السوري(!!)، وقال: إن الحكومة ستضرب بيد من حديد على مثيري هذه الدعايات، ولذلك قررت منع=

لقد كان ضغط الشارع والرأي العام كبيراً.. وارتقت المادة المذكورة - من عنف السجال وحساسية الموقف - إلى درجة الفروض لدى هذا الرأي أو في العرف العام.. حتى كأن عدم النص عليها في الدستور يعني التخلي عن الإسلام أو أن هوية الأمة والشعب قد جرى عليها العدوان.. في حين أن الأمر تحت قبة البرلمان لم يكن بهذه الحساسية على الرغم من المواقف التي أشرنا إلى بعضها - موقف الياس دمّر - وربما كانت مثل هذه المواقف إلى جانب ما أشرنا إليه من بيانات بعض العلمانيين ورجال الطوائف هي السبب في تلك الحساسية الشديدة..

ثم انتهى الأمر في الجمعية إلى الموافقة على بعض النصوص التي عُدَّت من قبل الأستاذ السباعي والاتجاه الذي كان يمثله مقبولة بل جيدة، وهي النصوص التي سوف نعرض لها بعد قليل.. بدليل أن الأيام أثبتت نجاعتها وفاعليتها في حماية القيم الإسلامية والدفاع عنها، وفي شروع البرلمان في وضع قانون مدني مستمد من أحكام الشريعة الإسلامية!

حدثني والدي رحمه الله أن رأي (العلماء) ورأي الشيخ حسن تحديداً - ويعني فضيلة الشيخ حسن حبنكة رحمه الله - كان أن يقدم

= كل مظاهرة سلمية كانت أم غير سلمية لهذا الغرض. قال: وهدفنا هو حماية الجمعية التأسيسية من كل ضغط. راجع كتاب: النكبات والمغامرات: تاريخ ما أهمله التاريخ من أسرار الانقلابات العسكرية السورية للكاتب الصحفي بشير فنصة، ص٢٧٥.

السباعي وإخوانه استقالاتهم من المجلس أو من الجمعية التأسيسية إذا رُفضت المادة المذكورة! كتمهيد لتحرك شعبي واسع يجبر المجلس على تبني هذه المادة. . وأنهم أو أن الشيخ حسن كفيل بهذا التحرك وتحقيق هذه النتيجة. . ولكن النوّاب لم يقدموا استقالاتهم. . بل قبلوا بالنصوص الدستورية الأخرى! وكان لسان الحال ولسان المقال أيضاً ـ كما سمعته من بعض الأطراف ـ يلوم الأستاذ السباعي. . بل ينال منه رحمه الله!

وهكذا خرج الأمر من أن يكون خلافاً في الاجتهاد ووجهات النظر ـ وبخاصة مع اختلاف المواقع ـ من أجل تحقيق الغاية التي كان يسعى إليها الصف الإسلامي أو جمهور المتدينين، وعلى رأسهم الإخوان ورابطة العلماء ـ ولا أستطيع في هذا السياق أن أجزم برأي جميع أعضائها ـ إلى ضرب من الانتقاد الحاد. . الذي وصل في بعض الأحوال الشاذة أوالقليلة إلى ضربٍ من ضروب الاتهام والتشهير!.

كان مدخلي لاستيضاح صورة الموقف حول هذه القضية من وجهة نظر الأستاذ السباعي أن سألته ذات يوم عن مدى التعاون بينهم ـ أعضاء البرلمان ـ وبين العلماء أوالمشايخ، فقال: كان قائماً وكنا نطلعهم على ما كان يدور في المجلس! قلت: والأستاذ الشيخ حسن حبنكة؟ قال: كان من أبرز العلماء المهتمين بهذه القضية. . ولقد ذهبنا لزيارته مرة أنا والأستاذ المبارك. . ففوجئنا بأن الاجتماع ـ وكان معداً له فيما يبدو ـ كان أقرب إلى المساءلة والمحاكمة. . ولم يقل أكثر من ذلك في الوقت الذي

ظهر أثر الامتعاض في وجهه.. لقد أثّر فيه فيما يبدو: خروج الموضوع من ساحة الشورى وتبادل الرأي إلى دائرة الاتهام بالتقصير على أقل تقدير! رحم الله الجميع.

نص البيان حول الدين والدولة:

ونثبت فيما يلي نص البيان الذي تقدم به السباعي إلى الرأي العام بتاريخ ٢١ ربيع الثاني ١٣٦٩هـ و ٨ شباط (فبراير) ١٩٥٠م، والذي استهله بقوله: «الحمد لله، والصلاة والسلام على رسله، وعلى دعاة الحق والخير إلى يوم الدين. لقد كنت أوثر بناء على رغبة لجنة الدستور ورغبة المصلحين جميعاً أن يظل النقاش حول دين الدولة محصوراً بين أعضاء لجنة الدستور والمجلس التأسيسي، ومن أجل هذا أوقفت كل نشاط...»إلخ. وقد نقلنا هذه المقدمة قبل صفحات. ثم جاء نص البيان على النحو التالي:

لماذا نطالب بالنص على دين للدولة؟.

الدساتير تعبر عن رغائب الشعوب، واتجاه قادتها وممثليها في الإصلاح الذي يلزمها، ولا شك أننا نحن السوريين جزء من الأمة العربية، وإرادةُ الأمة العربية واضحة جلية في أنها تريد أن تشق طريقها إلى المجد في ظلال العقيدة والأخلاق، تلك هي طبيعة الأمة العربية في جاهليتها وفي إسلامها وفي حاضرها، وكل ادّعاء بغير هذه الحقيقة يكذبه الواقع، وكل محاولة للانحراف بالأمة العربية عن هذا السبيل ستصده إرادة الأمة الحازمة، وكل دعوة إلى اتجاه نحو العلمانية

والإلحاد، تنذر بخطر جسيم على حاضر العرب ومستقبلهم، فالإنسانية اليوم تتجه نحو الروح والإيمان بعد أن حطمت المادية أعصابها، وجرّتها إلى الشقاء، ولسنا نحاول التدليل على ميل الأمم الحديثة نحو هذا الاتجاه بعد أن أقرت هيئة الأمم افتتاح حفلاتها بصلاتها لله، لأنها في حاجة إلى حمايته.

وسنذكر فيما بعد أن أحدث الدساتير الراقية من شرقية وغربية قد نصت على الدين في دستورها، وإذا كانت الإنسانية في حاجة إلى الأديان ترد إليها الثقة والطمأنينة، فنحن أحوج ما نكون إلى هذه الثقة والطمأنينة خصوصاً بعد أن قامت بجوارنا دولة إسرائيل، وهي دولة تجند الدين لتجمع شمل اليهود في العالم، وتستثير حماستهم، وتستدر أموالهم، وقد نصت في أول دستورها على أنها قائمة على المبادئ التي جاء بها أنبياء إسرائيل، كما نصت في آخر مادة من دستورها على أن القضاء رقيب على القوانين الحالية، بحيث يجب أن يردها إلى التشريع اليهودي، وأن كل تشريع سينشأ في المستقبل يجب أن يقوم على أساس التشريع اليهودي.. فإذا كانت هذه تجند الدين لتوطيد أقدامها في فلسطين، ثم لتمديد عدوانها إلى ما يجاورها، ونحن أول من يتعرض لعدوانها؛ أفلسنا ملزمين بأن نجند الدين لإلهاب الشعور العام واستثارة حماسة الشعب، وبذل ماله في التسلح وتقوية الجيش وبذل الجهد والطاعة والتنفيذ لكل نظام في الدولة يؤدي إلى قوتها وصيانتها؟! أفلسنا نحتاج إلى الدين بعد أن رأينا في معركة فلسطين أن الذين حاولوا أن يستثيروا العرب عن غير طريقه فشلوا، وأن الذين جاهدوا واستبسلوا

واستشهدوا لم يدفعهم إلى ذلك إلا الدين، الذي يعدهم بالخلود في الجنة، إذا وهبوا أرواحهم الله؟. إننا نحاول أن نبني دولة، فلتكن على أسس قوية، ونحاول أن نعالج مشكلات، فلنعالجها بروح الواقعية، ونحاول أن نحل أزمة مستعصية، فلنعرف أقرب الطرق إلى حلها، ولست أرى أصدق من تصوير واقعنا ووقائع الإنسانية اليوم من كلمة للورد صموئيل زعيم حزب الأحرار البريطاني إذ قال في خطاب له بتاريخ ٢٥ شباط (فبراير) ١٩٤٧م: «إن الأزمة الحالية التي تعانيها الإنسانية هي أزمة أخلاقية، ويجب انعاش الروح الدينية إذا أردنا التغلب عليها».

وما دمنا في حاجة إلى الإيمان لنتغلب به على الصعاب ونحلّ به أزمتنا النفسية والأخلاقية، فلنجعل هذه الرغبة في دستورنا واضحة جلية، حتى تكون الخطة واضحة لكل حكومة وكل مجلس وكل متزعم لهذا الشعب في المستقبل، ومن ثم فالنص على أن للدولة ديناً أمر ضروري تحتمه مصلحتنا الاستقلالية والوطنية والأخلاقية، ولا يعارض في هذا الأمر إلا من يريد أن نسبح في بحر العلمانية الملحدة، لنتردى في الشقاء أكثر مما نحن فيه، ونفقد البقية الباقية من الأمل بالمستقبل والثقة بالنفس، والقوة المعنوية، التي تحيل هزائم الشعوب إلى انتصارات خالدة.

ولماذا يجب أن يكون دين الدولة الإسلام؟:

إذا كان النص على أن للدولة ديناً أمراً تحتمه المصلحة العامة، فأي دين ينبغي أن يكون دين الدولة؟.

١ ـ القواعد الديمقراطية:

إن القواعد المتبعة في دساتير العالم وأنظمة الأحزاب ومداولات المجالس النيابية، بل في عرف الدنيا جميعاً أن رأي الأكثرية هو المتبع والمعمول به، فإذا قلنا: إن دين الدولة الإسلام وهو دين تسعة أعشار السوريين ودين ٩٨٪ من العرب أنكون في هذا قد تجاوزنا الحق؟ وأهدرنا المنطق؟ وخالفنا الديمقراطية؟ وهذه هي الدول التي نصت دساتيرها على دينٍ معين إنما اتخذت دين الأكثرية دينها الرسمي في كثير من الأحيان.

فجمهورية الأرجنتين نصت في المادة الثانية من دستورها الصادر في ٢١ آذار ١٩٤٩م أنها تدعم أو تؤيد أو تساند المذهب الكاثوليكي الرسولي الروماني. وهذه جمهورية إيرلندة تنص في دستورها الصادر في عام ١٩٣٧م أن الكنيسة الكاثوليكية هي الكنيسة المفضلة ذات الامتياز في الجمهورية.

هذا عدا عن دساتير الدول العربية والإسلامية، وليس في الدنيا دولة لا يدين شعبها إلا بدين واحد؛ بل في كل دولة أكثرية في الدين وأقلية، فهل نكون قد أتينا ببدع من الأمر إذا مشينا على القاعدة التي تمشي عليها دول العالم؟.

٢ ـ المصلحة الداخلية:

والدولة السورية اليوم في وضع داخلي مؤلم لا ينكره أحد، وعبثاً

تحاول النظم والقوانين أن تصلح روح أمة مالم يكن معها وازع نفسي من دين وخلق، فإذا أردنا لهذا الشعب حياة كريمة، وتعلقاً بالدولة، ودفاعاً عن الوطن، كان النص على دين الدولة الإسلام حافزاً للشعب ـ وهو في أكثريته الساحقة مسلم ـ أن ينفذ النظم التي تسنّ له، والأوامر التي تصدر في مصلحته من حكوماته، إذ يرى في ذلك أمراً دينياً محتماً، لا يجوز التخلي عنه، ولعمري إنّ أية حكومة في الدنيا مهما كانت قوية راقية تحتاج إلى هذا الوازع الديني النفسي، فكيف تستغني عنه جمهوريتنا الناشئة المحاطة بالصعاب!؟.

٣ ـ المصلحة القومية:

ونحن السوريين دعاة وحدة عربية، نعتبر أنفسنا جزءاً من الأمة العربية، ووطننا السوري جزءاً من الوطن العربي الأكبر، وجمهوريتنا هي اليوم عضو في الجامعة العربية، وستكون غداً بفضل الله جزءاً من الدولة العربية الواحدة، والعرب سبعون مليوناً على أقل تقدير، ثمانية وستون مليوناً منهم مسلمون واثنان مسيحيون، ودول الجامعة «ما عدا لبنان لوضعه الخاص به» تنص في دساتيرها على أن دين الدولة الإسلام كما في مصر والعراق والأردن، أويقوم واقعها على ذلك كالمملكة العربية السعودية واليمن، فالنص على أن دين الدولة الإسلام عامل قوي من عوامل الوحدة الشعبية بيننا وبين إخواننا العرب، ومظهرٌ رسمي من مظاهر التقارب بين دول الجامعة العربية، فلماذا نهمل أقوى عامل من عوامل الوحدة العربية شعبية ورسمية، ولماذا نتجاهل الواقع الملموس؟.

٤ ـ المصلحة السياسية :

والعالم اليوم ينقسم إلى كتل سياسية كبرى، وكل معسكر يسعى إلى توسيع نفوذه الثقافي والاقتصادي والفكري والاستعماري. . يبذل في سبيل ذلك الأموال الطائلة والجهود الجبارة.

ونحن العرب في واقعنا المؤلم، وفي حياتنا المقبلة لا بد لنا من ميدان نفوذ يساعدنا في الميادين الدولية، ويتصل بنا بعاطفة الحب أو الصداقة أوالتعاون، وقد جعل الإسلام لنا في العالم الشرقي ميدان نفوذ يضم أربعمئة مليون مسلم، كلهم يحبون لغتنا وتراثنا وكتابنا وثقافتنا، حتى إن الباكستان قد قررت اعتبار اللغة العربية لغة رسمية لها، وقد رأيناها في هيئة الأمم تدافع عن حقنا في فلسطين دفاعاً حاراً قوياً استحق شكر الدول العربية وشعوبها، من حيث كانت الدول الغربية المسيحية تتآمر على مهد السيد المسيح ومبعث رسالته، فهل وقفت الباكستان هذا الموقف، وهل اتخذت لغتنا لغة رسمية إلا من أجل الإسلام الذي آمنت به، وبنت دولتها وحياتها على أسسه؟ وقل مثل ذلك في أندونيسية المجاهدة، وقد نصت هاتان الدولتان الكبيرتان اللتان يبلغ عدد سكانهما مئة وخمسين مليوناً في مشروع دستوريهما على أن دينهما الإسلام، أفليس مما يقوي الرابطة بيننا وبين هذه الدول والشعوب أن نعترف بالإسلام ديناً، وهو ديننا الذي صدرناه إليهم، ونشرناه في ربوعهم؟ ألسنا في حاجة إلى أسواق تجارية لمنتوجاتنا؟ ألسنا في حاجة إلى معونات اقتصادية؟ ألسنا نجد في هذه الشعوب ميدان نفوذ طبيعي بريء

للغتنا وثقافتنا وتراثنا وحضارتنا؟ فلمن نترك ذلك كله؟ لمن نتخلّى عن مصلحتنا السياسية والاقتصادية والثقافية؟ هل يستطيع أحد أن يقول لنا ذلك بصراحة وجرأة؟! .

وبعد، فهذه هي بعض الفوائد التي نجنيها من النص على هذه المادة في الدستور، وهي كما يرى القارئ فوائد محققة لا نستغني عن واحدة منها في حياتنا المليئة بالمتاعب والمشكلات. . فما هي المساوئ التي تنشأ عن هذه المادة؟ سنحاول تلخيصها والإجابة عنها بإيجاز على أن نعود إلى هذا الموضوع بالبسط والتوضيح .

اعتراض الطوائف المسيحية:

يتضح مما قرأناه لرؤساء الطوائف المسيحية، ومما سمعناه منهم أن اعتراضهم ينصب على ناحيتين اثنتين:

١ ـ أن معنى دين الدولة الإسلام: أن أحكام الإسلام ستطبق على المسلمين والمسيحين. ولما كانت للمسيحيين عقائد وأحكام وأحوال شخصية تختلف عن الإسلام فكيف يجبرون على أحكام الإسلام؟ .

وهذا الفهم خاطئ من نواحٍ عدة، أهمها: أن الإسلام يحترم المسيحية كدين سماوي، ويترك لأهلها حرية العقيدة والعبادة دون أن يتدخل في شؤونهم، أما أحوالهم الشخصية فلا يتعرَّض لها بحال، ولا يمكن أن يطبق عليهم أي حكم من الأحكام التي تخالف شريعتهم أو تقاليدهم، وأحكام الإسلام في ذلك واضحة، وكتب التشريع الإسلامي

بين أيدينـا، ووقائع التاريخ لا ينكرها إلا مكابر، وقد ظل المسيحيون العرب منذ عصر الإسلام حتى الآن يتمتعون بعقيدتهم وعبادتهم، وأحوالهم الشخصية، لم تتعرض لها دولة ولا حكومة، في الوقت الذي كان الحكم فيـه للإسلام خالصاً، فكيف يتوهم الآن أن يطبـق عليهم أحكام تخالف دينهم، ونحن في دولة برلمانية شعبية، الحكم فيها للشعب ممثّلا في نوابه المسلمين والمسيحيين؟..

ونزيد على ذلك أنه مع احترام الإسلام لكل ما ذكرناه، فنحن لم نكتف بذكر هذه في الدستور بل اقترحنا أن تنص على احترام الأديان السماوية وقدسيتها واحترام الأحوال الشخصية للطوائف الدينية، فكيف يخطر في البال بعد هذا أن هنالك خطراً على عقيدة المسيحيين وأحوالهم الشخصية؟!.

٢ ـ إن معنى دين الدولة الإسلام العداء للأديان الأخرى، وانتقاص غير المسلمين في حقوقهم والنظر إليهم نظراً يختلف عن أتباع الدين الرسمي.

وهذا خطأ بالغ أيضاً، فليس الإسلام ديناً معادياً للنصرانية حتى يكون النصّ عليه عداءً لها، بل هو معترف بها، ومقدس لسيدنا المسيح عليه الصلاة والسلام، بل هو الدين الوحيد من أديان العالم الذي يعترف بالمسيحية، وينزه رسولها الكريم وأمه البتول، وقد أمر القرآن الكريم أتباعه أن يؤمنوا بالأنبياء جميعاً ومنهم عيسى عليه السلام، فأين العداء وأين الخصام بين الإسلام والمسيحية؟! أوليس النص على أن الإسلام دين

الدولة الرسمي، يتضمن أن المسيحية دين رسمي للدولة باعتبار الإسلام معترفاً بها ومحترماً لها؟.

وأما توهم الانتقاص من المسيحيين، وامتياز المسلمين، فأين الامتياز؟ أفي حرية العقيدة، والإسلام يحترم العقائد جميعاً، والدستور سيكفل حرية العقائد للمواطنين جميعاً؟ أم في الأحوال الشخصية والإسلام يحترمها والدستور يضمنها؟ أم في الحقوق المدنية والتساوي في الواجبات، والإسلام لا يفرق بين مسلم ومسيحي فيها، ولا يعطي للمسلم في الدولة حقاً أكثر من المسيحي، والدستور سينصّ على تساوي المواطنين جميعاً في الحقوق والواجبات؟.

إني سأضع أمام القراء وأمام أبناء الشعب جميعاً نص المادة المقترحة في هذا الشأن ليروا بعد ذلك أي خوف منها وأي غبن يلحق المسيحية فيها:

١ ـ الإسلام دين الدولة.

٢ ـ الأديان السماوية محترمة ومقدسة.

٣ ـ الأحوال الشخصية للطوائف الدينية مصونة ومرعية.

٤ ـ المواطنون متساوون في الحقوق، لا يحال بين مواطن وبين الوصول إلى أعلى مناصب الدولة بسبب الدين أو الجنس أو اللغة.

إني أسأل المنصفين جميعاً، وخاصة أبناء الطوائف الشقيقة: إذا كانت المادة التي تنص أن دين الدولة الإسلام هي التي تتضمن هذه

الضمانات كلها، فأين الخوف، وأين الغبن، وأن الامتياز للمسلمين وأين الانتقاص لغيرهم؟

اعتراض القوميين:

ويعترض بعض القوميين بأن النص على دين معين للدولة ينفي الوحدة بين أبنائها، وأن سورية ذات أديان مختلفة فلا يصح أن ينص على دين معين.

والواقع أنه ليس في سورية إلا مسلمون ومسيحيون، وقليل جداً من اليهود، أما الطوائف فهي كلها ترجع إلى هذين الدينين، وفي النص الذي ذكرناه سابقاً ضمان لحقوق المواطنين جميعاً وتساويهم، وضمان عقائدهم وأحوالهم الشخصية، فأي تفرقة في هذا النص؟.

وهل في الدنيا دولة ليس فيها إلا دين واحد أو مذهب واحد؟ فهل منع تعدد الأديان أو المذاهب كثيراً من الدول على أن تنص على دين معين ومذهب معين؟.

إن الوحدة القومية بين العرب ليست باطراح عواطف ثمانية وستين مليوناً وإهمال هذا الرابط الديني القوي بينهم، وإذا كان مفهوم القوميات في أوروبة يحتم إخراج الدين من عناصرها الأساسية، فذلك لا ينطبق علينا نحن العرب. إن ألمانية النازية قد تجد في المسيحية ديناً غريباً عنها، وإن تركية الطورانية قد تجد في الإسلام ديناً غريباً عنها، ولكن العرب لن يجدوا في الإسلام ديناً غريباً عنهم، بل هم يؤمنون بأن قوميتهم العربية لم

تولد إلا في أحضان الإسلام، ولولاه لما كانت ذات وجود حي قائم. . فليفرّق دعاة القومية بين أوروبة والشرق، وبين نصرانية الغرب وإسلام العرب.

وإذا أضفنا إلى ذلك أن الإسلام يحترم المسيحية، ويؤمن بها ديناً سماوياً لم يبق عندنا في القومية العربية دينان يصطرعان حتى نطرحهما لتسلم لنا قوميتنا، وإنما هناك دينان يتعاونان على بناء القومية العربية بناء سليماً عالمياً خالداً.

اعتراض العلمانيين:

ويعترض دعاة العلمانية في بلادنا كما جاء في البيان المنسوب إلى خريجي الجامعات العالية بأن (الشعوب التي سبقتنا في ميدان الحضارة مرت من مرحلة الدين في التنظيم والحكم، حيث كان رجال الدين يسيّرون أمور الدول، إلى مرحلة القومية، ثم هي تنتقل اليوم إلى مرحلة التنظيم على أساس التكتل السياسي والاقتصادي ذي الصبغة العالمية).

ونحن نجيبهم بأن النص على دين الدولة ليس معناه أن يسيِّر رجال الدين أمور الدولة، ولو كان كذلك لما وضعت هذه الأمم التي سبقتنا في ميدان الحضارة في دساتيرها النص على دين الدولة.

وفيما يلي بيان لبعض الدول الحديثة التي تنص في دساتيرها على دين معين.

أسوج، نروج، دانيمرك، إنكلترة، بلغارية، بيرو، كوستاريكة،

بانامة، إسبانية، بوليفية، الأرجنتين، إيرلندة، إيطالية، اليونان (قبل الحرب الأخيرة) بولونية (قبل النفوذ الشيوعي) جميع دول شرق أوروبة (قبل النفوذ الشيوعي)، مصر، العراق، الأردن، ليبية، إيران، الأفغان، باكستان، إندونيسية، إسرائيل المزعومة!.

فما قول العلمانيين في صنيع هذه الدول الحديثة؟ ألا يدل على أن النص على دين الدولة لا يتنافى مع تطور الحضارة وتقدم المدنية؟ أم يعتبرونها دولاً رجعية لا تزال متأخرة؟.

وأيضاً فقد اعترف هؤلاء بأن الأمم انتهت من مرحلة القومية إلى مرحلة التكتل السياسي الاقتصادي، فلماذا يرون من الأمور الطبيعية أن تتكتل بلغارية وهنغارية وتشيكوسلوفاكية وألبانية ورومانية والمجر والصين وغيرها على أساس الشيوعية، وهي عقيدة حديثة لديهم، ولا يرون من الطبيعي أن تتكتل مصر وسورية والعراق واليمن والحجاز والأردن على أساس الإسلام وهو عقيدة هذه الأقطار؟ أليس الإسلام نظاماً اجتماعياً شاملاً كالشيوعية، ولكنَّه أسمى منها مبدأً وأنبل غايةً؟ أم أنتم لا ترونه كذلك أيها العلمانيون؟ فلماذا لا تصارحون الشعب بسوء ظنكم بالإسلام وصلاحه للحياة؟.

ومن العجيب أن يحرص العلمانيون في بيانهم على الروابط التي تربط ما بين السوريين وبين المغتربين في الخارج، وهي روابط نحرص عليها، ثم لا يبالون بالروابط بين السوريين وبين سبعين مليوناً من إخوانهم العرب، ولا ندري متى كان النص على دين الدولة سيقطع

ما بيننا وبين إخواننا المغتربين؟ . أليسوا يعيشون في دول قد نصت في دساتيرها على دين الدولة؟ . . أليسوا حريصين على قوة هذه البلاد ومصلحتها؟ ولو فرضنا أن النص سيجعل فتوراً بيننا وبينهم (وهذا فرض مستحيل) ولكنه سيربط ما بيننا وبين العرب، فهل تريدون منا أن نُغضب سبعين مليوناً من العرب ؟ لئن أردتم ذلك كنتم قد كفرتم بالعروبة رابطة قومية، بعد أن جحدتم الإسلام نظاماً اجتماعياً صالحاً.

وأعود فأقول لهؤلاء إن (البعبع) الذي يخوّفون به بعض المثقفين من أن النص على الإسلام ديناً للدولة يجعل لرجال الدين الكلمة الأولى في البلاد، هو (بعبع) لا يخيف إلا من خيم الوهم والباطل على عقولهم، فليس في الإسلام رجال دين تكون لهم الكلمة العليا، ونحن لا نريد بهذا النص أن نلغي البرلمان، ونطرد ممثلي الأمة، ونمحو القوانين. كلا كونوا مطمئنين! فسيظل كل شيء على حاله. سيبقى لنا مجلسنا ونوابنا وقوانينا وأنظمتنا ولكن. . مع سمو الروح ونظافة اليد، واستقامة الأخلاق وعيش الإنسان الكريم!.

اعتراض الحقوقيين:

ويعترض بعض الحقوقيين بأنّ جعل دين الدولة الإسلام يلغي القوانين الحالية، ويضطرنا إلى تنفيذ الحدود الإسلامية من قطع يد السارق وجلد الزاني، وهذا قول خاطئ، فنحن لا نفكر قطعاً بالدعوة إلى تنفيذ الحدود، لأن الإسلام نظام كامل لا يظهر صلاحه إلا في مجتمع كامل، ومن كمال المجتمع أن يشبع كل بطن، ويكتسي كل جسم، ويتعلّم كل

إنسان، ويكتفي كل مواطن، فإذا وقعت السرقة مثلاً بعد ذلك وقعت شراً محضاً لا يقدم عليه إلا العريقون في الإجرام، والإسلام يريد أن يرهب هؤلاء الذين لم يردعهم العلم ولا الشبع ولا العيش الكريم عن الوقوع في الجريمة.

على أن الإسلام قد حف تلك الحدود بشروط شديدة جداً يكاد يكون من المتعذر تنفيذ الحكم في حادثة واحدة من بين ألف حادثة، مما يدل على أن قصد الإسلام من ذلك الإرهاب والتخويف، وحسبكم القاعدة المشهورة (ادرأوا الحدود بالشبهات).

وخلاصة القول إننا لا نريد انقلاباً في قوانيننا الحالية، وإنما نريد التقريب بينها في التشريعات المدنية وبين نظريات الإسلام الموافقة لروح هذا العصر، ولأصدق النظريات الحقوقية السائدة فيه، فإذا اتفق التشريع الإسلامي مع النظريات الحديثة فهل تجدون حرجاً في الأخذ به تراثاً قومياً عربياً تعتزون به وتفاخرون؟!.

هذا مع العلم بأن مسالة التشريع غير مسألة دين الدولة، فليس لوضع دين الدولة من غرض إلا صبغ الدولة بصبغة روحية خلقية تجعل النظم والقوانين منفّذة من الشعب بوازع نفسي خلقي، ومن أغراض هذه المادة تقوية الصلات بيننا وبين إخواننا العرب، والتعاون بيننا وبين الشرق الإسلامي.

أما الحدود الإسلامية، فلا تستلزمها هذه المادة بدليل أن مصر والعراق وضعتا هذه المادة في دستوريهما منذ ربع قرن، ولم تفكرا بإقامة

الحدود الإسلامية . . هذا ما نصرح به علناً لا مجاملين ولا مواربين.

وبعد، فهذه خلاصة الأدلة التي تحتم علينا وضع هذه المادة في الدستور، وخلاصة الأجوبة على ما يخاف منها، ونحن نرجو أن يبحث هذا الأمر بحثاً واقعياً بعيداً عن العصبية الطائفية والأهواء المستحكمة. ونعتقد أن الأحبار الأجلاء رؤساء الطوائف المسيحية يشعرون معنا بخطر الإلحاد على الأديان جميعاً، ونحن نعلن أننا نفضل أن يكون دين الدولة المسيحية على دولة علمانية ملحدة، فهل هم يفضلون الإلحاد على الإسلام؟ . . ونريد أن نذكرهم أن **العلمانية لا تضمن حقوق الطوائف، ولا تزيل التعصب الطائفي**[1]، وإنما الذي يضمن ذلك: الدين الذي جعل من تعاليمه أن يترك الناس وما يعتقدون، وأن الناس جميعاً عباد الله، أكرمهم عنده أتقاهم وأنفعهم.

أما إخواننا القوميون فنحب أن يكونوا قوميين عرباً حين يبحثون هذه الناحية، وأن لا يفضلوا مراعاة شعور وهمي محصور في ناحية ضيقة على حقيقة ثابتة شائعة في دنيا العرب، **نحب أن لا يكونوا قوميين سوريين بل قوميين عرباً** . .

أما العلمانيون فلسنا نقول لهم بعدُ أكثر من أن نتوجه إليهم بالرجاء أن لا يحولوا بين الأمة ومصادر قوتها . . نحن شعب نريد أن نرجع إلى

---

(١) راجع كتابنا: (جذور الفكر القومي والعلماني)، الفصل الخاص بآثار العلمانية في العالم الإسلامي، حيث عددنا من هذه الآثار: التخلف والطائفية والتغريب والتغرب . . . إلخ.

الله، فلا تحولوا بيننا وبينه، ونريد أن نمد أيدينا إلى إخواننا العرب، فلا تحولوا بيننا وبينهم، ونريد أن نستند إلى أصدقاء أقوياء فلا تحرمونا منهم، ونريد أن نتعاون مسلمين ومسيحيين، مستمعين إلى صوت السماء وتعاليم الإنجيل والقرآن فلا تملأوا عقولنا بالباطل، ولا تصكوا أسماعنا بأغنية الشيطان!.. ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

دمشق في ٢١ ربيع الثاني ١٣٦٩هـ و٨ شباط ١٩٥٠م.

مصطفى السباعي

المبادئ والنصوص الإسلامية في الدستور:

لقد جاء في مقدمة الدستور «إن هذه المقدمة جزء لا يتجزأ من الدستور، وضعت لتذكر المواطنين بالمبادئ التي قام عليها قانونهم الأساسي».

وعلى هذا الأساس جاء في المقدمة النصوص التالية:

١ ـ **(إن الدولة تعلن استمساكها بالإسلام ومثله العليا)**. وقد عد الأستاذ السباعي هذا نصاً صريحاً في دين الدولة، لأن الاستمساك بالدين أقوى من الانتساب إليه، أي إن هذا النص مقدَّم على النص القائل: الإسلام دين الدولة، أو أن دين الدولة الإسلام؛ لأنه ـ أي النص الوارد في مقدمة الدستور السوري ـ لا يكتفي بأن يلزم الدولة بالإسلام كدين تنتسب إليه، بل يلزمها به كدين تتمسك بتعاليمه ومثله وشرائعه.

ويبدو أن هذا الارتقاء في التعبير تم القبول به حين تحول النص من صلب الدستور إلى مقدمته.

٢ ـ «وإننا نعلن أيضاً أن شعبنا عازم على توطيد أواصر التعاون بينه وبين شعوب العالم العربي والإسلامي».

٣ ـ «وعلى بناء دولته الحديثة على أسس من الأخلاق القويمة التي جاء بها الإسلام والأديان السماوية الأخرى».

٤ ـ «وعلى مكافحة الإلحاد وانحلال الأخلاق».

أما المبادئ والنصوص الإسلامية في صلب الدستور، فقد تجلت في المواضيع التالية:

أ ـ في التشريع:

نصت المادة الثالثة على ما يلي:

١ ـ دين رئيس الجمهورية الإسلام[1].

---

(١) حلّت هذه المادة محل المادة التي أقرتها اللجنة الدستورية بتاريخ ٢٤/ ١/ ١٩٥٠م والتي تنص على أن الإسلام دين الدولة. وقد أعرب السيد جلال السيد ممثل حزب البعث في الجمعية عن ارتياحه لهذا التعديل، كما ورد ذلك صراحة في ضبط الجلسة. راجع كتاب: النكبات والمغامرات للكاتب الصحفي بشير فنصة، ص٢٨٠. وقد سبق للمؤتمر السوري أن شهد مثل هذا الحل بعد الجدل الطويل حول هذه المسألة. ومعلوم أن المؤتمر المذكور الذي دعي كذلك: (مجلس الشورى) تم تشكيله في أيار ١٩١٩م عن طريق الانتخاب في المناطق الداخلية (دمشق وحلب وحماة وحمص) وعن طريق الترشيح والتسمية من قبل التجمعات والجمعيات المحلية في المناطق الأخرى (لبنان وفلسطين) وكان=

. . . .

= ذلك بعد وصول الأمير فيصل بن الحسين إلى دمشق في ١٩١٨/١١/٣م والإعلان عن قيام الحكومة العربية في سورية. فقد بدأ المؤتمر المذكور في دورته الثانية (آذار - تموز ١٩٢٠م) مناقشة مشروع الدستور الذي أعدته لجنة تم انتخابها من قبل المؤتمر في ١٩١٩/٧/١٩م لوضع هذا المشروع، وكانت برئاسة هاشم الأتاسي. وكان من أعضائها الشيخ عبد القادر الكيلاني والشيخ عبد العظيم الطرابلسي. وقد طالب الأعضاء من غير المسلمين وبعض المسلمين بأن ينص في الدستور على أن حكومة سورية لا دينية (لائيكية)، في حين طالب الأعضاء الآخرون بضرورة النص على أنها حكومة إسلامية عربية، وأن دينها الرسمي هو الإسلام، واحتدم الخلاف، وتأجل إقرار المادة الأولى المتعلقة بنظام الحكم. . واقترح الشيخ محمد رشيد رضا نائب رئيس المؤتمر السكوت عن هذه المسألة، لأنه: «إذا أعلنت حكومة لا دينية يفهم منها جميع المسلمين أنها حكومة كفر وتعطيل لا تتقيد بحلال وحرام». قال: «ومن لوازم ذلك أنها غير شرعية، بل يجب إسقاطها عند الإمكان». ووافقت غالبية الأعضاء على هذا الاقتراح، وعلى الاكتفاء باشتراط أن يكون دين ملكها هو الإسلام. وهكذا جاء نص المادة الأولى من الدستور على الشكل التالي: «حكومة المملكة السورية العربية حكومة مدنية نيابية، عاصمتها دمشق الشام، ودين ملكها الإسلام».
وتجدر الإشارة إلى أن من أبرز أعضاء المؤتمر المذكور، ومن أبرز نواب مدينة دمشق العلماء: الشيخ عبد القادر الخطيب، والشيخ تاج الدين الحسني، والشيخ مسلم الحصني. راجع محمد م. الأرناؤوط: جريدة الحياة العدد ١٣٤٠٥ تاريخ ١٩٩٩/١١/٢٠م. وذكر الأستاذ السباعي في الكلمة التي كتبها عن «سماحة العلامة الشيخ عبد المحسن الأسطواني شيخ المعمرين في بلاد الشام» بعد وفاته أنه كان عضواً بمجلس الشورى «الذي كانت مهمته تنظيم سياسة البلاد وإدارتها وتأليف حكومتها». وقال: «ثم عين رئيساً لهذا المجلس، واستمر في رئاسته حتى عام ١٩٢٤م حيث حله الفرنسيون بعد أن ضاقوا ذرعاً بوقوفه في وجه سياستهم الغاشمة وقوانينهم الجائرة». مجلة حضارة الإسلام،

٢ ـ الفقة الإسلامي هو المصدر الرئيسي للتشريع.

٣ ـ حرية الاعتقاد مصونة، والدولة تحترم جميع الأديان السماوية، وتكفل حرية القيام بجيع شعائرها، على أن لا يخل ذلك بالنظام العام.

٤ ـ الأحوال الشخصية للطوائف الدينية مصونة ومرعية.

ونحن مع الأستاذ السباعي حين يقول: «إن النص على اعتبار الفقة الإسلامي المصدر الرئيسي للتشريع هو في نظر جميع المخلصين من حملة الإسلام أعظم انتصار للتشريع الإسلامي في البلاد العربية والإسلامية في العصر الحديث».

ب ـ في التعليم:

نصت الفقرة الأولى من المادة الثامنة والعشرين على أن «تعليم الدين إلزامي في جميع مراحل التعليم الابتدائي والثانوي والمهني» كما نصت الفقرة الثانية من المادة المذكورة على أهداف التعليم على النحو التالي:

«يجب أن يهدف التعليم إلى إنشاء جيل قوي بجسمه وتفكيره، مؤمن بالله، متحلٍّ بالأخلاق الفاضلة، معتز بالتراث العربي». ثم نصت على أنه يحظر كل تعليم ينافي هذه الأهداف. قلت: ولا خلاف على إسلامية التراث العربي في جميع الأحوال.

= ص٥٠ السنة الرابعة ـ العدد (٥) كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٣م.

جـ ـ في الأوقاف:

نصت المادة الرابعة والثلاثون على أن الأوقاف الإسلامية ملك للمسلمين، وهي مؤسسة من مؤسسات الدولة العامة تتمتع باستقلال مالي وإداري.

قال الأستاذ السباعي: «وفي ذلك صيانة للأوقاف الإسلامية من أن تعتدي عليها حكومة من الحكومات، كما حصل في عهد الشيشكلي، فلقد حذف هذا النص من دستوره، وسن تشريعاً يجعل أملاك الخط الحجازي ملكاً للدولة. وهذا ما تعمله كل حكومة تنوي الشر للإسلام ومؤسساته الخيرية».

د ـ في القوانين:

نصت المادة الثانية والستون بعد المئة على أن ينتخب مجلس النواب لجنة خاصة من أعضائه تستعين بعدد كاف من المختصين والخبراء لتقديم اقتراحات القوانين اللازمة للتوفيق بين التشريع القائم وأحكام هذا الدستور. وجعلت لهذا العمل مدة لا تتجاوز سنتين منذ تنفيذ الدستور.

وهذا يعني أن قوانين الدولة يجب أن تنسجم مع أحكام الدستور، فما كان منها مخالفاً أُلغي، وما كان يحتاج إلى تعديل عُدّل. يقول الأستاذ السباعي: «ولقد نفذ المجلس النيابي هذه المادة، فألّف لجنة للقوانين العامة تفرعت إلى عدة لجان، كان منها لجنة لوضع قانون مدني مأخوذ من الفقه الإسلامي، وفقاً للفقرة الثانية من المادة الثالثة من الدستور، وبدأت

اللجنة عملها وسارت فيه شوطاً بعيداً، وجاء انقلاب الشيشكلي فأوقف هذا العمل العظيم. . »[1].

صورة برلمانية مجملة:

لا يخفى على من يراجع مذاكرات الجمعية التأسيسية ـ مجلس النواب فيما بعد ـ أن يلاحظ الحضور المكثف للسيد (مصطفى السباعي) والفاعلية والتأثير الذي يتمتع به من حيث المشاركة والمناقشة والإسهام الإيجابي في المسائل المعروضة، ومن حيث أخذ زمام المبادرة وتقديم الاقتراحات في قضايا كثيرة مالية وسياسية. . أو من حيث الحديث باسم المجلس أو نيابة عنه. . حتى إن رئيس المجلس في بعض الأحيان كان يسأل: «هل يكتفي المجلس بما قاله الأستاذ مصطفى السباعي». بل إنه كان يقاطع من قبل الأعضاء بالتصفيق في بعض الأحيان الأخرى.

وكان كثير منهم يكتفي بما قال حين يأتي دوره في الحديث بعده، بوصفه قد وفّى الموضوع حقه[2].

ويتجلّى في مواقفه كلها: الرجولة والإخلاص والصدق والحماسة

---

(١) راجع العدد (٤٣) من مجلة الشهاب بتاريخ ٢١ رجب ١٣٧٥هـ.

(٢) انظر على سبيل المثال وقائع الجلسات التالية: الجلسة الثانية بتاريخ ١٢/ ١٢/ ١٩٤٩م، والسابعة بتاريخ ٢٧/ ١٢/ ١٩٤٩م، والرابعة عشرة بتاريخ ١٣/ ٢/ ١٩٥٠م، والسابعة عشرة في ١٨/ ٣/ ١٩٥٠م، والثالثة والثلاثون. . . إلخ.

والتجرد[1]. إلى جانب حضور البديهة، وسرعة الرد على ما ينشأ في وجهه أو يقاطع به كلامه من اعتراض. . أو ما يمسّ شخصه من تعريض! وكانت إجاباته أو تعليقاته السريعة تمتاز بالبلاغة والموضوعية وأدب الحوار. نحن هنا نكتب للتاريخ. . ولكن مصطفى السباعي لم يكن يقوم بما يقوم به ليُذكر أو ليقال إنه قد فعل! ولكنه قام بما قام به بوحي الإيمان والضمير. . ومن منطلق الحرص على المصلحة العامة أو مصلحة الشعب! ولهذا فإنه لم يجد بداً من التعريض - في بعض الجلسات - بالسيد رزق الله أنطاكي حين قال: «إنه قدم اقتراحه ليذكر التاريخ إنه قدم والسلام»!.

وجاء هذا القول في سياق مناقشة المجلس لاقتراح قدمه الأستاذ السباعي بأن يتنازل النواب عن جزء من رواتبهم لمساعدة صغار الموظفين!! وكانت الكلمة بعد الأنطاكي للسيد رئيف الملقي - من بضعة أسطر - فلما انتهى تحدث الأستاذ السباعي فقال: «لي تعليق على كلمة الأخ رزق الله الأنطاكي، فنحن ليست مهمتنا أن نقدم اقتراحات ليسجلها التاريخ، فالأعمال التي يسجلها التاريخ تعرفها أنت أيها الأخ الأستاذ أنطاكي، وإنما نحن هنا نتكلم بحقيقة نؤمن بها، ولم نقف في حياتنا

---

(١) تحدث في إحدى الجلسات عن (معنى الثقة بالنائب) بوصفها (تفويضاً بالنيابة عن الأمة في حراسة عقائدها وأخلاقها وأموالها ومصالحها) كما تحدث في جلسة أخرى عن (التجاوب النفسي بين الزعيم وبين الشعب) ووصفه بأنه (من أول شروط الزعامة الحقيقية).

موقفاً نجامل به الناس ليقال عنا إننا تكلمنا، فلا مجال أن أحتكم وإياك إلى ماضيّ وماضيك حتى تقول مثل هذا القول.. فقال الرئيس: لا يجوز التعرض للأشخاص! فأجاب السباعي: ليس هناك تعرض، ولكنه هو الذي تعرَّض لي يا سيدي؛ فأنا لم أقدم اقتراحي ليسجله التاريخ! وأرجو أن يفهم الأخ أنني أقول وأقترح عن عقيدة! فإن شاء أن ينظر إلى الأمر من ناحية أخرى فله رأيه»[1].

كانت الفئات ذات الدخل المحدود من الموظفين وغيرهم، وكذلك المناطق الفقيرة والمهمّشة والأحياء الشعبية تشكل واحداً من أبرز همومه وقضاياه التي تبنّاها وطالب بإنصافها داخل المجلس النيابي ـ وخارجه ـ كما تجلى في حياته البرلمانية حرصه على المال العام ومناقشاته المطولة لمشاريع الميزانية التي تقدمت بها الحكومات. قال في الجلسة الحادية عشرة التي عقدت في الأول من شباط (فبراير) ١٩٥٠م: «والذي أراه أنه يجب الاقتصاد إلى أقصى حد في النفقات العامة التي تنفق على استئجار دور الحكومة وعلى أثاثها وعلى الحفلات.. فنحن لسنا بحاجة إلى دور فخمة، بل نحن بحاجة إلى دور تنتج! ولأن العدو متربص على الأبواب، ونحن في حاجة لتوفير المال للجيش أولاً، وللتعليم ثانياً، وللصحة ثالثاً، ولطرق المواصلات رابعاً... هذه هي الأبواب الرئيسة التي ينبغي أن تنفق منها موارد الموازنة وأموال الأمة!

فقال السيد حسني البرازي (مقاطعاً) والزراعة يا أستاذ!

---

(١) الجلسة السابعة عشرة بتاريخ ١٨/ ٣/ ١٩٥٠م، ص٢٥٣ ـ ٢٥٤.

فقال السباعي (متمماً): «أما الزراعة فلها دوائر خاصة ومشروعات خاصة، وهي أمر إنتاجي، أما الإنفاق على الصحة فهو مال مستهلك.. وكذلك الجيش والتعليم وطرق المواصلات. ونقول: الزراعة أيضاً.. وأرجو أن تكون حاصلات السيد البرازي منها وافرة جداً إن شاء الله!»[1].

وقد كان لتفريقه الذي أشرنا إليه بين الخصوم والأعداء، حيث عدّ من يختلف معهم من أبناء الوطن - من أي اتجاه كان - خصوماً لا أعداء.. كان لهذا التفريق أثره لا في سعة صدره وتقبله للرأي الآخر فحسب، بل في محاولة البحث - كذلك - عن الصيغ (الوطنية) الواحدة، أوالتي يلتقي عليها جميع أبناء الوطن.. وبخاصة في الأزمات الكبرى أو المفاصل التاريخية..

يذكر السيد خالد بكداش أنه التقى بجوار المجلس النيابي - في حديقته أو على بعض مداخله فيما يبدو - وكان ذلك أيام العدوان الثلاثي

---

(١) ص ١٣٤، وفي الجلسة الرابعة عشرة في ١٣/ ٢/ ١٩٥٠م ناقش وزير المالية، مبيناً أسباب العجز المالي. ومقترحاً للحلول، ص(١٨٣ - ١٨٥) ومنها (تخفيض مرتبات النواب والوزراء وموظفي المرتبة الممتازة والأولى والثانية بنسبة ٢٠٪ ومؤكداً على ضرورة تحسين حالة صغار الموظفين) وقال: «إن رواتب الآذنين وموزعي البريد ورجال الشرطة والدرك وغيرهم من أمثالهم لايصح أن تبقى على ماهي عليه إذا أردنا أن ننشئ وطناً يشعر أبناؤه بالكرامة».

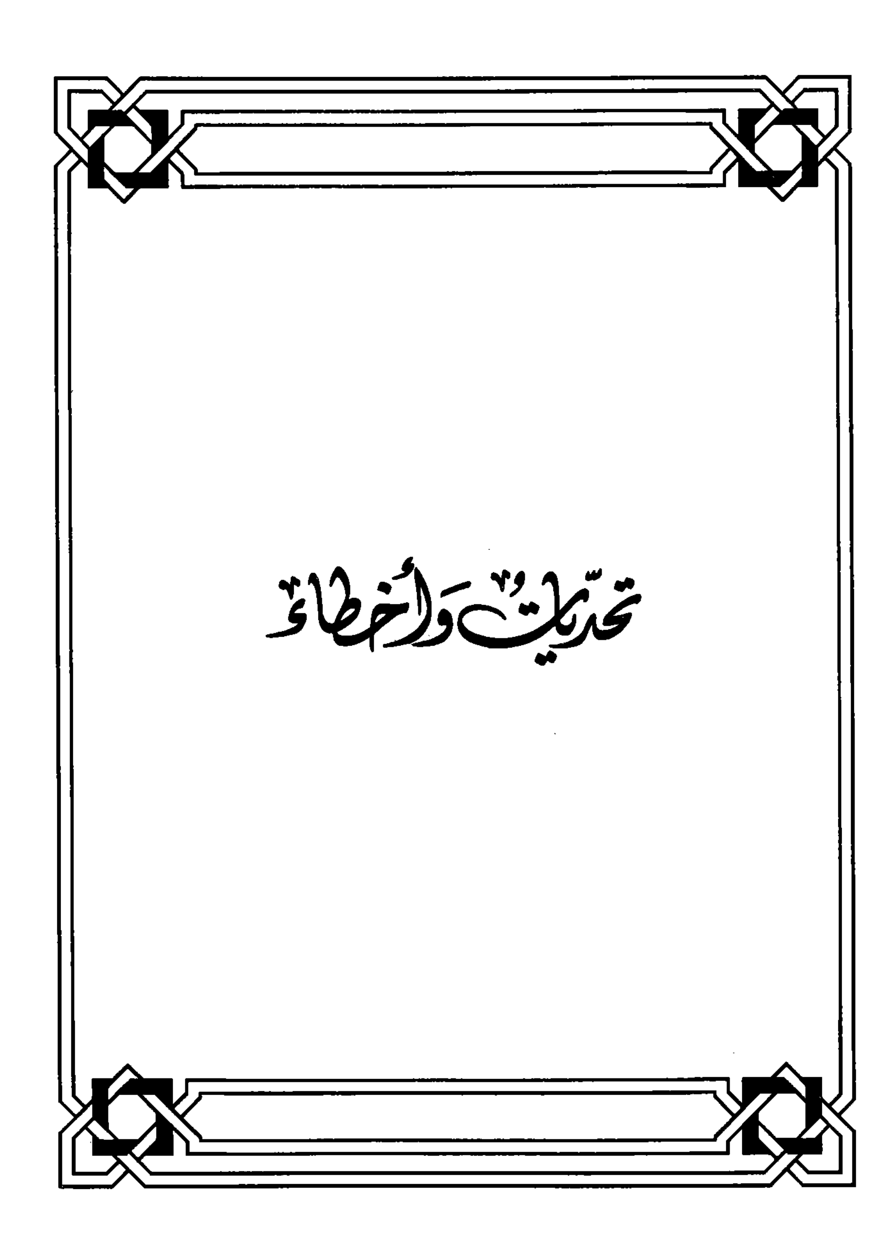
على مصر، بالأستاذ مصطفى السباعي؛ يقول بكداش: «الذي حصل، أن فرزت المملوك، وكان نائباً أيضاً، كان ذا اتجاه يميني. يميني جداً! وفيما أعتقد كان له صلات مع الإنكليز، وفي هذا الصدد لم يتخذ موقفاً من احتلال قناة السويس! التقيت أنا ومصطفى السباعي وتحادثنا، ومن جملة ما قال لي: كيف يتجرأ فرزت المملوك ويأخذ هذا الموقف؟ ألا يرى الرأي العام؟ فقلت له: اذهب واسأله!»[1].

لقد أراد السباعي أن يمد مع السيد خالد بكداش حبال الوطنية أو أن يوحي إليه بأن الشعور الوطني نحو مصر والوطن العربي يجمع بينهما في هذا الوقت العصيب إذا فرقت بينهما العقائد والأفكار. موقف من السباعي كبير، ولكنه لم يتلّق في الرد عليه سوى جواب عابر أو جواب صغير!.



(١) كتاب: خالد بكداش يتحدث: إعدد عماد نداف، ص٣٧ الطبعة الأولى - دار الطليعة.





تحدّيات وأخطار



تحدِّيات وأخطاء

العسكر:

شهدت سورية انقلابها العسكري الأول في ٣٠ آذار (مارس) ١٩٤٩م ولم يمض على حكم الزعيم حسني الزعيم الذي قام بهذا الانقلاب مئة وستة عشر يوماً حتى شهدت انقلابها الثاني على يد الزعيم سامي الحناوي في ١٤ آب (أغطس) ١٩٤٩م. أو شهدت « حركتها الانقلابية الأخيرة» كما دعُيت.

وقد وصفت هذه الحركة بأنها «سالمة من كل غرض شخصي مريب» وقد وقف السيد أكرم الحوراني إلى صف الانقلابيين الجدد كما وقف إلى جانب حسني الزعيم في أيامه الأولى. وقد شارك هو والسيد ميشيل عفلق في الوزارة التي شكلها الحناوي بمرسوم. وكان عفلق وزيراً للمعارف (التربية) والحوراني وزيراً للزراعة. كما كلف - أي الحوراني - بتوجيه أعمال مديرية الدعاية والأنباء.

ثم صدر مرسوم بتحديد يوم الثلاثاء الواقع في ١٥/ ١٠/ ١٩٤٩ موعداً لانتخابات الجمعية التأسيسية التي تحدثنا عنها. ولم يمض على جلستها الأولى أسبوع واحد حتى قام العقيد أديب الشيشكلي بتحريك

دباباته نحو دمشق في ١٩/ ١٢/ ١٩٤٩م، وأذيع من إذاعة دمشق البيان رقم(١) الذي جاء فيه أن الجيش اضطر للتدخل حرصاً على سلامته وسلامة البلاد، وحفاظاً على نظامها الجمهوري، وأنه ليست له غاية أخرى، والذي أعلن فيه أنه «يترك البلاد في أيدي رجالها الشرعيين، ولا يتدخل إطلاقاً في السياسة» وفسّر هذا الانقلاب ـ على نطاق واسع ـ بأنه جاء ليدافع عن نظام سورية الجمهوري، وينقذها من النفوذ البريطاني والوحدة مع العراق الملكي فيما كان يعرف بمشروع سورية الكبرى أو الهلال الخصيب، والذي قيل إن حزب الشعب ـ الذي هيمن على الجمعية التأسيسية ـ كان يسعى إليه، فقد أحرز هذا الحزب (٥١) مقعداً من (١١٤) وانتخب زعيمه رشدي كيخيا لرئاسة الجمعية.

وكان الخلاف على نص القسم الذي سيؤديه رئيس الدولة ـ السيد هاشم الأتاسي ـ وأعضاء الجمعية التأسيسية، والذي أشرنا إليه في موضع سابق، يعكس الخلاف بين المؤيدين للوحدة مع العراق ومعارضيها. وبعد أن اجتمع بعض الضباط بالرئيس الأتاسي وبكل من السيدين رشدي كيخيا وناظم القدسي عقد اجتماع في القصر الجمهوري حضره بضعة عشر عضواً من أعضاء الجمعية التأسيسية منهم ناظم القدسي، وفيضي الأتاسي، وسامي كبارة، ومصطفى السباعي، ومحمد المبارك وصبحي العمري ورئيف الملقي وغيرهم أوضح فيه الرئيسان الأتاسي وكيخيا للسادة أعضاء الجمعية تفصيلات الحركة واتجاه القائمين عليها في إبقاء الأمور تسير سيرها الطبيعي. وبهذا طلب منهم تقديم ما يمكنهم لتأليف الوزارة المقبلة.

وقيل لهم: إن الجيش سيحافظ على الدستور، وإن اللواء الحناوي طلب إحالته على التقاعد![1].

وقد عُد السيد أكرم الحوراني شريكاً للعقيد أديب الشيشكلي في هذا الانقلاب ـ وكانا من أصدقاء الطفولة في حماة[2] ـ ويذهب بعضهم إلى القول بأن لهجة البلاغ الأول تدل على أن «كاتبه ومنشئه هو الأستاذ الحوراني بالذات، كما سبق وكتب البلاغ رقم (١) للزعيم حسني الزعيم»[3].

وهكذا مارس الجيش أو الشيشكلي ـ والحوراني ـ حق النقض على أقل تقدير في تشكيل الوزارات واتخاذ القرارات؛ خصوصاً وأن الوزارة الأولى التي تشكلت بعد بلاغ الشيشكلي برئاسة السيد خالد العظم كان فيها أكرم الحوراني وزيراً للدفاع الوطني.

ثم قام الشيشكلي بانقلابه الثاني بتاريخ ٢٨ تشرين الثاني ١٩٥١م بعد سنتين من لعبة القط والفأر مع البرلمان والحياة السياسية المدنية بوجه عام، ومع حزب الشعب بوجه خاص. وحل البرلمان في ٢/ ١٢/ ١٩٥١م وأخضع البلد لحكم عسكري صارم، ثم أسس ما دعاه بحركة التحرير العربي التي انضم إليها نفر من السياسيين البارزين، ولم يعدها

---

(١) بشير فنصة: النكبات والمغامرات، ص٢٣١.
(٢) باتريك سيل: الصراع على سورية، ص١٢٠.
(٣) فنصة: مصدر سابق، ص٢٣٤.

هو حزباً سياسياً، بل عدها «محاولة صادقة مخلصة لجمع العناصر الطيبة من جميع الأحزاب والطبقات لصبها في قالب واحد قوي». وبدأ يتحدث في الفكرة العربية بعد المساعدة ـ والتعاون ـ التي كان قد تلقاها من القوميين السوريين.

يقول باتريك سيل: «وللقضاء على أية معارضة أمرت الحكومة في منتصف كانون الثاني (يناير) ١٩٥٢م بحل الإخوان المسلمين، وأغلقت مكاتبهم ومدارسهم في جميع أنحاء القطر، واتخذت إجراءات مشابهة ضد الحزب التعاوني الاشتراكي وزعيمه فيصل العسلي[1]، ومُنع الموظفون المدنيون والاتحادات التجارية من المساهمة في النشاط السياسي. وفي شهر نيسان (إبريل) تبع هذا الإجراء حظر عام على كل الأحزاب السياسية، وطرد عدد من كبار الموظفين من وظائفهم، بينما

---

(١) كان فيصل العسلي نائباً عن منطقة الزبداني، وزعيم فئة يمينية صغيرة، لكنها كثيرة الصخب، أطلقت على نفسها (الحزب التعاوني الاشتراكي). وكان لأعضاء الحزب طريقة مميزة في التحية تقرب من الأسلوب النازي. وكان العسلي أحد الذين قبض عليهم عقب انقلاب حسني الزعيم، نظراً للهجوم الذي شنه العسلي في البرلمان على الجيش وعلى طاقاته القتالية، وحسب أوامر الزعيم حلق له شعره الغزير الطويل الذي كان يعتز به، وألحقت به بعض الإهانات! (انظر باتريك سيل، ص٦٦). ولم يمنعه الاستخذاء الذي أظهره ـ والذي قلّل من حماسة بعض أتباعه ـ من ترشيح نفسه لانتخابات عام ١٩٥٤ وفوزه! وكان من أبرز مساعديه: الدكتور رشيد الدقر والدكتور سيف الدين المأمون.

سُـرح عدد من أسـاتذة المدارس ومحاضرو الجامعـة لأنهم رفضوا أن يقسموا يمين الولاء للحكم.

«لقد أقام الشيشكلي في ستة أشهر ـ في النصف الأول من عام ١٩٥٢م ـ ديكتاتورية مركزية صارمة، وأسكت منتقديه بطرق بوليسية تقليدية» كما يقول باتريك سيل. وكان من أبرز إجراءاته في هذا الإطار، بالإضافـة إلى حل الأحزاب وإبعاد السياسـيين عن العمل؛ إخضـاع المراسلات غير الدبلوماسية للرقابة، في الوقت الذي فقدت كل من الجامعـة والمجمع العلمي ومصلحـة الآثـار حق الاتصال المباشـر بمؤسسات أجنبية. بالإضافة إلى إلزام علماء الدين وخطباء المساجد بارتداء عمامة خاصة وزي موحَّد[1].

ولكن في الوقت نفسه منع هؤلاء من ارتياد المقاهي وأماكن اللهو، وأمـرت دوريات الشـرطة في اليوم الأول من شـهر رمضان، الموافق للرابع والعشرين من شهر أيار (مايو) بإلقاء القبض على أي شـخص يرى وهـو يخرق حرمـة الصيام! كما مُنع افتتـاح المدارس

---

(١) اشـترط في العمامة ـ أو العِمّة ـ أن تكون على طاقيـة بيضاء، وليـس على الطربوش الأحمر، كما جرت عادة العلماء في ذلك الحين. وقد استجاب بعض العلماء لهذا الشرط، مثل الأستاذ الشيخ حسن حبنكة رحمه الله، فقد صادف أن عمامته في سابق عهدها كانت على هذا النحو، فعاد إلى ما كان عليه، في حين أن بعض العلماء الآخرين هجروا العمة البيضاء بالكلية إلى العمة الصفراء التي كانت معهودة في أوساط بعض التجار في ذلك الحين.

التبشيرية، وجعل تلقي تبرعات من الخارج لأغراض تربوية منوطاً بموافقة وزير التربية، بالإضافة إلى إعادة تنظيم الجمعيات الكشفية والرياضية لكي يستبعد إمكانية وجود أعضاء ذوي اتجاهات طائفية أو عنصرية[١].

نحن لا نؤرخ هنا لهذه الحقبة من تاريخ سورية، لكننا أردنا فقط أن نشير إلى الأزمة التي نشبت بين الجيش والبرلمان، أو بين العقيد الشيشكلي والدكتور الدواليبي (ومن ورائه حزب الشعب والبرلمان) والتي انتهت إلى حل البرلمان، وتصدي الشيشكلي للحكم على نحو مباشر، من أجل الحديث عن المحاولة التي قام بها مصطفى السباعي لحل هذه الأزمة. . قبل أن يصطدم بالشيشكلي حين رفض أن يقسم يمين الولاء للحكم. . ويخرج بعد ذلك إلى لبنان، وما لقيه من المصاعب في نطاق جماعة الإخوان المسلمين التي كان يقودها في ذلك الحين.

ولكن الاضطهاد الذي لحق بالسباعي ـ ومعظم السياسيين ـ يفرض علينا مرة أخرى أن نقول أو نقرر ـ ونحن نستعرض سيرة الشيشكلي وأعماله منذ أن شارك في القتال على أرض فلسطين عام ١٩٤٨م ضابطاً في جيش الإنقاذ، وحتى تاريخ تقديم استقالته من رئاسة الجمهورية في ٢٥ شباط ١٩٥٤م[٢] ـ أن الرجل لم يكن بسوء الديكتاتوريين المعهود!

---

(١) راجع باتريك سيل، ص١٦٤.
(٢) جاء في كتاب الاستقالة قوله: «رغبة مني في تجنب سفك دماء الشعب الذي أحب، والجيش الذي ضحيّت بكل غالٍ من أجله، والأمة العربية التي حاولت=

وأن سـورية في عهده باتت أكثر بلدان الشرق الأوسط تنظيماً، فوق ما حققته من نهضة زراعية وصناعية وجيش قوي.. بل إننا نميل إلى الرأي القائل بأنّ دخوله النادي السياسي على هذا النحو الكثيف والمباشر لم يكن هو راغباً فيه حتى هذا الوقت على أقل تقدير. ولكن عداوته لحزب الشعب الذي قال فيه إنه لم يكن يمثل الشعب لم تكن خافية، وقد أضحت الآن معلنـة بعد أن تحداه الدكتـور الدواليبي بتشـكيل وزارة (شعبيّة) احتفظ فيها لنفسه بوزارة الدفاع! ولم يسندها إلى شخصية عسكرية كما كان يريد الشيشكلي[1].

وفي الوقت الذي كان يخشى من السياسة (العراقية) لهذا الحزب، وإن شئت قلت: الهاشمية؛ على الرغم من أن الدواليبي لم يكن يميل إلى الهاشميين، وكان (أكبر زعيم عربي معاد للأمريكان كما وصفته الصحافة الأمريكيـة؛ ومن أوائل الذين طالبـوا بإقامة معاهدة عدم اعتداء مع

= خدمتها بإخلاص صادق؛ أتقدم باستقالتي من رئاسة الجمهورية إلى الشعب السوري المحبوب، الذي انتخبني والذي أولاني ثقته؛ آملاً أن تخدم مبادرتي هذه قضية وطني. وأبتهل إلى الله أن يحفظه من كل سوء، وأن يوحده ويزيده منعةً، وأن يسـير به إلى قمة المجد» باتريـك سيل، ص١٩٢. ومعلـوم أن الشيشـكلي كان في مقدوره مقاومـة العناصر التي بدأت الانقلاب عليه في حامية مدينة حلب شمال سورية؛ راجع سيل، ص(١٩٠ ـ ١٩٣)؛ كما أنه أبدى استعداده للعودة إلى البلاد والمثول أمام المحاكم رحمه الله. انظر باتريك سيل، ص٢٢٦.

(١) راجع: الصراع على سورية لباتريك سيل، ص١٥٦.

روسية، وشراء السلاح من الشرق لكسر احتكار السلاح الغربي)[1].

يقول باتريك سيل: «حذر الشيشكلي الدواليبي بأن القائمة الوزارية التي قدمها ليست مقبولة، وستضطره إلى أن يحل المجلس النيابي، وهذا على ما يبدو ما كان يود أن يتجنبه كلياً، ولكن الدواليبي لم يرض بأي تسوية.. وهكذا أمر الشيشكلي في ليلة ٢٨ ـ ٢٩ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ بالقبض على رئيس الوزراء وأعضاء الحكومة والأمين العام لحزب الشعب ناظم القدسي وعدد من ذوي الميول الهاشمية أمثال حسني البرازي..»[2].

ثم دعا الشيشكلي خمسة نواب يمثلون حزب البعث، والحزب العربي الاشتراكي، والجبهة الإسلامية الاشتراكية، وجبهة الجمهوريين، والقوميين السوريين، وأبلغهم بالإجراءات التي اتخذها الجيش[3].

وحاول السباعي اقناع الشيشكلي بإعادة الحياة البرلمانية إلى البلاد والإفراج عن الدكتور الدواليبي، وتردد أياماً بينهما، لكنه لم يوفق، على الرغم من أن الدواليبي وافق على تقديم استقالتة وهو لا يزال رهن الاعتقال.. ولكن المشكلة كانت عند الشيشكلي في البرلمان وفي

---

(١) المصدر السابق. ويضيف باتريك سيل أن الدواليبي أيضاً نادى بالإصلاح الزراعي، وتوسيع التسهيلات التربوية، وإعادة توزيع الثروة.

(٢) الصراع على سورية، ص١٥٦.

(٣) المصدر السابق، ص١٥٧.

سيطرة حزب الشعب عليه. . وانتهى الأمر باعتقال السباعي وضمّه إلى صديقه الدكتور الدواليبي.. وبقي السباعي في السجن نحو أربعة أشهر[1]، قام الشيشكلي خلالها ـ في منتصف كانون الثاني ١٩٥٢م ـ بحل جماعة الإخوان كما أشرنا قبل قليل، ثم أفرج عن الأستاذ السباعي، ودعاه لمقابلته. وقد كانت هذه المقابلة على النحو التالي:

قال الشيشكلي: يؤسفني يا أيها الأستاذ أن تصدر عني إساءة

---

(١) أشارت بعض المصادر إلى هذا السَّجن في سياق المعارك التي قامت في منطقة قناة السويس بمصر عام ١٩٥٢م، والذي خاضها ضد الاحتلال البريطاني، ومعسكراته التي تجثم على أرض القناة: نفرٌ من الشباب الجامعي الذين انتظموا في عصابات مسلّحة كانت تقوم بالإغارة على هذه المعسكرات، وتنسف الجسور وقطارات المؤونة للجيش البريطاني، وكانت في معظمها من شباب الإخوان في مصر. «فهب السباعي يدعو الشعب السوري لمؤازرة مصر، وقدَّم إلى وزير مصر المفوض كتاباً يعرض فيه تطوع الألوف من شباب الإخوان المسلمين في سورية للقتال إلى جانب إخوانهم على ضفاف القنال. . فألقت السلطات السورية القبض عليه، وزجته في سجن المزة المدة المذكورة» ونحن لا ننفي الاعتقال، ولا هذا التحرك الجماهيري من قبل السباعي، ولكن يصعب التسليم بأنه كان السبب وراء الاعتقال. . اللهم إلا أن يكون هذا التحرك أغرى الشيشكلي بسجنه، لأن جماعة السباعي كانت قد مُنعت من النشاط، ولم يكن في وسعه أن يتحمل منه مثل هذا النشاط أو هذا التحدي. راجع مجلة حضارة الإسلام: مرجع سابق، ص(١٤٨ ـ ١٤٩)؛ والموسوعة الحركية لفتحي يكن، ص١٤٧ .

نحوك، وأنا الذي أقدر جهادك، وأثق بإخلاصك ومن معك. . وقد كان الأحرى بنا أن نأتلف بدلاً من أن نختصم ونختلف، ومع ذلك فإن المجال لا يزال أمامنا متسعاً، لذلك فلننسَ الماضي ولنتعاون! .

فقال السباعي: ولكن الذي وجدته منك أكد لي ألا سبيل إلى التلاقي.

قال الشيشكلي: ولم لا؟ . . إنك تدعو إلى الإسلام، وأنا والله مسلم، يملأ قلبي الإيمان بالله ورسوله وكتابه، فكيف لا يتم تلاقينا؟ .

قال الأستاذ السباعي: لعلك تفهم الإسلام عبادة وعقيدة! أما نحن فالإسلام في مفهومنا نظام يشمل الحياة، ويقدر لكل شيء حسابه. . ومعنى ذلك أننا لا نستطيع القبول بالواقع الذي تفرضه القوة، ولا بد لنا من النضال بكل الوسائل المشروعة حتى نعيد إلى هذه الديار نظامها الإسلامي الذي به دخلت أمتنا التاريخ، وبه تسنّمت مركز القيادة العالمية من أوروبة إلى أقصى الصين! .

وهنا لم يبق متسع لاستمرار المحاولة، فأعلن صاحب الانقلاب أسفه لإصرار السباعي على معارضته، ونهض ليودّعه وهو يقول: «إذاً فنحن معذورون في اتخاذ كل ما نراه ضرورياً لحماية أهدافنا. ولكنني آمل ألا نيأس من إمكان التلاقي في وقت آخر. . عندما تتضح لكم حقيقة أغراضي يا دكتور!».

يقول الأستاذ محمد المجذوب ـ الذي نقل هذه المقابلة على النحو الذي حدثه بها الأستاذ السباعي ـ : «وكان طبيعياً أن يفرض

الحصار على تنقلات الفقيد، وعلى داره التي أخذت تزدحم بالزائرين من مختلف أنحاء دمشق وغيرها. ثم رأى الشيشكلي أن دمشق لا تتسع له وللفقيد، فأخرجه إلى لبنان، حيث بقي في منفاه هذا إلى نهاية ذلك العهد»[1].

قلت: إن نظرة عابرة في هذه المقابلة وفي سائر الوقائع والأحداث تدل على أن الشيشكلي كان يحاول كسب الأستاذ السباعي بتاريخه الناصع وألقه البرلماني وجماهيريته الواسعة على مستوى البلاد السورية بوجه عام وفي دمشق بوجه خاص، إلى جانب ما أشار إليه الشيشكلي من إخلاص السباعي وإخوانه وجهاده الذي عاصره وشاهده على أرض فلسطين.. ولعله قد التقى به في ذلك الحين. ولكن السباعي من خلال القيم الإسلامية التي أشار إليها.. إلى جانب ما استقر في وعيه وعبّر عنه في مناسبات كثيرة من كراهية الانقلابات العسكرية والانقلابيين لم يستطع أن يتعاون مع الشيشكلي! حتى إنه لم يلتفت إلى القدر الذي تحدث به الشيشكلي عن الإسلام.. والذي نحسب أنه كان فيه من الصادقين. هذا في الوقت الذي كان الشيشكلي قد كسب أكرم الحوراني ـ أو العكس ـ قبل أن ينضم إليه فيما بعد نفر من السياسيين البارزين في حركة التحرير التي أسسها، والتي أشرنا إليها قبل قليل. وكان منهم

---

(١) كتاب: علماء ومفكرون عرفتهم للأستاذ محمد المجذوب ١/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥ الترجمة رقم (١٧). والواقع أن الشيشكلي فرض عليه الإقامة الجبرية في بيته بدمشق قبل أن يخرجه من سورية ليقيم في لبنان.

المحامي الشهير الدكتور مأمون الكزبري[1]. وربما كان السباعي - والأمر متروك للمؤرخين - في موقفه هذا من المتشددين؛ فقد كان في وسعه أن يهادنه بعض الوقت أو يغادر منطقة التشهير به ومناصبته العداء، دون أن يصل معه إلى درجة التنسيق والتعاون. وربما كان لموقفه هذا أسباب أخرى قدرها هو في ذلك الحين، رحم الله الجميع.

حملة تشويه:

بدأ السباعي يواجه بعض المتاعب الداخلية أو في نطاق جماعته في هذا العام الذي خرج في أواخره - كما يبدو من سياق الأحداث - إلى لبنان؛ فقد شهدت الفترة التي قضاها رهن الإقامة الجبرية بعد الإفراج عنه من السجن ولادة حركة انشقاقية بلغت أوجها في عام ١٩٥٤م، وقد جاءت هذه البداية والولادة في سياقٍ فكري وسياسي، كما سنشرح بعد قليل. وحاول أصحابها الإفادة من خروجه إلى لبنان في محاولة توطيد أركان دعوتهم وتوسيع دائرتها. ولكننا نشير قبل ذلك إلى لونٍ من ألوان الأذى الشخصي، الذي حاول بعض هؤلاء أن يلحقوه بالأستاذ السباعي - في سبيل الدعوة إلى الخروج أو الانشقاق - يتعلّق بمصروفه أو نفقاته المالية، بعد أن سرح من وظيفته بمرسوم من أديب الشيشكلي، ولم يبق له مورد رزق! ولا يصعب علينا تفسير هذه المحاولة التي تعتمد (الفضيحة)

---

(١) انتخب الدكتور الكزبري رئيساً للمجلس النيابي الذي انتخب في عهد الشيشكلي. وقد افتتح أولى جلساته بتاريخ ٢٤/ ١٠/ ١٩٥٣م.

أسلوباً مختصراً، وطريقاً قصيرة للحرب والتشهير، والتي تجد لها صدًى في طبائع الأغرار والجهلاء، وربما كذلك في نفوس الشانئين والحاسدين.. علماً بأنّ هذا الأسلوب غالباً ما يؤدي عند التمحيص والتدقيق لا إلى تقرير البراءة فحسب، بل إنه يكشف فوق ذلك عن أبواب من الفضل والنبل كان يتمتع بها من استهدف بتلك (الفضيحة).. وربما بقيت مثل هذه الأبواب في حياته متوارية أو مجهولة لولا تلك الشبهات والمزاعم، كما حدث تماماً في الشبهات التي أثارها نفر من المستشرقين حول النبي ﷺ في مسألتي الزواج والحرب.. ـ وبخاصة مسألة زواجه بهذا العدد من النسوة[1] ـ من أجل إظهاره بمظهر لا يتلاءم وشرف النبوة.. يختصرون بذلك الطعن في عقائد الإسلام وشرائعه وتاريخه وحضارته.. حتى إذا تفحصنا الأمر في أمر زواجه عليه الصلاة والسلام وقفنا على أبواب جديدة من الفضل والنبل، وما جُبلت عليه نفسه الشريفة من الخلق الرفيع، والبُعد عن مطالب الحسّ وشهوات الجسد! وكذلك استُهدف السباعي الداعية لإظهاره بمظهر لا يتلاءم وشرف الدعوة ومنصب القيادة!.

وندع الحديث في هذا إلى الأستاذ الأديب الشاعر محمد المجذوب الذي يرى أولاً أن ما لقيه السباعي إنما جاء عن طريق شباب كانوا أحق الناس ببرّه وحبّه! ثم قال: «وكان يوم عاد إلى سورية ليستأنف نشاطه في

---

(١) انظر حول هذه المسألة الفصل الذي كتبه الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد بعنوان (زواج النبي) في كتابه القيم: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه.

خدمة الحق، فإذا هو يواجه سلسلة من التدابير حيكت في غيابه للتسلط على الجماعة! إنها محاولة انقلاب بدأت خفية وراء الستور، ثم ما لبثت أن خرجت إلى الملأ تواكبها وتؤرثها تحريشات الصحف المشبوهة، التي لم يعرف لها سابق اهتمام بقضايا الإسلام، إلا عند مهاجمة دعاته، والدعوة إلى عدائه!».

ويضيف الأستاذ المجذوب: «وأشهد لقد تحمل أبو حسان من ظلم هذه الفئة ـ سامحها الله ـ ما تنوء به كواهل العصبة أولي القوة! وحسبي أن أذكر مشهداً واحداً من هذه المأساة. ولولا خشية الإساءة لمن لا نحب إيذاءهم من إخواننا الأحياء، لوجدت متسعاً لعرض الكثير من هذه المشاهد، التي لا أشك أنها كانت من العوامل التي انتهت به إلى الشلل».

وقد عَرض هذا المشهد على النحو التالي: قال:

«حدث ذلك في دمشق، وفي اجتماع ضم طائفة من قادة الجماعة، بينهم من مصر الأستاذان صالح أبو رقيّق، وحسن العشماوي، ومن سورية الأساتذة عصام العطار، وعبد الكريم عثمان، وحضر الاجتماع الأستاذ (فلان) عن الفئة (الأخرى).

وطرحت الأفكار بصراحة، وفسح مجال القول لمن شاء. ووجد الأخ (فلان) الفرصة مواتية لتفجير ما حمل من ألغام، فإذا هو يقول في لهجة مضغوطة لم يستطع أن يلطّفها: «هناك أسئلة تطلق، ولا نعرف بماذا نجيب عليها.. أولاً مصروف الأستاذ السباعي أثناء وجوده في

لبنان طوال زمن النفي. . من أين أتى به؟ ثم هناك مبلغ من المال كان قد قبضه من الأستاذ (أمين. .) قبل سفره إلى فرنسة لنوال درجة الدكتوراه. . كيف تصرّف به؟ وبأي حق؟».

ووجمت الألسن، وغامت الوجوه تحت غشاء الدهشة المرّة؛ إذ لم يكن أحد منا يتوقع أن تصل الخصومة في القوم إلى حد اتهام الرجل الذي وهب كل شيء في سبيل الدعوة.

يقول: «ولكن وجهاً واحداً لم تزده هذه الجرأة إلا إشراقاً وابتساماً، هو وجه السباعي، الذي ظل محتفظاً بهدوئه واطمئنانه المألوف في مثل هذه المجالس الخاصة، كأن شيئاً مؤسفاً لم يحدث!، وكان عليه أن يجيب فقال: «أما مصاريف المنفى فيخجلني أن أضطر لكشف الستر عن وضع لا يخص أحداً سواي، وهو أنني كنت أقترضها من ابن عمي عبد السلام السباعي في بيروت، حتى بلغت ديوني بسبب ذلك قرابة العشرين ألف ليرة. وقد كان في وسعي أن أنجو من هذه الديون لو قبلت معونة أخ واحد من الكويت. . لقد بعث إلي ـ هذا الأخ ـ بالسيد رفعة الإيتوني يقول: إنك موقوف عن العمل، ولا مورد لك ولأسرتك، وأن أخاك هذا كلّفني أن أقدم إليك راتباً شهرياً ريثما تنكشف محنتك. ولكني رجوت من السيد الإيتوني أن يرفع إلى الأخ الكويتي شكري على مروءته، ويؤكد له أنني في غير حاجة إلى شيء من ذلك، فألح وطلب إليَّ أن أعدَّ ذلك من باب الاقتراض، فقلت: إنني أقترض من ابن عمي، ولا أحب أن أكون مديناً لغيره!.

«وهنا طلب الأستاذ عبد الكريم عثمان ـ رحمه الله ـ الإذن بالكلام،

والتفت إلى الأستاذ(فلان) يقول: أتذكر يوم كذا . . وكنا نتحدث عن الأستاذ السباعي فقلت لي: حقاً إن الرجل مظلوم . . وضربت لي مثلاً على ذلك بأنه قد تلقى من الدكتور (أمين . .) هبة باسم الدعوة فدفعها إليك بدوره لتنفقها على مصالح الجماعة، وقد فعلتَ، ثم قلت: ومع ذلك فإن بعض الألسنة غير النظيفة تريد أن تتحرك بالباطل لتتهم الرجل بأنه استأثر بالهبة لنفسه! وأطرق (فلان) . . وقد تذكر كل شيء، ولكنه لم ينطق بحرف . . ثم انفض الاجتماع لصلاة الجمعة، ففارقنا إلى غير رجعة!»[1].

قلت: ليس هذا كيداً رخيصاً فحسب، بل هو كذلك كيد مشبوه، لأنه قائم على خلط الأوراق وتعمد الكذب! ولقد شهدته ـ علم الله ـ ينفق على بعض طلبة العلم وعلى مجلة (حضارة الإسلام) من ماله. ولا نتحدث هنا عن بذله وكرمه وترفعه عن الصغائر . . ولكن هل نلوم السباعي إذا أخذ هذا الكيد ـ ونحوه كثير ـ من نفسه أو أثر في صحته التي لم تكن في الأصل أو منذ أمد بعيد . . على ما يرام؟ .

حركة انشقاق:

شهدت دمشق ـ وبعض البلاد السورية ـ في أعقاب المعركة الدستورية البرلمانية الشعبية التي دارت حول مسألة دين الدولة في النصف الأول من عام ١٩٥٠م ـ والتي عرضنا لطرف منها ـ شهدت حركة

---

(١) علماء ومفكرون عرفتهم للأستاذ محمد المجذوب ١/ ٣٦٦ـ٣٦٨.

جدل واسعة دارت داخل صفوف الإسلاميين بغض النظر عن انتماءاتهم التنظيمية أو الحزبيـة، أي سـواءً أكانوا من الإخـوان أم من العلماء والمشايخ وتلاميذهم وطلابهم، أم من سائر المتعلمين والمثقفين.. ويمكن عدّ هذا الجدل من ذيول الجدل والخلاف الذي دار حول هذه القضية، أو استمراراً له من بعض الوجوه؛ لأنها حُسمت ـ برلمانياً ـ على وجه لم يرضَ عنه الجميع، أو لم يُرض كافة الطموحات والتطلعات. وقد أشرنا فيما سبق إلى النقد الذي بدأ يُوجّه إلى الأستاذ السباعي من بعض الجهات.. وهكذا بدأت بعض الأسئلة تطرح عن جدوى المشاركة البرلمانية بل السياسية.. وعن مفهوم الحكم الإسلامي.. وعن جدوى الأساليب المتبعة في العمل الإسلامي، أو عن مدى نجاعتها في تحقيق أغراض هذا العمل، والوصول به إلى أهدافه.. خصوصاً وقد اعتمد أسلوب التربية الفردية الأخلاقية والإيمانية، وهذا ـ كما قيل ـ يحتاج إلى وقت طويل! وأسلوب الخطابة والدعوة العامة أو الجماهيرية. وهذا الأسلوب ـ مع تقلب الجمهور واضطراب مقاييسه ـ ليس مضمون النتائج!.

في هذا الجو، أو في هذا المناخ وصل إلى دمشق ناشطون من (حزب التحرير) الذي أسسه الشيخ محمد تقي الدين النبهاني رحمه الله[1].. حضروا إليها من الأردن، وبدأوا حملة واسعة في الدعوة إلى

---

(١) ولد النبهاني عام ١٩٠٩م بقرية إجزم من أعمال حيفا، وتخرج في الأزهر وفي دار العلوم بالقاهرة، وعمل في فلسطين بالتدريس ثم بالقضاء الشرعي، ثم=

(مفاهيمهم) الفكرية والسياسية.. وكانوا متابعين للشأن السياسي العربي والدولي على نحـو غير معهود في صفوف الإسـلاميين في سـورية، ونشروا في ذلك عدة بيانات. وكانت هذه البيانات والكتيّبات مميّزة بلون غلافها الأبيض وعناوينها الحمراء! وعقدوا الاجتماعات، واتصلوا بكثير من (العناصر) الإخوانية وسواها.. فأحدثوا (صدمة) لدى هذه العناصر، وفي صفوف الإخوان والإسلاميين على وجه العموم! وقد تأثر بدعوتهم نفر قليل، وأعرض عنها الكثيرون.. ولكنها أثارت جدلاً واسعاً، ونقاشاً حاداً في الصف الإسلامي بوجه عام، وبينهم وبين شباب الإخوان على وجه الخصوص.. ولم يكن جميع هؤلاء الشباب بأعدادهم الغفيرة يتمتعون بالقدرة على الجدل التي أوتيها أولئك النفر القليل من التحريريين! ولم يتبين أن معظم جوانب هذا الجدل بيزنطي إلا بعد مدة من الزمن.. وأن القوم ـ كما قال بعض الباحثين في الخوارج ـ لا تقوم بهم حضارة ولا يتصل بهم حكم عملي! ولكن الإعراض عنهم في وقت سابق جرى على خلفية بعض الأفكار و(الأحكام) الشرعية التي كانوا يتبنونها أو يدعون إليها، وعلى خلفية سلوكيات بعضهم التي لم تكن ترتقي فوق مستوى الشـبهات التي ينبغي أن يتـرفع عنها الدعـاة والعاملون في الحقل الإسلامي.

= مدرساً في الكلية الإسلامية بعمّان. وفي عام ١٩٥٢م أنشأ (حزب التحرير الإسلامي) الذي قام على استئناف الحياة الإسلامية وقيام الخلافة الإسلامية. ومعظم الكتب التي نشرها الحزب في الفكر والسياسة والاقتصاد والمفاهيم من تأليفه. وكان ـ كما حدثنا الدكتور الشيخ عبد العزيز الخياط ـ شديد المراس، بارعاً في الجدل، توفي عام ١٩٧٧م.

ولكن بعض الشباب المتحمس أو الذي كان يتمتع بفضل من النشاط، وقد استهواهم أسلوب الجدل والنقاش، والذي كان يستمر لساعات في بعض الأحيان، بدأوا ينتقدون الأستاذ السباعي، ويتهمونه بالتفرد في القيادة، والاستبداد بالرأي، ودخل بعض الشباب الآخرين في مهاترات مع هؤلاء، لم يكن وراءها طائل سوى قدر من البلبلة لحق بصفوف الجماعة.

ولكن ذلك كله لم ينته إلى أكثر من ذلك، إلى جانب ظفر (حزب التحرير) بعدد قليل من الأتباع أو الأنصار من صفوف الإخوان وسائر الإسلاميين.

وساد اعتقاد على نطاق واسع أن نشاط الحزب يراد به شق صفوف الإخوان! أو لا يراد به إلا هذا!! ولا نعتقد أن هذا كان صحيحاً، وإن كانت فكرة وجود حزب آخر أو تنظيم (إسلامي) آخر إلى جانب الإخوان سوف يلقى التشجيع، أو يكون موضع ترحيب، كما كان يعتقد البعض في ذلك الحين، لأنه سوف يجعل بأس الإسلاميين بينهم، وبخاصة إذا كان في الصف قوم خصمون!.

وحين وصل من مصر ـ هارباً من السجن كما كان يزعم ـ السيد نجيب جويفل، كان الجو مهيئاً لدخول طرف ثالث أو لتوظيف هذا المناخ لإحداث شرخ في جسم دعوة الإخوان، وهي المهمة التي جاء هذا الرجل لتحقيقها عام ١٩٥٢م إن سلمنا بأنه نُدب إلى ذلك، أو أن طبيعته وقدراته (النقدية) أو الهدامة ـ إن صح التعبير ـ هي التي انتدبته إلى

ذلك أو دفعته إليه! ونحن نميل إلى الرأي الأول، وهو الرأي السائد، لأن نقد جويفل (الأخ المصري)! انصب بشكل أو بآخر على شخص مصطفى السباعي أولاً، ولأنه ثانياً حاول تشكيل نظام سري أو نظام خاص ـ في نطاق جماعة الإخوان ـ شبيه بالنظام الخاص لدى إخوان مصر!. ونستعيد هنا ما نقلناه عن باتريك سيل، وهو أن «الجبهة الإسلامية الاشتراكية» ـ التي كان يقودها السباعي في البرلمان ـ على نقيض الإخوان المسلمين في مصر، بعيدة عن كونها تنظيماً شبه عسكري، أو أداة سياسية، كانت وبحق ناطقاً أصيلاً عن الجماهير السورية التي كانت وستبقى مسلمة وغيورة»[1]!

والسؤال الذي يطرح نفسه عند هذه النقطة: من الذي (رصد) دور السباعي في هذه المسيرة للإخوان في سورية حتى لكأنها تستعصي على التعطيل أو التحيطم مع وجود السباعي على رأس هذه الحركة، وبكل طاقاته القيادية وإخلاصه وجماهيريته و(روحه الوطنية) ومنزلته في الدعوة والفكر الإسلامي؟ أو مع خلوّ هذه الحركة من النظام الخاص والتنظيمات شبه العسكرية، وبُعدها عن حمل السلاح إلا في وجه اليهود على أرض فلسطين؟.

وأتذكر عند هذه النقطة ما حدثني به **أستاذنا الدكتور مصطفى** زيد، وكانت معاراً من جامعة القاهرة للتدريس في كلية الشريعة بجامعة دمشق ـ وأستبق بهذا الحديث الحوادث ـ وكنت أسير معه في نفر من

---

(١) الصراع على سورية، ص١٣٩.

زملائي الطلاب، بعد خروجنا من محاضرة مسائية له رحمه الله ـ وكان يعلّق على الانتخابات التكميلية التي خاضها الأستاذ السباعي عام ١٩٥٧ وعلى دور السفارة المصرية بدمشق فيها، قال رحمه الله: إن التقارير التي رفعت إلى السيد الرئيس تقول: إن الإخوان المسلمين في سورية هم مصطفى السباعي! وأبدى أسفه الشديد، لأن السفارة المذكورة أنفقت حوالي مليون جنيه في سبيل إسقاط السباعي في الانتخابات المذكورة!.

لم ينجح نجيب جويفل إذاً، ولكن إذا كان هذا الذي حدثنا به أستاذنا مصطفى زيد قد جاء بين يدي تهيئة الأجواء والظروف ـ السياسية والنفسية ـ لقيام الوحدة بين سورية ومصر، أو للفزع واللجوء إلى عبد الناصر. علماً بأن الإخوان أيدوا قيام هذه الوحدة ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ كما لقي الأستاذ السباعي بعد ذلك تكريماً ورعاية صحية في مصر أيام الوحدة؛ فماذا يدرينا أن أسباباً من هذا النوع أو من نوع آخر كانت تقف وراء نجيب جويفل وأمثاله في وقت سابق؟.

وحين نجح هذا في ربط بعض العناصر الإخوانية به سراً.. بدأ هؤلاء محاولاتهم الاتصال بعدد من الشباب، لربطهم بمجموعتهم وإقصائهم عن الأستاذ السباعي، حين كان يقيم في بيته بإقامة جبرية، كما حدثنا الأخ الفاضل السيد عدنان طباع، الذي عاصر هذه الأحداث، وعاشها كذلك بحكم قربه من الأستاذ السباعي، وإخلاصه الشديد له، وللعمل تحت قيادته. وندع خلاصة الأحداث هنا للأخ السيد الطباع الذي قال: «وبعد إخراج الشيخ السباعي من سورية، وإقامته في المنفى

ببيروت ازداد نشاطهم، وأشاعوا بين الإخوان أن الجماعة أصبحت مرتبطة بمصر مباشرة، ولم يعد الشيخ مصطفى مسؤولاً! وعلى إثر ذلك تشكل مكتب في دمشق مرتبط بالشيخ السباعي لتسيير العمل، وطلب من الشيخ العودة سريعاً إلى دمشق، حتى ولو أدى إلى دخوله السجن، فعاد الشيخ إلى دمشق في أواخر ١٩٥٣م»[١].

وخرج الصراع إلى العلن بعد هذه العودة وقيام المكتب التنفيذي للإخوان ـ في سورية ـ بفصل بعض العناصر، وتحقق الإخوان من أن كل ما أُرجف به ضد الأستاذ السباعي ـ الذي عرضنا لطرفٍ منه ـ باطل ولا أساس له من الصحة. وهكذا صار اسم (المنشقّين) عنواناً على جميع الأفراد الذين فصلوا، وأولئك الذين تركوا الجماعة أو جسمها الرئيسي، مع إصرارهم على أن يحملوا اسم (الإخوان المسلمون)!.

---

(١) أصدر الشيشكلي عفواً عاماً بمناسبة انتخابه رئيساً للجمهورية عبر استفتاء شعبي مباشر (نظام رئاسي) بتاريخ ١٠/ ٧/ ١٩٥٣م. وعاد إلى سورية بمناسبة العفو المشار إليه عدد من السياسيين الذين كانوا في لبنان في ٢١/ ١٠/ ١٩٥٣ قبل أن يفتتح البرلمان الجديد جلساته بثلاثة أيام. وربما كانت عودة السباعي نحو هذا التاريخ أو قريباً منه. ويؤكد بعض الشخصيات الإخوانية أن السباعي تردد على سورية سراً أكثر من مرة، قبل أن يعود إليها بشكل نهائي عقب القرار المذكور فيما يبدو. وقد أصدر في دمشق بتاريخ (١) ربيع الثاني الموافق ٧/ ١٢/ ١٩٥٣م بحثه عن (مشروعية الإرث وأحكامه في الإسلام) ضمن السلسلة التي كان يصدرها باسم (هذا هو الإسلام)؛ راجع باتريك سيل، ص(١٧٤ ـ ١٧٥). والمجموعة الأولى من السلسلة المذكورة ـ البحث الثالث، ص ٤.

يقول السيد الطباع: «وتقدم المنشقون ـ في الخفاء ـ بطلب ترخيص من أمانة العاصمة باسم جمعية الإخوان المسلمين (جمعية خيرية) وأخذوا الموافقة، وتسلموا مركز باب الجابية رسمياً (وكان أحد مركزين للإخوان في دمشق).. وبلغ الأمر بهم إلى أن هددوا بقتل الشيخ مصطفى إذ ألقى حديث الثلاثاء (المحاضرة أو الحديث الأسبوعي المفتوح للأستاذ السباعي) في مركز باب الجابية، فوقف السباعي موقفاً حازماً، وذهب إلى رئيس الوزراء صبري العسلي، ـ وكان أيضاً وزيراً للداخلية فيما يبدو ـ وتقدم بطلب ترخيص باسم الحزب الوطني وحزب الشعب قائلاً: نريد فتح مراكز باسم هذين الحزبين كما سمحتم بفتح مركز لغيرنا باسم الإخوان.. فاضطر العسلي لسحب ترخيص المنشقين. وفي هذه الأثناء تم فتح مركز عام باسم المكتب التنفيذي للإخوان ـ في سورية ـ في دمشق (الشهداء ـ طريق الصالحية)، واجتمعت الهيئة التشريعية وانتخبت مكتباً تنفيذياً يمثل الجماعة، وأُغلق مركز (باب الجابية)، فقام المنشقون برفع دعوى قضائية أمام المحكمة العليا ضد الحكومة، لأنها سحبت الترخيص، فحكمت برد الدعوى[1]. وقد وصفت جريدة (الشهاب) قرار

---

(١) انظر: الدكتور مصطفى السباعي للسيد حسني جرار، ص(٦٥ ـ ٦٨) ويضيف السيد عدنان طباع قائلاً إنه بعد الصدام الذي وقع بين الإخوان وعبد الناصر عام ١٩٥٤م: «اختلف المنشقون بعضهم مع بعض، وتبين لبعضهم أن نجيب جويفل كان عميلاً للسلطات المصرية، وأنه كان برتبة لواء، وأن مهمته كانت تمزيق صفوف الإخوان.. حتى إنه ظهر في بعض السجون في مصر مع =

المحكمة العليا «بردّ اعتراضهم ونفي دعواهم بأنه قرار حكيم»[1].

لكن هذا السحب للترخيص، أو بعبارة أدق: لترخيصٍ معطىً باسم الإخوان المسلمين أوهَم أن الحكومة السورية أوقفت نشاط الجماعة في سورية، الأمر الذي استغلته بعض الجهات.

وقد سئل الأستاذ السباعي نفسه بوصفه المراقب العام للإخوان المسلمين عن هذا الموضوع، لأن بعض (الجهات خارج سورية حاولت إيهام العالم الخارجي بأن الحكومة السورية أوقفت نشاط الإخوان، وسحبت منهم الترخيص الممنوح لهم) في الوقت الذي كانت مراكزهم تقوم بنشاطها المعتاد في جميع أنحاء سورية. فأجاب بقوله:

«كانت الهيئة التشريعية لجماعة الإخوان المسلمين في سورية قد أنذرت أعضاء مكتب دمشق السابق بوجوب تنفيذ قرارها الذي نفذ في جميع مراكز المحافظات السورية، وهو الذي يقضي بتجديد الانتساب، وأداء القسم المنصوص عليه في النظام الأساسي للجماعة، ولما رفض أعضاء مكتب دمشق الخضوع لقرار الجماعة، اعتبر مكتبهم منحلاً، واعتبر الأعضاء المتمردون مفصولين عن الجماعة، وباشر المكتب

= المكلفين من قبل الدولة بالتوعية..» ويقول: «وكانت نهاية المنشقين أن منهم من اعتزل العمل، ومنهم من انحرف عن الإسلام وتعامل مع خصوم الحركة الإسلامية، ومنهم من اتصل بالسباعي وطلبوا منه أن يسامحهم ففعل رحمه الله»؛ وقد أقر هؤلاء بأنهم كانوا مخدوعين ومضلّلين.

(١) العدد (٣١) تاريخ ١١/ ١٢/ ١٩٥٥م.

التنفيذي أعمال مكتب دمشق إلى أن يجري انتخابات جديدة في دمشق ينبثق عنها مكتب إداري جديد (وقد تمت هذه الانتخابات وانتخب المكتب الجديد لمركز دمشق).

«ولم يرق ذلك لأعضاء المكتب القديم المنحل، فتقدموا بطلب رخصة باسم الإخوان المسلمين إلى محافظة دمشق الممتازة، وجعلوا من عداد الأعضاء المؤسسين بعض الأعضاء الذين فصلتهم الجماعة من قبل. وظن موظفو المحافظة أن الأمر يتعلق بجماعة الإخوان المسلمين حقيقة، ولم يعلموا حقيقة وضعهم، فيسّروا لهم إعطاء الرخصة، دون أن تقترن بموافقة وزارة الداخلية.

«ولما اطلعنا على ذلك اتصلنا بالمسؤولين في وزارة الداخلية، وبالمحافظة الممتازة، وأفهمناهم أن كيان الجماعة قائم، وشأنه كشأن بقية الهيئات والأحزاب التي لم تخضع لقانون الشيشكلي، وأنه لا يجوز أخذ اسم الجماعة والترخيص به لأفراد مهما كانت صلتهم بجماعة الإخوان من قبل، فاقتنع المسؤولون ببطلان تلك الرخصة، وصدر القرار بإلغائها، وأبلغ أصحابها ذلك، ومنعوا من أن يتكلّموا فيما بعد باسم الإخوان المسلمين».

ويضيف الأستاذ السباعي: «هذه هي حقيقة المسألة، ونحن لا نزال ننتظر إقرار القانون الجديد للجمعيات والأحزاب الذي تدرسه لجنة القوانين العامة في المجلس النيابي بعد أن أجمعت مختلف أحزاب المجلس وكتله على وجوب إلغاء قانون الشيشكلي للجمعيات

والأحزاب، وأقرت ذلك اللجان المختصة في المجلس»[1].

قلت: حاول (المنشقون) إذاً أن يستفيدوا من الفراغ القانوني الذي كان قائماً بعد زوال حكم العقيد أديب الشيشكلي، فتقدموا بالطلب المذكور، وحين اعترض المراقب العام للجماعة أصدر محافظ مدينة دمشق الممتازة قراراً ينص على مايلي: «يسحب الإيصال النهائي المعطى إلى جمعية الإخوان المسلمين بتاريخ ١٩/ ٥/ ١٩٥٥م ورقم (٤٨١١) ويكلف أمين السر العام بتنفيذه».

وسحب هذا الترخيص لا يعني أن الجماعة التي كانت قائمة فعلاً وتمارس نشاطها المعتاد، بحكم وجودها قبل حكم الشيشكلي ـ كسائر الأحزاب الأخرى ـ قد سحب ترخيصها، ولكن الإشارة كانت للترخيص المذكور والمعطى بتاريخ ١٩/ ٥/ ١٩٥٥م، والذي تقدم بطلبه أولئك الذين تحدث عنهم الأستاذ السباعي.

ولكن أجهزة الإعلام المصرية ـ أو الناصرية كما كانت تُدعى ـ هي التي حاولت إيهام الرأي العام العالمي أن الحكومة السورية أوقفت نشاط الإخوان، وسحبت منهم الترخيص الممنوح لهم.

وقد وصف الأستاذ السباعي هذا بأنه «أمر مضحك لا نجد بنا حاجة إلى الرد عليه، فمراكز الإخوان في جميع أنحاء سورية قائمة

---

(١) جريدة الشهاب الدمشقية: العدد (٧) السنة الأولى تاريخ ٢١ شوال ١٣٧٤هـ الموافق ١٢ حزيران (يونيو) ١٩٥٥م.

بنشاطها المعتاد في خدمة الإسلام والدعوة إلى الإصلاح، وهي مفتوحة الأبواب لكل من أراد أن يساهم في نشاطها المحمود».

ثم ختم تصريحه قائلاً: «وأما أولئك الإخوان القلائل المنشقون من الجماعة، المفصولون منها، فنحن يسرّنا أن يوفقوا في خدمة الإسلام بالأسلوب الذي ارتضوه لأنفسهم»[1].

السباعي في لبنان:

أقام الأستاذ السباعي في لبنان بضعة عشر شهراً كانت حافلة بالنشاط والعطاء العلمي المتميز.

ويبدو أن هذه الفترة أتاحت له فرصة أفضل للبحث والدرس والتأمل، على الرغم من عدم تخلّيه عن الشأن السوري الدعوي والسياسي على النحو الذي عرّجنا عليه قبل قليل.

ويبدو أن مثل هذه الفرصة لم تتح له بعد ذلك إلا في سنوات مرضه الأخيرة، اللهم إلا خلال زيارته للجامعات والمكتبات الأوروبية عام ١٩٥٦م. علماً بأن الفروق بين هذه الفرص الثلاث لا تحتاج إلى بيان. يقول الأستاذ محمد المجذوب:

«ولقد حدثني عدد من المثقفين في لبنان من مختلف الطوائف أن للسباعي الفضل الأكبر في تعريفهم حقائق الإسلام التي ما كانوا ليعلموا عنها من قبل شيئاً»[2].

---

(١) المصدر السابق، ص٢.

(٢) علماء ومفكرون عرفتهم للأستاذ محمد المجذوب، ص٣٦٦.

وليس في وسعنا في هذا السياق تأكيد مدى علاقة السباعي أو أثره في تأسيس الحركة الإسلامية في لبنان، ولكننا نستطيع التأكيد على دوره الفاعل والبنّاء في دعمها ورفدها فكرياً وثقافياً، وبخاصة إذا لاحظنا الجديد والقيّم والعميق الذي حملته محاضراته وأحاديثه في لبنان.

بين يديَّ الآن ثلاث من هذه المحاضرات، أُلقيت الأولى منها في (الخليّة الاجتماعية في بيروت مساء الخميس في الخامس من جمادى الثانية ١٣٧٢هـ و ١٩ شباط (فبراير) ١٩٥٣). وقدمت لها (لجنة الطلاب الجامعيين في ـ جماعة ـ عباد الرحمن) بمقدمة قالت فيها:

«إن موضوع المحاضرة (**الدين والدولة في الإسلام**) من الموضوعات التي تشغل بال الشباب في شرقنا العربي والإسلامي» وإن الأستاذ السباعي ألقى هذا الموضوع «على فريق من طلاب الجامعات والمعاهد العليا في بيروت. **وقد تحدّث عنه كعادته حديثاً شافياً وافياً**». وقالت: لقد بدا أثر هذه المحاضرة واضحاً لدى كثير من معتنقي فكرة فصل الدين عن الدولة؛ إذ لم يسعهم بعد أن سمعوا هذا البيان المستفيض، والتعليل العلمي التاريخي لتلك الفكرة، إلا أن يعلنوا اقتناعهم ببطلانها وبطلان ما تستند إليه من حجج وبراهين»[1].

أما المحاضرة الثانية وعنوانها: «**المرونة والتطور في التشريع**

---

(١) الرسالة الثانية من كتاب أو سلسلة: «هذا هو الإسلام» ـ المجموعة الأولى، ص٣؛ طبع المكتب الإسلامي.

الإسلامي» فقد قدم لها الأستاذ محمد عمر الداعوق رائد عباد الرحمن في لبنان، وختم التقديم بقوله؛ «وها هو الدكتور السباعي حفظه الله يبين لنا في هذا المقال القيم خلود الإسلام وعظمة تشريعه المرن، ليزيل كل لبس، ويوضح كل إبهام. جزاه الله عن الإسلام كل خير، وختم له بخاتمة السعادة إنه سميع مجيب»[1].

أما المحاضرة الثالثة وعنوانها: **«نظام السلم والحرب في الإسلام»** فقد قالت (لجنة الطلاب الجامعيين في عباد الرحمن) في تقديمها إنها واحدة (من سلسلة المحاضرات التي ألقاها الدكتور السباعي في أندية لبنان العلمية) وقالت في هذه المحاضرة: «إنها أحدثت أثراً قوياً تردد صداه بين مختلف المواطنين؛ إذ كانت فتحاً جديداً في عالم الدعوة إلى الإسلام بأسلوب علمي أخّاذ. . » وقد ألقيت هذه المحاضرة في ندوة دار الأيتام الإسلامية في بيروت بدعوة من اللجنة النسائية للهيئة العليا لدار الأيتام مساء الجمعة في (٣) شعبان ١٣٧٢هـ الموافق (١٧) نيسان (أبريل) ١٩٥٣م، وقد أكدت اللجنة المذكورة التي قامت بطبع هذه المحاضرة على «أثرها البالغ في جمهور المستمعين، حتى إن فريقاً كبيراً منهم وبعضهم أساتذة في الجامعات العليا، رغبوا بطبعها وتوزيعها لما تضمنته من حقائق يجهلها كثير من المثقفين، عدا عما تضمنته من تصحيح لكثير من الأخطاء الشائعة في البيئات العلمية والدينية البعيدة

---

(١) الرسالة الثانية من السلسلة السابقة ـ المجموعة الثانية، ص٣.

عن الإسلام»[1].

ونعود اليوم لقراءة هذه المحاضرات وأمثالها في فكر الأستاذ السباعي لنجد أن الشيخ رحمه الله تمتع بفكر ثاقب، واجتهاد سابق! بل إن كثيراً مما قرره وذهب إليه ما يزال موضع جدل ـ ولا أقول شك أو رفض ـ من قبل جمهور عريض من الإسلاميين بعد ما يقرب من نصف قرن! وحسبي أن أشير من محاضرته الأخيرة هذه ـ على سبيل المثال ـ إلى قوله: إن «ما فعله الرسول محمد ﷺ ومن بعده من الاسترقاق إنما هي ضرورة سياسية اقتضتها الأوضاع الاجتماعية العالمية يومئذ، لا تنفيذاً لتشريع ثابت في الإسلام لا يجوز التخلي عنه..» وقوله: «وحسبك أن الإسلام اعتبر الرق أمراً طارئاً كعقوبة للعدوان على حريات الشعوب»! لأنه فُرض على الأسرى والمغلوبين[2]... وقوله في الجزية: «إنها إنما تفرض على المحاربين من أعداء الأمة، أما المواطنون من غير المسلمين فلا تفرض عليهم! وقد أوضح بجلاء أنه

---

(١) الرسالة الثالثة من المجموعة الثانية. وانظر كذلك من نشاطه الثقافي في لبنان نص الكلمة التي ألقاها في احتفال الهيئة الوطنية ببيروت مساء السبت في ٥ رجب ١٣٧٢هـ الموافق ٢١/ ٣/ ١٩٥٣م بمناسبة الذكرى الثامنة لتأسيس الجامعة العربية وكانت بعنوان: «لماذا أخفقت الجامعة العربية؟ وكيف تصبح أداة نافعة للعرب؟». وقد حضر الحفلة رئيس المجلس النيابي ورئيس مجلس الوزراء والنواب والعلماء وفريق كبير من وجوه العاصمة وشبابها وسيداتها؛ راجع كتاب الأستاذ السباعي: هكذا علمتني الحياة ـ القسم السياسي، ص٧٨.

(٢) الرسالة المشار إليها من المجموعة الثانية، ص٣٢.

إنما يتكلم عن نظام الجزيـة في الإسلام لا عن تـاريخ الجزية في الدولة الإسلامية»[1].

وأشير من محاضرته الأولى عن الدين والدولة ـ وهي بحث طويل ـ إلى بعض مقارناتـه بين الإسـلام والمسيحية، والتاريخ الأوروبي والتاريخ العربي الإسلامي[2]. قال: «إن المناداة بفصل الدين عن الدولة في تاريخ المسيحية عود بها إلى وضعها الأول الصحيح، وأن انحرافها عن هذا المبدأ جرّ عليها وعلى شعوبها البلاء والشقاء، وأما في الإسلام فإن المناداة بفصل الدين عن الدولة انحراف به عن وضعه الصحيح، وأن وقوع هذا الفصل في بعض مراحل التاريخ ـ الطور الثالث الذي فصّل فيه القول ـ جرّ على الإسلام والمسلمين البلاء والشقاء.

٣ ـ إن فصل الدين عن الدولة في تاريخ أوروبة كان في عصر نهضتها الكبرى، ولقد سارت من بعده حرة طليقة تسيطر على شؤون العالم وتتحكم في مصائره.

أما في الإسلام فإن أزهى عصور حضارته، وأحفلها بالقوة والمجد، وأجداها على الإنسانية، هي العصور التي قامت فيها دولته على مبادئ الشريعة. وما حدث الجفاء بين الدين والدولة إلا في عصور الضعف والجمود والفوضى.

---

(١) المصدر السابق، ص(٣٩ ـ ٤١).
(٢) انظر هذه المقارنـات في الرسالة المشـار إليها من المجموعـة الأولـى، ص٧٠ ـ ٧٢.

٤ ـ إن ربط الدولة بالدين في أوروبة أدى إلى اضطهاد الفكر وخنق الحريات، وقيام الحروب الدينية المفجعة، وخضوع الناس لكابوس الخرافة والجهالة والبؤس.

أما ربط الدولة بالدين في عصور الإسلام الزاهرة، فقد أدت إلى انطلاق الفكر، وحماية الحريات الدينية، وإشاعة الرغد والسلام بين أبناء الديانات، وتحرير الناس من أوهام الخرافات والشعوذة، وتحقيق الكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية بين أبناء الشعوب.

٥ ـ إن علاقة الدين بالدولة في تاريخ المسيحية في القرون الوسطى، جعل من رجال الدين طبقة تمثل السيطرة والاستعلاء والاضطهاد والتعصب. ولكن علاقة الدين بالدولة في عصور الإسلام الزاهرة لم تخلق مثل هذه الطبقة، إذ الإسلام نفسه لا يعترف بوجودها، فكيف يعترف بحقها في السيطرة والاستعلاء؟».

هذا، وقد امتازت هذه المحاضرات ـ وسواها ـ بجودة الترتيب وقوة التعليل.. فوق ما عرف عن الشيخ من عذوبة اللغة أو السرد، كما سنتحدث عن ذلك فيما بعد.

استراحة المحارب: هل كانت من السياسة أم من القيادة؟

بعد رحيل العقيد ـ الرئيس ـ أديب الشيشكلي في ٢٥ شباط ١٩٥٤م عاد الرئيس هاشم الأتاسي إلى سدة الرئاسة في (١) آذار (مارس) وشكل السيد صبري العسلي حكومة ائتلافية لم يشترك فيها البعث والحوراني.

وشارك فيها الدكتور الدواليبي بحقيبة الدفاع[1]. وبعد أسبوعين دعي المجلس النيابي للانعقاد، وهو المجلس المنتخب عام ١٩٤٩م والذي كان في أول عهده جمعية تأسيسية، وتمّ تجاوز المجلس الذي انتخب في عهد الشيشكلي.

وعلى الرغم من أن هذه الوزارة كان منوطاً بها إجراء انتخابات لمجلس جديد؛ فإنها سقطت بعد مئة يوم، وتشكلت حكومة جديدة برئاسة السيد سعيد الغزي ـ المحامي الدمشقي ذي النزعة المستقلة ـ بتاريخ (٩) حزيران (يونيو) ١٩٥٤م[2]. وقامت هذه الحكومة الحيادية بإجراء انتخابات عامة في (٢٤ ـ ٢٥) ايلول (سبتمبر) و(٤ ـ ٥) تشرين الأول (أكتوبر) بعد أن حصلت على موافقة البرلمان على قانونٍ انتخابي جديد، يلغي قانون الشيشكلي، ويعيد قانون ١٩٤٩م مع بعض التعديلات[3].

ومعنى ذلك أن الأستاذ السباعي عاد لمزاولة نشاطه السياسي

---

(١) راجع باتريك سيل، ص٢٢٠ ـ ٢٢١، وكان ذلك بعد أن قبل الرئيس الأتاسي استقالة الدكتور الدواليبي رئيس الوزراء الأسبق، الذي قام الشيشكلي بالانقلاب ضده في كانون الأول ١٩٥١م.

(٢) المصدر السابق، ص٢٢٧.

(٣) نص القانون على أن يكون عدد النواب (١٤٢) وأن يمثل كل نائب منهم ثلاثين ألفاً من المواطنين. وعلى المرشح أن ينال ٤٠٪ من أصوات الاقتراع حتى يفوز في الجولة الأولى، ص٢٢٩.

خلال الفترة الممتدة بين رحيل الشيشكلي وحتى انعقاد مجلس النواب الجديد في ١٤/ ١٠/ ١٩٥٤م أو قبل هذا الانعقاد بقليل. والملاحظ هنا أمران:

الأول: أن السباعي في هذه الفترة كثّف جهده حتى ظفر بإقرار البرلمان بتاريخ ٢٩/ ٥/ ١٩٥٤م بتأسيس كلية للشريعة في الجامعة السورية (قانون كلية الشريعة) أي في ظل رئاسة السيد هاشم الأتاسي، وقبل أن تسقط حكومة السيد صبري العسلي بنحو عشرة أيام. وحين تأخر المرسوم الرئاسي بالقانون المذكور إلى ما بعد انعقاد المجلس الجديد! قام الأستاذ السباعي بزيارة القصر الجمهوري بتاريخ ٢٤/ ١٠/ ١٩٥٤م طالباً من الرئيس الأتاسي إصدار المرسوم المذكور حتى تتمكن الكلية من فتح أبوابها لاستقبال الطلبة في العام الجامعي ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥. وقد غضب الأستاذ السباعي غضبة مضرية كما يقال، واحتدّ على الرئيس الأتاسي، لأنه رأى أن هذا التأخير غير مبرر، بل ربما راودته حوله الشكوك، ووقع في نفسه أنه تأخير مريب. والطريف أن الصحافة التي دأبت على تجريح السباعي اتهمته بأنه زار القصر الجمهوري ليستعجل قرار تعيينه عميداً للكلية!! وقالت بحقه أوصافاً تليق بأصحابها[1]. وصدر

---

(١) راجع كتاب: النكبات والمغامرات للصحفي بشير فنصة، ص٣٦٠ يقول الدكتور حسن هويدي: «وأذكر مرة، حينما أسس كلية الشريعة، وقد أوجس من أكبر المسؤولين خيفة، وأحس أن في الأمر ريبة، بعد الوعد القاطع والعهد المبرم؛ فثار ثورة الأسد الهصور، وغضب لله غضبة من لا يخشى لومة لائم. =

المرسوم، وبدأت الدراسة بالكلية في ١٨/ ١٢/ ١٩٥٤م.

وحين تم الاحتفال الرسمي بافتتاح الكلية على مدرج الجامعة بتاريخ ٢٠/ ٤/ ١٩٥٥م. كان الرئيس الأتاسي ما يزال في سدّة الرئاسة[(١)]. وكان هذا الاحتفال برعايته وحضوره. وقد حضر معه رئيس المجلس النيابي ورئيس الحكومة والوزراء، كما حضر الحفل: السفراء والعلماء ولفيف من أساتذة الجامعة. وكان السباعي قد قام بمهام عمله التأسيسي كعميد للكلية خلال الفترة السابقة، وألقى كلمة في الاحتفال ختمها بقوله: «لقد قال التاريخ قبل قليل: في (٢٧) رمضان ١٣٧٣هـ ولدت كلية الشريعة، وسيقول التاريخ بعد قليل: وفي ذلك اليوم أيضاً عرفت الأمة سبيلها الصحيح إلى تحقيق حلمها الجميل، حلم العيش في وطن تحكمه شريعته، ويسود فيه قانونه، والسير في طريق أوله الخلود.. وآخره الجنة»[(٢)].

= وكأني أرى حمرة عينيه، واحتقان وجهه، وحركة شدقيه، وتقلّص جبهته، وتوتر غرّته. واندفع في تلك الثورة العارمة إلى حيث يبغي مجاهداً مصرّاً، فلم يرجع إلا بالنصر والظفر. وأسست كلية الشريعة، وأعظم به من نصر وظفر، وخير باق ما بقي الدهر إن شاء الله» كتاب مصطفى السباعي لعبد العزيز الحاج مصطفى، ص١٢.

(١) انتخب السيد شكري القوتلي رئيساً للجمهورية خلفاً للرئيس هاشم الأتاسي في ١٨/ ٨/ ١٩٥٥م وتسلم منصبه في ٥/ ٩/ ١٩٥٥م.

(٢) جريدة الشهاب ـ العدد (٦) من السنة الأولى تاريخ ٤ شوال ١٣٧٤هـ الموافق ٥/ ٦/ ١٩٥٥م.

الأمر الثاني: أن الإخوان لم يتقدموا للترشيح لانتخابات المجلس النيابي الجديد، واكتفوا بتأييد بعض الشخصيات التي عدّوها (من المسلمين الجيّدين أو من هم معادون للغرب) بحسب عبارة (باتريك سيل) الذي وصف الإخوان في هذا السياق بأن «تأثير حركتهم كان واسعاً، لكن انتشارها السياسي لم يكن فعّالاً»[1]. حتى إن من رغب منهم في المشاركة في ترشيح نفسه، تقدم كمرشح مستقل، بل اضطر إلى تقديم استقالته من الجماعة، كما فعل الأستاذ محمد المبارك، الذي نجح هذه المرة أيضاً نائباً عن مدينة دمشق، بعد نجاحه السابق في الجمعية التأسيسية.

ويبدو أن الجماعة اتخذت قرارها بعدم المشاركة هذه في ضوء الهزّة التي تعرضت لها نتيجة حركة الانشقاق التي تحدثنا عنها، ورغبة من القيادة في التفرغ للإصلاح الداخلي، ومحاولة إعادة تنظيم الصفوف[2].

---

(١) الصراع على سورية، ص٢٣٨.

(٢) بقيت المعضلة السياسية تواجه الإخوان لمدة طويلة فيما يبدو؛ فدعوتهم ذات بعد سياسي واضح، كما رأينا في سيرة السباعي، ومن منطلق أن الإسلام عقيدة وشريعة، دين ودولة، ولكن إذا لاحظنا الافتراق الذي حصل بين هذين على أرض الواقع، والذي أخذ شكلاً من أشكال العداء للدين بعد انحلال الرابطة العثمانية ـ وعلى نحو غير معهود في التاريخ الإسلامي ـ أدركنا مدى صعوبة المهمة التي نهض لتحقيقها السباعي والإخوان، وبخاصة إذا أخذنا برأي بعض علماء الاجتماع السياسي القائل: إن الدولة كانت في التاريخ =

وربما جاء العزوف الشخصي للأستاذ السباعي في ضوء هذه الاعتبارات، ورغبة منه ـ فيما نرجح ـ في التفرغ للعمل العلمي بعدما شعر بمدى أهمية الريادة الفكرية والعلمية عندما أعدّ سلسلة بحوثه ومحاضراته التي ألقاها في لبنان. وقد رجح عنده هذا التوجه: عملُه الجديد الذي أنيط به في كلية الشريعة التي كان يعلّق عليها آمالاً كبيرة،

= الإسلامي هي الوسيط الضروري لتحويل الجماعة الإسلامية ـ بمفهومها العام ـ إلى جماعة سياسية. ولهذا سرعان ما وجد بعض الإخوان ـ والإسلاميين على وجه العموم ـ أنفسهم يمارسون العمل السياسي بالمفهوم السائد في العالم العربي في ظل المناخ العلماني، في حين آثر فريق آخر العمل في حدود التربية الدينية والخلقية. وربما كانت الدعوة الإسلامية تتردد بين هذين الخيارين، وترى نفسها تجنح نحو خيار الدعوة الدينية والتربية العقائدية والخلقية أمام كل إخفاق وفشل سياسي.

لقد كان استمرار العمل السياسي من قبل الإخوان في سورية كفيلاً ـ فيما نقدر ـ بإنضاج فكرهم السياسي وممارساتهم، أو كان في وسعه على أقل تقدير أن يرشّد العمل السياسي العام ويؤطّره بالثوابت الدينية والخلقية للأمة والجماعة في نهاية المطاف. مع التأكيد في هذا السياق على الأثر السلبي الذي تركه غياب السباعي، كداعية وقائد يتصف بالجرأة والوضوح والأريحية والشجاعة ـ وكزعيم سياسي يحظى باحترام واسع ـ على حركة الإخوان بوجه عام، وعلى الممارسة السياسية التي استؤنفت بعد انفصام عرى الوحدة بين مصر وسورية، بوجه خاص. راجع كتاب: نظام الطائفية: من الدولة إلى القبيلة. للأستاذ الدكتور برهان غليون، (ص١٣٦ ـ ١٤٠) الطبعة الأولى ١٩٩٠ ـ المركز الثقافي العربي بيروت.

والتي كانت في مرحلة البناء والتأسيس. مع الإشارة إلى أن السباعي ضحّى في سبيل هذا العمل أو هذه الكلية بمركزه ووظيفته في كلية الحقوق، وكان قد عُيّن فيها قبل وقت قصير أستاذاً أصيلاً لمادة (الأحوال الشخصية).

وهي التضحية التي قصرت عنها همّة كلٍّ من الأستاذ الزرقا والدكتور معروف الدواليبي ـ كما سنفصل في ذلك القول عند الحديث عن أخلاقه وسجاياه ـ فقبل بالانتقال إلى كلية ناشئة غير معروفة المستقبل أو المصير، وسط الأنواء والأعاصير[1]!.

وعلى أية حال، فقد يكون العزوف الشخصي للأستاذ السباعي عن خوض الانتخابات عام ١٩٥٤م، مبرراً أو مفهوماً بوجه من الوجوه الخاصة أو العامة، وبخاصة إذا لا حظنا أن مسيرة السباعي القيادية بدأ يلفّها شيء من الاضطراب أو الغموض. ونتحدث هنا عن هذه المسألة، قبل أن نتابع الحديث عن امتناع الإخوان ـ كذلك ـ عن خوض هذه الانتخابات.

تقدم الأستاذ السباعي بعد الافتتاح الرسمي بافتتاح كلية الشريعة بنحو أربعة أشهر بطلب إجازة من عمله القيادي في صفوف الإخوان لمدة

---

(١) راجع الكلمة التي كتبها الأستاذ مصطفى الزرقا عن السباعي بعنوان: «الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي أول عميد لكلية الشريعة ورئيس للجنة موسوعة الفقة الإسلامي كان رمز التضحية والإيثار»، مجلة حضارة الإسلام (العدد الخاص: ٤، ٥، ٦) عام ١٣٨٤هـ.

سنة (وذلك نظراً لحالته الصحية، وحاجته للاستراحة من العمل)، وقد جاء في (بيان من المكتب التنفيذي للإخوان المسلمين) مايلي: «اجتمعت الهيئة التشريعية.. ونظرت في الطلب المقدم من فضيلة المراقب العام الدكتور مصطفى السباعي، الذي يرغب في إعطائه إجازة من المراقبة العامة في الجماعة لمدة سنة، وذلك نظراً لحالته الصحية وحاجته للاستراحة من العمل، وبعد أن قررت(!) الهيئة هذه العوامل المرضية، وبناء على الرغبة الملحّة من قبل فضيلته، فقد قررت إجازته من المراقبة العامة مؤقتاً، ولمدة سنة واحدة فقط، على أن يبقى المراقب العام للجماعة وقائد الدعوة فيها».

ويتابع البيان قائلاً: «وحيث وقع الاختيار على أن يكون نائبه عن مدينة حلب الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة، وتسهيلاً لسير أعمال الجماعة فقد تقرر نقل المكتب التنفيذي إلى حلب، على أن يبقى المركز العام للإخوان في مدينة دمشق».

ثم ختم بالعبارات التالية: «والجماعة إذ تقدر في فضيلة المراقب العام الجهاد المتواصل، والعمل الدائب في سبيل الدعوة الإسلامية، ترجو له الشفاء العاجل للعودة إلى نشاطه في حقل الدعوة والإسلام» ـ المكتب التنفيذي ـ[1].

---

(١) جريدة الشهاب: العدد ١٨ في ٢٣ محرم ١٣٧٥هـ و١١ أيلول (سبتمبر) ١٩٥٥م. ولا يحمل البيان المذكور أي تاريخ، لكن تاريخ نشره في الجريدة يكفي في هذا المقام.

نحن لا نحيل أن يطلب الأستاذ السباعي استراحة المحارب لمدة عام بعد هذا العمل الدائب بوجه عام، وبعد حملة التشويه، وحركة الانشقاق، وما صاحبهما من جهد، وتركا في نفسه من أثر، بوجه خاص، وإن كنا نستبعد ذلك من خلال ما وقفنا عليه وعرفناه من طبيعته التي دلّ عليها عملُه وتاريخه حتى الآن.

ومما يؤكد ذلك: الوصفُ الذي أطلق عليه أو التسمية التي جاءت على لسان جريدة (المختار) حين قامت بزيارة للجامعة السورية في اليوم الذي أعلنت فيه البلاد إضرابها احتجاجاً على تقسيم فلسطين وسلخ لواء إسكندرون، فقد زار مندوبها الأستاذ السباعي ـ عميد كلية الشريعة ـ وطرح عليه بعض الأسئلة، ووصفه بأنه «الرئيس الروحي لجماعة الإخوان المسلمين في سورية. . .» وقد نقلت جريدة (الشهاب) هذه المقابلة، أو هذا الوصف البارز بدون أي تعليق. بل إن الأستاذ السباعي في مقابلة صحفية أجرتها(الشهاب) نفسها، ودارت حول (مأساة الإخوان) في مصر، صدّر إجاباته بقوله: «إن أعمالي في كلية الشريعة تحول بيني وبين مزاولة نشاطي كمراقب عام للإخوان، وأنا من الناحية العملية والرسمية في إجازة غير محدودة المدة من أعمالي في الإخوان، ولذلك فلا يؤخذ رأيي في شيء، ولست أشير بشيء!!».

وقد جاء كلا هذين الوصفين في وقت واحد أو متقارب من شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٥م، أي بعد حوالي ثلاثة شهور من نشر بيان المكتب التنفيذي؛ الأمر الذي يجعل ما ورد فيه محل شك أو موضع تساؤل على أقل تقدير. علماً بأن جريدة الشهاب نشرت في صدر

صفحتها الأولى بتاريخ ٢/ ١٠/ ١٩٥٥م (يوم الأحد) أن «فضيلة الدكتور مصطفى السباعي المراقب العام للإخوان المسلمين قابل ظهر الخميس الفائت دولة رئيس الوزراء ومعالي وزير الداخلية وبحث معهما زيارة أحمد حسن الباقوري لدمشق، واحتمال إلقائه بعض الخطب العامة . . مما يترك أثراً غير مستحب في الرأي العام الإسلامي، وخاصة في أوساط الإخوان، فأكدا مراعاتهما للوضع العام في البلاد، وحرصهما على أن تكون زيارة الباقوري عادية لا ينتج عنها أي مساس بشعور الإخوان والهيئات الإسلامية»[1].

ولكن هذا الذي تم بعد بضعة عشر يوماً من تاريخ نشر بيان المكتب التنفيذي لم يستمرلبضعة شهور! حيث قال الأستاذ السباعي ما قال، ويبدو أن هذا الذي تم كان يعدّ له منذ بعض الوقت. وربما أمكن عدّه من رواسب أو ذيول حركة الانشقاق، حيث بقي ممن حول السباعي من يطمح إلى محاصرته، أو يطمع في تحجيم دوره وأثره. فقد سأل مندوب جريدة (الشهاب) في عددها الصادر بتاريخ ٣/ ٧/ ١٩٥٥م الأستاذ محمد خير الجلّاد نائب المراقب العام للإخوان المسلمين في سورية عما نشرته بعض الصحف عن إجازة المراقب العام الدكتور مصطفى السباعي من الأعمال الإدارية(!) فأجاب بأن المراقب العام كان

---

(١) العدد ٢١ تاريخ ١٤ صفر ١٣٧٥هـ ـ ٢ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٥٥م. وقد كتب الأستاذ محمد المبارك ـ نائب دمشق ـ في هذا العدد افتتاحية تحليلية دقيقة عن الشيخ الباقوري بعنوان: «مسكين هذا الشيخ! لا تلوموه!».

ولا يزال المسؤول الأول عن الجماعة والناطق باسمها، ولا يزال يباشر جميع صلاحياته فيها كمراقب عام»[1]. وربما كان إشاعة مثل هذا الخبر أو تسريبه تم عن طريق هؤلاء كتوطئة أو تمهيد لما وافق عليه المكتب التنفيذي بعد ذلك!.

وليس تحت أيدينا من الوثائق والمعلومات غير هذا، وقد لانستطيع من خلالها أن نتبيّن حقيقة ما كان يجري على وجه الدقة أو اليقين. ولكن الذي يمكن تقديره ـ وربما فهمه من صيغة بيان المكتب المضطربة أو التي لا ترقى إلى المستوى المطلوب ـ أن الفئة التي كانت تحاول تحجيم الرجل، أو إقصاءه، كانت تلقى معارضة شديدة، وأن النص على أن الإجازة مؤقتة ولمدة سنة واحدة، والتأكيد على أن «يبقى المراقب العام للجماعة، وقائد الدعوة فيها» كان يعكس هذا التوجه العام لدى معظم عناصر القيادة، فضلاً عن جماهير الجماعة بطبيعة الحال.

ويبدو أن الأمر بقي يكتنفه الغموض أو عدم قدرة المعارضة على الحسم في الوقت الذي باتت نفس الأستاذ السباعي تعاف الإداريات، وتجنح إلى التعمق بقضايا الفكر والتنظير. ولهذا فقد بقي كما تدل الوقائع والأحداث مراقباً عاماً للجماعة ـ سواء تخلى عن مهامه الإدارية جميعاً، أم بقي موضع استشارة واستنارة في بعضها ـ وقد ساعد على استمرار هذا الوضع، ربما إلى قبل وفاته بقليل: المرض الذي استبد به في أواخر عام ١٩٥٧م وبقي يعاني منه لأكثر من سبع سنين رحمه الله.

---

(١) العدد العاشر في ١٢ ذي القعدة ١٣٧٤هـ ـ الموافق ٣ تموز (يوليو) ١٩٥٥م.

وعلى أية حال، فإنّ من الملاحظ تماماً أن رأس السباعي كان هو المطلوب! بل لعلّه كان هو المطلب الوحيد في جميع مراحل الخروج على الجماعة، أو الكيد له. بدءاً من حملة التشويه والتشهير وحركة الانشقاق، وانتهاء بالانتخابات التكميلية التي خاضها في شهر أيار (مايو) ١٩٥٧م، وكما سنرى بعد قليل[1]. ولكننا نورد هنا قبل الحديث عن هذه الانتخابات، بعض كلماته التي بثها في كتابه (هكذا علمتني الحياة) والتي تصوّر ما كان يعتلج في نفسه من ألم ومرارة مما لقيه من طعن أو كيد أو نكران للجميل. . والذي لم يكن متصلاً بفترة الانشقاق وحدها بكل تأكيد.

قال رحمه الله: « ٧٢١ ـ ما يلقاه الرجل من حسد أقرانه أشد مما يلقاه من كيد أعدائه».

«٧١٩ ـ كلّما عظم نفع الرجل لقومه كثر حاسدوه، وكثر محبّوه أيضاً».

«٣٠٣ ـ لا تستعجل الرئاسة، فإنك إن كنت أهلاً لها قدّمك زمانك، وإن كنت غير أهل لها كان من الخير لك أن لا ينكشف نقصانك.

---

(١) وقد لا يخرج عن هذا كله: ما جرى التعبير عنه حول موقفه من (اشتراكية الإسلام) على أنه موقف يلامس سلامة الاعتقاد! وربما جرى مثل هذا التعبير في نطاق محدود، ولكن الغرض منه فيما يبدو لا يعدو محاولة خدش صورته القيادية، أو أحقيّته بهذه القيادة مع ذلك (الانحراف)!! وبخاصة أن هذا كان بعد واقعة مرضه رحمه الله.

وقال في بضعة خواطر جاءت على نسق واحد (الفقرات ٧٣٨ ـ ٧٤١) وهي:

«مشكلات الطائر وهو يحلّق في السماء لا يفهمها إلا طائر مثله».

«الأعرج بين المقعدين فرس لا يشق له غبار».

«مقصوص الجناح بين الطيور حبيس الأقدار عن تحليق الأطيار، ولعله كان أسرعها طيراناً».

«إذا مشيت في طريق معبّدة فاذكر فضل الذين تعبوا قبلك في تعبيدها، قبل أن تفاخر بسبقك من سار معك فيها، فلولا أولئك ما سبقت هؤلاء».

وقال كذلك في خواطر مماثلة جاءت على نفس النسق الواحد (الفقرات ٩٧٩ ـ ٩٨٥) وهي:

«لا تنتصر دعوة الحق بستّة: مستعجل في الشهرة متهالك عليها، وجريء في القول جبان عند العمل، وعاميّ في ثقافته ملتوٍ في أساليبه، ومؤثر للسلامة على التضحية، ومغرور يقدّر نفسه بأكثر مما هي عليه، وضعيفٍ يسيّره من هو أخبث منه».

«خُبث نية القائد تقود الجنود إلى الهزيمة، ولو كانت نواياهم حسنة».

«قيادة الأغرار تؤدي إلى الانهيار، وقيادة المتهورين تشعل النار أو تلحق العار».

«الذي لا وفاء عنده لإخوانه عند نزول المحن بهم، لا وفاء عنده لأمّته عندما تحتاج إليه».

«لو عمل العاملون انتظاراً للجزاء في الدنيا لماتوا هماً وكمداً!».

«أقل الناس قياماً بحق الأخوّة أكثرهم ادعاءً لها، أولئك هم المتاجرون».

الإخوان وانتخابات ١٩٥٤م وأوضاع سورية:

لم يشارك الإخوان في الترشيح لهذه الانتخابات كما أشرنا قبل قليل. ويبقى هذا الأمر من المواقف السلبية التي ليس في وسعنا فهم دوافعها الحقيقية تماماً أو من كل وجه. حتى إننا نعتقد أن ما فعله أستاذنا المبارك كان يعبّر عن حصافة سياسية ورأي سديد. وربما كان الفراغ الذي تركوه في الساحة السياسية ـ ومع الغياب الشخصي للسباعي بالذات ـ من الأسباب التي أدت إلى فساد الحياة السياسية. ولم يكن في وسع صحيفتهم الأسبوعية (الشهاب) أن تؤثر في هذه الحياة على النحو الذي يستطيعه نواب الحركة أو الجماعة. مع التسليم بأن الأحداث التي شهدتها سورية خلال أربعين شهراً ـ وهي الشهور التي سبقت قيام الوحدة مع مصر ـ والتقلّبات التي مرت عليها لا يمكن تحليلها بهذه البساطة لأنها تحتاج إلى متابعة وربط دقيقين قبل أن ينتهي المرء إلى الوقوف على جملة العلل والأسباب.. علماً بأن مثل هذه المتابعة أو قريباً منها هي التي انتهت بـ(باتريك سيل) إلى رسم أوضاع سورية أو تصويرها على النحو التالي:

قال: «في أواخر صيف عام ١٩٥٧م أصبحت سورية على شفا الانحلال كمجتمع سياسي منظم، ولم يقتصر الأمر على عدم وجود اتفاق حول القواعد التي تحدد السلوك السياسي، ولكن ـ وهذا الأسوأ ـ فقد الكثيرون من السوريين الثقة بمستقبل بلادهم ككيان مستقل!!.

«لقد كانت هناك أسباب معقدة لانهيار التقاليد السياسية.. فقد كانت سورية في فترة ثورية مسرحاً لصراع حقيقي بين مصالح الفئات الاجتماعية، كما أنها كانت محوراً لسلسلة أحقاد وعمليات انتقام عربية وداخلية متزايدة الشراسة والوحشية، زادتها سوءاً الصراعات بين الدول الكبرى، التي لم تمكنها من التمتع بفترة أمن واستقرار منذ الحرب الفلسطينية.

«كما حازت على اهتمام الهاشميين المتزايد بها، ومحاولاتهم إقامة اتحاد عراقي ـ سوري، خلال المناقشات التي جرت في فترة الخمسينيات حول الدفاع عن الشرق الأوسط ضد روسية، ووصل الأمر إلى ذروته خلال أزمة حلف بغداد وقضية المالكي، تبع ذلك تغلغل مصري وسوفييتي وإثارات حرب السويس، والمؤامرة العراقية عام ١٩٥٦م. وأخيراً التدخل الأمريكي في ١٩٥٧م. وكانت أموال الرشاوى والضغوط الخارجية المختلفة الأنواع قد قضت في فترة سنوات على كل أساس أخلاقي يمكن أن تمتلكه الحياة السياسية السورية، في الوقت الذي تعرّض فيه الشعب لحملات دعاوية مختلفة من محطات الإذاعة المتنازعة، مما جعله في حالة تشبه الهستيريا بأخبار المؤامرات

والانقلابات والتهديدات بالغزو. ولم تكن هذه بالشروط المثالية لازدهار الفضائل المتمدنة، أو لحسن سير المؤسسات الديمقراطية المنتخبة.

«وهناك عامل آخر داخل الجيش، عامل محدد أدى إلى انهيار الحكومة المنظمة.. لقد لعب التدخل العسكري المستمر في السلطة ـ أو فلنقل التهديد بالتدخل ـ دوراً معرقلاً إلى حد كبير. فكان الجيش أشد القوى المنفردة بأساً في السياسة السورية.. وقد أدى ضغط الجيش إلى توجه سورية بشكل حاسم إلى مصر في منتصف فترة الخمسينيات... كما قدمت انقسامات الجيش على المسرح السياسي عاملاً من العنف لا يمكن تصوره.. وأدى بذلك إلى زيادة حدة التصدع في سياسة المدنيين، وهذا عين ما حدث في خريف عام ١٩٥٧م»[١].

أشار باتريك سيل إلى حلف بغداد الذي (دوّل) الصراع على القوة في المنطقة. وكان الصراع على أشده بين دول هذا الحلف (العراق ـ تركية ـ إيران) والحلف أو الميثاق المصري ـ السوري ـ السعودي. وقد سمح قرار بريطانية بالجلاء عن قناة السويس ـ بعد سبعين سنة من الاحتلال ـ لمصر بأن تبرز كدولة رئيسة في المنطقة[٢].. وكان هذا حال سورية قبل ذلك وفي عهد الشيشكلي على وجه الخصوص.

كما أشار باتريك سيل إلى قضية اغتيال عدنان المالكي نائب رئيس

---

(١) الصراع على سورية لباتريك سيل، ص٤٠١ ـ ٤٠٢.

(٢) المصدر السابق، ص٣٠٦.

أركان الجيش في مبارة كرة قدم في ٢٢/ ٤/ ١٩٥٥م. وقد نشر قرار الاتهام الموجه إلى (١٤٠) عضواً من أعضاء الحزب القومي السوري بتاريخ ٢٩/ ٦/ ١٩٥٥م. اعتبروا مسؤولين عن ارتكاب جنح وجنايات تتعلق بمقتل المالكي، وكانت الصورة العامة وراء مقتله تمثل الصراع من أجل السيطرة على الجيش بوصفه العامل الحاسم في السياسة السورية، وكانت قوى الحزب في الجيش تقدر بثلاثين ضابطاً ومئة ضابط صف[١].

أما التغلغل السوفييتي فقد بدأ خلال الأزمة حول حلف بغداد في شباط (فبراير) ١٩٥٥م، حين أعلنت روسية حمايتها لسورية أيام تولي خالد العظم وزارة الخارجية السورية[٢]، ثم تسلسل عبر صفقات السلاح، وتوقيع الاتفاقيات الثقافية والاقتصادية، واعتراف سورية بالصين الشعبية. وقد وقعت الاتفاقيات الثقافية بعد شهرين من الاستقبال الضخم

---

(١) باتريك سيل، ص٣١٤. وقد أدان الإخوان بشدة على صفحات جريدتهم (الشهاب) جريمة اغتيال العقيد عدنان المالكي، الذي كان من دعاة الوحدة العربية، ويحظى باحترام واسع. ونشروا وقائع الاحتفال الذي أقيم لتأبينه رحمه الله. «وقد أعلن قرار الاتهام أيضاً أن شبكة للتجسس قد جرى كشف النقاب عنها، وهي تتألف من أعضاء الحزب العاملين في الجيش، وأن الوثائق التي صودرت قد كشفت عن أن الحزب قد جرى على تزويد مكتب المعلومات الأمريكي في دمشق بتقارير عن نشاطات الإخوان المسلمين في سورية، والحزب الشيوعي في سورية ولبنان منذ بداية عام١٩٥٥م» باتريك سيل، ص٣١٥.

(٢) باتريك سيل، ص٣٠٦.

الذي حظي به ديمتري شيبليوف وزير الخارجية السوفييتي لدى زيارته لدمشق في ١٩٥٦/٦/٢٢م. ثم عقدت الاتفاقية الاقتصادية الكبرى في شهر آب (أغسطس) ١٩٥٧م، وفي (٣) تموز (يوليو) اعترفت سورية بالصين الشعبية[١]..

وقد انعكس ذلك على الأوضاع الداخلية التي يطول أمر شرحها في هذا السياق، حتى أصبح (للشيوعيين في سورية اليد الطولى)[٢]، كما يقول باتريك سيل. الذي أضاف أيضاً: «وبدا للكثير من المراقبين الغربيين أن سورية في لحظة التحول إلى دولة شيوعية تابعة. وازدادت المخاوف هذه باستقالة شوكت شقير رئيس الأركان العامة من منصبه. وقد أشيع أن تنحيته من منصبه خطط لها عبد الحميد السراج تحت ضغط العناصر اليسارية، في الوقت الذي كان السراج يشغل منصب مدير المخابرات العسكرية»[٣].

أما التغلغل أو (التقارب) المصري، فقد تطور في مناخ التوجه المشترك نحو الاتحاد السوفييتي ـ مع اختلاف الدوافع والأثر الداخلي أو على الأرض ـ وبعد أن كشف ذهاب شقير (تفكك الضباط وتسلل مختلف الفئات السياسية المتنازعة إلى صفوفهم)، وهكذا جاء الإعلان عن هذا التقارب بصورة حاسمة في خطاب تأميم شركة قناة السويس الذي ألقاه

---

(١) المصدر السابق، ص٣٦٥.
(٢) المصدر السابق، ص٣٦٩.
(٣) المصدر السابق، ص٣٤٠.

عبد الناصر في الإسكندرية بتاريخ ٢٦/ ٧/ ١٩٥٦م بعد ثلاثة أسابيع من تنحية رئيس الأركان السوري، قال عبد الناصر في هذا الخطاب: «وأنا اليوم أتجه إلى إخوان لنا في سورية، سورية العزيزة، سورية الشقيقة، لقد قرروا أن يتحدوا معكم(!!) اتحاداً حراً سليماً عزيزاً كريماً، لندعم سوياً مبادئ الكرامة، ولنرسي سوياً القومية العربية والوحدة العربية، نرحب بكم أيها الإخوة...»[1]. وقد ازدادت علاقات سورية مع روسية عقب العدوان الثلاثي على مصر الذي جاء نتيجة لتأميم شركة قناة السويس[2].

أما المؤامرة العراقية عام ١٩٥٦م التي أشار إليها (باتريك سيل). ـ وقد عشنا نحن وقائعها عبر جلسات المحاكمة التي نشرت على الملأ، ومن خلال البث الإذاعي بوجه خاص ـ فقد جاءت في سياق حلف بغداد أو عبر قناعة بعض السياسيين السوريين بضرورة التحالف مع العراق.. وقد أشرنا إلى هذا الموقف في أكثر من مناسبة.. ولهذا تم إقصاء حزب الشعب والجبهة الدستورية ـ وهي كتلة برلمانية كان يقودها نائب دمشق الدكتور منير العجلاني ـ من حكومة الوحدة الوطنية التي شكلها السيد صبري العسلي في ١٤/ ٦/ ١٩٥٦ وضمت الحزب الوطني ـ أو جناحه

---

(١) باتريك سيل، ص٣٤١ وقارن تاريخ إلقاء هذا الخطاب بالتاريخ اللاحق الذي جرت فيه الانتخابات التكميلية التي نتحدث عنها، وبما حدثنا به أستاذنا الدكتور مصطفى زيد عن موقف السفارة المصرية بدمشق من هذه الانتخابات. وانظر كذلك موقف صحافة القاهرة من الدكتور السباعي ـ وتشنيعها عليه ـ بين يدي هذه الانتخابات وفي أعقابها كذلك.

(٢) باتريك سيل، ص٣٤٢.

الذي لم يقاطع انتخابات ١٩٥٤م ـ وحزب الشعب وحزب البعث، وكتلة خالد العظم الديمقراطية، وكتلة العجلاني الدستورية. وقد تم هذا الإقصاء في حكومة صبري العسلي الجديدة التي شكلها في ٣١/ ١٢/ ١٩٥٦م، بسبب تورطهما فيما سمي (التآمر مع العراق). وقد احتفظ حزب البعث في الوزارة الجديدة بوزارتي الاقتصاد والخارجية، بينما دخلها السيد خالد العظم وزيراً للدفاع، والدكتور مأمون الكزبري وزيراً للعدل[١].

الانتخابات التكميلية:

لقد شغر في البرلمان نتيجة لهذه المحاكمات أربعة مقاعد نيابية في كل من دمشق وحمص والسويداء وجبل العرب (أو بادية السويداء) منها مقعد منير العجلاني عن مدينة دمشق. ودعي لإجراء انتخابات تكميلية في شهر أيار (مايو) ١٩٥٧م لملء هذه المقاعد[٢].

وكان الجو أو المناخ في سورية كما أشرت، في الوقت الذي عبرت وزارة العسلي الجديدة عما سُمِّي الجبهة القومية؛ المؤلفة من مجموع الأحزاب الباقية في الائتلاف الوزاري بعد خروج الكتلة الدستورية وحزب الشعب. وكانت جبهة هشّة، لا تتمتع في البرلمان سوى بأكثرية صوت أو صوتين.. ولهذا كانت شديدة الحرص على نجاح مرشحيها في هذه المقاعد، وبخاصة في مدينة دمشق.

---

(١) المصدر السابق، ص٣٣٨.

(٢) راجع مذكرات الحوراني وباتريك سيل، ص٣٨٠.

وحين تقدم مصطفى السباعي للترشيح عن مدينة دمشق جرى أكبر اختبار للقوة. . بل أكبر عملية للتزوير وشراء الضمائر. ونأسف أن نقول في هذا السياق: إن ما كتبه السيد أكرم الحوراني عن هذه المعركة الانتخابية وعن تصوير الحالة في سورية في هذا الوقت على أنها أزهى الفترات! وأن الخط التقدمي كان من الممكن أن يحتل معظم مقاعد البرلمان لو جرت انتخابات عامة في موعدها عند انتهاء مدة المجلس القائم[1]. إنّ هذا كله يقوم على التدليس وتغلب عليه المغالطات. . وقد يكون بعضه من باب الأماني! وأنا أتحدث عن انطباع رجل الشارع، أو انطباعي كمواطن عشت تلك المرحلة، فأقول: لولا قيام الوحدة: لاجتاحت الشيوعية سورية، أو لقامت في البلاد حرب أهلية. . ولأتت النار على السيد أكرم الحوراني الذي كان يلعب بها، قبل أن يتفرغ أو يجلس ليكتب التاريخ كما يريد! وإذاً لحقَّ عليه في علاقته مع الشيوعيين قول الشاعر:

---

(١) قال الحوراني: «ولو قدر للانتخابات العامة أن تجري في موعدها عند انتهاء مدة هذا المجلس، وهي الانتخابات التي حال دون إجرائها قيام الوحدة بين سورية ومصر، لاحتل حزب البعث العربي الاشتراكي بالدرجة الأولى والقوى التقدمية الأخرى معظم المقاعد في المجلس النيابي السوري، ولشهد العالم آنذاك قيام التجربة الرائدة في العالم العربي التي يحقق فيها الشعب العربي في سورية مطامحه بالديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية كأساس لبناء الإنسان والمجتمع»!!.

ومــن يجعــل الضــرغــام بــازاً لصيــده
تصيّــدَهُ الضــرغــام فيمــن تصيّــدا

لقد نقل السيد الحوراني عن الأستاذ المبارك أنه عقد مؤتمراً صحفياً (اتهم فيه البعث العربي الاشتراكي بفتح أبواب سورية أمام الغزو الشيوعي). وكان الأستاذ المبارك محقاً فيما قال، وهو الذي كان على الصعيد السياسي يقول كلمة الفصل في الوقت المناسب.

لقد نقلنا قبل كلمة باتريك سيل: «إن الشيوعيين آنئذ قد أصبح لهم في سورية اليد الطولى»[1]. بل بلغ الأمر ـ على سبيل المثال ـ إلى حد تدخل السفارة السوفييتية لضمان انسحاب المرشحين الشيوعيين في دمشق وحمص لصالح مرشح يساري أكثر قبولاً عند الناس![2].

لا أناقش هنا ما أقدم عليه الأستاذ السباعي أو رضي به من ترشيح نفسه للانتخابات. مع اعتقادي أنه كان خطأً فادحاً.. لأن الخط الذي كانت تسير فيه سورية ـ والذي ألمحنا إلى طرف منه ـ كان لا بد أن يبلغ مداه هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الأستاذ السباعي ليس رجل حزبيات ومهاترات... لأن شخصيته وتاريخه أرفع من ذلك بكثير... بمعنى أن الرأي العام الإسلامي والوطني في دمشق أو في سورية إذا كان راغباً في كسر التجمع ـ الذي كان يقوده أكرم الحوراني، وكان على رأس

---

(١) الصراع على سورية، ص٣٦٩.
(٢) المصدر السابق، ص٣٨٠.

وزارته صبري العسلي[1] ـ حتى يحول دون وقوع سورية في براثن الشيوعية. . . أو حتى يخلّصها من حالة الانهيار الوشيك الذي بات ينتظرها، والذي صوره (باتريك سيل) على النحو الذي نقلناه عنه قبل قليل. . . فإن في وسعه أن يفعل ذلك من خلال ترشيح شخصية ـ إسلامية ـ أخرى غير السباعي! ولكن كيف ذلك والمطلوب هو السباعي بتجربته البرلمانية وشخصيته القيادية وحضوره الجماهيري. . . وهكذا كان ترشيحه مطلب من حوله ولم يكن رغبته هو . . . ولقد شاهدته يطوف على مراكز الاقتراع في دمشق ـ في جوٍ محموم ـ ومعه الدكتور معروف الدواليبي، الذي كان نائباً عن حزب الشعب عن مدينة حلب، وأحد الأصدقاء المقربين من الأستاذ السباعي رحمه الله، وكان التحدي المشوب بالقلق والانزعاج يظهر على محياه!.

يقول أكرم الحوراني: «لم يكن ترشيح رياض المالكي موضع خلاف كبير بين أطراف الجبهة القومية. فقد تمكنتُ من إقناع الحزب الوطني بسحب مرشحهم عن دمشق ظافر القاسمي.

أما الحزب الشيوعي فقد كان لا يأمل بطبيعة الحال أن ينجح مرشحه عن دمشق مصطفى أمين، وهكذا أصبح ترشيح المالكي عن

---

(١) في الوقت الذي أصبح للشيوعيين في ظل هذه الحكومة (اليد الطولى) فإن العسلي تعهد ببدء مفاوضات فورية مع مصر لإقامة وحدة فدرالية بين البلدين. راجع سيل، ص٣٦٩.

دمشق موضع اتفاق جميع الأطراف»[1]، ونشير هنا إلى أن الأستاذ المالكي سبق له أن تقدم بترشيح نفسه عن حزب البعث العربي الاشتراكي في انتخابات عام ١٩٥٤م. . . ولم ينجح[2].

ويذكر الحوراني بعد ذلك أن الخلاف كان يدور حول مرشح الجبهة في مدينة حمص. . يقول: «وقد استفحل هذا الخلاف وكاد يؤدي إلى شق الجبهة القومية». . ولا نقف عند مراكز الاقتراع الأخرى بطبيعة الحال، لأن الذي يهمنا في هذا السياق هو ما قاله الحوراني عن كل من الأستاذ السباعي والأستاذ المالكي، وما عرض له من بعض وقائع الانتخابات وملابساته. . قبل أن نعقب ـ بإيجاز ـ على عرضه وقراءته أو تفسيره. مع الإشارة إلى أننا نكنّ للأستاذ رياض المالكي ـ الذي كان في ذلك الحين محامياً شاباً ـ كل احترام وتقدير.

يقول الحوراني: «كانت دمشق في الأيام السابقة للانتخابات في مهرجانات انتخابية مستمرة، وقد لعبت شخصية رياض المالكي ووطنيته وطيبته وأخلاقيته دوراً مهماً في هذه المعركة، كما أنه من أسرة دمشقية

---

(١) راجع مذكرات الحوراني، الحلقة (٨٢) جريدة القدس العربي العدد (٣١٢٥) تاريخ ٢٦/ ٥/ ١٩٩٩م. والنقول التالية عن الحوراني من هذه الحلقة.

(٢) لم ينجح من مرشحي البعث الثلاثة سوى الأستاذ صلاح البيطار؛ وكان وراء نجاحه في ذيل القائمة ـ في البالوتاج أو دورة الاقتراع الثانية ـ أسباب تتصل بعائلته الكريمة في حي الميدان الفوقاني ـ وبمجالس عائلات الحي وزعماء بعض الأحياء الأخرى. وقد شاهدنا ذلك وعايشناه.

عريقة، وقد عرف بنضاله الصارم الحاد(!) أيام ديكتاتورية أديب الشيشكلي، وبالإضافة إلى ذلك كله فهو شقيق الشهيد عدنان المالكي»!.

ويتابع السيد الحوراني قائلاً: «ولإعطاء الصورة الحقيقية عن أبعاد المعركة التي خاضتها القوى التقدمية في دمشق لا بد أن نذكر شيئاً عن الشيخ مصطفى السباعي؛ فقد كان خطيباً مُفوَّهاً، وقد فاز بالنيابة سابقاً عن دمشق فوزاً ساحقاً، وكان يتمتع على الصعيد الشعبي بمركز لا يتمتع به أحد من علمائها وقادتها.

«كان السباعي من أسرة حمصية، ولكن مصاهرته لعائلة الطباع، الأسرة المعروفة في الطبقة التجارية والدينية، قد سهلت أمامه فتح الأبواب في أحياء دمشق. وكان يتمتع بمكانة علمية ودينية مرموقة، وكان معروفاً ومشهوراً باتصالاته الواسعة وعلاقاته المتشعبة بصفته مراقباً عاماً للإخوان المسلمين بصورة مستمرة. وكانت تسعفه في أحاديثه وخطبه عاطفة جياشة، وحماسة متأججة. ولا أشك في أنه كان من أكثر من عرفت من رجال الدين صدقاً في عقيدته».

ويضيف: «كان نجاح السباعي في نظر اليمين داخلياً وعربياً مضموناً ضماناً أكيداً، إذ من يصدق بأن الشيخ مصطفى نال من أصوات الناخبين في حي القصّاع المسيحي أكثر مما ناله الأستاذ رياض المالكي؟».

قلت: نحن يا أستاذ أكرم ـ رحمه الله ـ وهذا يدل على أن الخوف

من الإلحاد والإرهاب الشيوعي كان قائماً، وأن سخرية أكرم من تصوير بعضهم للمعركة الانتخابية بأنها كانت بين الإيمان والإلحاد، أو تعريضه بهذا التصوير على أقل تقدير . . ليس في مكانه، وإن كنا لا نعتقد بأن الأمر كان بهذه الحدة، أو بهذا الإيقاع السريع، وربما لم يتجاوز في الحقيقة حدود التخوف من شد أزر الشيوعيين والإرهاب الماركسي الذي كان حاضراً في المعركة بكل تأكيد! فإذا ذكرنا أحياء دمشق الأخرى ـ وبخاصة الأحياء الإسلامية العريقة ذات الكثافة السكانية العالية ـ والتي صوتت بأكثريتها لمصطفى السباعي أدركنا مدى التزوير الذي قامت به حكومة التجمع أو «القوى التقدميـة» بحسب عبارة الحوراني . . بل إن كثيـراً ممن صوت للأستاذ المالكي في هذه الأحياء فعل ذلك بضغط من الحكومة .

وأكتفي في هذا السياق بذكر الحادثة التالية: دخلت المنزل في أحد الأيام السابقة للانتحابات التي أشار إليها الحوراني، وكان توزيع المنشورات ـ وليس فقط إقامة المهرجانات الانتخابية ـ على أشده . . دخلت ومعي إحدى هذه المنشورات، وكانت على شكل كراس صغير يشـتمل على حياة السـباعي وإنجازاته الوطنية والعلمية وجهاده ونحو ذلك . . وقد كتب على صفحة الغلاف الأولى: مصطفى السباعي نائب دمشـق السابق . . وعلى صفحتـه الأخيرة: ونـائب دمشـق المقبل . . فوجدت (النجار) يعمل في المنزل، وكنا نقوم بعملية ترميم وإصلاح لبيت (عربي) مبنيٍ على الطراز القديم، لم يمضِ على انتقالنا إليه وقت طويل . وكان (المعلّم) النجار المشار إليه أحد سكان الحي ـ حي الميدان الفوقاني بدمشـق ـ وكانت تربطني بابنـه صداقـة قوية، وقد توفي هذا

الصديق شاباً بمرض القلب رحمه الله رحمة واسعة . . فما كان مني إلا أن دفعت بالكراس إلى العم النجار . . فقلّبه وقال : نائب دمشق السابق . . نعم، ولكن نـائب دمشق المقبل . . لا . ففاجئني بذلك! فقلت : لمَ؟ قال : لأن الحكومة تريد ذلك؟قلت : كيف؟قال : أنا أعمل في الحكومة صباحاً، وتضمنا نقابة ـ أذكر أنه قال : إن عمله في مؤسسة تدعى : الريجي! ـ دعانا رئيسنـا المسـؤول، وحلّفنـا اليميـن علـى المصحـف أن ننتخـب ريـاض المالكي! فقلت : أعدادكم كبيرة؟ قال : نعم! . . وحدث هذا في قطاعات أخرى! . قلت : وسوف تبرّ بقسمك؟ قال : نعم . . قلت : أتخاف مسؤولية الآخرة إن لم تفعل؟ قال : والدنيا[1]! .

ولم يكن تحيـز الحكومة حتى قبل الانتخابـات خافيـاً، حتى إن السـباعي والدواليبي ومعهم السـيد رشاد جبري والشـيخ عبد الرؤوف أبو طوق قاموا بزيارة رئيس الوزراء «وشكوا إليه تحيز بعض الموظفين، وحمّلوه المسؤولية» كما يقول الحوراني الذي فسّر هذه الزيارة ـ في سـياق خلط الأوراق أو تـرتيبها كما يريد ـ بـأنها «حملة ضغط وتهديد

(١) يبدو أن هذا الأسلوب كان معهوداً عند الأستاذ الحوراني في حزب البعث! وعلى سبيل المثال : «لقد شوهد أعضاء الحزب وهم يقدمون قائمة بأسماء المرشحين لعضو من الفلاحين ـ في انتخابات الحزب المحلية ـ طالبين منه حلف اليمين على القرآن الكريم بأنه سوف ينتخب هذه القائمة»! ؛ كتاب الصراع على السلطة في سورية للدكتور نيقولاس فان دام، ص٤٩ . قلت : فإذا كان هذا في نطاق الحزب، فما بالك بالانتخابات العامة؟ .

لرئيس الحكومة»!! وندع الرواية هنا للأستاذ الحوراني الذي قال: «وحدث أثناء اجتماعهم به أن وصلتُ لمقابلة رئيس الوزراء للاحتجاج على موقف بعض المسؤولين كمأمون الكزبري في الوزارة الحالية![1] ويوسف مزاحم ـ الذي كان مدير الشرطة والأمن العام ـ ورجال الأمن تجاه اعتداءات الإخوان المسلمين المتكررة! التي كان آخرها الاعتداء على الأهلين في حي باب السريجة (من أحياء دمشق القديمة) حيث سقط بعض الجرحى!».

ذهب الحوراني إذاً إلى رئيس الحكومة ليشتكي ضد أحد وزراء الحكومة.. وضد مدير الشرطة والأمن العام؟ وكأنّ الحكومة والأمن العام تابعان للمعارضة، أو يقفان في صفها ضد الحوراني والبعث والعسلي.. إلخ.. إن الحوراني يناقض نفسه، كما ناقضها مرة أخرى حين صور سبب نجاح المالكي بشخصيته المتواضعة الطيبة، وإخفاق السباعي بما نسبه إليه من عبارات لا تدل على احترام المواطنين!! قال الحوراني: «لقد أثرت شخصية رياض المالكي المتواضعة الطيبة في جمهور دمشق تأثيراً كبيراً، بينما كان مصطفى السباعي يخطب بالجماهير!! قائلاً: كنت أنتظر أن يقبّل الناس يدي لأكون نائباً عنهم، ولكن موجة الإلحاد التي عمَّت دمشق والعياذ بالله قد جعلتني مضطراً لأن

---

(١) دخل الدكتور الكزبري وزارة العسلي الجديدة وزيراً للعدل كما أشرنا سابقاً، ممثلاً عن حركة التحرير العربي التي أسسها أديب الشيشكلي وأراد لها أن تحل محل الأحزاب، فتحولت بعده إلى حزب.

أطرق بيوت الناخبين. لا عجب إذاً أن يفوز مرشحو الجبهة القومية على خصومهم فوزاً ساحقاً، فقد زادت الأصوات التي نالها المالكي عن الأصوات التي نالها السباعي بـ(٢٤٤٧) صوتاً. . »[١].

قلت: إن السباعي لم يتحدث إطلاقاً عن «موجة إلحاد عمت دمشق» ! حتى كأنّ الإلحاد وقف عليها من بين سائر البلاد والعباد . . ونحن لانحيل أن يتبرم السباعي بالجو غير المعهود الذي يسود الانتخابات، ولكننا نستبعد هذا القول، أو هذه الصيغة على أقل تقدير! ونستبعد أكثر أن (يخطب) به في الجماهير[٢] . . كما نحيل أن يكون هذا وذاك من أسباب النجاح والفشل في انتخابات يعلم الخاصة والعامة أنها مهمة! حتى إن الحوراني نفسه أثنى من كبار رجال حزب البعث على الأستاذ عبد الكريم زهور الذي «اندفع بكل حماسة لتأييد رياض، تسعفه قدرة خطابية وشعور بالمسؤولية، ووعي لأهمية المعركة، وانعكاس نتائجها على الوضع في سورية» بحسب عبارات الحوراني.

ونعتقد هنا أيضاً أن الحوراني وقع أيضاً بنوع من التناقض حين قال

---

(١) مذكرات الحوراني: الحلقة المشار إليها سابقاً.
(٢) قال السباعي في مناسبة سابقة: «فما تنكرت دمشق لدعوة الإسلام ولن تتنكر لها، ولن تكون دمشق إلا تربة صالحة للإسلام الحي الكريم. وإذا غفت دمشق فقد يغفو اليقظ، وإذا كبت دمشق، فقد يكبو الجواد، وإذا زلّت دمشق فقد يزل العالم. . ». جريدة الشهاب العدد رقم (٦) تاريخ ١٤ شوال ١٣٧٤هـ الموافق ٥/ ٦/ ١٩٥٥م.

إن مصاهرة السباعي لعائلة الطباع الدمشقيّة سهلت أمامه فتح الأبواب في أحياء دمشق. . لأن السباعي حين فاز في الانتخابات السابقة (فوزاً ساحقاً) كما وصفه الحوراني لم يكن قد تزوج بعد! فقد دخل البرلمان عازباً. . حتى إنه في إحدى الجلسات التي اقترح فيها تخفيض مرتبات الوزراء والنواب وكبار الموظفون لصالح صغار هؤلاء. . ذكر بعض النواب أن السباعي عازب ونفقاته تختلف عن نفقات المتزوجين. . فقال السباعي: إن نسبة الإنفاق لا تقاس بهذا المقياس[1].

ويبقى هنا للتاريخ: هذا الحديث الذي جرى بين الحوراني والسباعي في الاجتماع الذي ضمهما عندما ذهبا للشكوى لدى رئيس الوزراء بغض النظر عن (الوقت) الذي قرر فيه الحوراني الذهاب للشكوى!.

يقول الحوراني: «تشعب الحديث بيني وبين الشيخ مصطفى

---

(١) قال السباعي: «أنا لا أدري ما هو ذنبي إذا كنت لم أتزوج حتى الآن، وإذا كانت الظروف قد منعتني من الزواج وحرمتني من أن أكون مثل إخواني رب عيال، إلا أنني أعتقد أن نسبة الإنفاق لا تقاس بالنسبة إلى المتزوج والأعزب، فكثير من غير المتزوجين أمثالي ينفقون أكثر من المتزوجين»، وعندها ضحك بعض أعضاء المجلس، فتابع السباعي قائلاً: «أعتقد أن في وضعي ولباسي ما يدفع كل ما قد جال في خاطر بعضكم! ويظهر أن البعض منكم استعرض حالته عندما كان عازباً وشاء أن ينقلها إليّ»! الجلسة السابعة عشرة من مذاكرات الجمعية التأسيسية بتاريخ ١٨/ ٣/ ١٩٥٠م، ص٢٥٣.

السباعي في هذا الاجتماع الذي تم صدفة، فقلت له: إنني أحترمك رغم ما بيننا من خلاف سياسي أكثر من رفاقك هؤلاء، وإنني بإخلاص أنصحك وأقول لك بمواجهتهم: إنهم يسخرونك لأغراضهم السياسية، وسوف تكشف لك الأيام ما أقول. **وسوف تكون الخاسر الوحيد في هذه المعركة**. وبشكل عفوي قال الشيخ مصطفى: والله ما كنت أفكر أبداً في خوض هذه المعركة، فقد كنت منصرفاً لشؤون التدريس، شاعراً أن صحتي لا تسمح لي بخوضها، ولكن الإخوان أصرّوا عليَّ، فنزلت عند إرادتهم. قلت له: **إنك ستخسر هذه المعركة وستخسر صحتك أيضاً**. وقد أصيب المرحوم السباعي بعد هذه المعركة بالجلطة التي كانت سبباً في وفاته فيما بعد».

ويضيف الأستاذ الحوراني قائلاً: «أراد معروف الدواليبي في تلك المقابلة أن يبرر خوضهم المعركة إلى جانب السباعي بسبب انتشار الشيوعية في سورية. والحقيقة أن الحزب الشيوعي قد استغل معركة رياض المالكي نظراً لما يتمتع به وأخوه الشهيد عدنان من سمعة حسنة لدى الرأي العام، فحاول مؤيدو السباعي بالمقابل أن يظهروا المعركة الانتخابية وكأنها معركة بين الإلحاد الشيوعي والإيمان. ولا شك أن ذلك كان سبباً من الأسباب التي جعلت المملكة السعودية تدخل المعركة لصالح الشيخ مصطفى»!.

قد يطول التعليق على كل ما قاله الحوراني في هذا اللقاء، ونكتفي بالقول إنه فيما قاله للشيخ أو فيما أشار عليه به كان من الصادقين..

ولهذا صارحه السباعي بما في نفسه، أو حكى له حقيقة الموقف الذي لم يكن ليخفى على مثل الحوراني. ولكن العجيب حقاً أن يؤكد الحوراني للسباعي أنه سوف يخسر المعركة! وقد خسرها فعلاً بفارق الأصوات الذي ذكره الحوراني. . والعجيب ـ مرة أخرى ـ أن يذكر الحوراني عدد هذه الأصوات بدقة، ولا يذكر نسبة الأصوات التي حصل عليها، بعد كل هذا، كلٌ من المرشحين.

لقد كان (باتريك سيل) أكثر موضوعية حين قال: إن السباعي حاز على (٤٧٪) من مجموع الأصوات. . أو على الأقل إن الحديث عن نسبة الأصوات وليس عن أعدادها أبعد عن حدود الإيهام والتلبيس، خصوصاً وأن هنالك بلاداً كثيرة ينجح فيها المرشح ببضعة ألوف أو ببضع مئات من الأصوات. .

قال باتريك سيل: «لقد جرى أكبر اختبار للقوة في دمشق حيث فاز رياض المالكي من حزب البعث على الشيخ مصطفى السباعي زعيم الإخوان المسلمين بأغلبية ضئيلة، لقد حاز السباعي على (٤٧٪) من مجموع الأصوات. وهذا يدل على أن الإسلام لم يكن قد انتهى كقوة سياسية من على مسرح السياسة السورية، هذا على رغم أن منافسه قد تلقى دعم البعثيين والشيوعيين وجميع (التقدميين)، وحزب الشعب والحزب الوطني، كما أفاد من كونه أخاً لعدنان المالكي. . . »[١].

ومما يؤيد هذا الذي ذهب إليه باتريك سيل أن الإخوان المسلمين

---

(١) الصراع على سورية، ص٣٨٠.

الذين استأنفوا نشاطهم السياسي بعد الوحدة تقدموا في انتخابات ١٩٦٢م ـ وكانت أنزه انتخابات عرفتها البلاد ـ بثلاثة مرشحين عن مدينة دمشق، فازوا جميعاً، وهم السادة عصام العطار وعمر عودة الخطيب ـ الذي انتخب قبل ذلك نقيباً للمعلمين في سورية ـ وزهير الشاويش(١).

لقد أطلنا في موضوع الانتخابات التكميلية هذه، ومع ذلك بقيت هنالك عدة فصول أو مواقف ذكرها الحوراني وأنفق ـ فيما نقدر ـ بعض الوقت حتى تأتي على النحو الذي يرغب، أو يعطيها التفسير الذي يريد، وإن كان لا يصعب على القارئ: الوقوف على ما فيها من تناقضات مثل حديثه عن أصوات الناخبات اللاتي كان يقدّر وقوفهن إلى جانب الأستاذ رياض!! ثم قوله: «وقد أدى حذف مئات الأصوات من قوائم الانتخاب (يقصد إسقاطها من القوائم الانتخابية عن طريق التلاعب وبمساعدة أمين العاصمة السيد بشير القضماني كما قال!) إلى زيادة طفيفة في الأصوات التي نالها الشيخ مصطفى في مركز الانتخاب النسائي». وفي الوقت الذي قال: «إن عنف المعركة الانتخابية قد تجلّى في المركز النسائي حيث شوهدت السيدة أسماء الخوري زوجة (رئيس الوزراء الأسبق) الأستاذ فارس الخوري وهي تحمل بيدها عدداً كبيراً من هويّات الناخبات (بطاقاتهن الشخصية) بينما كان المئات (!!) من نصيرات المالكي

---

(١) في الوقت الذي سقط مرشحا حزب البعث وهما السيد صلاح البيطار والسيد نذير النابلسي، على الرغم من المناصب التي شغلها السيد البيطار أيام الوحدة. ويؤكد هذا السقوط أن نجاحه السابق كان للسبب الذي أشرنا إليه.

محرومـات من الإدلاء بـأصواتهن، لعدم ورود أسمائهن في جداول الانتخابـات؛ مما أدّى إلى مشـادّات عنيفة في المركز النسائي، وإلى تـدخل رجال الأمن لحماية وكيلات الشيـخ مصطفى السـباعي بسـبب النقمة الجارفة»!.

قلت: هل أدرك القارئ من المعتدي ومن المعتدى عليه؟ حتى تدخَّل رجال الأمن.. ولكن على القارئ أن يصدق أن هذا كان بسبب النقمة الجارفة التي اجتاحت نصيرات الأستاذ المالكي.. وأن يصدق أن سـبب هذه النقمـة هذا الأمين للعاصمـة الذي عرف مسبقاً، منفرداً أو بالتواطؤ مع وزارة التربية، من ستدلي بصوتها للمالكي، فقام بإسقاط اسمها من جداول الانتخاب.. ومن ستقوم بانتخاب السباعي فتركه[1]!

إن حـديـث السيـد أكـرم الحـورانـي عـن هـذه المعـركـة ملـيء بالمغالطات، وأحياناً بالألاعيب! شأنه في ذلك شأن مذكراته المطوّلة

---

(١) أشار الأستاذ السباعي ـ عَرَضاً وبعباراته المهذبة المعهودة ـ إلى ما جرى «في مراكز اقتراع النساء في دمشق من شد شعور بعضهن لبعض، واتهام المتحمسات لأحد المرشـحين لكرام السـيدات، بتهم تـأنف من سـماعها المروءات، وما كان من هجوم بعضهن على بعض وضربهن بالأحذية!». كتاب المرأة بين الفقه والقانون للدكتور السباعي، ص١٥٨. الطبعة السادسة تاريخ ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م المكتب الإسلامي. مع الإشارة إلى أن السيد فارس الخوري كان قد اختير ثلاث مرات ـ بعد الاستقلال ـ رئيساً لمجلس الوزراء؛ وكان من أبرز رجالات سورية في تاريخها الحديث.

كلها، تعرف منها وتنكر. . . وكان الله في عون المؤرخين.

بقي علينا أن نشير من صفحات هذه المعركة إلى ما ذكره الحوراني عن سبب انحياز الشيخ أحد كفتارو فيها إلى جانب المالكي على الرغم من كل ما ذكرناه عنها وعن الجو الذي تمت فيه؛ قال السيد الحوراني: «كان الشيخ أحمد كفتارو يطمح إلى مركز الإفتاء للجمهورية السورية، وكان يأمل أن يصل في المستقبل إلى هذا المركز، فقمت بزيارته، وبحثنا معاً الوضع الانتخابي في دمشق، وضرورة تأييد المالكي ضد مرشح الإخوان المسلمين، فأبدى استعداده للمساهمة في المعركة، لأنه لم يكن على وفاق مع الإخوان المسلمين، وقد برّ الشيخ كفتارو بوعده».

يومئ الحوراني إلى أنهم (وعدوا) الشيخ بهذا المنصب. . في سياق حملة (تأمين) الأصوات الانتخابية للمالكي. . والتي اشتركت فيها حتى بعض السفارات كما أشرنا في موضع سابق. ولكن هذا ليس مهماً عندنا في هذا السياق، وفي وسع سماحة المفتي أن يسكت على هذا، أو أن يقوم بتصحيحه، والرد عليه إن شاء. ولكن الذي نحب أن نؤكد عليه أن كفتارو الداعية يختلف منهجه وأسلوب عمله عن الأستاذ السباعي، فضلاً عن الفروق البينة بين الشخصيات والطبائع. . ونحن نعتقد أن مواصفات الإسلام ـ العقلي والاجتهادي ـ الذي يدعو إليه السباعي يفترق عن مواصفات الإسلام ـ الصوفي والطُّرُقي ـ الذي يمثّله أو يجسّده كفتارو. ولا أريد أن أذهب أبعد من ذلك، فأقول إن عروبة الشيخ السباعي الظاهرة أو شديدة البروز لم تكن تروق للشيخ كفتارو! بدليل

الصداقة التي كانت تربط هذا الأخير بالأمين العام للحزب الشيوعي خالد بكداش. . وهما أبناء حي واحد، وأرومتهما (الكردية) واحدة. وقد وصف الكاتب السيد عماد نداف ـ صاحب كتاب (خالد بكداش يتحدث) ـ الصداقة بين خالد بكداش والشيخ كفتارو بأنها «لم تكن صداقة عادية أو بروتوكولية كما يمكن أن يترامى إلى الذهن لأول وهلة» وهو الأمر الذي حمله على الكتابة عن هذه الصداقة؛ قال: «وكان هذا العامل الأهم في الكتابة عنها، في وقت تغيب فيه مثل هذه الشخصيات عن الحياة يوماً بعد يوم، وخصوصاً بعد وفاة أكرم الحوراني وخالد بكداش وغيرهما ممن عمّروا إلى أيامنا هذه»[1].

وبهذه المناسبة، فقد أشار السيد نداف إلى مسألة الانتخاب هذه، فقال عن الشيخ كفتارو: «واشتهر أيضاً بأنه رجل دين وسياسي محنّك، منذ أن أيّد المرشح البعثي رياض المالكي ضد منافسه المرشح الشيخ مصطفى السباعي زعيم الإخوان المسلمين في سورية في الخمسينيات. وهذا كان يعني الكثير في ذلك الوقت، وتسبب بحملة تشهير واسعة من الإخوان المسلمين ضد الشيخ كفتارو ربما لم تنته إلى الآن»[2].

ونشير أخيراً ـ بكلمات عابرة ـ إلى سيل الشتائم والأكاذيب التي حوتها نشرات الشيوعيين بحق الأستاذ السباعي، علماً بأن هذه النشرات

---

(١) انظر مقالته بعنوان: «الشيوعي والشيخ في سورية، صداقة من نوع خاص» في العدد (١٢٧٥٧) تاريخ ٥/ ٢/ ١٩٩٨؛ من جريدة الحياة.

(٢) المقال السابق.

كانت تدور في الغالب حول السباعي، فتطعن في علمه، وتكذبه في جهاده. . بل تسخر حتى من (تديّنه)! . . بحجة أنه تخلّى عن زي العلماء أو (رجال الدين) وذلك من أجل تشويه صورته عند بعض البسطاء. . ولم تكن تلك النشرات تدور حول الدعاية (الإيجابية) للمالكي. . لقد بلغ الشيوعيون في إسفافهم يومذاك حداً دونه كل رقاعة وإسفاف! وفي وسع المؤرخ أن يعود إلى تلك النشرات ليتأكد من صحة ما نقول. . وهو إسفاف لا يشرّف الحوراني أو العسلي أو كفتارو أو الجبهة القومية وحكومة التجمع!.

ويكننا القول في نهاية المطاف إنه بانتهاء هذه المعركة الانتخابية انطوت صفحة حافلة من صفحات الأستاذ السباعي، وهي الصفحة السياسية والبرلمانية. . لتحل محلها وتطغى عليها حياة علمية زاخرة كما سنرى في الصفحات التالية.

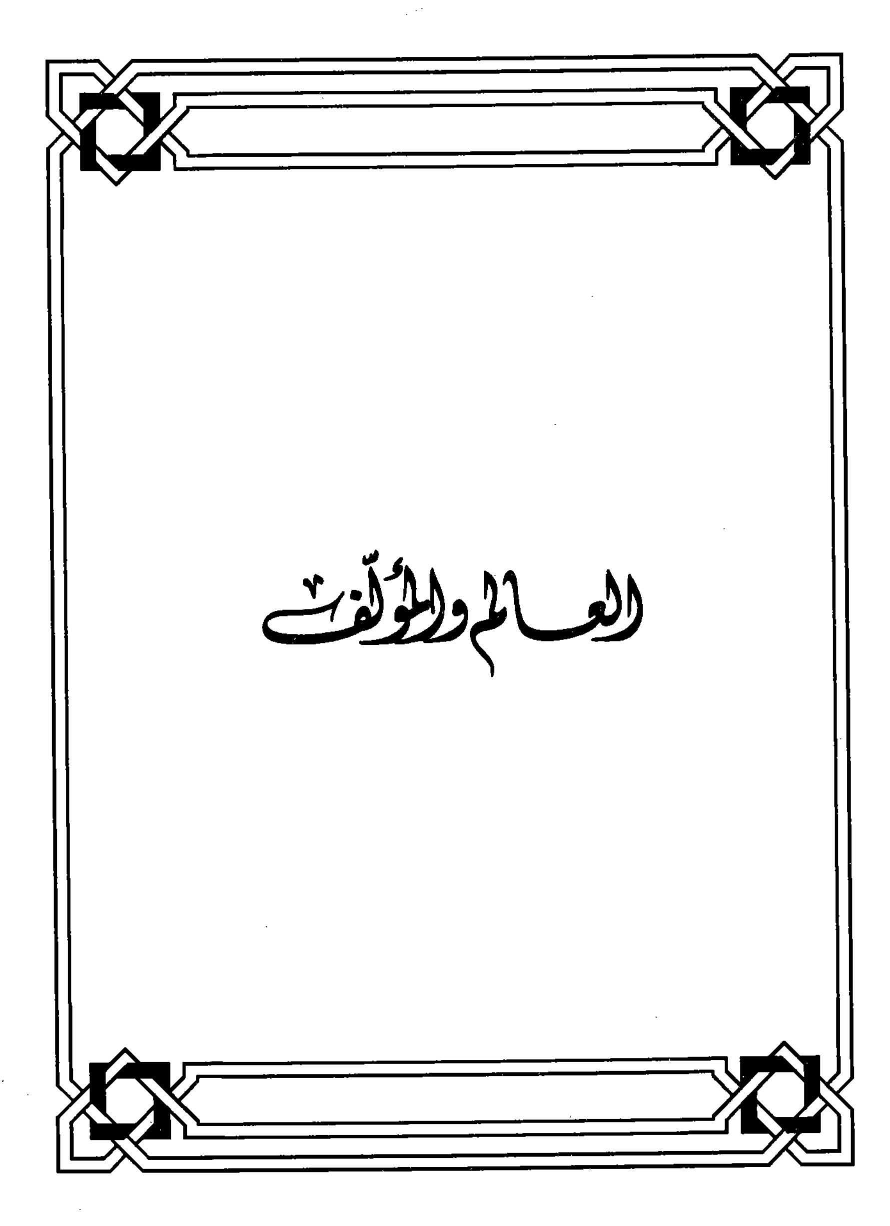
والكلمة التي نختم بها هذا الفصل: أن السباعي كان رجل دعوة ورائد إصلاح، أي أنه كان أكبر من سياسي؛ ولم تكن السياسة أكثر من هم واحد من همومه الكبيرة والكثيرة. وقد جاء اشتغاله بالسياسة في زمن التحولات الكبرى في حياة الوطن والأمة؛ ولهذا جاء على هذا النحو الواسع. . حتى كاد أن يجور على عمله (الدعوي) وتكريس بعض أساليبه، وتطوير بعضها الآخر في ضوء تطور الظروف والأحداث.

وإذا كان مثل هذا التطوير لا يقع عبئه على الأستاذ السباعي وحده؛ فإن من الملاحظ أنه ـ أي الأستاذ السباعي ـ بقي في إطار هذه الدعوة محور

النشـاط الفكري والثقافي؛ حيـث لم ينقطع عن تـأليف الكتـب وإلقـاء الأحاديث والمحاضرات.. ولم ينقطع عن تقديم الزاد الفكري لشباب الدعوة الإسلامية في حديث الثلاثاء من كل أسبوع.

حتى إذا فرغ من السياسة وأوهاقها لم يمهله المرض طويلاً حتى داهمه في شلل نصفي، كان يسبب له آلاماً حادّة! لقد كان مرضاً يشغل عن خاصّة النفس.. لولا البطولة والرجولة التي رأينا أنها كانت ناضجة في سن العشرين.. وهي تهيب بصاحبها اليوم ألا يلقي السلاح.. وقد فعل رحمه الله حين تفرَّغ للكتابة والتأليف، والمحاضرات والتدريس، كما سنرى في حياته العلمية الحافلة رحمه الله.

* * *



العالم والمؤلَّف

العالِم والمؤلِّف

تحدثنا عن نشأته العلمية ودراسته في مصر، ونذكر هنا أنه توّج دراسته فيها بالحصول على شهادة (العالمية من درجة أستاذ) ـ الدكتوراه ـ في الفقه والأصول وتاريخ التشريع الإسلامي. وكانت رسالته بعنوان: (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي). وقد فرغ من إعدادها في السادس من شهر رجب ١٣٦٨هـ الموافق للرابع من شهر آيار (مايو) ١٩٤٩. ولكنه لم يتمكن من مناقشتها إلا في ٢٤ من جمادى الآخرة ١٣٦٩ الموافق ١٢/ ٤/ ١٩٥٠م.

وكان في هذا الوقت عضواً في الجمعية التأسيسية (البرلمان) كما رأينا[١]. وقد عدّ هذه الرسالة أول مؤلفاته العلمية، كما أشار في (الإهداء) الذي صدر به الرسالة، وتقدم به إلى أبيه الشيخ حسني السباعي رحمه الله.

---

(١) ولما عاد إلى دمشق بعد مناقشة رسالته خرجت أحياء دمشق ووفود كبيرة من المحافظات لاستقباله، كما حدثني بعض الأقارب من رجالات حي الميدان بدمشق.

وتشير التواريخ المذكورة إلى أنه حين عاد إلى سورية، وقاد شباب محمد وجماعة الإخوان أولاً، ثم خاض معركة الجهاد في فلسطين وترشح عن مدينة دمشق. . كان قد فرغ من بعض مراحل الدراسة العليا في مصر. أما إعداد الأطروحة الجامعية، أو متابعة هذا الإعداد فقد قام به في وقت لاحق.

ويبدو أن كثرة مشاغله والأعباء التي كان ينهض بها لم تتح له الفرصة لهذا الإعداد. . بل إنها شغلته حتى عن خاصّة نفسه! فهو لم يتزوج إلا بعد أن تجاوز الخامسة والثلاثين، وفي الوقت الذي كان مراقباً عاماً للإخوان، وعضواً في الجمعية التأسيسية ومحاضراً في كلية الحقوق.

ولهذا فقد عاد مرة ثانية إلى مصر ـ بعد سبع سنوات مرت على ترحيله عنها من قبل السلطات البريطانية[1] ـ وكان ذلك في أواخر عام ١٩٤٨م بعيد إقدام حكومة مصر على حل جماعة الإخوان المسلمين في مصر، والذي تم وكتائبهم ما تزال في فلسطين[2].

---

(١) انظر كتابه: السنة، ص٢١.

(٢) قال الكاتب السيد رفعت سيد أحمد: «في ١٠/ ١٠/ ١٩٤٨م أصدر سفراء أمريكة وانكلترة وفرنسة في مصر بعد اجتماع لهم في (فايد) قراراً بحل جماعة الإخوان المسلمين، وتكليف الحكومة المصرية بتنفيذه. . ». جريدة الحياة، العدد (١٢٧٠٥) بتاريخ ١٢/ ١٢/ ١٩٩٧م؛ ومعلوم أن حكومة النقراشي هي التي نفذت الأمر، فأصدرت قرارها بحل الجماعة، وقام البوليس السياسي باعتقال الآلاف من شباب الإخوان، وأعادوا المتطوعين من ميادين الجهاد في=

وقد ذكر الأستاذ السباعي أنه كان «على مقربة من حسن البنا في أيام محنته الأخيرة، ثم في أيام استشهاده. .»[1]. أي أنه كان في القاهرة خلال الفترة التي أعقبت حل الجماعة، وحين تم اغتيال حسن البنا في الثاني عشر من شباط (فبراير) ١٩٤٩م. بل إنه تعرَّض للملاحقة بعد هذا

= فلسطين إلى السجون والمعتقلات. انظر مقالة بعنوان: «بعض الذكريات عن الإمام الشهيد حسن البنا» للكاتب الأستاذ عمر عودة الخطيب، مجلة حضارة الإسلام، ص٢٦، العدد (٨) من السنة ٣ في آذار (مارس) ١٩٦٣.

(١) انظر كتابه: عظماؤنا في التاريخ، ص٢٤٧. ويبدو أن الأستاذ السباعي توجّه إلى القاهرة بعد عودته من فلسطين، وفراغه من المحاضرات التي ألقاها في مختلف المدن السورية، معرّفاً الجمهور بحقيقة أوضاع القضية الفلسطينية ـ كما تحدثنا عن ذلك فيما سبق ـ وذكر الأستاذ الشيخ منّاع القطّان رحمه الله أنه التقى بالأستاذ السباعي أول مرة في القاهرة عام ١٩٤٨م وقال: «حين امتحنت الدعوة الإسلامية في عهد فاروق، ونزل برجالها من عسف وتعذيب وسجن وقتل وتشريد، حيث كان السباعي رحمه الله في آخر مرحلته الدراسية يقدم رسالته للحصول على الشهادة العالية بدرجة أستاذ، وكان يسكن مع زملاء له في كلية أصول الدين من سورية». ويضيف الشيخ مناع أن الإمام الشهيد حسن البنا كلّفه أن يتصل بالأستاذ السباعي ليلتقي مع البنا في دار الشبان المسلمين ضحى يوم معين، وقد استشهد البنا بعد هذا اللقاء بيومين. قال الأستاذ الشيخ مناع رحمه الله: «وتحدّث معي السباعي في الكارثة، وعرض الحلول، فلمحت فيه بريق الذكاء، ودقة الملاحظة، وبُعد النظر، وشدة الحذر، وخفة الروح، ولطف الدعابة». مجلة حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص٢٣٥ نقلاً عن صحيفة (الجزيرة) السعودية: العدد (١٩).

الاغتيـال، فتواري عن الأنظار فتـرة قبل أن يتمكن من بعض الحركـة والتنقل بسبب تخلّيه عن زيّه المعهود ـ العِمّة والجبّة الشاميّتان ـ وبفضل ملامحه التي ساعدته على أن لا يكون مطلوباً أومعروفاً من قبل البوليس المصري.

وقد أشـار الأستاذ الدكتور محمد أديـب صالح في المقدمة التي صُدِّرت بها الطبعة الثانية للأطروحة المذكورة بعد أن تمت طباعتها.. إلى تلك الظروف، فقال: «ولعل من الإنصاف أن أشير إلى أن الأستاذ رحمه الله قد ألّف الكتاب في ظروف قاسية شهدها الذين كانوا يسكنون معه في القاهرة من إخوانه، حين اضطرته تلك الظروف وهو يجمع المادة العلمية للموضوع أن يغادر الشقة إلى مكان آخر، حيث لا يجد المراجع إلا بصعوبة، ويتصل ببعض أساتذته بصعوبة أشد، لا يحجز الأذى عنه ومخاطر الاتصال إلا عناية الله.. ولم يطبع الكتاب طباعة رسمية، وإنما خـرج رسـالة للأسـتاذية يومذاك ـ الدكتـوراه ـ في الأزهـر على الآلـة الطابعة»[1].

وقد أشار الأستاذ السباعي إلى هذا ـ باقتضاب ـ في التمهيد الذي كتبه لهذه الرسالة، في طبعتها الأولى عام ١٣٧٩هـ ١٩٦٠م، فقال: إنه ألف هذا الكتاب: «في ظروف صعبة كانت تضّطره إلى الإيجاز في كثير من الأبحاث»، وقد عرض في التمهيد المذكور للدفاع عن السنّة في وجه الشـبهات والمطاعن التي أثـارها محمود أبورية، وعوّل فيها على آراء

---

(١) صفحة (و) من الطبعة الثالثة ببيروت تاريخ ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

الشيعة والمعتزلة والمستشرقين، الأمر الذي اضطر معه الأستاذ رحمه الله إلى بيان موقف هؤلاء ـ وأمثالهم ـ من السنة. وقد جاء هذا التمهيد المهم في أربع وأربعين صفحة.

١ ـ مكانة كتاب «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي»:

ما يزال الباحثون والدارسون منذ أن نشر هذا الكتاب يعوّلون عليه ويرجعون إليه في التأريخ العلمي للسنّة النبوية، وفي بيان حجيّتها، وفي الدفاع عنها في وجه الشبهات والمطاعن أو الأعاصير التي قامت في وجهها قديماً وحديثاً أو في مختلف العصور. قال الأستاذ أبو الحسن الندوي: «وكتاب صديقنا المجاهد الداعية مصطفى السباعي: (السنّة..) هو أفضل ما كتب في الموضوع وأجمعه»[١]. قلت: وبخاصة في قضية الدفاع عن السنة وتنزيهها وتنزيه كبار رواتها مثل الصحابي الجليل أبو هريرة.. عن المطاعن.

وربما كان من الملاحظ أن بعض هؤلاء الباحثين أفاد من ردود الأستاذ السباعي وأفكاره دون أي إحالة أو عزو.. وقد ساعدهم على ذلك: شيوع هذه الأفكار والردود في الكتب التعليمية سواء منها كتب الثقافة الإسلامية أو كتب السنة ومصطلح الحديث.

أما الأستاذ السباعي رحمه الله فإن الذي أنضج عنده (بحوث) هذا

---

(١) الإسلام والمستشرقون للأستاذ أبي الحسن الندوي. طبع المجمع الإسلامي العلمي (ندوة العلماء) لكنهؤ ـ الهند ١٩٨٢م.

الكتاب: تنبهه المبكر لأخطاء المستشرقين وشبههم التي أثاروها حول السنة النبوية.. وكيف أن هذه الأخطاء والشبهات وجدت طريقها إلى بعض أساتذته في الأزهر.. وفي هذا يحدثنا الأستاذ رحمه الله فيقول: «لما كنا طلاباً في السنة الثانية والثالثة في قسم تخصص المادة في الفقه والأصول وتاريخ التشريع (العالمية من درجة أستاذ) في كلية الشريعة، وكان ذلك عام ١٩٣٩م، عينت مشيخة الأزهر في عهد الشيخ المراغي رحمه الله الدكتور علي حسن عبد القادر أستاذاً لنا يدرّس تاريخ التشريع الإسلامي، وكان قد أنهى دراسته في ألمانية حديثاً.. وكان أول درس تلقيناه عنه أن بدأه بمثل هذا الكلام: إني تعلمت في الأزهر قرابة أربعة عشر عاماً فلم أفهم الإسلام! ولكني فهمت الإسلام حين دراستي في ألمانية».

يقول الأستاذ السباعي: «فعجبنا - نحن الطلاب - من مثل هذا القول، وقلنا فيما بيننا: لنستمع إلى أستاذنا لعله حقاً قد علم شيئاً جديراً بأن نعلمه عن الإسلام مما لا عهد للأزهر به. وابتدأ درسه عن تاريخ السنة النبوية ترجمة حرفية عن كتاب ضخم بين يديه، علمنا فيما بعد أنه كتاب جولد تسيهر (دراسات إسلامية) وكان أستاذنا ينقل عبارته ويتبنّاها على أنها حقيقة علمية، واستمرّ في دروسه نناقشه فيما يبدو لنا - نحن الطلاب - أنه غير صحيح، فكان يأبى أن يخالف جولد تسيهر بشيء مما ورد في هذا الكتاب. حتى إذا وصل في دروسه إلى الحديث عن الزهري، واتهامه بوضع الأحاديث للأمويين، ناقشته في ذلك - بحسب معلوماتي المجملة عن الزهري من أنه إمام في السنة، وموضع ثقة

العلمـاء جميعاً ـ فلم يـرجع عن رأيه، مما حملني على أن أطلـب منه ترجمة ما قاله جولد تسيهر عن الزهري تماماً، فترجمه لي في ورقتين بخط يده. وبدأت أرجع إلى المكتبات العامة للتحقق من سيرة الزهري، ومن حقيقـة ما اتهمه به هذا المستشرق، ولـم أترك كتاباً مخطوطاً في مكتبة الأزهر، وفي دار الكتب المصرية، من كتب التراجم إلا رجعت إليه ونقلـت منـه مـايتعلـق بـالـزهـري. . فلمـا تجمعـت لـدي المعلـومـات الصحيحة، قلت لأستاذنا الدكتور عبد القادر: لقـد تبيَّن لي أن جولد تسـهير قد حرّف نصوص الأقدمين فيما يتعلق بالزهري، فأجابني بقوله: لا يمكن هذا! لأن المستشرقين ـ وخاصة جولد تسيهر ـ قومٌ علماء منصفون، لا يحرفون النصوص ولا الحقائق! . . ».

يقول الشيخ رحمه الله: «عندئذٍ أزمعت على إلقاء محاضرة في الموضوع في دار جمعية الهداية الإسلامية ـ قرب سراي عابدين قديماً ـ وأرسـلت إدارة الجمعيـة بطاقات الدعوة لهذه المحاضرة إلى علماء الأزهر وطلابه، فاجتمع يومئذ عدد كبير منهم ما بين أساتذة وطلاب، ومن بينهم أسـتاذنا الدكتور علي عبد القادر الذي رجوتـه حضور هذه المحاضرة، وإبداء رأيه فيما أقول، فتفضل مشكوراً بالحضور، وأصغى إلى المحاضرة كلها التي كانت تدور حول ما كتبه جولد تسيهر عن الإمام الزهري، وختمتها بقولي: هذا هو ما أراه في هذا الموضوع، وهذا هو رأي علمائنا في الزهري، فإن كان لأستاذنا الدكتور عبد القادر مناقشة حول هذا الموضوع إن لم يقتنع بما ذكرته، فأرجو أن يتفضل بالكلام. فنهض الدكتور حفظه الله وقال بصوت سمعه الحاضرون جميعاً: إني

أعترف بأني لم أكن أعرف من هو الزهري حتى عرفته الآن، وليس لي اعتراض على كل ماذكرته، وانفض الاجتماع. ثم دخلنا إلى غرفة الأستاذ السيد محمد الخضر حسين رحمه الله رئيس الجمعية ـ الإمام الأكبر للجامع الأزهر فيما بعد ـ فكان مما قاله لي أستاذنا الدكتور حفظه الله، وكان ذلك بحضور السيد الخضر حسين رحمه الله، : إن بحثك هذا فتح جديد في بحوث المستشرقين، وأرجو أن تعطيني نسخة من هذه المحاضرة لأبعث بها إلى المجلات العلمية التي تعنى ببحوث المستشرقين في ألمانية، وإني أعتقد أنها ستحدث دوياً في أوساط المستشرقين، فشكرته على ذلك واعتبرته تشجيع أستاذ لتلميذه».

ويضيف الأستاذ رحمه الله: «وبعد أيام دعاني لزيارته في البيت، فكان مما اتفقنا عليه أن نتفرغ معاً في الصيف لترجمة كتاب جولد تسيهر والرد عليه، ولكنني اعتقلت بعد ذلك من قبل السلطات العسكرية الإنكليزية في القاهرة في بدء قيام الحرب العالمية الثانية، وأقصيت عنها سبع سنوات، وفي خلال هذه الفترة أصدر الدكتور عبد القادر كتابه (نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي) ولم يتح لي الاطلاع عليه إلا بعد ثلاث سنوات حين أفرج عني في أواسط الحرب الأخيرة»[1].

وهكذا كان التأريخ للسنة وتنزيهها عن مثل هذه الشبهات والشكوك دافعه لاختيار الموضوع المذكور موضوعاً لرسالته الجامعية! لا غرو أن

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص١٩ ـ ٢١، الطبعة الثالثة ببيروت تاريخ ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

ردوده على المستشرقين فيها جاءت على درجة عالية من النضج والتمحيص. بل إن الأستاذ أضاف إلى هذه الرسالة عند الطبع ملاحظات إضافية مهمة حول الاستشراق والمستشرقين ارتقت بتلك الردود إلى درجة الكمال المستطاع. وقد أفاد هو هذه الملاحظات المهمة أثناء زيارته لعدد كبير منهم خلال رحلته العلمية التي قام بها بتكليف من الجامعة السورية (جامعة دمشق فيما بعد) عام ١٩٥٦م. فقد أوفدته الجامعة في العام المذكور لزيارة الجامعات الغربية والاطلاع على مناهج الدراسات الإسلامية فيها: فزار كلاً من تركية وإيطالية وبريطانية وإيرلندة وبلجيكة وهولندة والدانمرك والنرويج وأسوج وفنلندة وألمانية والنمسة وسويسرة وفرنسة[١]. وبدأ بتركية حيث وصل إلى إستانبول يوم الأربعاء في ٤/ ٤/ ١٩٥٦م وغادرها في ١٥/ ٤/ ١٩٥٦م إلى روما[٢]..

وقد أتاحت له هذه الرحلة العلمية التي استغرقت نحواً من أربعة أشهر، فرصة الالتقاء بعدد كبير من المستشرقين ومحاورتهم ومجادلتهم بشأن التاريخ الإسلامي والحضارة والثقافة الإسلامية. وقد أشار في

---

(١) حضارة الإسلام: مقالة الأستاذ الأسطواني: مرجع سابق، ص١٥٣.

(٢) جريدة الشهاب: العدد (٥٢) تاريخ ٢٦ رمضان ١٣٧٥هـ الموافق ٦/ ٥/ ١٩٥٦م وقد بقي في رومة ثلاثة أيام، وغادرها إلى لندن حيث وصلها في ٧ رمضان الموافق ١٨ نيسان حيث استغرقت زيارته للجامعات البريطانية نحواً من شهر. وانظر حواره مع الدكتور (ماثيوس) فيلسوف الكنيسة الإنكليزية في العدد (٥٨) من جريدة الشهاب تاريخ ١٥ ذي القعدة ١٣٧٥هـ الموافق ٢٤/٦/١٩٥٦م.

كتابه (السنة) إلى طرف من تلك المجادلات مع نفر منهم مثل (أندرسون) من معهد الدراسات الشرقية بجامعة لندن، و(آربري) من جامعة كمبردج، و(روبسون) من جامعة مانشستر، و(نيبرج) من جامعة أبسلا بالسويد، والمستشرق اليهودي (شاخْت) في جامعة ليدن.. وغيرهم[1].

موقف الشيعة من الحديث: السباعي وقضية التقريب.

أشرنا قبل قليل إلى أنَّ أبو ريّة الذي ردّ عليه الأستاذ السباعي طعنه على السنة عوّل على مصادر الشيعة كما اعتمد على كتب المستشرقين؛ الأمر الذي اضطره للحديث عن موقف الشيعة من الحديث. ولكنه أشار إلى أنَّ هذا البحث جاء أولاً: «في حدود النطاق العلمي التاريخي. وحقائق التاريخ لا مجاملة في الحديث عنها حين يكون المجال مجال علم ودراسة وتحقيق». كما جاء ثانياً «لتصحيح الأخطاء التاريخية التي استمدها من كتب الشيعة»[2].

وقد مهد لذلك كله بكلمة صريحة حول أسباب الشقاق وعوامل التقريب بين السنة والشيعة، وكانت كلماته ـ رحمه الله ـ تنضح بالإخلاص والتجرد، والرغبة الصادقة في طي صفحات الماضي! لقد رفض بشدّة الطعن في صحابة رسول الله ﷺ! قال: «وأعتقد أن جمهور المسلمين ـ

---

(١) السنة، ص١٢ ـ ١٦.

(٢) المصدر السابق، ص١٠ ـ ١١.

وهم أهل السنة ـ كانوا أكثر إنصافاً وتأدباً مع صحابة رسول الله ﷺ، وهم الذين أثنى الله عليهم في كتابه ورضي عنهم، ونوّه بفضلهم في الهجرة والنصر، فليس من الجائز ولا المعقول ولا اللائق بكرامة دين الله ورسوله ﷺ أن ينقلب هؤلاء الأصحاب بعد وفاة الرسول إلى الحالة التي تصورهم بها مصادر الشيعة . . »[1].

وتحدث بعد ذلك عن ضرورة «توحيد كلمة المسلمين على أمر سواء، وإعادة النظر في كل ما خلفته معارك الماضي من أحاديث مكذوبة على صحابة رسول الله وأصفيائه، وحملة شرعه وحاملي لوائه».

وأشار إلى أن علماء السنة أخذوا بالتقارب عملياً «فاتجهوا إلى دراسة فقه الشيعة ومقارنته بالمذاهب المعتبرة عند الجمهور» قال رحمه الله: «وقد أُدخلتْ هذه الدراسة المقارنة في مناهج الدراسة في الكليات وفي كتب المؤلفين في الفقه الإسلامي، وإنني شخصياً ـ منذ بدأت التدريس في الجامعة ـ أسير على هذا النهج في دروسي ومؤلفاتي» ولكنَّ أكثر علماء الشيعة ـ في المقابل ـ لم يفعلوا شيئاً. قال: «وكل ما فعلوه جملة من المجاملة في الندوات والمجالس، مع استمرار كثير منهم في سبّ الصحابة وإساءة الظن بهم، واعتقاد كل ما يروى في كتب أسلافهم من تلك الروايات والأخبار، بل إن بعضهم يفعل خلاف ما يقول في موضوع التقريب! . . ».

---

(١) المصدر السابق، ص٧ ـ ٨.

يقول: «في عام ١٩٥٣ زرت عبد الحسين شرف الدين في بيته بمدينة (صور) في جبل عامل، وكان عنده بعض علماء الشيعة، فتحدثنا عن ضرورة جمع الكلمة، وإشاعة الوئام بين فريقي الشيعة وأهل السنة، وأن من أكبر العوامل في ذلك أن يزور علماء الفريقين بعضهم بعضاً، وإصدار الكتب والمؤلفات التي تدعو إلى هذا التقارب، وكان عبد الحسين رحمه الله متحمساً لهذه الفكرة ومؤمناً بها. وتم الاتفاق على عقد مؤتمر لعلماء السنة والشيعة لهذا الغرض، وخرجت من عنده وأنا فرحٌ بما حصلت عليه من نتيجة، ثم زرت في بيروت بعض وجوه الشيعة من سياسيين وتجار وأدباء لهذا الغرض، ولكن الظروف حالت بيني وبين العمل لتحقيق هذه الفكرة، ثم ما هي إلا فترة من الزمن حتى فوجئت بأن عبد الحسين أصدر كتاباً في الصحابي أبي هريرة مليئاً بالسباب والشتائم». وقد انتهى فيه إلى القول «بأن أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ كان منافقاً كافراً، وأن رسول الله ﷺ قد أخبر عنه بأنه من أهل النار»[1].

وأذكر ـ بهذه المناسبة ـ أن الأستاذ السباعي طلب مني ذات يوم أن أعرّف على صفحات مجلته (حضارة الإسلام) بكتاب عن (أبو هريرة راوية الإسلام) صدر في القاهرة لأحد الزملاء، وكان ذلك عام ١٩٦٣م.

---

(١) المصدر السابق، ص٨ ـ ٩. وتندرج محاولة السباعي هذه للتقريب بين السنة والشيعة في إطار نشاطه في لبنان حين خرج إليه إبّان حكم العقيد الشيشكلي. وقد أشرنا إلى هذا الخروج في صفحات سابقة.

ولما قرأت الكتاب هالني ما نقله المؤلف عن الشيخ عبد الحسين هذا من أقوال شنيعة في حق راوية الإسلام. . فعرَّضت به في المقالة التي كتبتها بعبارات حادّة، فلما اطّلع الأستاذ السباعي على هذه المقالة لامني بشدة[1]. وذكر لي ما كان من زيارته له، وما جرى بينهما من حديث التقريب. . وقال: لا يليق في جميع الأحوال أن ننزل إلى مستوى التجريح والمهاترات. .

ولهذا فقد تعجب رحمه الله من موقف عبد الحسين (في كلامه وفي كتابه). وقال في هذا الموقف إنه لا يدل على رغبة صادقة في التقارب ونسيان الماضي. . خصوصاً وأن موقفاً قريباً أو مماثلاً ما يزال يتخذه فريق دعاة التقريب من علماء الشيعة: يقول الأستاذ السباعي: «إذ هم بينما يقيمون لهذه الدعوة الدور، وينشئون المجلات في القاهرة، ويستكتبون فريقاً من علماء الأزهر لهذه الغاية، لم نر أثراً لهم في الدعوة لهذا التقارب بين علماء الشيعة في العراق وإيران وغيرهما. . ». ثم قال تعقيباً على كتاب (أبي هريرة) المذكور: إنه لا يحصر المثال بهذا الكتاب «فهنالك كتب تطبع في العراق وفي إيران، وفيها من التشنيع على عائشة أم المؤمنين، وعلى جمهور الصحابة ما لا يحتمل سماعه إنسان ذو وجدان وضمير»[2].

---

(١) انظر العدد الخامس من السنة الرابعة، ص٨١ تاريخ رجب ١٣٨٣هـ الموافق كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٣م.

(٢) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص١٠.

بل لقد قال لي مرة في لحظة من لحظات اليأس والغضب: إن مفهوم (التقريب) عندهم هو تقريب السنة من الشيعة! أي وليس التقارب المبني على البحث الموضوعي، والمستند إلى شواهد العقل وحقائق التاريخ.

قلت: والمأمول بعد أن انتقل الشيعة من قواعد المعارضة ـ كما يصور كثير منهم حال الطائفة في التاريخ ـ إلى مقاعد الحكم في أعقاب الثورة الإيرانية التي لم يشهدها الأستاذ السباعي رحمه الله.. المأمول أن تكون دعوة التقريب أو التقارب أخلص نيّة وأكثر موضوعية إن شاء الله.

وأحب أن أنوه أخيراً بتحقيق الأستاذ السباعي حول موقف الخوارج من الوضع في السنة، وتأكيده على أنه لم يعثر على أي دليل علمي يؤيد نسبة الوضع إليهم، بل إنه رأى الأدلة العلمية على العكس تنفي عنهم هذه التهمة[1].

كتب السباعي الأخرى

لا يتسع المجال للتعريف بالكتب والرسائل التي خلَّفها الأستاذ السباعي رحمه الله، لأنَّ هذا يحتاج إلى صفحاتٍ مطوَّلة لا تتسع لها فصول هذا الكتاب، الذي لا يعدو أن يكون تاريخاً لمراحل حياته، وإطلالةً على رحاب شخصيته من جهة، ولأنَّ تلك الكتب والرسائل سوف تكون محلَّ دراساتٍ جامعية معمّقة من جهة أخرى. ولهذا فإننا

---

(١) المصدر السابق، ص٨٢ ـ ٨٣.

نعرِّف بأهم هذه الكتب تعريفاً أقرب إلى التاريخ أو المدخل، ونشير إلى سائرها إشاراتٍ أقرب إلى العدِّ والإحصاء.

كتب الأستاذ السباعي إلى جانب كتابه القيّم الذي تحدَّثنا عنه (السنَّة ومكانتها في التشريع الإسلامي) الكتب التالية:

١ ـ من روائع حضارتنا.

٢ ـ عظماؤنا في التاريخ.

٣ ـ أخلاقنا الاجتماعية.

٤ ـ شرح قانون الأحوال الشخصية السوري (مجلدان).

٥ ـ المرأة بين الفقه والقانون.

٦ ـ دعوة الإسلام واقعية لا خيال.

٧ ـ هذا هو الإسلام (جزءان).

٨ ـ هكذا علمتني الحياة (قسمان: الاجتماعي والسياسي).

٩ ـ أحكام الصيام وفلسفته.

١٠ ـ اشتراكية الإسلام.

١١ ـ السيرة النبوية (دروس وعبر).

١٢ ـ القلائد من فرائد الفوائد (مختارات من كتب التراث).

١٣ ـ العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في التاريخ[1].

---

(١) يضاف إليها كتب أخرى مضى في تأليف بعضها وكاد أن يفرغ من تأليف بعضها=

وقد أشرنا في موضع سابق إلى أنه ألقى عشرات المحاضرات ومئات ـ وربما ألوف ـ الخطَب رحمه الله.

وأبدأ هنا بالإشارة إلى هذا الكتاب الأخير: (**العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في التاريخ**) الذي لم يرَ النور على الرغم من أنَّ الأستاذ كان قد فرغ من تأليفه في وقتٍ مبكّر؛ منذ أن عنيَ بالرد على مسألتين أو فريتين وهما اتهام الدعوة الإسلامية بالطائفية، والزعم بأنَّ الإسلام انتشر بالسيف.

وقد عرض لنقد هذا الزعم الثاني في أكثر من موضع من كتبه، كما بحث فيه في محاضرته أو رسالته (نظام السلم والحربِ في الإسلام) ـ إحدى رسائل المجموعة الثانية من كتاب: هذا هو الإسلام ـ في حين جاء كتابه المشار إليه: (العلاقات . .)لبيان أنَّ عصور الازدهار الإسلامي لم تعرف الطائفية[1] . . وأنَّ المسلمين كانوا على الدوام أو في مختلف مراحل التاريخ هم الضحية أو المظلومين! . . وقد سمعته يتحدث عن هذا الكتاب في أكثر من مناسبة . . وأذكر أنه قال مرةً مافحواه: إنَّ الوقائع

= الآخر، مثل: النظام الاجتماعي في الإسلام، وقانون النفقات في الفقه الإسلامي (أو في الإسلام) والظن أنه قد جمع كلَّ ما له صلةٌ بهذا القانون ـ والمسألة المالية ـ من نصوص الحديث النبوي من الكتب الستة وغيرها.

(١) انظر مقالته (بين الدين والطائفية) من كتاب: أخلاقنا الاجتماعية، ص٨٩، الطبعة الخامسة ١٩٨٧ . وانظر من مقالاته القديمة في مجلة (الفتح) افتتاحيةً بعنوان: (المسلمون وحفلات المولد) العدد (٤٥٢) ربيع الثاني ١٣٥٤هـ.

التي جمعها من بطون الكتب حول تلك العلاقة تحمل أقوى دلالات الحضّ على ترك المواقع الطائفية التي تتحصَّن بها بعض الأقليّات، وما اتّسمت به ممارستها البشعة من جهلٍ وتعصُّب. وقال: أخشى أن تفهم رسالة الكتاب على غير وجهها - علماً بأنَّ التاريخ لا يُمحى ولكن يُتَّعظ به - فأرجو أن يطبع الكتاب بعد موتي... وربما حمله على هذا الإرجاء أيضاً: عزوفه عن المراء والجدل، ورغبته في البعد عن الخصومات. ويشاء الله ألا يعثر لهذا الكتاب على أثرٍ عقب وفاته رحمه الله!.

٢ - اشتراكية الإسلام

لم يثر كتابٌ من الكتب التي ألَّفها الأستاذ السباعي من المشكلات أو التساؤلات مثل ما أثار هذا الكتاب. لا لعنوانه الذي لم يتفق معه فيه كثيرٌ من الإسلاميين فحسب، بل لبعض ما انطوى عليه من اجتهاداتٍ من جهة، ولأنه جرى توظيفه أو إشاعته من قبل نظام الحكم في مصر في ذلك الحين؛ من جهةٍ أخرى. علماً بأنَّ الأستاذ السباعي عُني بموضوع (اشتراكية الإسلام) من سنواتٍ طوال، وألقى فيه عشرات المحاضرات في المدن السورية، ودخل على أساسه الجمعية التأسيسية عام ١٩٤٩، قال: «وكان دخولي باسم الجبهة الاشتراكية الإسلامية التي اشترك في تأليفها ثلاث جمعيات إسلامية، وخاضت الانتخابات يومئذٍ على أساسها، وهي: (الإخوان المسلمون) و(الجمعية الغرّاء) و(جمعية الأنصار)، ولما نجحت في الانتخابات كنت أعمل مع إخواني ممثلي الجبهة على وضع مبادئها في الدستور الذي صدر بعد ذلك عام ١٩٥٠،

وكنت ممن ينادي بوجوب تحديد الملكية الزراعية تحقيقاً للإصلاح الاجتماعي الذي كان يشعر بوجوب القيام به جميع أعضاء الجمعية التأسيسية حتى أقرُّوا بالإجماع النصَّ الذي ورد في ذلك الدستور حول تحديد الملكية الزراعية»[1].

موضوع الكتاب كما حدَّده المؤلف: القوانين والأحكام التي جاءت في الإسلام لتنظيم حقّ التملُّك وتحقيق التكافل الاجتماعي. لقد سمَّى الأستاذ السباعي هذه القوانين والأحكام باشتراكية الإسلام، ولم يكن يخفى عليه وقع هذه التسمية على (بعض الغيورين على الإسلام) كما لم يخفَ عليه منذ وقتٍ طويل ـ أو منذ أن دخل الجمعية التأسيسية بالجبهة الاشتراكية الإسلامية عام ١٩٤٩ ـ أنَّ بعض الناس ينكرون أن تكون في الإسلام نزعةٌ اشتراكية؛ سواء في ذلك الشيوعيون الذين يقولون هذا القول تشويهاً لسمعة الإسلام وصدّاً عنه، لأنَّ مصلحتهم الحزبية تحتم عليهم أن يؤكدوا في الأذهان أنَّ الشيوعية وحدها هي الاشتراكية (العلمية) الصحيحة، وأنَّ ما عداها زيفٌ وباطل! أو من يظنّ أنَّ الإسلام دينٌ (رأسمالي) وهؤلاء ـ كما وصفهم ـ هم «الجاهلون بالإسلام مع حبهم له»، أو من يقول ذلك خدمةً للغربيين ومن يدور في فلكهم من الأغنياء وذوي الثروات والملكيات الكبيرة، قال: «وهؤلاء

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: السنة الثانية ـ العدد الثامن، ص٥٥، شباط (فبراير) ١٩٦٢.

هـم المتـاجـرون بـالـديـن، الـذيـن يضعـون أنفسهـم فـي خـدمـة مـن يستأجرهم»[1].

يقول السباعي: «لقد اخترت القول باشتراكية الإسلام مع العلم بكلِّ ما يقول هؤلاء، لأني لا أعتقد أنَّ الاشتراكية (موضة) ستزول، بل هي نزعةٌ إنسانية تتجلَّى في تعاليم الأنبياء ومحاولات المصلحين منذ أقدم العصور، وتسعى شعوب العالم الحاضر ـ وخاصةً الشعوب المتخلفة ـ إلى تحقيقها لتخلص من فواجع الظلم الاجتماعي والتفاوت الطبقي الفاحش المزري بكرامة الإنسان. وليست حقيقة الاشتراكية هي (التأميم)، ولا(انتزاع رأس المال)، ولا(تحديد الملكية)، ولا(الضرائب التصاعدية)، بل هذه كلها وسائل يراها دعاتها الطريق الصحيح لتحقيق هدف الاشتراكية»، وقد حدَّد هو هذا الهدف بقوله:

«إنَّ هدف الاشـتراكية على اختلاف مذاهبهـا هو منع الفرد من استغلال رأس المال للإثراء على حساب الجماهير وبؤسهم وشقائهم. وإشـراف الدولة على فعالية الفرد الاقتصاديـة ومراقبتها له، وتحقيـق التكافل الاجتماعي بين المواطنين، بحيث تمحي مظاهر الفاقة والحرمان وتفاوت الثروات تفاوتـاً فاحشاً، يقترن فيه الجـوع والفقر والمرض

(١) كتاب اشتراكية الإسلام، ص١٠، مطبوعات الشعب بالقاهرة. علماً بأنَّ كاتب هذه السطور كان قد تلقَّى وهو ما يزال على مقعد الدرس في جامعة دمشق نسخةً مهداة من هذا الكتاب ـ وغيره ـ بخطِّ المؤلف رحمه الله. ولكن ليس في وسعي أن أعود إليها الآن.

والمهانة بجانب الترف والرفاهية والقسوة والانحلال الخلقي»[1].

بل إنَّ الأستاذ السباعي يرتقي في حماسته الشديدة لهذه التسمية إلى حدٍّ عدّها باباً من أبواب الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة؛ إذ ما هي هذه الحكمة إن لم تكن دعوة الناس إلى الحقّ والخير بأسلوب يُصغون إليه ويأنسون به؟ «ومادام الناس في مختلف الشعوب يتوقون إلى تحقيق ذلك الهدف، ويتهافتون على المذاهب الاشتراكية المعروفة، اعتقاداً منهم بأنها هي الطريق الوحيد لتحقيقه، أفلا يجب علينا أن ندلَّهم على (طريق آخر) لا يعرفونه لتحقيق ذلك الهدف العظيم، وهو طريقٌ أكملُ منهجاً وأكثر استقامة، وأبعد عن مساوئ تلك المذاهب الاشتراكية وعيوبها؟ وماذا يفعل الذين يعتقدون بالحق حين يجدون الناس يبحثون عنه؟ ألا يسلكون كلَّ سبيلٍ مشروع للدعاية له ولفت الأنظار إليه؟ فلماذا نحجم عن لفت أنظار الناس إلى طريق الإسلام في تحقيق هدفهم، الذي هو هدف الإنسانية الكريمة في كلِّ عصورها؟»[2].

هذه أبرز الأسباب التي دعت الأستاذ السباعي إلى هذه التسمية.. في الوقت الذي ترك الباب مفتوحاً لمن يريد أن يسمي هذه النزعة أو تلك القوانين والنظم الإسلامية بـ(العدالة الاجتماعية) أو التكافل الاجتماعي

---

(١) المصدر السابق، ص١١، ويقول عباس محمود العقاد: «ولكني أومن إيماناً جازماً بصحّة رأيٍ واحد يتفق عليه جميع الاشتراكيين وهو إنكار الاحتكار والاستغلال» يوميات: ٣/ ٦٧٩، دار المعارف بمصر.

(٢) اشتراكية الإسلام، ص١٢.

أو محاربة الفقر . . وما أشبه ذلك.

ولا يخفى في هذه الأسباب ـ والدوافع ـ أمران: **الأول**: خوف السباعي على العمال والفلاحين وسائر جماهير الفقراء من أن تجرفهم الدعاية الشيوعية بعناوينها البرَّاقة في وقتٍ تمتعت فيه الماركسية بشيءٍ من البريق أثناء الحرب العالمية الثانية وفي أعقابها في الفترة الممتدة لنحو عقدين من الزمان؛ فأراد أن يستعير كلمة (الاشتراكية) ويجعلها علماً أو عنواناً على مبادئ التملُّك وقوانين العدل الاجتماعي وألوان التكافل في الإسلام. . ليصرف تلك الجماهير عن الشيوعية وما كانت تستبطنه من الإلحاد وفساد الأخلاق.

الأمر الثاني: يقف وراء هذا الاجتهاد ـ فيما أعتقد ـ نزعةٌ إنسانية عميقة انطوت عليها نفسية الأستاذ السباعي، وكراهيته ونفوره الشديدين من الجوع والفقر[1]، ولا شكّ في أنَّ هذه النزعة كان لها رفدٌ كبير من أحكام الشريعة التي شُرعت للعناية بالفقراء والمساكين، ومبادئ الإسلام الإنسانية الرفيعة. . ونذكِّر هنا بدور التنشئة والتربية في إذكاء هذه النزعة

---

(١) من الكتب التي كان يعدُّها من الروائع (كتاب المساكين) لمصطفى صادق الرافعي، وقد حدَّثني مرةً عن إعجابه الشديد وتأثره بهذا الكتاب. . . وقد مضى على قراءته له سنوات طوال. رحم الله داعية الإسلام السباعي، وأديب العربية الرافعي.
وانظر مقالته: «أيها المسلمون غداً يكون العيد فاذكروا بكاء اليتامى ولوعة الأرامل» افتتاحية العدد رقم (٥٨٨) من مجلة (الفتح) ١٣٥٦هـ.

في نفس السباعي يوم كان أبوه يصطحبه وهو صغيرٌ لتوزيع المواد الغذائية على الأسر الفقيرة في البيوت. . حتى رأيناه يخصِّص أيام قيادته لدعوة الإخوان يوماً أسماه (يوم الفقير) وحتى دخل الجمعية التأسيسية كما قلنا باسم (الجبهة الاشتراكية الإسلامية) لقد كان هذا الهاجس حاضراً في نفسه على الدوام. . ولقد شهدته في أكثر من موطن لا يقوى على رؤية سائلٍ أو معدم أو فقير!!.

لا أعرض هنا لشيءٍ من الاجتهادات التي وردت في الكتاب، والتي أثارت جدلاً أو كانت سبباً لمساجلاتٍ عديدة مع بعض العلماء(١)، ومع فضيلة الداعية العلاّمة الشيخ محمد الحامد على وجه الخصوص، وقد كان الشيخ الحامد رحمه الله أقرب زملاء الأستاذ السباعي وأحبَّهم إلى نفسه أيام دراستهما المشتركة في مصر، وبقي حبل الأخوة والودّ والتقدير بينهما موصولاً على الدوام. وقد اتسعت صفحات مجلة

---

(١) أشير هنا فقط إلى موضوع (التأميم) الذي قال به الأستاذ السباعي، والذي قيل إنه تراجع عنه، فأقول: على الرغم من أنَّ بعض الأدلة التي استدلَّ بها الأستاذ السباعي ـ مثل قياس التأميم على الوقف أو التسوية بينهما ـ موضع نظر، أو يصعب التسليم به، فإنَّ الناظر في جملة ما استدل به أو ذكره في هذا الموضوع ـ فضلاً عن الروح العامة التي تحكم الكتاب ـ لا يصعب عليه أن يعدّ هذا التراجع إنما هو عن وضع تشريع التأميم بين يدي غير المؤهلين لاستخدامه، وليس عن أصل الحكم الذي قال به أو ذهب إليه، والله أعلم.
راجع العدد الخاص من مجلة (حضارة الإسلام): مقالة الأستاذ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله، ص١٧٣.

(حضارة الإسلام) ـ وبعض المؤلفات ـ لهذه المساجلات العلمية القيمة[1]، وقد جمعت ردود الشيخ الحامد في كتابٍ بعنوان: (نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام).

ولكنني أبقى في إطار العنوان أو اسم الكتاب. . لأذكر ما يلي: قال الأستاذ في بعضِ المرات: هذا الكتاب بين أيدي الناس، ولهم أن يقرؤوا مضامينه ويطّلعوا على ما فيه من أحكام الفقه والتشريع. . ومن كان خلافه معنا قاصراً على التسمية ففي وسعه أن ينزعِ غلاف الكتاب أو يضع عليه العنوان الذي يشاء. وقد دخلت عليه مرةً وكان أمامه على الطاولة بضعة كتبٍ منها كتابٌ مترجم بعنوان: (الاشتراكية البنّاءة) ـ أظنّ أنه لكاتبٍ يدعى (ده مان) ـ فقال لي: خذ وانظر في هذا الكتاب. إنَّ مؤلفه يقول: لقد ظهر للاشتراكية في الجزر البريطانية وحدها خلال فترةٍ

---

(١) يضاف إليها دراسات أخرى كثيرة، نذكر منها الصفحات من (٢٧٤) إلى (٢٩٥) من كتاب: الفكر السياسي الإسلامي المعاصر تأليف أحمد عنايت، وقد ترجمه عن الفارسية وراجعه على النص الإنكليزي الدكتور إبراهيم الدسوقي شتا ـ مكتبة مدبولي ـ القاهرة. وانظر كتاب: يثرب الجديدة: الحركات الإسلامية الراهنة للكاتب محمد جمال باروت. وقد تضمن فصلين عن الأستاذ السباعي: الأول بعنوان: (الخطاب الشعبوي الإسلامي: قراءة في (اشتراكية الإسلام)، ص٩٥ ـ ١٢٧ والثاني بعنوان: (مصطفى السباعي: الحركة الإسلامية ما بين الحركة المدنية والحركة الدينية، ص١٢٩ ـ ١٣٩) مع الإشارة إلى عدم اتفاقنا مع الكاتب الباحث في بعض التحليلات. وإلى أنَّ الكتاب الأول السابق يتضمن نظرات نقدية حسنة.

محدودة من الزمان أكثر من مئتي تعريف! فلماذا يستغرب الناس حديثي عن اشتراكية الإسلام؟ واستغرق الحديث عن هذه النقطة أو المسألة جزءاً كبيراً من الوقت. . حتى إذا استأذنت للذهاب ونهض رحمه الله ليشيِّعني إلى الباب ـ كعادته مع ضيوفه على الرغم من مرضه ـ توقَّف للحظاتٍ والتفت نحوي قائلاً: إنَّ من أروع ما قرأته لجمال الدين قوله: إنَّ الاشتراكية سوف تكون دين المستقبل بالنسبة لغير المسلمين! وأثنى على نفاذ الرؤية عند هذا المصلح وقد بدت عليه أمارات التأثُّر والانفعال[1]!.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه عند هذه النقطة: أليس في هذه الكلمة التي نقلها الأستاذ السباعي عن جمال الدين مايوحي بانفصال هذا المذهب ـ ولا أقول النزعة ـ عن الإسلام؟ لا نعتقد أنه كان في مقدور الأستاذ السباعي أن يتحدث عن (الاشتراكية) أو عن هذا (الاسم) أو المصطلح بوصفه دالاً على نزعةٍ إنسانية أو كنزعةٍ إنسانية بعد أن توضَّع كمذهبٍ أو مذاهب عرفها (الاقتصاد) وتاريخ الفكر الاجتماعي ـ السياسي والاقتصادي ـ في أوروبة![2] وربما كان هذا هو السبب الذي

---

(١) نعت الأستاذ السباعي جمالَ الدين الأفغاني بـ (المصلح الإسلامي الكبير السيد جمال الدين)، وعطف عليه بـ (تلميذه وزميله الإمام محمد عبده). انظر مقدمة كتاب اشتراكية الإسلام، ص٩.

(٢) إنَّ مما يناسب الإسلام ـ أو رسالة الدين ـ أن يستوعب هذه المذاهب، وألاَّ يستوعبه مذهبٌ منها، لأنها تأتي وتذهب، ويعتريها التعديل والتبديل جيلاً بعد جيل. وربما كان قريباً من هذا: حديث الأستاذ السباعي عن النبي ﷺ تحت عنوان: (الاشتراكي العظيم) وحديثه عن إنجازات الإسلام التاريخية=

ساعد على طبع الكتاب و(توظيفه) من قبل الدولة ترويجاً لاشتراكيةٍ (هجينة) كان يجري تطبيقها في مصر. . كما بُدئ بتطبيقها في سورية أيام الوحدة، فخسرت الصناعة وتعطّلت الزراعة، ولم يكسب العمال والفلاحون!! فضلاً عن الاشتراكية العربية أو (العلمية) أو سواها من الاشتراكيات التي رفع شعارها بعض الأحزاب العلمانية ـ القومية أو الماركسية ـ والتي لم تكن في الواقع أكثر من وسيلةٍ للاستبداد السياسي، وكان دورها في تكريس المعاناة أو في إشاعة الظلم الاجتماعي أكثر من رفعه[1]، إلى جانب ما (أنجبته) من الطفيليين وطبقة المنتفعين.

أما أن يكون هذا الكتاب قد وُضع دعماً (للاشتراكية المصرية) أو تبريراً لها ـ كما توهَّم أو زعم بعضهم ـ فهذا ضربٌ من المحال، لأنَّ حديث السباعي عن الاشتراكية الإسلامية أسبق من الثورة المصرية ذاتها! كما رأينا في الجمعية التأسيسية (الجبهة الاشتراكية الإسلامية ـ تعليقه وحديثه عن الدستور السوري. .) ولأنَّ شخصية السباعي ومواقفه الفكرية والسياسية لا يمكن أن توحي بشيءٍ من هذا القبيل! وقد أشرنا إلى موقفه من (حكام مصر) حين أقدموا على إعدام ستةٍ من قادة الإخوان

= أو بعض هذه الإنجازات باسم إنجازات اشتراكية الإسلام. انظر كتاب (اشتراكية الإسلام)، ص٣٦٤، وافتتاحية عدد ربيع الأول ١٣٨١ أيلول (سبتمبر) ١٩٦١ من مجلة (حضارة الإسلام).

(١) راجع كتابنا: جذور الفكر القومي والعلماني، ص٣٣ ـ ٣٥ المكتب الإسلامي ١٩٩٩.

في مصر، وإن كان هذا لم يمنعه من الإشادة بتأميم قناة السويس، وعدّه هذا الحدث حداً فاصلاً بين عهدين. وهذا استعلاءٌ على الخلاف، وضربٌ من الموضوعية والإنصاف لا يمتّ بصلةٍ إلى تبديل المواقف ومخالفة القناعات.

وربما استند أصحاب هذا الزعم إلى أنَّ الأستاذ السباعي مُنح على هذا الكتاب جائزة الدولة التشجيعية من قبل المجلس الأعلى للعلوم والفنون والآداب عام ١٩٦٠ علماً بأنَّ الكتاب كان في أصله محاضرةً تقع في (١١٢) صفحة أُلقيت على مدرج جامعة دمشق في (٢١) رمضان ١٣٧٨هـ ـ (٣٠) آذار (مارس) ١٩٥٩م وكان لها وقعٌ حماسيّ شديد التأثير[1] قبل أن يعاد طبعها في العام نفسه في كتابٍ بلغت صفحاته (١٧٥) ثم طُبع مرةً أخرى في مطلع عام ١٩٦٠ في كتابٍ جديد أو (تأليف جديد) ـ إن صح التعبير ـ زادت صفحاته على (٤٢٠) صفحة.

ولكن اللجنة العلمية المختصة في المجلس الأعلى قرَّرت منح الأستاذ السباعي الجائزة المذكورة لاعتباراتٍ علمية محضة لا صلة لها بأيِّ موقفٍ سياسي، وقد كان رئيسها يومذاك أستاذنا العلاّمة الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله. . الذي لم يكن يخفي عدم تعاطفه. . بل عدم وفاقه مع النظام الحاكم في مصر في يومٍ من الأيام، وكان يأبى دائماً أن يسحب الأحكام التي جعلها الفقهاء من حقِّ (وليّ الأمر) على الحكام

(١) استغرق إلقاء هذه المحاضرة نحواً من ثلاث ساعات، وقد شهدتُها مع عددٍ كبير من المستمعين وقوفاً على الأقدام بعد أن غصَّ المدرج بالحضور.

الذين عاصرهم، وبخاصةٍ العسكريين منهم! وكانت له في هذا الباب ـ أو على وجه الإجمال ـ آراء ومواقف دينية فقهية وسياسية اجتماعية تنأى به عن أيٍّ مهادنةٍ أو مصانعة! وقد يتسع المجال هنا للإشارة إلى أنه كان (وفدياً) شديد الإعجاب بالزعيم سعد زغلول.. وقد بقي طيلة حياته يكنّ هذا الإعجاب للوفد ولسعد ولمصطفى النحاس من بعده ـ وما سمعته منه حول الوفد ورجالاته وحول الثورة المصرية ورجالاتها يحتاج إلى صفحات، وكله يندرج في الإطار الذي أشرنا إليه ـ حتى إنني على قناعةٍ تامة بأنَّ أبا زهرة، ولهذا السبب وحده دون سواه! لو كان يعلم أنَّ هذا الكتاب سوف يجري (توظيفه) أو استغلاله على هذا النحو؛ لتردَّد في الموافقة على منحه الجائزة أو لامتنع عن ذلك سداً للذريعة!.

على أنَّ الحديث تشعَّب بيني وبينه ذات ليلة ـ وكنت أتردَّد عليه في دارته بضاحية الزيتون بالقاهرة ـ ووصل إلى الحديث عمَّن درس الشريعة أو القانون في الجامعات المصرية من طلبة الدراسات العليا من السوريين، وعن علماء سورية الذين عرفهم أو التقاهم ـ وكان قد زار سورية أكثر من مرة ـ فتوقَّف عند مصطفى السباعي، وقال إنَّ أثره في (الدعوة الإسلامية) كبير!. ثم أثنى على حسن إفادته من المصادر ومن النصوص.. وعلى (الملكة الفقهية) التي تجلَّت في كتابه: (اشتراكية الإسلام)! ثم قال: وأنا الذي رشَّحتُه لجائزة الدولة على هذا الكتاب! فجاءني جوابٌ عابر قاطع.

وأضيف هنا ـ بهذه المناسبة ـ أنَّ الأستاذ السباعي تلقَّى رسائل

كثيرة تؤيده فيما ذهب إليه، منها رسالةٌ من الأستاذ الشيخ علي الخفيف ـ وهو من أكبر الفقهاء المعاصرين ـ قال فيها: «لقد قرأتُ كتابك مرتين، وأنا معجبٌ لهذه الروح العلمية والغيرة الشديدة على الإسلام، حتى استطعتَ أن تقنع كلَّ من يقرؤه بأنَّ الإسلام وحده الكفيل بحلٍّ مشكلاتنا دون الحاجة إلى أيِّ مذهبٍ آخر»، ورسالةٌ أخرى من الأستاذ الداعية الشيخ أبو الحسن الندوي، قال فيها: «لقد بحثتَ هذا الموضوع بحثاً لم يسبقكَ غيرك إليه، وقد ساعدك على ذلك: إلمامك بالفقه الإسلامي وفروعه، فجاءت آراؤك مؤيَّدةً بنصوصٍ لا مجال للاعتراض عليها، فجزاك الله عن دينه وعباده خير الجزاء. إنني أرى أن يترجَم هذا الكتاب إلى جميع لغات العالم الإسلامي، ليعرف المسلمون وخاصةً شبابهم أنَّ دينهم يغنيهم عن هذه المذاهب المستعارة الهدَّامة الملحدة»[1].

وآخر ما أذكره حول هذا الكتاب: أنني قمت بزيارة الأستاذ

---

(١) انظر مقالةً بعنوان: (مهرجان علمي في جامعة دمشق) تحدث فيها كاتب هذه السطور عن ندوةٍ شهدتها جامعة دمشق مساء السابع عشر من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٢، وكانت بعنوان: (اشتراكية الإسلام بين المؤيدين والمعارضين) وشارك فيها بالإضافة إلى الأستاذ السباعي رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه: كلٌّ من الأستاذ محمد المبارك عميد كلية الشريعة، والأستاذ مصطفى الزرقاء رئيس قسم القانون المدني وأستاذ الشريعة الإسلامية في كلية الحقوق، والأستاذ محمد المنتصر الكتاني.
مجلة (حضارة الإسلام): العدد السادس من السنة الثالثة، ص٨٤ شعبان ١٣٨٢هـ ـ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٣م.

السباعي في أواخر شهر أيلول (سبتمبر) عام ١٩٦٤ ـ وأظنّ في السابع والعشرين ـ عقب عودتي من القاهرة بعد انتهاء السنة التحضيرية لشهادة الماجستير. . وجرى الحديث عن الدراسات العليا وأثرها في تطوير البحث العلمي ونشاط حركة التأليف. . فسألني عن كتابه: (اشتراكية الإسلام). . فقلت إنه ما يزال يباع في القاهرة بثمنٍ زهيد في المكتبات وعلى سور الأزبكية! فبدت عليه بعض علامات الإحباط حتى وقع في نفسي أنه ربما كان قد تدخَّل لدى بعض الجهات ليحول دون ذلك ولكن دون نجاح! ولكني تابعت حديثي بشيءٍ من الحماسة فقلت: إنَّ الكتاب استُغِلَّ أسوأ استغلال! فقال لي: إنَّ قريباً لي عاد من القاهرة من قريب وحدثني عن معاناة الشعب الاقتصادية هناك، فقلت: إنَّ الأمر قريبٌ مما قال. . فقال: إني عازمٌ إن شاء الله على السفر إلى مكة المكرّمة وإنَّ أول عملٍ سوف أقوم به هو أن أكتب كتاباً أفضح فيه اشتراكية هؤلاء المضلِّلين! واستأذنتُه ـ قبل أن أنصرف ـ في أن أعود لزيارته مع بعض الإخوة بعد عصر يوم السبت القادم لتوديعه قبل سفره. . . وحين كنّا نتأهَّب لهذه الزيـارة بعد ظهر ذلك اليوم جاءنـا خبر نعيـه، فوقع علينـا كالصاعقة. . رحمه الله وأعلى مقامه[1].

---

(١) ألحق الأستاذ السباعي بكتابه (اشتراكية الإسلام) خطابه التاريخي (جواب الإسلام على الشيوعية) وهو الخطاب الذي ألقاه في (٢١) شعبان ١٣٧٣هـ ـ (٢٥) نيسان (إبريل) ١٩٥٤م في المؤتمر الإسلامي المسيحي العالمي الذي عُقد في (بحمدون) بلبنان، ونظَّمته جمعية أصدقاء الشرق الأوسط الأمريكية، ودعت إليه وفوداً من جميع أنحاء البلاد العربية وباكستان وإيران وتركية =

٣ ـ دعوة الإسلام واقعية لا خيال :

تعدّ هذه الرسالة من أبرز البحوث والمحاضرات الدالّة على شخصية الأستاذ السباعي الباحث والمفكر والداعية : لأنها انطوت على هذه العناصر جميعاً في وقتٍ واحد. وقد جاءت رداً على من قال في (الدعوة الإسلامية) إنها خياليةٌ لا يمكن لها أن تعيش. ويبدو أنَّ قائل هذا القول أو هذا الاتهام إنما حمله عليه أو ساقه إليه : سوء الأوضاع من حوله، والتراجع الذي ظنَّ أنَّ الأديان عموماً، والإسلام خصوصاً، قد وقعت فيه أو انتهت إليه.. فالأمر فيما نقدِّر : مصدره الهزيمة أو ضعف

= وغيرها من بلدان العالم الإسلامي. وقد أعدَّ الأستاذ السباعي كلمته هذه في اليوم المذكور من أيام المؤتمر (٢٢ ـ ٢٧ نيسان) بطلبٍ من الوفود التي رأت أن تلزم القائمين على المؤتمر بفسح المجال لإلقاء كلمةٍ عن الشيوعية في نظر الإسلام غير الكلمة التي أُلقيت! «فكُتبت كلمة السباعي وتُرجمت إلى الإنكليزية في بضع ساعات» ونجحت هذه الكلمة التي كان لها وقعُ القنبلة في تحويل المؤتمر إلى مظاهرةٍ للانتصار لفلسطين والقضايا العربية والإسلامية في الوقت الذي كان يهدف المنظِّمون للمؤتمر إلى الترويج للسياسة الغربية وإلى إنشاء كتلةٍ عالمية باسم الإسلام والمسيحية ضد الاتحاد السوفييتي. وقد تحدث في هذه الكلمة عن الجوانب التي ننظر من خلالها إلى الشيوعية، وعن الصهيونية كحركةٍ مادية ميكيافيلية تقوم على العدوان وتدبير الحروب. وقد دان في هذه الكلمة بشدَّةٍ محاربة (الديمقراطيات الغربية) لشعوب الشرق في أمانيها التحررية والاستقلالية. راجع كتاب (اشتراكية الإسلام) الصفحات : (٣٧١ـ٣٨١).

العزيمة من جهة، والخطأ في فهم حركة التاريخ من جهةٍ أخرى. . فضلاً عن الاستغراق في اللحظة التاريخية تلك، وعدم الإلمام بخصائص الإسلام والدعوة الإسلامية من جهةٍ ثالثة.

نقدّم هنا مثل هذا التعليل ـ العابر ـ لأنَّ الذي أطلق هذا القول ـ كما وصفه الأستاذ السباعي ـ «لم يكن يُعهَد عنه ميلٌ سافر إلى محاربة الدعوة الإسلامية، وله في أوساطها أصدقاءٌ يحسنون الظنّ به» بالإضافة إلى أنَّ هذا القول جاء في سياق خطبةٍ أُلقيت في حفلةٍ أقامها حزبٌ سياسيّ كبير «لم يكن له سابقة عهدٍ في البحث في مثل هذه المواضيع، فعهدنا به ـ كما يقول الأستاذ السباعي ـ حزبٌ سياسيّ لا علاقة له بالدين، ولا ولع لأصحابه بمقارنة العقائد وتبنِّي بعضها ومهاجمة الآخر» وكان الهجوم قد تناول عقائد ثلاث كانت قائمةً في سورية آنذاك، يوم أُلقيت هذه الخطبة عام ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م بمناسبة العدوان الفرنسي على سورية في (٢٩) أيار (مايو)[١].

هاجم الخطيب الدعوات الثلاثة: القومية السورية، والشيوعية، والدعوة الإسلامية. ونعتَ الأولى بأنها ضيّقة الأفق، والثانية بأنها عالميةٌ تتأثّر بتوجيهٍ أجنبي، ونعت الدعوة الإسلامية بأنها خيالية لا يمكن أن تعيش، ولا بدَّ من أن تموت![٢].

---

(١) أغلب الظنّ أنَّ الخطيب كان الدكتور عبد الوهاب حومد، وأنَّ الحزب المقصود هو حزب الشعب.

(٢) راجع جريدة الشهاب العدد الثامن في ٢٧ شوال ١٣٧٤هـ ـ ١٩/ ٦/ ١٩٥٥.

تساءل الأستاذ السباعي عن (مقياس) الواقعية والخيالية في الدعوات؟ وقال إنه لم يجد لذلك أصلاً «يرجع إليه في بحوث المعنيين بالدعوات والمذاهب الفكرية والاجتماعية» ولكنه استند إلى «التجربة في حقل الدعوة» وإلى استقراء التاريخ القديم والحديث.. إلى جانب «دراسة الدعوات والمذاهب التي قامت في مجتمعاتٍ متعددة ثم انقرضت وبادت، أو تحولت عن مبادئها وتبدَّلت في مناهجها».. ثم انتهى إلى القول إنَّ مقياس (الواقعية) في الدعوات وعلائم الحياة فيها: أن تجتمع لها ثلاثة عناصر رئيسية هي: **الذاتية والتقدمية والشمول**... وكشف في ضوء هذا المقياس أو من خلال البحث في هذه العناصر عن (مدى) تمتُّع الدعوة الإسلامية بالواقعية، وافتقار سائر الدعوات الأخرى التي أشار إليها المتحدِّث، وتلك التي لم يتعرَّض لها كذلك، وأعني القومية العربية.. إلى هذه الواقعية. وفرّق في حديثه عن موقف القوميين العرب من الدين ـ في سياق التساؤل عن عناصر الواقعية في القومية العربية ـ بين قسمٍ من القوميين يحارب الدين، وقسمٍ يحسن الظنّ بالإسلام ولكنه يرى الدينَ خطراً على (الوحدة القومية)[1]... إلخ.

عنى الأستاذ السباعي بالعنصر الأول ـ الذاتية ـ «أن تكون الدعوة منبثقةً من طبيعة الأمة، منسجمةً مع خصائصها، مستوحاةً من حاجاتها.. حتى تكون تعبيراً روحياً صادقاً عن آمالها وطموحها» قال: «وهذا شرطٌ

---

(١) نذكِّر هنا بالنقد القديم للأستاذ السباعي لما قاله ميشيل عفلق عندما كان مدرِّساً للتاريخ بدمشق عام ١٣٥٦هـ.

ضروريّ لاستجابة الأمة للدعوة وحياتها في قلوبها ومشاعرها».

وعنى بالعنصر الثاني ـ التقدّمية ـ «أن تكون الحركة الإصلاحية أو الدعوات الاجتماعية مسايرةً لتطور الحياة وتقدّم الحضارة...».

أما العنصر الثالث وهو الشمول، فمعناه «أن تحتوي الدعوات الإصلاحية مناهج الإصلاح لكلِّ نواحي الحياة في المجتمع الذي تقوم فيه، لأنَّ المجتمع وحدةٌ متماسكة؛ فالأخلاق لا تنفصل عن الاقتصاد، والسياسة لا تنفصل عن العلم. فالدعوة إلى إصلاح الأخلاق في أمةٍ لا يمكن أن تنجح إلا إذا رافقها إصلاحٌ في الأوضاع الاقتصادية فيها، والدعوة إلى تحرير الأمة سياسياً من الاستعمار أو الطغيان لا تنجح إلا إذا رافقها إصلاح الأخلاق ونشر العلم وتهذيب النفوس».

ويضيف الأستاذ السباعي قائلاً: «إنَّ حركتنا السياسية قد استنفدت من جهود الأمة نصف قرن، ولو رافقها إصلاحٌ أخلاقي واقتصادي وعلمي لكانت هذه المدّة كافيةً لأن تجعلنا في مقدمة الأمم قوةً وحضارة وكرامة. وجهود العرب في قضية فلسطين لو كانت منسجمةً في الميادين الأخلاقية والاقتصادية مع الميدان العسكري والسياسي لما كان في الدنيا اليوم شيءٌ اسمه إسرائيل..».

حول القوميين ونظرتهم إلى التاريخ العربي الإسلامي:

ونحبّ أن ننوِّه هنا ـ بهذه المناسبة، واستكمالاً لهذا الموضوع ـ بمحاضرةٍ قيّمة للأستاذ السباعي بعنوان: «نظرتنا إلى التاريخ العربي»

جاءت رداً على نشرةٍ حزبية تحت نفس العنوان[1]. قال رحمه الله: إنَّ فكرة كاتب النشرة عن الإسلام تتلخَّص فيما يلي:

---

(١) ألقى الأستاذ السباعي هذه المحاضرة في المركز العام للإخوان بدمشق مساء الثلاثاء في (٣٠) شوال ١٣٧٤هـ - (٢١) حزيران (يونيو) ١٩٥٥م. والنشرة المذكورة صدرت باسم حزب البعث العربي الاشتراكي وكانت بقلم إلياس فرح، المدرِّس بدار المعلمين بحلب. راجع جريدة (الشهاب) الدمشقية العدد (٩) تاريخ ٢٦/٦/١٩٥٥.

وأشير بهذه المناسبة إلى أنَّ (علماء حلب) رفعوا مذكَّرة إلى رئيس مجلس الوزراء طالبوه فيها بعملٍ حاسم ضد هذا العمل درءاً للفتن. ومما جاء في هذه المذكرة أنَّ «هذا الرجل النصراني بسط لسانه في الإسلام وشرعته المطهَّرة كما يبسطه أشد الناس عداوةً وحقداً على حقائق الإسلام الثابتة، بحيث يقنع قارئها بأنه لو كان يملك هو ومن يرتاح لمثل مقالته من فئته أيَّ قوّةٍ لم يتأخر عن استعمالها في محاربة الإسلام ومحوه من البلاد؛ مؤازرةً للاستعمار وخدمةً للمستعمرين...» جريدة الشهاب العدد (٨) تاريخ (٢٧) شوال ١٣٧٤هـ - (١٩) حزيران (يونيو) ١٩٥٥م.

هذا، وقد تناول الأستاذ السباعي مسألة العرب والإسلام في محاضرات وأحاديث عديدة، منها (قاعة بحث) في كلية الشريعة بعنوان: (أثر القرآن في الحياة العربية) نُشرت في مجلة حضارة الإسلام في حلقتين. انظر العددين (٩، ١٠) من السنة الرابعة: نيسان وأيار ١٩٦٤. ومنها حديثان: الأول بعنوان: (الإسلام والعرب)، والثاني بعنوان: (أثر الإسلام على العرب). نشرا في المجلة المذكورة بعد وفاته رحمه الله. انظر العددين الثاني والثالث من السنة السابعة ١٩٦٦.

١ ـ أنه انقلابٌ عربيّ معبّر عن نفسية العرب في ذلك العصر، ومعناه أنه نابعٌ من نفس محمد، ومصنوع من العرب الذين كانوا في عصره.

٢ ـ أنه غير صالحٍ لكلِّ زمانٍ ومكان.

٣ ـ أنه إن كان فيه إنقاذٌ للعرب في الماضي، ففيه اختناقٌ لهم في الحاضر والمستقبل!.

وقد اتهم الأستاذ السباعي الكاتبَ بالجهل بالإسلام وبالاتجاهات العلمية الحديثة في سياق ردِّه وتفنيده لهذه المزاعم، وقال: «إننا حين نعلن أننا جميعاً مواطنون في هذا الوطن متساوون في الحقوق والواجبات. . فهذا لايعني أننا نسمح لأيِّ إنسانٍ أن يستغلّ هذه المواطنية ويستغل العروبة والقومية ليطعن في دين هذه الأمة ويسخر بتاريخها وحضارتها، ويحقِّق بذلك طائفيةً مستترة، وشعوبيةً مبطّنة!»[1].

٤ ـ أخلاقنا الاجتماعية:

جمع الأستاذ السباعي في هذا الكتاب الأحاديث التي ألقاها من محطة الإذاعة السورية في الفترة الواقعة ما بين السادس من شعبان ١٣٧٣هـ (٩/ ٤/ ١٩٥٤م) والسادس من المحرم ١٣٧٥هـ (٢٥/ ٨/ ١٩٥٥م) أي خلال أربعة عشر شهراً. وقد بدأ بإلقائها بعد زوال حكم

---

(١) انظر فقرةً بعنوان: (تجاوزات الفكر القومي)، ص٧٨ ـ ١١٠ من كتابنا: جذور الفكر القومي والعلماني.

أديب الشيشكلي (في ٢٥/ ٢/ ١٩٥٤م) بنحو أربعين يوماً. وقد تناول الأستاذ في هذه الأحاديث ما طرأ على الأخلاق الاجتماعية أو أخلاق المجتمع من ضعفٍ وانحراف «بأسلوبٍ سهل يفهمه الناس على اختلاف ثقافتهم» وقد استند الأستاذ السباعي في هذه الأحاديث كما قال في المقدمة المقتضبة للكتاب «إلى القرآن والسنّة والتاريخ والتجربة والمشاهدة لأخلاقنا وأوضاعنا الاجتماعية بعد أن أصابني بعض لأوائها وأذاها». وأضاف: «وقد كان لي من حياتي العملية ـ سواء في ميادين التربية أو السياسة أو الدعوة ـ ما جعلني أتحدث عن أخلاقنا حديثاً فيه القسوة أحياناً وفيه الصراحة، ولكني كنت أبغي الخير والقيام بالواجب الذي ألقاه الله على دعاة الإصلاح».

وقد ألحق بهذه الأحاديث الستة والعشرين مقالةً مهمة بعنوان: (رسالة العلماء) ـ الصفحات (١٩٧) إلى (٢١٣) ـ والتي صنّف فيها علماءَ عصره إلى خمسة أصناف. ولعلنا لا نملك أن نعدل في هذا التصنيف الذي مضى عليه الآن نحو نصف قرن.. إلا القليل! وبخاصةٍ الصنفان الرابع والخامس... فإنَّ وجودهما لم ينقطع فيما يبدو خلال العصور. قال رحمه الله في علماء الصنف الرابع: إنهم علماءٌ فجّار أشرار، يتكسّبون بالدين، ويتاجرون بالشريعة، ويتقرّبون إلى كلِّ فاجر وطاغية وظالم وسارق بالتأييد والدعاء..» وقال في الصنف الخامس: إنهم «علماءٌ مصلحون يفهمون الشريعة على أنها نظامٌ للمجتمع، وإسعادٌ للناس، وتحرُّرٌ للجماهير..».

ويبدو في هذا الكتاب: سلاسة القول وعذوبة البيان التي عُرف بها السباعي.. ولا أزال أذكر حديثه الذي كان بعنوان «بين الحزم والاستبداد» والذي كنت أستمع إليه في أواخر حزيران ١٩٥٤ وقد فرغت من امتحانات الشهادة الإعدادية.. وكانت لهجته آسرةً محبَّبة.. حتى إذا تحدث عن مآسي الاستبداد وجعل منها أنه يلبس الحقّ بالباطل، فيظلم وهو يزعم أنه عادل، ويهدم وهو يزعم أنه يبني.. أشار إشارةً واضحة إلى عهد أديب الشيشكلي.. فقال: «وليس أدلّ على ذلك من ماضٍ قريب كانت تسير فيه البلاد بخطًى سريعة نحو الإفلاس والانهيار، من حيث يزعم الطاغية أنه يسير بها نحو القوة والمجد..»[1]، وقد أدركت هذه الإشارة في ذلك الحين.. وإن كانت حماستي الشديدة لها لم تبقَ على حالها فيما بعد.

وأذكر هنا بمناسبة هذا الحديث عن الحزم والاستبداد أنَّ الأستاذ السباعي أبدى شكَّه في صحة نسبة المقولة الشائعة: «لا يُصلح الشرقَ إلا مستبدٌّ عادل» لجمال الدين الأفغاني رحمه الله «فإنَّ المستبدَّ لن يكون عادلاً أبداً، والعادل لن يكون مستبداً أبداً. وما يقع الاستبداد إلا مقترناً بأبشع أنواع الظلم والبغي وانتقاص حقوق الأمة وإهدار كرمتها». وقال رحمه الله: «ولعل الكلمة الصادقة هي أنَّ الشرق لا يُصلحه إلا حازمٌ عادل لا مستبدٌّ عادل؛ فإنَّ الحزم والعدل صنوان لا يفترقان.. ونحن في

---

(١) أخلاقنا الاجتماعية، ص٧٨ الطبعة الخامسة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

أشد أشد الحاجة إلى عدلٍ يصون الحقوق من استبدادٍ يهدر الحقوق ويزري بالكرامة»[1].

٥ ـ من روائع حضارتنا:

بعد أن فرغ الأستاذ السباعي من أحاديث كتابه السابق، أتبعه بأحاديث هذا الكتاب، أو بهذه الأحاديث التي جمعت في هذا الكتاب، وقد قدّمها من الإذاعة السورية في الفترة الواقعة بين (٢٠) من المحرم ١٣٧٥هـ (٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٥٥) و(٢٣) من ربيع الثاني ١٣٧٥هـ (٥/ ١٢/ ١٩٥٥م) وذكر أنَّ الوقت لم يسعفه لمتابعتها، لأنه كان يستعدّ للسفر في رحلته العلمية الطويلة إلى ديار الغرب[2]، والتي تمت عام ١٩٥٦.

ومعنى ذلك أنَّ السباعي بعد نشاطه العلمي المتميز الذي قام به في لبنان ـ والذي سبق أن أشرنا إليه ـ تابع هذا النشاط بعيد رجوعه إلى دمشق في أواخر عام ١٩٥٣، حيث نشر بحثه القيم (مشروعية الإرث وأحكامه في الإسلام) ثم أتبعه بعد زوال حكم أديب الشيشكلي بهذه الأحاديث الإذاعية خلال عامي ١٩٥٤ و١٩٥٥ في الوقت الذي لم ينقطع عن كتابة بعض الأبواب الثابتة في جريدة (الشهاب) التي بُدئ بإصدارها في (٢) رمضان ١٣٧٤هـ الموافق (٢٤) نيسان (إبريل) ١٩٥٥م والتي

---

(١) المصدر السابق، ص٧٩.

(٢) من روائع حضارتنا، ص١٨ الطبعة الخامسة.

جمع بعضها ـ أي بعض هذه الأبواب ـ في كتاب . . هذا عدا المحاضرات المتصلة وألوان النشاط الثقافي والدعوي. وقد أشرنا قبل قليل ـ على سبيل المثال ـ إلى محاضرته (نظرتنا إلى التاريخ العربي) التي ردَّ فيها على إلياس فرح في حزيران (يونيو) ١٩٥٥ . كما أشرنا قبل ذلك إلى (أسبوع الخطر الصهيوني) الذي دعا إليه، وإلى خطبته وتأثيره في أسبوع التسلّح في هذا العام ـ ١٩٥٥ ـ كما تحدثنا كذلك عن نجاحه في تأسيس كلية الشريعة في الجامعة السورية في هذا الوقت (زار القصر الجمهوري في ٢٤/ ١٠/ ١٩٥٤ وبدأت الدراسة بالكلية في ١٨/ ١٢/ ١٩٥٤) قبل أن يقوم على تأسيسها وإدارتها كذلك[1] .

ثم اتصل هذا النشاط العلمي المكثّف برحلته العلمية الغنية إلى الجامعات الأوروبية ـ وهي رحلةٌ جديرة بأن تفرد بالبحث والتأليف ـ وهذا ما حملنا في صفحاتٍ سابقة على القول: إنَّ عزوف السباعي عن العودة إلى المعترك السياسي كان قائماً. . وكان شديداً كذلك.

وقد أشرنا إلى ما قاله للسيد أكرم الحوراني في ذلك حين التقى به

---

(١) قال الأستاذ الدكتور ـ الطبيب ـ إسماعيل عزت وكيل جامعة دمشق: «أنشأَ في الجامعة كلية، وإنشاء كلية ليس بالأمر الهيّن. ورعاها حتى آتت أُكلها وأينعت ثمارها، واستمرَّ يرعاها ويهبها من روحه وفكره وقلبه ما شاءت».
من الكلمة المؤثّرة التي ألقاها الدكتور عزت في حفل تأبين السباعي الذي أقامته الجامعة. انظر نص هذه الكلمة في العدد الخاص من حضارة الإسلام، ص٥٤ـ٥٦ .

قبل الانتخابات التكميلية التي خاضها في شهر أيار (مايو) ١٩٥٧، أي التي جرت بعد تلك الرحلة العلمية الطويلة التي لمس الأستاذ السباعي آثارها وثمارها على الفكر الإسلامي والدراسات الاستشراقية، وعلى جموع الطلبة العرب والمسلمين الذين كانوا يدرسون في أوروبة، والذين استقبلوه بحرارة، وسألوه وحاوروه، واستمعوا إلى نصحه وتوجيهه، وتأثروا بآرائه وأفكاره.

لقد كان السباعي في قمة النضوج الفكري، وكان المأمول أن يتفرّغ لعمله الدعوي الكبير، مع ما يملكه من حسن القيادة، وما بات يقف عليه من تجربتها، بل بما بات يملكه من القدرة على التنظير، ربما مع نفرٍ قليل جداً على مستوى العالم الإسلامي.

لقد كانت الدعوة الإسلامية في سورية ـ على وجه الخصوص ـ بأمسّ الحاجة إليه.. حين زُجَّ به في الانتخابات التي تحدثنا عنها وعن ملابساتها ومقدِّماتها! ولا نعتقد أنَّ الإخوان المسلمين في سورية ارتكبوا أفدح من هذا الخطأ، واقترفوا أكبر من هذه الخطيئة! وبخاصةٍ وهم يعلمون أنَّ الذي كان يقوم بكل هذاالنشاط، ويقدّم كل هذه الأعمال لا يتمتع ـ منذ وقتٍ طويل ـ بصحةٍ جيدة! إنَّ ما دُفع إليه الأستاذ السباعي أو أهيب به لكي يقدم عليه ـ تحت أيّ شعارٍ وبأيّ سبب ـ كان يقرب من جريمة قتل.. لم تُطلق فيها النار على العالم المفكر المنظّر ـ والقائد المجاهد ـ مصطفى السباعي، ولكن أُطلقت على مسيرة العمل الإسلامي والدعوة الإسلامية في سورية.

ابتعدت عن الحديث عن (روائع حضارتنا) فقد ساقتني محاولة الربط بين الأحداث والوقائع إلى هذا الذي كتبت. وعلى الرغم من أنه جاء خارج السياق ـ كما يقال ـ فسوف أدعه في مكانه، وأعود إلى الحديث عن الكتاب المذكور، وإن كنت لست بحاجةٍ إلى مثل هذا الحديث وقد سبق لي أن قدّمت لهذا الكتاب القيم بمقدمةٍ مطولة تحت عنوان (بين يدي الكتاب) وسميتها (هوامش) وكان ذلك منذ أكثر من ربع قرن.

وقد سميتها (هوامش)[1] لأنَّ الأستاذ السباعي كان قد قدم لكتابه بنفسه حين تمّ نشره في حياته رحمه الله، لكن الرغبة في التعريف ـ الإضافي ـ بالكتاب، ومحاولة الربط بين فصوله، مع التأكيد على تقديم العنصر الروحي في بناء الحضارة ـ أي حضارة ـ على العنصر المادي. . بالإضافة إلى الحديث عن الجسور التي عبرت عليها الحضارة الإسلامية إلى أوروبة. . . كل هذا جاء في الهوامش المذكورة في سياقٍ تعليميّ حين وقع اختيار وزارة التربية والتعليم في بعض البلاد العربية على هذا الكتاب ليكون «الكتاب ذا الموضوع الواحد» الذي يطالعه الطلبة في بعض صفوف مرحلة التعليم الثانوي. وقد وجدتني أقارن بين بعض آراء الأستاذ السباعي وآراء الطبيب الجراح الفيلسوف (ألبرت شفايتسر) في كتابه (فلسفة الحضارة) الذي كان قد ترجمه في ذلك الحين

---

(١) انظر الصفحات (٢١ ـ ٤٢) واخترت لها العنوان المذكور حتى تمهّد لمقدمة المؤلف كذلك، ولكن لم يراعَ هذا في طبعات الكتاب.

الدكتور عبد الرحمن بدوي.

والـذي نضيفـه الآن: أنَّ هـذا الكتـاب جلَّـى بـأسلـوبٍ مشـوِّقٍ صفحاتٍ مشرقةً من صفحات الحضارة الإسلامية، وعزَّز على نحوٍ غير مسبوق شعور الأجيال الناشئة بالانتماء إلى هذه الحضارة والافتخار بإنجازاتها. . ويكفي أن نذكر أنَّ هذا الكتاب تحدث عن (خصائص) هذه الحضارة، وأنَّ من فصولـه الثلاثـة عشـر: الفصول التاليـة: «النزعة الإنسانية ـ المساواة العنصرية ـ التسامح الديني ـ أخلاقنا الحربية. .» لنعلم مدى حاجتنا اليوم في ظل العولمة وشعارات حقوق الإنسان. . إلى مثل هذا الكتاب.

والكتاب، بعد، يبرز مدى عناية الأستاذ السباعي ببحوث الحضارة والعمران، واطّلاعه على مصادر اللغة والأدب والتاريخ والاجتماع. . وربما بما يوازي اطّلاعه ـ الدراسي السابق ـ على كتب التفسير والحديث والعقيدة والفقه والأصول وتاريخ التشريع.

٦ ـ عظماؤنا في التاريخ

سبق أن قدَّمتُ لهذا الكتاب عام ١٩٧٦م بمقدمةٍ جاءت في نحو أربعين صفحة، واحتوت على سبع عشرة فقرة، تحدثت في تسعٍ منها عن المؤلف رحمه الله، وفي سائرها عن فصول الكتاب وعن دور العظماء والأبطال في صنع التاريخ، لأنَّ حديث الأستاذ السباعي كان عن حظِّنا من عظماء التاريخ لا عن حظٍّ عظمائنا في صنعه، بالإضافة إلى أنَّ حديثه

في هذه الفصول كان من موقع الداعية والمربّي، فأحببتُ أن «أمتدّ» ببعض النقاط وأن أتعرض للاتجاه الجماعي في تفسير التاريخ أو صنعه، وهو الاتجاه الذي كان شائعاً أو يجري الترويج له في ذلك الحين، وربما كان الذي قدّمته أو ذهبت إليه في هذا الباب يمثّل اتجاهاً ثالثاً بين الفرديين والجماعيين.

وقد طبع هذا الكتاب بعد وفاة الشيخ رحمه الله، لأنَّ الكتاب ـ كما قلت في الفقرة العاشرة من المقدمة المشار إليها ـ «مجموعة مقالات متفرقة كتب بعضها تحت هذا العنوان ـ عظماؤنا في التاريخ ـ وكتب بعضها الآخر تحت عنوان «في مدرسة الروح»[1]، وكانا من الأبواب التي يكتب تحتها في جريدة (الشهاب) والتي أشرنا إليها في موضع سابق، في سياق الحديث عن نشاطه العلمي المكثَّف في عامي ١٩٥٤ و١٩٥٥ قبل رحلته العلمية.

وقد أشرت إلى هذا الكتاب في مقدمة كتاب (من روائع حضارتنا) ـ في الفقرة الأولى ـ حين قلت: «وليس كتابه رحمه الله عن (عظمائنا في التاريخ) إلا الصورة الأخرى لحديثه عن (روائع حضارتنا) والتعبير المقابل عن وجه الحضارة الإسلامية المشرق»[2]، وقد أضيف إلى هذا الكتاب بعض الفصول التي كان الأستاذ السباعي قد نشرها في (الشهاب)

---

(١) انظر المقدمة المذكورة، ص١٨: عظماؤنا في التاريخ الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

(٢) من روائع حضارتنا، ص٢.

ليس تحت أحد العنوانين السابقين، أو التي نشرها فيما بعد في مجلّته (حضارة الإسلام).

وأحبّ أن أثبت هنا طرفاً مما قاله في **الإمام حسن البنا** أحد هؤلاء العظماء نظراً للصلة التي ربطته به ـ والتي تحدثنا عنها في موضعٍ سابق ـ واستكمالاً لهذه الصلة. قال رحمه الله: «ولقد كتب السيد رشيد رضا رحمه الله عن الإمام محمد عبده ثلاثة مجلدات في تاريخ أعماله ومآثره، فإذا أراد مؤرخٌ أن يؤرخ لحسن البنا على ذلك النمط، كان الحديث عنه في بضعة مجلداتٍ كبار...» ثم قال: «ولقد قُدِّر لي أن أعرف حسن البنا في أواخر حياته، وأن أكون على مقربةٍ منه في أيام محنته الأخيرة، ثم في أيام استشهاده. ثم قُدّر لي بعد ذلك أن أطوف في بعض أنحاء مصر، في مدنها وقراها، وفي ساحلها وداخلها، فوالله ما رأيتُ إنساناً أروع في الفداء، وأخلص في النصح، وأنبل في التربية، وأكرم في النفس، وأعمق أثراً في الإصلاح، من حسن البنا رحمه الله..»[1].

وأشير بهذه المناسبة إلى نقطةٍ مهمة ذكرها الأستاذ السباعي جاءت في سياق حديثه عن الإمام البنا وأشار فيها إلى الإمام محمد عبده، وتنطبق على معظم المصلحين والعظماء: قال رحمه الله: «وإذا غمط الناس قدرَ هذا المصلح الكبير في عصرنا الحاضر... فذلك شأن العظماء من معاصريهم في كلِّ زمان، ألم ترَ الشيخ محمد عبده كيف كان في حياته متّهماً بالكفر والزندقة من علماء الأزهر، تجري الشائعات

---

(١) عظماؤنا في التاريخ، ص٢٤٧.

حوله في كل ناحيةٍ من نواحي شخصيته، لتبرز للناس بصورةٍ غير محبَّبةٍ إليهم، فما انقضى على موته نحو من ثلاثين سنة حتى كان الأزهر ـ علماء وطلاباً ـ يحتفلون بذكراه، ويمجّدون علمه ونبوغه وفضله»[1].

٧ ـ شرح قانون الأحوال الشخصية:

يقع هذا الشرح في ثلاثة أجزاء: الأول: في الزواج وانحلاله، والثاني في الأهلية والوصية، والثالث في أحكام المواريث. وقد ضُمَّ الجزءان الثاني والثالث في مجلدٍ واحد يقع في اثنتي عشرة وثلاثمئة صفحة، منها مئتان للجزء الأخير. ـ وأعني الطبعة المتداولة بعد وفاة الأستاذ السباعي رحمه الله ـ في حين تزيد صفحات الجزء أو المجلد الأول على ثلاثمئة وثلاثين.

ويعدّ الكتاب بمجلَّديه شرحاً موجزاً أو وسيطاً لقانون الأحوال الشخصية السوري. وهو الشرح الذي حلَّ في عام ١٩٦٠ محلّ الشرح المطوّل الذي كان الأستاذ السباعي قد بدأ فيه قبل ذلك بخمس سنوات، وأراد له أن يكون «شرحاً مستفيضاً للقانون مع المقارنة بين المذاهب الإسلامية، وبين القوانين الوضعية»[2]، وقد وضعت (الملازم) الأولى

---

(١) عظماؤنا في التاريخ، ص٢٢٤ الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م المكتب الإسلامي.

(٢) شرح قانون الأحوال الشخصية، ص١٨٩ المجلد الثاني ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م المكتب الإسلامي.

من هذه الطبعة بين أيدي الطلاب، وكانت بين أيدي زملائنا المتقدمين علينا في كلية الشريعة، وقد اقتنيتها من بعضهم في الوقت الذي وضع الأستاذ بين أيدينا في العام الدراسي ٥٧ ـ ٥٨ الشرح المشار إليه، وقد سُمِّي في حينه (محاضرات مستعجلة) فقد حالت رحلته العلمية أولاً ثم مرضه الذي داهمه في أواخر عام ١٩٥٧ من متابعة الطبعة المطوّلة[١].

ومع ذلك فإنَّ الشرح بصورته الحالية يحتوي على مقارناتٍ كثيرة مع المذاهب الأربعة، بل مع مذهب الشيعة الإمامية في بعض الأحيان.. بالإضافة إلى المقارنة مع بعض قوانين البلاد العربية وبخاصة القانون المصري، كما لا يخلو من المقارنة مع الشرائع السماوية في أحوالٍ نادرة.

ويقول الفقيه الثبت الدكتور وهبة الزحيلي: إنَّ السباعي «لم يكن مجرد ناثرٍ لمواد القانون أو مقلِّدٍ لكلٍّ ما فيه، وإنما كان مثال الفاحص الناقد، البصير بمواطن استمداده وأماكن استنباطه، فهيّأ له هذا: إبداءَ ملاحظاتٍ على القانون في نواحٍ شتى[٢]... وملحظ السباعي في اجتهاده راجعٌ إما إلى مراعاة مبدأ المصالح المرسلة، أو العرف، أو حقّ الحاكم في تقييد المباح إذا كانت تترتب عليه أضرار، ونحو ذلك. وفي هذه السبيل لم يمنعه تمذهبه بالمذهب الحنفي وإيثاره له غالباً أن يفضِّل

---

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) انظر الفهرس الخاص بملاحظاته على القانون: المجلد الأول، ص٣٢٩ والمجلد الثاني، ص١٩١.

حكماً فقهيـاً من مذهبٍ آخـر إذا كانت أدلَّته أقـوى وسنده أرجح. . . » ويضيف الأستاذ الدكتور وهبة قائلاً: «ولم يقتصر على هذا، بل إنه قد لا يتقيد بمذهبٍ ما، كما فعل في تحديد عناصر الكفاءة في الزواج، حيث إنه ترك أمر ذلك إلى العرف، مما ينتج عنه أنه قد يوافق بعض الفقهاء وقد يخالفهم. . . »[1].

ثم يصف الدكتور الزحيلي الأستاذَ السباعي بأنه «ذو ملكةٍ فقهية كبيرة توافر له سعة الاطلاع، وحدَّة الذكاء، وأصالة التفكير، وصفاء النفس والقريحة، وسعة الأفق والتجارب» وإنَّ كتابه «بالرغم من إيجازه بسبب مرضه: موضِّحٌ لكثيرٍ من دقائق الفقه، وحافل بجليل الفوائد»[2].

ونضيف أخيراً أنَّ اهتمام الأستاذ السباعي بمقاصد الشريعة وفلسفة النظام، إلى جانب حرصه على الاجتهاد وإعادة تنزيل الأحكام الفقهية القديمة على الواقع المعاصر، أغنى كتابَه بنظراتٍ وبحوث ما تزال تخلو منها كتبٌ شرعية وقانونية مماثلة كثيرة.

٨ ـ المرأة بين الفقه والقانون:

أصل هذا الكتاب محاضرة ألقاها الأستاذ السباعي على مدرج جامعة دمشق في الموسم الثقافي لعام ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ بعد نحو عامين من إلقاء محاضرته في المكان ذاته عن (اشتراكية الإسلام). ولما أرادت

---

(١) مجلة حضارة الإسلام ـ العدد الخاص (مرجع سابق)، ص٩٥.
(٢) المصدر السابق، ص٩٩.

الجامعة أن تضمَّها إلى مجموع محاضرات الموسم المذكور أعاد الأستاذ السباعي فيها النظر فبيَّن ما أجمل، وشرح ما أوجز «واستدلّ لكلٍّ موضوعٍ من مواضيع هذه المحاضرة بالأدلة الشرعية، وبالوقائع التي تنشر عن حال المرأة الغربية، وبأقوال المنصفين من الغربيين في الدفاع عن تهجمات المتعصبين من مستشرقيهم ورهبانهم ودعاة الاستعمار البغيض الذين ما فتئوا يكرِّرون الهجوم على الإسلام والمسلمين لتبرير استعمارهم للبلاد الإسلامية، وإفهام السذَّج من الغربيين أنَّ الاستعمار الغربي لهذه البلاد نعمةٌ وتمدين واقتلاع للتشريع ـ السيِّئ في رأيهم ـ السائد في هذه البلاد»[1].

وكان من جملة ما أضافه أبيات للشيخ عبد الله العلمي الغزي الدمشقي أوردها في تفسيره لسورة يوسف يصوِّر فيها عذاب المتزوج باثنتين.. وأذكر أنه حذف بعض هذه الأبيات بناءً على اقتراح الأستاذ الدكتور أحمد السمان رئيس الجامعة في ذلك الوقت بعد أن اطلع على نص المحاضرة أثناء زيارةٍ كان يقوم بها للأستاذ السباعي في منزله.. وقد جاءت الأبيات المذكورة في سياق حديثه عن (مساوئ) تعدد الزوجات، بعد أن عرض لتاريخ التعدد وضروراته الاجتماعية والشخصية، وما كان من سجالٍ بينه وبين المستشرق (أندرسون) رئيس قسم قوانين الأحوال الشخصية في معهد الدراسات الشرقية في جامعة لندن حول هذا الموضوع. وكان قد لقيه في زيارته العلمية إلى أوروبة

(١) المرأة بين الفقه والقانون، ص٧.

عام ١٩٥٦ والتي وصفها الأستاذ السباعي بأنها كانت «رحلة استطلاعية للجامعات والمكتبات العامة». وقد أقام الأستاذ السباعي الحجَّة على (أندرسون) بأنَّ التعدد «نظامٌ صالح يفيد المجتمعات في كثيرٍ من الظروف إذا نُفِّذ بشروطه»[1].

وقد عدَّ الأستاذ السباعي قضية المرأة قضية المجتمع، بل «قضية كلِّ مجتمع في القديم والحديث، فهي تشكل نصف المجتمع من حيث العدد، وأجمل ما في المجتمع من حيث العواطف، وأعقد ما في المجتمع من حيث المشكلات، ومن ثمة كان من واجب المفكرين أن يفكروا في قضيتها دائماً على أنها قضية المجتمع، أكثر مما يفكر أكثر الرجال فيها على أنها قضية جنسٍ متمِّم أو مُبهج»[2]، ولهذا صدَّر كتابَه بإحدى كلماته أو حكمه التي قالها في المرأة في كتابه (هكذا علمتني الحياة) وهي قوله: «قضيـة المرأة هي قضية كلِّ أبٍ وكلِّ ابن، وما دام في الدنيـا آباءٌ وأبناء، ففي الدنيا احترامٌ عميق لكرامة المرأة، والذين

---

(١) المصدر السابق، ص٨٧ ـ ٨٨ وقد ختم بحثه المقارن المطوَّل عن التعدُّد «بكلمة قيّمة للأستاذ العقاد» من كتابه: (المرأة في القرآن الكريم)، تبلغ صفحتين: ص١١٨ ـ ١٢٠ ثم قال: «وأخيراً فإنني أعلن بكل صراحة أنني من أعداء منع تعدد الزوجات تشريعاً وقانوناً، أو وضع العقبات في طريقه، وإن كنت من أنصار وحـدة الزوجيـة في حياتي الشـخصية. ولا غرابة في ذلك ولا تناقض، فإنَّ الإنسان العاقل يختار الحياة الأفضل، والمتشرِّع الحكيم يختار لأمّته القانون الأشمل»، ص١٢٠.

(٢) المصدر السابق، ص٩.

لا يفرِّقون بين الكرامة والابتذال هم غارقون في الأوهام والأوحال»!
المرأة إذن هي حاضر الرجل ومستقبله!.

ويحتوي الكتاب عرضاً للمبادئ الإصلاحية التي جاء بها الإسلام في موضوع المرأة، والتي مثَّلت تحريراً لها وتصحيحاً لأوضاعها أو ثورة عليها. وقد أفضتُ به هذه المبادئ التي استخلصها من الموقف العام وجملة النصوص والأحكام إلى القول: إنَّ الإسلام أحلَّ المرأة المكانة اللائقة في ثلاثة مجالاتٍ رئيسة هي: المجال الإنساني، والمجال الاجتماعي، والمجال الحقوقي. ثم فصَّل القول في أسباب الفوارق التي قرَّرها الإسلام أو أقرَّها بين الرجل والمرأة في مسائل الشهادة والميراث والدية ورئاسة الدولة. وتحدث بعد ذلك عن مدى الحاجة إلى إصلاح أوضاع المرأة في ضوء التهميش الذي لحق بها عبر عصور التاريخ الإسلامي.

وأخذ في شرح الأحكام التي دخلت في قوانيننا أو أقرَّتها أوضاعنا المعاصرة للنهوض بهذه الأوضاع، وذلك في نطاق الأحوال الشخصية (بعض مسائل الزواج وقضايا الطلاق)، ونطاق الحقوق السياسية (حق الانتخاب وحق النيابة أو الترشيح)، وأخيراً في الحقوق والشؤون الاجتماعية (حق التعليم والعمل والتوظيف والاختلاط..)، وقد أسهب بعض الشيء في الحديث عن التعدد والاختلاط وحق العمل، وفي الوقت الذي قيَّد بعض هذه الحقوق والإصلاحات بقيودٍ أو وضع لها بعض الشروط؛ فإنه ذهب ـ في اجتهاده ـ إلى حجب حقّ النيابة عن

المرأة في ضوء تجربته العملية التي تحدثنا عنها في الحقل السياسي. ولم يفُتْه أن يشير في مقدمة هذا الكتاب ـ أو هذه المحاضرة حين حوَّلها إلى كتاب ـ إلى أنَّ «الموضوع ليس هو عداوة المرأة أو صداقتها كما يلذّ لبعض الناس أن يصوِّروا ذلك لأغراضٍ غير خافية، وإنما الموضوع هو ما ينبغي أن يكون عليه وضع المرأة الصحيح في مجتمعٍ مسلم متماسك قويّ الأخلاق، متين الدعائم»[1].

بل إنه ختم مقدمة المحاضرة ذاتها بكلماته المعبّرة التالية: قال: «إنني سأخوض في بحثي هذا في بعض نواحي القضية مما يتصل باختصاصي ودراساتي وتجاربي كشخصٍ عالج القضايا العامة بالعيش فيها فترةً طويلة من حياته. وأنا قبل ذلك: مواطنٌ عليه أن يسهم في بناء كيان أمته الاجتماعي بما يستطيعه من جهد. وقبل كلِّ شيءٍ فإني مؤمنٌ بأنَّ كرامة الإنسان مرتبطةٌ بحريته في تفكيره، وحريته في التعبير عن هذا التفكير. ولن يستهويني تصفيق الجماهير أو استهجانهم وإعراضهم بقدر ما يستهويني أن أخلص في توجيه التفكير في أمتي بدقّةٍ وعمق وإخلاص، ويخيفني أن أسكت عن الحقّ، وأساير في الخطأ، وأنجرف في التيار»[2].

٩ ـ هذا هو الإسلام:

وقد كتب تحت هذا العنوان: العبارة ـ التعريفية ـ التالية: «سلسلة

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون، ص٨.

(٢) المصدر السابق، ص١٠.

رسائل تبحث عن الفكرة الإسلامية الحديثة» ولا ندري هل هي من وضع المؤلف أم لا؟ والأرجح عندنا أنها ليست من وضعه، لأكثر من سبب؛ بخلاف العنوان الرئيس فهو من اختيار الأستاذ السباعي، وقد نشر تحته بعض هذه الرسائل منها رسالة أو بحث (مشروعية الإرث وأحكامه في الإسلام) من رسائل المجموعة الأولى[1]. وقد ضمَّت هذه المجموعة بالإضافة إلى هذا البحث: رسالتين أخريين هما: (منهجنا في الإصلاح) و(الدين والدولة في الإسلام).

أما المجموعة الثانية فقد احتوت على الكلمات والبحوث التالية: (جواب الإسلام على الشيوعية، المرونة والتطور في التشريع الإسلامي، نظام السلم والحرب في الإسلام، أصدق الاتجاهات الفكرية في الشرق العربي، العرب قبل الإسلام. .)[2].

وقد تحدثنا عن أبرز هذه البحوث والمحاضرات فيما سبق، وبخاصةٍ عند الحديث عن نشاط الأستاذ السباعي في لبنان.

١٠ ـ السيرة النبوية: دروس وعبر:

بين يدي الآن الطبعة التاسعة من هذا الكتاب الصغير الحجم الجمّ الفوائد، ويعود تاريخ هذه الطبعة إلى عام ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م فقد كتب

---

(١) انظر مقدمة المؤلف لهذه الرسالة ـ وهي الثالثة في هذه المجموعة، ص٤(٩٤).

(٢) لا تزيد المحاضرة الأخيرة ـ وقد ألقيت في حمص ١٣٦٣هـ ـ عن بضع صفحات.

الله تعالى لهذا الكتاب الذيوع وسعة الانتشار، كسائر كتب الأستاذ السباعي. في حين أنَّ الطبعة الأولى تمت بعد وفاته رحمه الله بنحو أحد عشر عاماً. وكنت قد قدَّمت لها بمقدمةٍ مقتضبة (في ٤ شوال ١٣٩٢هـ، ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٢) قلت فيها: «ما أروع الدروس التي طالعها الأستاذ السباعي في سيرة محمد ﷺ. . وما أروع الدروس التي أعطاها للدعاة وهو يتأسَّى بهذه السيرة، ويترسَّم خطاها في كلِّ حين».

وقد جاء التأخير المذكور بسبب أنَّ الأستاذ السباعي ترك هذا الكتاب على شكل (مذكّرات) أو أمالي كان قد وضعها بين أيدي طلبة كلية الشريعة حتى تكون مرجعاً قريباً بين أيديهم في مقرَّر (فقه السيرة) الذي كان يدرِّسه رحمه الله؛ ولم يفرغ رحمه الله لتفصيل القول في هذه المحاضرات على النحو الذي كان يلقيه على مسامع الطلاب والطالبات، يضاف إلى ذلك أنَّ هذه (المذكرات) التي انتهت بوفاة النبي ﷺ والتي شملت مقدمةً وستةَ فصول، كان ينقصها أربعة فصول حسب المنهج الذي رسمه المؤلف رحمه الله، ولم يكن من السهل أن تُضاف هذه الفصول بنفس الروح والآفاق التي حكمت هذه المحاضرات؛ فكان لا بدَّ من طبع هذه المذكرات، خصوصاً وأنَّ الأستاذ السباعي هو الذي صاغها ـ على هذا النحو الموجز ـ وقدَّم لها وعرَّف بها بنفسه من جهة، وأنَّ معظم الفصول الباقية يمكن عدّها بمثابة تعقيبٍ على وقائع السيرة، لأنها تدور حول (خصائص التشريع الإسلامي في المدينة) و(أخلاق

النبي ﷺ ـ أو شمائله ـ وافتراءات المستشرقين والمبشّرين) و(أثره وأثر رسالته في العالم)[1].

وقد قال الأستاذ السباعي في مقدمته المشار إليها: «وبعد، فهذه مذكراتٌ كتبتها على عجلٍ وشدّةٍ من الحرص بعد أن ألقيتها محاضراتٍ مفصّلة على طلاب السنة الأولى في كلية الشريعة، توخّيت فيها أن أبرز أوْضَح مظاهر الأسوة في سيرة الرسول الكريم ﷺ، مما ينبغي على كلِّ مسلمٍ وداعية إلى الله عز وجل، وعالمٍ بالشريعة، وحاملٍ لفقهها، أن يتدبَّره ويجعله نصب عينيه، ليكون له شرف الاقتداء برسول الله ﷺ، وليفتح أمامه باب النجاح في دعوته بين الناس، وباب القبول والرضى من الله جلّ شأنه، وليكتب له شرف الخلود مع رسوله ﷺ في جنّات النعيم؛ فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

أجد من حقّي ـ بل من واجبي ـ أن أعقِّب هنا بطرفٍ آخر مما جاء في مقدمتي المشار إليها: قلت: «يشهد الله: أننا، ونحن طلابه بُعيد تأسيس كلية الشريعة بجامعة دمشق، كنّا أحرص ما نكون على محاضراته وندواته في الجامعة، يوم كان المترفون يتمطَّون في ردهاتها ويتثاءبون! وكان السباعي يحزم أمره ويعزم عزيمته، متوكِّئاً على عصاه، يعاني من آلام المرض ما تنوء بحمله الجبال، ويأخذ طريقه إلى قاعة الدرس في

(١) انظر مقدمة الطبعة المشار إليها، ص١٣ .

الوقت المحدد، يعلِّم طلاب الشريعة وروّاد المعرفة: الجندية الحقّة كيف تكون. . وشرف الانتساب إلى هذا النبي الكريم كيف يكون!. . . ما أروع ما علمنا من محاضرات السباعي أنَّ (القيادة) بكلّ معانيها، وجميع ميادينها وأبعادها، هي أبرز جوانب سيرة النبي ﷺ، وما علمنا من حياته وسلوكه هو ـ يرحمه الله ـ أنَّ (الجندية) هي أبرز جوانب هذه الحياة وذلك السلوك. والحقُّ أنه بروح هذه الجندية استطاع السباعي رحمه الله أن يجلِّي لنا صوراً رائعة من حياة الرسول القائد. . زعيم القادة، وبطل الأبطال»[1].

١١ ـ هكذا علّمتني الحياة:

ينقسم هذا الكتاب إلى قسمين: اجتماعي وسياسي، وقد طبع القسم الأول في حياة الأستاذ السباعي رحمه الله، وقدّم له بنفسه في الأول من جمادى الآخرة ١٣٨٢هـ ـ الموافق (٢٩) من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٢م، واحتوى أكثر من ألف خاطرةٍ وحكمة من خواطره رحمه الله. أما القسم الثاني الأقلّ حجماً، والذي لا تبلغ خواطره ربع القسم الأول، فقد طبع بعد وفاته بعد إضافة بعض مقالاته السياسية الموجزة.

وقد بدأ الأستاذ السباعي بتدوين (خطراته) هذه مجتمعةً أو بقسميها في شهر ذي القعدة من عام ١٣٨١هـ الموافق لشهر نيسان (ابريل) ١٩٦٢م

---

(١) المصدر السابق، ص٧.

في مستشفى المواساة بدمشق، حين ألزمه أطباؤه بالركون إلى الراحة التامة، بعيداً عن القراءة والكتابة. . ومشكلات الحياة! لكنه لم يستطع أن يدفع عن نفسه هاجس الكتابة والتدوين. . وقد جرت عادته (في السجون والأمراض والأسفار) بتدوين ما يعنّ له من خواطر وأفكار. . غير أنه فقد كلّ ما كان دوّنه من قبل[1] . .

وقد وصف الأستاذ السباعي هذه الخواطر بأنها تمثّل تجاربه في الحياة، لم ينقل شيئاً منها من كتاب، ولا استعان فيها برأي أحدٍ من الناس. . قال: «وأعتقد أنَّ من حقّ الجيل الذي أتى بعدنا أن يطّلع على تجاربنا، وأن يستفيد من خبراتنا إذا وجد فيها ما يفيد. وهذا خير ما نقدّمه له من هدية؛ إننا لا نستطيع إن نملي عليه آراءنا إملاءً، وليس ذلك من حقّنا، وإنما نستطيع أن نقدم له النصح والموعظة.

«وخيرُ النصح: ما أعطته الحياة نفسها، وأبلغ الموعظة: ما اتصل بتجارب الحياة ذاتها.

«والناسُ وإن اختلفت مشاربهم وعقولهم وطباعهم؛ فإنهم يلتقون على كثيرٍ من حقائق الحياة، ويجتمعون على كثير من الرغبات والحاجات والأهداف»[2].

هذا الكتاب المليء بالحكمة والتجربة، والذي يضع الأستاذ السباعي ـ فيما نرى ـ مع أصحاب الحكمة والبلاغة. . أو يرتقي به إلى

---

(١) ص٣ من مقدمة الكتاب.

(٢) ص٥ من المقدمة المذكورة.

منزلة الحكماء والبلغاء. يحتاج إلى دراسةٍ موسّعة مستقلة؛ لربطه برؤية الشيخ للحياة من حوله.. ولتاريخه هو الحافل بالدروس والعظات والتجارب.. فضلاً عن دلالته على ملامح شخصيته، وما كان يتمتع به من صفاتٍ نفسية وخلقية ـ وقد نستعين به أو نعود إلى طرفٍ منه عند الحديث عن مزاياه وصفاته في القسم الثاني من الكتاب ـ وأكتفي هنا بطرفٍ مما علّقت به على هذا الكتاب في المقدمة التي كتبتها لكتاب (عظماؤنا في التاريخ) عام ١٩٧٦.

أشرت إلى مقابلةٍ صحفية كان قد أجراها معه محرر جريدة (الأيام) الدمشقية ـ التي كان يصدرها السيد نصوح بابيل ـ وحين سأله عن حكمته المفضلة؟ أجاب بأنها: «الحياة طويلةٌ بجلائل الأعمال، قصيرةٌ بسفاسفها» قلت: «فأكبرتُ يومها هذا الاختيار لما يدلّ عليه من علوّ الهمّة، وقوة الروح، وفهمٍ عميق لحساب السنين في عمر الإنسان. ثم علمت أنَّ هذه الحكمة التي قرأها الناس لأول مرّةٍ ليست إلا واحدةً من حكمه الغوالي التي خرج بها في عمره المديد بجلائل الأعمال، القصير بحساب السنين والأيام.. والتي كان في وسع أحدنا أن يقرأ حياة السباعي في ضوئها، قبل أن يقرأها له في صحيفةٍ أو كتاب!».

ثم قلت: «والدرس العميق الذي نخرج به من هذه الملاحظة هو أنَّ الحِكَم التي ضمَّها كتابه القيّم: (هكذا علَّمتني الحياة) حِكمٌ عملية واقعية عاشها الشيخ رحمه الله بكلّ جوارحه وأحاسيسه وآلامه وآماله؛ اهتدى بنورها مرة، واكتوى بنارها مرة.. وعاش في دخانها وظلالها

مراتٍ ومرات؛ بحيث يمكننا القول إنَّ هذا الكتاب يمثّل عصارة الفكر والروح في كلّ حكمةٍ من حِكمه، وكلمة من كلماته، وحرف من حروفه؛ لأنك تقرأ تحت ذلك كله تاريخاً حافلاً ـ أخذ طريقه إلى دنيا الواقع ـ من العمل الدائب، والعاطفة المشبوبة، والشجاعة المفرطة، والرجولة المستعلية، والتجربة الصادقة. . . والصبر الجميل»[١].

قلنا: إنَّ الأستاذ السباعي دوَّن هذه الخواطر جميعها في سياقٍ واحد، ثم قام بعد ذلك بعزل الخواطر السياسية التي أرجأ نشرها إلى فرصةٍ أخرى تكون أكثر ملاءمةً من تلك الظروف: خصوصاً مع عدم رغبته أو استعداده ـ أيام مرضه ـ لإثارة المزيد من الخصومات. . وليس معنى ذلك أنَّ القسم الاجتماعي لم يُثر عليه بعض الخصومات، ولكنه كان يرى أنَّ ما يثيره هذا القسم ـ مع ندرته ـ شيءٌ يتقرّب به إلى الله عزّ وجل.

قال: «فالخصومات السياسية كثيراً ما لا يثاب الإنسان عليها، أما الخصومات الفكرية ـ وبخاصةٍ ما يتعلق منها بالدين والإصلاح الاجتماعي ـ فهي لا بدَّ واقعة، والثواب فيها متوافرٌ إن شاء الله لمن لم يبغِ في نقده إلا وجهَ الحقّ، وتخليص الناس من الأباطيل والأوهام»[٢].

ولعل من المفيد أن أذكر بعد ذلك أنَّ فاتحة هذه الخواطر جميعاً كانت سياسية، وهي قوله: «من اطمأنّ إلى القوة فهو مغلوب، ومن

---

(١) من مقدمتنا لكتاب (عظماؤنا في التاريخ)، ص٦ ـ ٧.

(٢) من مقدمته رحمه الله لكتابه: (هكذا علمتني الحياة)، ص٧.

اطمأن إلى الجاه فهو مخلوع» وقوله: «في ضجيج الطبول تختنق أصوات الحرية، وفي صخب المواكب تطمس معالم الحقيقة»!.

كتب ذلك وقد تناهى إلى سمعه وهو في المستشفى صخب الاستقبالات وضجيج المواكب!!.

والذي أذكره أخيراً أنه طلب منّي يوماً أن أجلس إليه حتى يملي عليَّ ـ في بضع جلسات ـ كلَّ قسمٍ من القسمين المذكورين على حدة، تمهيداً لطبع القسم الاجتماعي.. وحين بلغتْ منه الآلام مبلغها في الجلسة الأولى توقَّف.. فما كان منّي إلا أن استأذنته في أن يعطيني الكراريس التي كانت بين يديه ـ وكان يكتب بقلم الحبر الجافّ على كراريس من ورقٍ أسمر معهود ـ على أن أقوم بحسب اجتهادي بالفصل بين القسمين، وأترك له مكاناً يضع فيه عنوان الخاطرة، فوافق.. ولما عدتُ إليه بعد أيام أبدى ارتياحه وسروره وهو يتصفّح ما بين يديه.. وقال: يبدو أنك لم تخطئ التقدير أو التقسيم ـ أو كلمة نحوها ـ ثم دعا لي رحمه الله.

وحين بعث إليَّ الأخ الناشر بالقسم الثاني لأضع لفقراته عناوين ـ تمهيداً لنشره ـ لأن الأستاذ السباعي لم يفعل ذلك قبل وفاته ـ لأنه لم يكن قد فرغ من إعداده بعد ـ وجدتُ أنَّ بعض الفقرات يصلح لها أكثر من عنوان.. فكتبتُ لبعضها عنوانين، ولبعضها الآخر ثلاثة ـ وكان ذلك في أحوالٍ قليلة ـ وتركت فرصة الاختيار والترجيح للأخ الناشر الذي أشرف على الكتاب وقام بالتقديم له.. ثم طبع الكتاب وقد ترك أمر العناوين

على ما هو عليه. . وقد أحببت أن أنبّه إلى هذه النقطة حتى لا يظنّ أنَّ ذلك كان من عمل الأستاذ السباعي رحمه الله.

وغنيٌّ عن البيان أن نشير هنا إلى أنَّ هذا الكتاب ـ بقسميه ـ لم يكن في أيام مرضه فحسب، بل كان من أواخر ما كتب من كتبٍ رحمه الله، لأنَّ كتاباته في مجلة (حضارة الإسلام) لم تنقطع حتى آخر يومٍ في حياته، فضلاً عن دروسه ومحاضراته التي لم تنقطع بدورها كذلك. لقد كان مضى على الأستاذ السباعي في المرض خمس سنين وبضعة شهور عندما قدّم القسم الاجتماعي من هذا الكتاب للطبع، أو عندما كتب مقدمته بتاريخ ١/ ٥/ ١٣٨٢هـ، ٢٩/ ١٠/ ١٩٦٢.

كلمة حول مرضه وإنتاجه العلمي خلاله:

أصيب الأستاذ السباعي بمرضٍ أخذ أكثر شقّه الأيسر، وكان يسبب له آلاماً حادّة. . وكانت تتشنّج أعصابه وعضلاته من النوبات التي تعاوده. وقد أجمع الأطباء على أنَّ السبب الأول لهذا المرض هو إرهاق الأعصاب بما لا تتحمّله! يقول الأستاذ السباعي: «وقد صبرت أعصابي على إرهاقي لها بضع عشرة سنة حتى ناءت بحمل ما أحمِّلها من همومٍ وأحزان، فكان منها أن أعلنت احتجاجها بإيقافي عن النشاط والعمل إيقافاً تاماً بضعة شهور، ثم استطعتُ بعدها أن أعود إلى نشاطي الفكري في التدريس والتأليف برغم إلحاح الأطباء عليَّ بترك ذلك، ولكني لم أستطع اتّباع نصائحهم لظروفٍ شتّى لا قِبل لي بدفعها. . »[1].

---

(١) من مقدمة (هكذا علمتني الحياة) القسم الاجتماعي، ص٤.

وبقيت هذه النوبات الحادّة تعاوده بين الحين والحين وتسبب له صداعاً شديداً وآلاماً حادة في رأسه وشقّه الأيسر.. ولقد أصاب أستاذنا العلاّمة الدكتور يوسف العش حين قال فيه: «ولقد عاش مريضاً سبع سنواتٍ سويّاً، ينخر المرض في جسمه نخراً: آلامٌ مبرحة تزهق منها النفس، وتسقط معها الهمّة، ويذهب العزم، لكنه لم يخنع للمرض، ولم يأتِ الألم على قوته، كان يتألّم لكنه كان يبتسم، وكانت تتشنّج أعصابه وعضلاته من النوبات التي تصيبه، فما أن تزول النوبة حتى يعود ضاحكاً لا يشكو ولا يتحسّر..».

وكنت قد أشرت إلى هذا في مقدمتي لكتابه (عظماؤنا في التاريخ) حين رسمت له هذه الصورة التي ما تزال مطبوعةً في خيالي حتى الآن.. فقلت: «ولطالما رأيته ـ رحمه الله ـ يمسك بيمينه القلم، ويرتجف تحت يساره القرطاس، يستجيب من قمة آلامه لما تمليه عليه القريحة النافذة، والروح العميقة.. والعقل القويّ، غير عابئ بما يقرؤه جليسه على وجهه من آثار الآلام العصبية الحادّة! وكأنها إنما ترتسم على وجهٍ آخر غير وجهه، وتحطّ على جسمٍ آخر غير جسمه... كانت آلامه هي التي تحدثنا عن نفسها! أما هو ـ شهد الله ـ فلم يكن يجأر بالشكوى إلا بمقدار ما يعلّمنا الصبر على قضاء الله، والخضوع لحكمته، والصبر على بلائه..»[1].

ويقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: «وقد أخبرني رحمه الله بالمرض

---

(١) من مقدمتي لكتابه (عظماؤنا في التاريخ)، ص١٤.

الذي لم يفارقه وكانت فيه وفاته، ولو ابتُلي به إنسانٌ عاديّ لم يرزق ما رُزق من قوة الإيمان وقوة الإرادة، ولم تملكه العقيدة والدعوة والتحرّق للمسلمين، لكان كافياً لتعطيله وتوقيف كلّ نشاطٍ له وانشغاله بنفسه، ولأعذره الناس. ولكن الأستاذ السباعي رحمة الله عليه لم يزده هذا المرض المرهق، وهو تشنّج الأعصاب وشلل نصف الجسم، لم يزده إلا نشاطاً وحركةً دائبة وإنتاجاً قيّماً..»[1].

لقد داهمه المرض بعيد رجوعه من زيارةٍ قام بها للاتحاد السوفييتي مع وفدٍ من جامعة دمشق بدعوةٍ من جامعة موسكو، وقد كانت هذه الزيارة في شهر حزيران (يونيه) ١٩٥٧ بعد نحو شهرٍ من الانتخابات التكميلية التي تحدثنا عنها، وكانت وفاته في (٣) تشرين الأول ١٩٦٤.

لقد كتب الأستاذ السباعي في أيام مرضه من الكتب التي تحدثنا عنها الكتب التالية: (شرح قانون الأحوال الشخصية ـ بطبعته الكاملة التي أشرنا إليها ـ واشتراكية الإسلام، والمرأة بين الفقه والقانون، والسيرة النبوية، وهكذا علمتني الحياة، والقلائد من فرائد الفوائد. يضاف إلى ذلك: المقدمة المهمة والزيادات التي ضمّنها كتابه (السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي)، وقد تضمّنت المقدمة المذكورة أمرين رئيسين:

---

(١) مجلة حضارة الإسلام، ص١٤ العدد السابع/ السنة الخامسة كانون الثاني ١٩٦٥.

الأول: الردّ على مطاعن محمود أبو رية في السنة وفي الصحابي أبي هريرة.

والثاني: خلاصة رأيه في الاستشراق والمستشرقين بعد أن تبلور هذا الرأي خلال زيارته التي قام بها لأوروبة عام ١٩٥٦ على وجه الخصوص.

وقد أشرنا إلى موضوع أبي رية عند الحديث عن كتاب (السنة) وسوف نتحدث بعد قليلٍ عن رأيه في المستشرقين؛ علماً بأنَّ جملة آرائه التي بثّها في مقالاته وأحاديثه الأخرى جمع (معظمها) بعد وفاته في رسالةٍ خاصة، وطبعت تحت عنوان: (الاستشراق والمستشرقون)[١] وما يزال الاعتماد عليها قائماً حتى الآن.

مجلة حضارة الإسلام:

هذا، وقد كان للأستاذ السباعي في أيام مرضه عملٌ علميّ جليل آخر هو إصداره لمجلته الفكرية الجامعة: (حضارة الإسلام) التي أشرنا إليها في موضع سابق بمناسبة الحديث عن مجهوده في خدمة القضية الفلسطينية. وقلنا: إنها حلّت محلّ مجلة (المسلمون) التي كان يشرف عليها الكاتب المصري الأستاذ سعيد رمضان.

---

(١) خلتْ هذه الرسالة من بعض الفقرات المهمة التي وردت في صلب كتاب (السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي) راجع الصفحة ١٨٨ من هذا الكتاب على سبيل المثال.

صدر العدد الأول من (حضارة الإسلام) في المحرم من عام ١٣٨٠ (صدر العددان الأول والثاني معاً: المحرم وصفر ـ تموز وآب (يوليو وأغسطس) ١٩٦٠ ـ واستمرت بعد ذلك في الصدور حتى عام ١٩٨٠ ـ وبقي الأستاذ السباعي يرأسها ويشرف على تحريرها حتى وفاته رحمه الله[١]. وقد كتب فيها عشرات الافتتاحيات ـ ما يقرب من أربعين ـ وكانت الافتتاحية تتراوح بين ثلاث وخمس صفحات، وتتناول أهم أحداث الساعة فكرياً وثقافياً وسياسياً. . وتمتاز هذه الافتتاحيات بقوة الربط وعمق التحليل. . إلى جانب الرؤية الحضارية الشاملة، الأمر الذي يجعل جمعها وإعادة طبعها من جديد عملاً علمياً دعوياً مهماً، وله فوائده المعاصرة، وبخاصةٍ وقد دخلنا في عصر (صدام الحضارات) أو العصر الذي كاد يفرد فيه الإسلام من بين سائر الأديان، وتفرد حضارته وثقافته من بين سائر الحضارات والثقافات بالنقد والتخويف! إنَّ تحويل اسم المجلة من (المسلمون) إلى (حضارة الإسلام) ليس عملاً عابراً في هذا السياق، لأننا ما نزال نقف على أهميته وفلسفته عاماً بعد عام. . حتى وصلنا اليوم إلى عصر (نهاية التاريخ) وصدام الحضارات الذي يتحدث عنه الآخرون.

قال الأستاذ السباعي في افتتاحية العدد الأول المذكور: «نحن أمةٌ لها ماض، وعندها تراث، وبين أيديها بناء، وفي عقولها فلسفةٌ ورسالة، وفي عيونها سناءٌ ونور، وفي قلوبها إيمان ويقين، وفي أخلاقها نبل

---

(١) أي مدةً تقرب من خمسة أعوام، ثم تولّى رئاسة تحريرها من بعده الأستاذ الدكتور محمد أديب صالح.

وشرف، وفي نفوسها تقى وصلاح، فلنا من بين هذه الأمم الناهضة كلها شأنٌ غير شأنها، ومن ثمة كانت علينا واجباتٌ أكبر من واجباتها. والأمم الغنيّة لا تستجدي بل تعطي، والأمم البصيرة لا تُقاد بل تقود، والأمم القوية لا تُدفع بل تَدفع، والأمم المفكّرة لا تهدم بل تبني.

«... وإذا كنا أمّةً حضارية قد أسهمنا في بناء الصرح الحضاري بأنظف يد، وأكمل عقل، وأسلم قلب، وأكرم خُلُق، وأقوى مادة؛ فإنَّ تراثنا الحضاري لا يزال حيّاً تحتاج إليه هذه الإنسانية التي تعيش اليوم قلقةً معذّبة: تطعم وهي تشكو من الجوع، وتشرب وهي تعاني من الظمأ، وتدلّ على السعادة وهي تتيه في الشقاء، وتتعرف على الصحة وهي تئن من وطأة المرض!..».

ولكن إعادة طبع هذه الافتتاحيات يستلزم التعليق على كلٍّ واحدةٍ منها أو التقديم لها بما يضعها في ظروفها ومناسبتها وإطارها الزمني أو التاريخي، لأنها تحمل طابعاً سياسياً أو تناولت أهم أحداث الشهر الذي كتبت فيه كما قلنا قبل قليل، وقد لا يخرج عن هذا الاعتبار أو هذه الضرورة سوى القليل من هذه الافتتاحيات.

وأذكر بهذه المناسبة أنه سافر مرةً للاستشفاء، وطالت سفرته بعض الشيء، فقمت بكتابة افتتاحية أحد الأعداد[1] ـ بأسلوب الشباب

---

(١) وكانت بعنوان: (مَن لتاريخ هذه الأمّة) ـ العدد الثاني من السنة الرابعة: ربيع الثاني ١٣٨٣هـ ـ أيلول (سبتمبر) ١٩٦٣م.

الحماسي ـ فلما عاد سُرَّ بما أقدمتُ عليه ـ وكنت مع أخي الأستاذ محمد بسّام الأسطواني نتولى بعض شؤون المجلة بإشرافه وتوجيهه ـ وبعد بضعة أيامٍ حضر الأستاذ إلى كلية الشريعة بصحبة شخصيةٍ عراقية مرموقة، فمضيت معهما إلى مكتب الأستاذ المبارك عميد الكلية ـ وكنت معيداً بها ـ فلم نلبث بعد أن استقر بنا المجلس، حتى أثنى الضيف على العدد الأخير من المجلة، وسأل الأستاذ السباعي عن كاتب الافتتاحية ـ لأنها كانت موقَّعةً بالحروف ـ فالتفت الأستاذ نحوي ضاحكاً وهو يقول: هل عندك مانعٌ أن أقول له إنك كاتبها؟. . . وبقيت مع كثيرين غيري نلقى منه التحفيز والتشجيع في مناسباتٍ شتّى. . رحمه الله.

إنَّ المزايا التي تتمتع بها افتتاحيات المجلة، والتي أشرنا إلى طرفٍ منها قبل قليل، تجعل التنويه ببعضها أو محاولة الاقتباس من بعضها الآخر أمراً صعباً، وربما ليس بدقيقٍ أو موضوعي كذلك. . ومع ذلك فإنني أجد نفسي مدفوعاً إلى هذا وذاك في أقلّ سطورٍ ممكنة، لوضع القارئ في صورة هذه الافتتاحيات على وجه الإجمال، وللتنويه ببعض النقاط والمسائل لأغراضٍ تتصل ببحوث الكتاب مما لا يخفى على القارئ. أشير إلى افتتاحية العدد الثامن من السنة الثانية (شعبان ١٣٨١هـ وشباط (فبراير) ١٩٦٢م) بعنوان: **(أثر الدعوة الإسلامية في الإصلاح السياسي)** التي تصلح خلاصةً أو مقدمة لما تحدثنا عنه في المشهد السياسي والثقافي الذي صدَّرنا به هذا الكتاب، وإلى افتتاحية العدد الرابع من السنة الأولى (ربيع الأول ١٣٨٠هـ وتشرين الأول ١٩٦٠) بعنوان (الإسلام والحضارة) والتي قال فيها:

«وفي غمار هذا الظلام الشامل الذي تعيشه البشرية اليوم، في إطارٍ من النور المصطنع، والتقدم العلمي الذي استغله صانعو الحروب ليكون أداة خرابٍ ودمار للقيم الإنسانية ومُثلها العليا واطمئنانها الروحي، ينبغي أن نتساءل: لماذا لا يتقدم الإسلام اليوم ليقوم بدوره العظيم في إنقاذ الإنسانية من شقائها الحاضر الأسود، ودمارها الشامل المرتقب؟ قد يكون ذلك ممكناً، بل ليس من سبيلٍ للإنقاذ سواه، لولا عائقان اثنان:

أولهما: المفهوم المؤلم الخاطئ الذي انتهى إليه الإسلام كعقيدةٍ ونظام.

ثانيهما: الواقع المتخلف الذي تعيش فيه شعوب الإسلام ودوله كمجتمعاتٍ ودول ذات قيمةٍ محدودة بين المجتمعات والدول التي تحمل لواء الحضارة اليوم.

«أما مفهوم الإسلام فإنه بما تراكم عليه من غبار القرون التي خطاها، وأوهام الشعوب التي اعتنقته، ومؤامرات الخصوم الذين ما يزالون يناصبونه العداء.. **لم يعد له ذلك المفهوم الإعجازي الذي يخلق الحضارات، ويبدِّد عن المجتمعات الإنسانية سحب الظلمات**».

ثم عدَّد المفاهيم السائدة للإسلام في عالم الإسلام وشعوبه، وهي المفهوم الصوفي والمفهوم العاميّ والمفهوم الرسمي والمفهوم الاستعماري[1]! وعرَّف المفهوم (الرسمي) للإسلام بأنه «الذي يتظاهر

---

(١) تناول هذه القضية على نحو آخر في افتتاحية عدد ربيع الآخر ١٣٨٤، آب =

به أو يدَّعيه بعض الملوك والأمراء والمتسلِّطين، على أنه خطابٌ يمدح فيه الإسلام، وصلاةٌ تحشد لها الجنود والصحف والإذاعات، وصيامٌ تُمَدُّ فيه الموائد للكبراء والمتخمين والمفطرين! ومن وراء ذلك منكراتٌ يتندَّى لها الجبين، وظلمٌ اجتماعي تموت فيه (الملايين) جوعاً وبؤساً، من حيث تنفق فيه الملايين عربدةً ومجوناً!».

ثم تحدث عن مفهوم الإسلام الصحيح أو الفاعل، والذي أخرج أمةً وأقام حضارة؛ فقال في مواصفاته:

«أما الإسلام الذي هو: (وحدانية) من أصفى عقائد التوحيد وأكملها وأروعها نقاءً.

و(عقل) من أنضج العقول وأوعاها للعلم وأكثرها للحضارات بناءً.

و(روح) من أشرف ما تتصف به الروح علوّاً وسموّاً وعملاً في الحياة بنّاءً.

و(خُلُق) من أنبل ما تعرفه الأخلاق سماحةً ورحمة وثورة على الظلم وإباءً.

و(تعاون) من أروع صور التعاون الاشتراكي عدالةً وحباً وإخاءً.

«أما هذا المفهوم للإسلام، وهو الذي جاء به محمد ﷺ وأقام به

= (أغسطس) ١٩٦٤ بعنوان (تجزئة الإسلام) وهي من أواخر ما كتب قبيل وفاته رحمه الله. ويبدو أنها بقيت أحد همومه على الدوام.

حضارته الخالدة، فهذا ما لم يعد معروفاً إلا عند أفرادٍ متناثرين هنا وهناك، إن كانوا يتكاثرون يوماً بعد يوم، فإنهم الآن أبعد وأضعف ما يكونون عن تقدم الركب لإنشاء الحضارة المرتقبة المنقذة».

وبمناسبة هذا الحديث عن الإسلام وحضارته.. أشير إلى الكلمة الأخيرة التي ختم بها أحد الصحفيين الألمان مقابلةً له أجراها مع الأستاذ السباعي في منزله في شهر تشرين الأول ١٩٦٣، وهو الصحافي (غوستاف فيشر) المختص بشؤون الشرق الأوسط، والمكلَّف بإعطاء تقارير عن دراسته إلى خمسٍ من محطات الإذاعة والتلفزيون في ألمانية (الغربية في ذلك الحين). لقد تناولت هذه المقابلة مسائل كثيرة في الإسلام والمسيحية والحضارة الغربية، وبخاصةٍ مسألة المرونة والتطور بين الكنيسة الكاثوليكية والإسلام![1]..

قال (فيشر) في ختام هذه المقابلة: «أشكرك كثيراً، فقد نبَّهتني إلى حقيقةٍ كنّا غافلين عنها، وهي أننا لا نبهركم بمظاهر الحياة الاجتماعية عندنا، وأنكم تعرفون مساوئها فتحاولون الابتعاد عنها، كما أشكرك على تصحيح ما كنت أعتقده عن الإسلام، ولقد كنت من قبل أظنّ أنني أعرَف الناس بالإسلام والمسلمين، وبمشكلاتهم الحضارية؛ فتبيَّن لي أنني أجهل الشيء الكثير، فشكراً لك..».

---

(١) انظر نص هذه المقابلة بعنوان: الإسلام والحضارة الغربية في مجلة حضارة الإسلام ـ السنة الرابعة ـ العدد الرابع تشرين الثاني ١٩٦٣، ص٣٦.

وأشير بعد ذلك إلى افتتاحيةٍ له بعنوان: (**نهضتنا بين الأصالة والتبعية**)[1] استهلَّها بقوله: «من سنن الله في الكون أن تستفيد كلُّ أمةٍ ناهضة من تجارب الأمم التي سبقتها في الحضارة، وأن تقتفي أثرها في ميادين العلم والصناعة والاقتصاد وغيرها، غير أنَّ الأمة ذات الشخصية المستقلة المعتزَّة بتراثها الحضاري ـ كأمتنا ـ تأبى أن تذوب في كيان الأمم القوية المتقدمة في الحضارة، وتأبى أن تتبعها في كلِّ مناهج حياتها ووسائل معيشتها؛ فلكلِّ أمةٍ ظروفٌ خاصة بها، وبيئة تنفرد بها عن غيرها، ولكل أمةٍ طرازٌ في التفكير قد تنفرد به عن غيرها وقد تلتقي معه. هذا عدا ما لها من تراثٍ حضاري وتشريعي خالد، فإنها تأبى لها كرامتها الشخصية أن تتبع غيرها كالببغاء دون أن تستفيد من تراثها وحضارتها. إنَّ أمةً كأمتنا في هذا الطور من أطوار نهضتها «تستفيد» و«لا تذوب» و«تأخذ» و«لا تستجدي» و«تنظر» ولا «تنبهر». هكذا تفعل الأمم التي تريد الحياة متصلةً بمن سبقها إلى الحياة من آبائها وأجدادها..».

وقد ختم هذه الافتتاحية بقوله:

«إننا لا نشكّ ـ وسيثبت التاريخ ذلك ـ في أنَّ كلَّ تجاهلٍ للإسلام في مرحلتنا الحاضرة جهلٌ أو مؤامرة! وليس في واحدٍ منهما ما يشرِّف هـؤلاء الجاهلين أو الحاقدين، وإنَّ أمتنـا لا تغتفر لهم صنيعهم هذا، والتاريخ سينحى عليهم بأكبر اللائمة؛ فما في الأرض اليوم دينٌ يحل

(١) العدد الرابع السابق من السنة المشار إليها.

مشكلات الحياة كالإسلام، ولا خُلقٌ ينشر الصفاء والسلام بين أبناء الإنسانية جميعاً كخُلقه. وإنَّ الذين يتجاهلون هذا الدين وأخلاقه قومٌ لا يصلحون للحياة أبداً».

وقد لا يتّسع المجال بعد هذه اللمحات حول مسائل **الحضارة**، لأكثر من إشارةٍ أخرى لموضوع (**الدعوة**) الذي شغل الأستاذ السباعي وكان عنوان حياته.. وأكتفي من ذلك بهذه الكلمات أو العبر والنتائج التي أوجز فيها القول في افتتاحيةٍ بعنوان: (**الإسلام والدعاة**).

قال رحمه الله: «... وهذا تاريخ الإسلام منذ بزوغ فجره حتى اليوم، ما يزال تتلاحق فيه أفواج الدعاة جيلاً بعد جيل؛ كلما هلك منهم عَلَمٌ قام من بعده أعلام، وكلما هوى منهم في الطريق مصلحٌ تتالى من بعده مصلحون، وكلما هزَّتهم نكبةٌ ارتفعت رؤوسهم من بعدها شرفاء صادقين لا تزيدهم النكبات إلا صدق عزيمةٍ وشدّة مراس.

«ودعاة الإسلام اليوم مدعوون لمتابعة طريقهم الذي اختاروه لأنفسهم وهم عارفون بما يلحقهم من أذًى وحرمان وهجوم وعدوان، متَّخذين من الأحداث التي عاصروها فرأوا فيها ما أهوى بالضربات على رؤوسهم أحياناً، وما أحاط بسمعتهم وكرامتهم من افتراءٍ وتشويه أحياناً أخرى، عبراً تجنِّبهم عثرات المستقبل، وتبصِّرهم الطريق الصحيح إلى نشر الإسلام السمح النيّر الصافي ـ كما أنزله الله ـ بين أبناء أمتهم والآخرين الذين لا يزالون يُزرون به، ويكيدون له، وتمتلئ نفوسهم حقداً عليه.

«ولعلَّ من أكبر العبر التي أفادوها من تجارب الماضي وأحداثه: أن يجعلوا الدعوة إلى الله خالصةً ـ ما استطاعوا ـ من كلِّ ما يجلب لها العداوات، ويؤلِّب عليها الخصوم، ويوصد قلوب الناس دون الاستماع إلى صوتها العذب، وهدفها النبيل، وغاياتها المثلى.

«ولعل من أكبر تلك العظات أن يعرفوا كيف يحزمون أمرهم متعاونين غير مختلفين، قد حدَّدوا أهدافهم ووسائلهم بدقّةٍ وإحكام، وقدَّموا للناس ما جاء به الإسلام من حلٍّ لمشكلات المجتمع بتفصيلٍ ووضوح، وميَّزوا بين أصدقائه وأعدائه بعلاماتٍ لا مجال فيها للهوى ولا للحب ولا للبغض، ولا للمصلحة الذاتية؛ وإنما تستوحى من المقاييس الواضحة في كتاب الله وسنَّة رسوله، ومبادئ الإسلام الثابتة وأهدافه العليا؛ فلا يلتبس عندهم الأمر بين الصديق والعدوّ، ولا بين المسالم والمحارب، ولا بين المحبّ والمبغض.

«وقد يكون من تلك العظات: أن لا يُدلوا على الناس إن أحسنوا العملِ، وبذلوا النصح، وصدقوا في الدعوة؛ فإنَّ الإعجاب بالعمل محبِطٌ للأجر، مجلبةٌ للذمّ. وأن لا يتهرَّبوا من علاج الأخطاء حين تتَّضح لهم؛ **فإنَّ الخطأ منارٌ يهدي السالكين إلى الطريق الصحيح**. وكثيراً ما أدى تتابع النجاح إلى غرورٍ يقود صاحبه إلى أوعر المسالك وأبعدها عن الهدى والرشاد.

«ومن أكبر تلك العظات: أن يدركوا أنَّ **تبليغ رسالة الإسلام إلى الناس وإقناعهم بها ليس بالأمر السهل، ولا بالمنال القريب** كما كانوا

يتصوَّرون! فالأعداء كثر، والأهواء شتّى، والغفلة عميقة، وحبائل الشيطان تمتدّ ذات اليمين وذات الشمال، ولم تكن الضلالة في عصرٍ من العصور كما هي في عصرنا الحاضر، أشدّ سلطاناً وأكثر خداعاً وأقوى إغراءً وأبلغ فتنة».

وقد ختم هذه الافتتاحية بقوله:

«إنَّ الإسلام يخوض في عصرنا الحاضر معارك متلاحقة لا أغالي إذا قلت إنها أكثر المعارك التي خاضها الإسلام عنفاً وكيداً وبُعد مدى. ولسنا نشكّ في أنَّ الله تبارك وتعالى ناصرٌ دينه، ومعزٌّ كلمته، ومخزي أعداءه؛ فليشمِّر عن ساعده مَن أعدَّ لهذه المعارك جلباباً من الصبر والتقوى والأمل، وليثق بوعد الله من آمن بالله واليوم الآخر: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١ ـ ٥٢]».

أقول مرةً أخرى: إن هذه الافتتاحيات ـ بالإضافة إلى أعماله في المجلة ـ بحاجةٍ إلى جمع ودراسة للخروج منها بالدروس والعبر، وبخاصة في نطاق (الدعوة الإسلامية) وما يتصل بها من أسباب الضعف وعوامل القوة، وفي مجال الوقوف على عوامل الكيد للإسلام وأسباب العداوة له من قبل بعض الجهات وأصحاب الدعوات الأخرى في الداخل والخارج على حد سواء.

وأكتفي أخيراً بهذه الكلمات التي جاءت في آخر افتتاحية العدد الأول من السنة الخامسة (ربيع الأول ١٣٨٤ ـ تموز (يوليو) ١٩٦٤)

وهي من أواخـر ما كتب من افتتاحيـات[1]، قال رحمه الله: «ألا ليت

---

(١) وهي بعنوان: (هل نحسن الاستفادة من ذكرى المولد؟) وقد أعقبتها فقط افتتاحيتـان في شهري ربيع الآخر وجمـادى الأولى (آب وإيلـول) الأولى بعنوان: (تجزئة الإسلام) والثانية أو الأخيرة التي سبقت وفاته كانت بعنوان: (الطريق الصحيح لحلّ مشكلاتنا) وقد علّق فيها على مؤتمر القمة العربي الثاني. ومما جاء فيها قوله: «لقد كان القادة الذين درؤوا أخطار الأمس البعيد يؤمنون بالإسلام ديناً يحلُّ المشكلات، وبالمسلمين أمةً واحدة تجمعهم المصائب، وبالإيمان بالله واللجوء إليه، والاعتصام بالأخلاق المحاربة، أقوى وسيلةٍ من وسائل النصر. فهل هو الحال كذلك بالنسبة لقادة اليوم؟ ليس الجواب على ذلك صعباً على المراقب البصير!» أما الافتتاحية التي علّق فيها على مؤتمر القمة الأول، والتي كانت بعنوان: (رمضان ومؤتمر القمة) فقد ذكّر فيها المجتمِعين في القاهرة بالحقائق التي أعلنها الإسلام لتحقيق النصر في أيِّ معركة.
وقد جاء في الحقيقة الثالثة من هذه الحقائق قوله: «إنَّ للحرب أخلاقاً لا يُنال النصر إلاَّ بها، ومن أهمها وأقواها: شدَّة البأس، ورجولة الأخلاق، والصبر عند اللقاء؛ فإن انصرفت الأمة إلى حياة اللهو والعبث والمجون، واندفعت وراء غرائزها وشهواتها، وتركت لسفهائها أن يفسدوا أخلاقها، ولمجّانها أن يثيروا غرائزها، ولعابثيها أن يصرفوها عن حياة الجدّ والعمل والاستعداد، كان نصيبها الهزيمة المؤكّدة مهما تبجّحت بالأقوال، وقرعت الطبول، وملأت الدنيا صراخاً وغروراً وهياجاً! ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].
العدد السادس ـ السنة الرابعة: شعبان ١٣٨٣هـ ـ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٤م.

الذين ينحرفون بنا عن الإسلام اليوم من حكام العرب والعجم. . . يفهمون أنَّ سلخ الشعوب عن دينها أمرٌ مستحيل، وبخاصةٍ إذا كان هذا الدين الذي يراد إقصاؤها عنه هو الإسلام. وإنَّ كلَّ تجربةٍ من هذا القبيل لا بدَّ من أن تفشل مهما طال الزمن، وإنَّ من الخير لشعوبهم أن يوفِّروا عليها هذا الزمن، الذي تتيه فيه بين حقيقتها وبين الأوهام التي تفرض عليها، وإنَّ من الخير لمن كان حسن النية مخلصاً في تقدّم المسلمين، أن يوفِّر هذا الزمن ليبني مجده ومجد أمته على أساسٍ حقيقي ثابت أصله في الأرض وفرعه في السماء».

مشاركات أُخرى:

ولم تكن هذه الافتتاحيات كلَّ مشاركته في تحرير المجلة، فقد كان له بعض المقالات، والكثير من الردود والمناقشات والتعليقات، إلى جانب التعريف العلمي ببعض الكتب والإصدارات[1]، وكتابة

---

(١) انظر على وجه الخصوص تعريفه بكتاب (الأمير شكيب أرسلان)، تأليف الدكتور سامي الدهان رحمه الله. العدد التاسع من السنة الأولى: آذار (مارس) ١٩٦١ وقد وصف الأستاذ السباعي الأمير شكيب بقوله: «الأمير شكيب من أبرز أعلام الإسلام في النصف الثاني من هذا القرن (الرابع عشر الهجري): عالمٌ شاعر كاتب مؤرخ مجاهد مصلح، متعدِّد نواحي العظمة والعبقرية. أدركته في السنوات العشرين من أخريات حياته، واتصلت به عن طريق مؤلفاته ومقالاته التي كان ينشرها في مجلة (الفتح) القاهرية لصاحبها الأستاذ الكبير محب الدين الخطيب، ثم اتصلت بالأمير شكيب رحمه الله شخصياً منذ سُمح=

تراجم بعض العلماء والشخصيات الذين كان يفتقدهم الوطن أو الأمّة، وتمتاز هذه التراجم بالإحاطة والنفاذ.

وإذا كانت كلّ هذه الأعمال تعدل كتاباً أو كتابين يضافان إلى الكتب التي ألَّفها الأستاذ السباعي في أيام مرضه؛ فإنَّ المجلة احتوت كذلك على كتابٍ ثالث يتمثَّل في جملةٍ من المقالات تبلغ نحواً من عشرين نشر معظمها تحت عنوانٍ جانبي هو (مع الإسلام) وذكر أنها سلسلةٌ من الأحاديث المذاعة تنشر لأول مرة، ولا نعلم تاريخ إذاعتها، ولكن يبدو أنها مما أذاعه الأستاذ السباعي، أو توجَّه به إلى الشباب في وقتٍ سابق على المرض. وقد تم هذا النشر في السنتين السابعة والثامنة من سنوات المجلة.

ومن أبرز موضوعات هذه المقالات: العناوين التالية: (الأهداف الكبرى لرسالة الإسلام ـ أثر الإسلام في العالم ـ مزايا الخُلق الإسلامي ـ

= له بزيارة بلاده العربية والإسلامية، فاجتمعت به في القاهرة، ثم في بيروت في أيامه الأخيرة، وكلما امتدت المعرفة به والإصغاء إليه والقراءة له، ازددتُ إيماناً بعظمته ونبوغه وعلمه الواسع الغزير، وصادِق غيرته على الإسلام والمسلمين». وقال فيه أيضاً إنه «كان لسان العرب المبين، وكاتب الشرق الأكبر، وعلم الإسلام الخفَّاق، وسهم المسلمين المُشرَع في وجه الاستعماريين وأعداء العروبة والإسلام في كلِّ بقعةٍ من بقاع العرب والمسلمين». وانظر نص الكلمة البليغة المؤثرة التي ارتجلها الأستاذ السباعي على قبر الأمير شكيب ساعة دفنه ـ عليهما رحمة الله ـ بتاريخ ١٠/ ١٢/ ١٩٤٦. مجلة حضارة الإسلام، ص٨٢، العدد الخاص.

أثر الخلق الإسلامي في نهضتنا وقوتنا) إلى جانب المقالات التالية التي ضمَّها موضوعٌ واحد أو دارت حوله، وهو: (تشويه الاستعمار لحقائق الإسلام) فقد ذكر في مقالاتٍ متعددة الصور التالية من صور هذا التشويه: (موقفهم من الرسول الكريم ـ حديثهم عن المرأة في الإسلام ـ تفسيرهم للقضاء والقدر ـ موقفهم من زواج النبي ﷺ ـ تشويه معنى الدين ـ تشويه مهمة الدين في المجتمع . . .).

القلائد من فرائد الفوائد:

وأخيراً فإنَّ كتاب (القلائد من فرائد الفوائد) الذي قدَّم له الأستاذ السباعي بتاريخ (١) ربيع الأول ١٣٨٢/ (١) آب (أغسطس) ١٩٦٢ كان قد نشر قسمٌ منه في مجلة (حضارة الإسلام) في بابٍ يحمل عنوان (فرائد الفوائد: جمع واختيار أبي حسان) وهو عبارة عن «فوائد مجموعة من كتبٍ متعددة في أبحاثٍ متنوعة» كما قال. أو اختيارات من كتب التراث «مزجت فيه الحكمة بالأدب، وضمّت فيه الطرائف والمُلَح إلى عيونٍ من مسائل التفسير والحديث والفقه والعقيدة وغيرها من علوم الشريعة، ولم يخلُ من عبرةٍ تاريخية، أو أثر أدبي، أو بحث لغوي. . » قال الأستاذ السباعي: «وها أنذا أُصدر الجزء الأول من هذه الفوائد، وهو يحتوي على ما نُشر في السنتين الأولى والثانية من (حضارة الإسلام) مضافاً إليها ما يعادل ضعفها من فوائد لم تنشر من قبل»[1].

(١) من مقدمة الكتاب، ص٤ ـ ٥ ويقع الكتاب في حوالي مئتي صفحة من القطع الصغير.

موسوعة الفقه الإسلامي:

ونشير أخيراً إلى عملٍ علميّ آخر من أعمال الأستاذ السباعي، وهو إنشاء موسوعةٍ للفقه الإسلامي تضمّ مختلف المذاهب والآراء الفقهية بأسلوبٍ علمي معاصر يسهِّل على الباحثين ورجال التشريع والقانون الرجوع إلى الثروة الفقهية الإسلامية الموزَّعة في بطون الكتب والمراجع القديمة، خصوصاً وأنَّ قسماً كبيراً منها له طريقته الخاصة التي لم تعد مألوفةً الآن في الكتابة والتأليف وطريقة العرض.

قال رحمه الله: «حين أُنشئت كلية الشريعة عام ١٩٥٤ كان من أهم مشروعات القائمين عليها: عرض الفقه الإسلامي بجميع مذاهبه وآراء فقهائه عرضاً علمياً حديثاً يتجلَّى فيه سعة هذا الفقه وعظمته وغناؤه، واحتواؤه ـ بمجموع هذه المذاهب والآراء ـ على ثروةٍ تشريعية تجد فيه كلُّ الدولة وكلُّ شعبٍ المبادئ التشريعية لأرقى القوانين والأنظمة في كلِّ عصر»[(١)].

وهكذا تألَّفت لجنةٌ تضم المختصين بهذا الموضوع من رجال الفقه والقانون في كليَّتي الشريعة والحقوق بالجامعة السورية لوضع أسس العمل في هذه الموسوعة وطريقة إخراجها. وكانت هذه اللجنة برئاسة الأستاذ السباعي «وبعد جهودٍ متواصلة.. أصدرت اللجنة نشرةً عن

---

(١) مجلة حضارة الإسلام، ص٥٩ العدد التاسع من السنة الأولى آذار (مارس) ١٩٦١.

الموسوعة وأهدافها ونظام الكتابة وأسلوب عرض الآراء الفقهية في مختلف المذاهب. . . ونصَّت على المذاهب الأربعة ومذاهب الظاهرية والإمامية والزيدية والإباضية، كما نصَّت على أنها ستذكر آراء الفقهاء ولو لم تكن لهم مذاهب مدوّنة كالثوري والأوزاعي والطبري وغيرهم»[١].

وقد أشار الأستاذ الدكتور محمد الفاضل عندما كان عميداً لكلية الحقوق إلى هذا العمل العلمي من أعمال السباعي ـ وربما شارك هو في بعض اجتماعات وأعمال الموسوعة ـ فقال في كلمته (التأبينية) التي أشرنا إليها في موضعٍ سابق:

«إذا ما ذكرتم الفقيد الكبير مصطفى السباعي فاذكروا الداعية المصلح في زمنٍ عزَّ فيه الدعاة المصلحون، واذكروا فارساً من فرسان المنابر، وكاتباً أديباً، وفقيهاً مجدِّداً، وأستاذاً جامعياً عالماً. . . واذكروا له فكرته الخلاَّقة المبدعة في إنشاء موسوعةٍ للفقه الإسلامي، واذكروا له دفاعه عن (السنَّة ومكانتها في التشريع الإسلامي) وشرحه الرائع لقانون الأحوال الشخصية، واذكروا له (اشتراكية الإسلام) و(المرأة بين الفقه والقانون) وما باهى به الملأ (من روائع حضارتنا) وما نثره من خواطره وأفكاره الاجتماعية في كتابه المليء بالحكمة والتجربة (هكذا علمتني الحياة)، وما وقف له جهده العلمي القيّم من بحوثٍ وآراء في مجلّته (حضارة الإسلام)»[٢].

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) مجلة حضارة الإسلام ـ العدد الخاص ـ ص٦٣.

هذه صورةٌ مجملة لمؤلفات الأستاذ السباعي وجهوده العلمية، وتعريف بمشاركاته الفكرية والدعوية والثقافية كما تجلّت في مجلّته (حضارة الإسلام). ولم يبق أمامنا في نهاية هذا الفصل أو الجزء سوى الإشارة إلى خلاصة رأيه في التصوّف وفي الاستشراق.

حول رأيه في الاستشراق:

أشرنا عند الحديث عن نشأة السباعي كيف وقف في وجه الاستعمار الفرنسي... وكيف قُبض عليه وسجن بدءاً من عام ١٩٣١، إنَّ هذا الاصطدام (السياسي/ الوطني) بجيش الاحتلال، أعقبه في مصر حين ذهب إليها للدراسة صدامٌ فكري/ ثقافي..، إذ سرعان ما تبيّن له وهو طالبٌ في السنة الثانية في الدراسات العليا أنه أمام شبهاتٍ استشراقية أخذت طريقها إلى كتب بعض أساتذته في الأزهر وعقولهم، كما أوضحنا ذلك عند التعريف بكتابه (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي)! وهكذا كُتب عليه أن يقاوم الغزو بوجهيه العسكري والثقافي في سنٍّ مبكّرة! ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنَّ وعيه العلمي/ النقدي تشكَّل في هذه المرحلة من خلال مقالاته التي كتبها عام ١٩٣٩ حول ابن شهاب الزهري[1]، ثم حول ما أسماه (تحريف الحقائق الإسلامية في كتاب «فجر الإسلام» لأحمد أمين) وقد وضع لمقالتيه الأولى والثانية حول ابن شهاب الزهري العنوان

(١) انظر الأعداد (٦٩٨) و(٦٩٩) و(٧٠٠) من مجلة (الفتح) تاريخ (١٢ و١٩ و٢٦) من شهر صفر ١٣٥٩هـ.

الهامشي الثابت التالي: (بيننا وبين المستشرقين).

أما مقالاته الأخرى التي حملت عنوان (تحريف الحقائق..) المذكور فقد بلغت ست حلقات[1]، وتناولت بالنقد جملةً من الآراء الاستشراقية التي انطوى عليها كتاب أحمد أمين رحمه الله؛ بالإضافة إلى ما تضمَّنه هذا الكتاب من أخطاءٍ علمية أخرى. وقد يكون من المفيد أن نذكر خلاصة ما وقف عليه من أخطاء وأغاليط في كتاب (فجر الإسلام) والتي عدَّدها في مقالته الأولى، نظراً لأهميتها من جهة، ولدلالتها على القدرة العلمية/ النقدية التي تمتَّع بها السباعي في وقت مبكر، من جهة أخرى. قال رحمه الله:

وسيرى القارئ في البحوث التالية أنَّ الأستاذ أحمد أمين:

«أولاً ـ تأثَّر إلى درجةٍ كبيرة ببحوث المستشرقين وكتاباتهم عن علم الحديث.

«ثانياً ـ تأثر بآراء رؤوس المعتزلة وطوائف من الشيعة في صحابة رسول الله ﷺ.

«ثالثاً ـ استنتج من عنده بعض آراءٍ ليس لها أساسٌ علمي، ولا مستند تاريخي صحيح.

«رابعاً ـ لم يلتزم الأمانة ولا الدقة فيما نقله من النصوص والآثار.

---

(1) انظر العدد (٧١٢) تاريخ ٢١ جمادى الأولى ١٣٥٩ وما بعده من المجلة المذكورة.

«خامساً ـ لم يعتمد في تاريخ الحديث على كتب الحديث. . . ومن هنا أورد كثيراً من الأحاديث، منها ما لم يعثر له على أصلٍ في كتب السنَّة، ومنها ما جاء بأسلوبٍ مغاير لما في تلك الكتب. وقد كان يستطيع الرجوع في معرفة هذه النصوص إلى مراجعها الحقيقية لولا أنه يسعى إلى غرضٍ معيّن؛ فهو يتصيد له الأدلة من هنا وهناك من غير تحقيقٍ ولا تدقيق».

ثم قال: «سيرى القارئ هذا مدلّلاً عليه في مواضعه، وسيرى أيضاً أننا ناقشناه في عباراتٍ فهمها على غير وجهها؛ لأنَّ المقام مقام نقد، فمن حقِّه أن يكون تاماً من كل نواحيه»[1].

قلت: وقد ارتقى هذا كلُّه في سلّم النقد والتقويم حين أصبح جزءاً من كتابه (السنَّة) الذي تحدثنا عنه. على أنَّ النقطة التي كنت أودّ أن أوردها ـ والتي شكَّلت عندي أهم الحوافز لبيان رأيه في حركة الاستشراق ـ وجدتها الآن تفرض نفسها من خلال هذه المقدمة.. وهي أنَّ زيارته العلمية للجامعات والمكتبات وأقسام الدراسات الشرقية في البلاد الأوروبية، واجتماعه بلفيفٍ من كبار المستشرقين ومحاورتهم. لم تُنشئ عنده تصوراً جديداً أو أحكاماً جديدةً على أعمال المستشرقين، بل (أكَّدت) له ما سبق كشفه أو الوقوف عليه في وقتٍ سابق. وفي ذلك يقول في المقدمة المطوَّلة التي كتبها لمؤلَّفه (السنَّة. . .) عندما طبعه عام

---

(١) العدد المشار إليه (٧١٢) من مجلة الفتح، ص١٠ العام الخامس عشر.

١٣٧٩هـ، ١٩٦٠م، والتي أشرنا إليها فيما سبق، والتي اشتدَّ عليه المرض وبرّحت به الآلام عند كتابة بعض فقراتها ـ ردوده على العبارات الساقطة التي قالها أبو رية بحقِّ الصحابي أبي هريرة ـ:

«أما المستشرقون الذين اتّخذ منهم أبو رية تكأةً لآرائه، فقد كتبتُ عنهم كلمةً موجزة في كتابي هذا، قبل أن أزور أكثر جامعات أوروبة عام ١٩٥٦ وأختلط بهم وأتحدث إليهم وأناقشهم. فلمّا تمّ لي ذلك ازددت إيماناً بما كتبته عنهم، واقتناعاً بخطرهم على تراثنا الإسلامي كله، سواء أكان تشريعياً أم حضارياً، لما يملأ نفوسهم من عصبيةٍ تأكل قلوبهم حقداً على الإسلام والعرب والمسلمين . . ».

وقد اتضح له خلال هذه الرحلة الحقائق التالية:

«أولاً ـ إنَّ المستشرقين ـ في جمهورهم ـ لا يخلو أحدهم من أن يكون قسيساً أو استعمارياً أو يهودياً، وقد يشذّ عن ذلك أفراد.

«ثانياً ـ إنَّ الاستشراق في الدول الغربية غير الاستعمارية ـ كالدول الإسكندنافية ـ أضعف منه عند الدول الاستعمارية.

«ثالثاً ـ إنَّ المستشرقين المعاصرين في الدول غير الاستعمارية يتخلّون عن (جولد تسيهر) بعد أن انكشفت أهدافه الخبيثة.

«رابعاً ـ إنَّ الاستشراق بصورةٍ عامة ينبعث من الكنيسة، وفي الدول الاستعمارية يسير مع الكنيسة ووزارة الخارجية جنباً إلى جنب،

يلقى منهما كلَّ تأييد»[1] .

وقد ربط نشأة الاستشراق بالحروب الصليبية التي انتهت بالفشل من الناحية السياسية والعسكرية. . حيث كانت دراسة الإسلام ونقده وسيلة الغرب في الانتقام من الإسلام. . ثم اتسع نطاق الدراسات الغربية عن الإسلام وتاريخه بعد الاستعمار الحديث واستيلاء الغرب على أكثر أقطار العالم الإسلامي. . بقصد تبرير سياستهم الاستعمارية نحو شعوب هذه الأقطار.

يقول الأستاذ السباعي: «وقد تمَّ لهم في القرن الماضي ـ التاسع عشر ـ دراسة التراث الإسلامي من جميع نواحيه الدينية والتاريخية والحضارية» **ولكن هذه الدراسة لم تستطع أن تصيب وجه الحقّ لسببين:**

الأول: التعصّب الديني الذي استمرّ لدى ساسة أوروبة وقادتها العسكريين. . والذي ما تزال آثاره باقيةً فيما يكتب الغربيون عن الإسلام وحضارته.

أما السبب الثاني فيمكن تلخيصه بالغرور والانطلاق من المركزية الأوروبية وعقدة التفوق التي حكمت نظرتهم إلى تراث جميع الأمم الأخرى! حتى وصل الأمر إلى حدّ الاعتقاد بأنَّ العقلية الغربية «هي العقلية الدقيقة التأمل التي تستطيع أن تفكر تفكيراً منطقياً سليماً! أما غيرهم من الشعوب ـ وخاصةً الإسلامية ـ فإنَّ عقليتهم بسيطةٌ ساذجة،

---

(١) كتاب: السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص١٦.

أو بالأصحّ «ذريّة» كما عبَّر بذلك المستشرق (جب) في كتابه (وجهة الإسلام)»[1].

وكان المتوقع أمام هذه النشأة وتلك الحقائق أن يعرض مثقفونا عن كتب هؤلاء المستشرقين! لكن الأمر جرى ـ أيام الركود والشعور بالنقص والضعف ـ على خلاف ذلك؛ بسبب ما تتصف به كتبهم من أسلوبٍ معاصر وعرضٍ علمي (موثَّق) فوق ما توحي به أو تدلّ عليه من دأبٍ متواصل وتفرُّغ علمي طويل. «ولم يتح لهؤلاء المثقفين أن يرجعوا إلى المصادر الإسلامية التي استقى منها المستشرقون وغيرهم من الباحثين الغربيين، إما لصعوبة الرجوع إلى مصادرنا، أو للرغبة في سرعة الإنتاج العلمي، أو لشهوة الإتيان بحقائق مخالفة لما هو سائدٌ في أوساطنا العلمية والدينية وغيرها»[2]، وهكذا تم التعويل على بحوث المستشرقين ودراساتهم عن الإسلام من قبل الكثير من المثقفين والعلماء المسلمين، وبخاصةٍ من قبل أولئك الذين تلقّوا الدراسات العليا على أيديهم.

وكان الأستاذ السباعي قد لاحظ في صُلب كتابه (السنة) ـ وقبل اجتماعه بتلك الطائفة الكبيرة من المستشرقين ـ أنَّ بحوث هؤلاء تتسم بالظواهر الآتية:

---

(١) المصدر السابق، ص٢٢.
(٢) المصدر السابق، ص٢٣.

«١ ـ سوء الظنّ والفهم لكلّ ما يتصل بالإسلام في أهدافه ومقاصده.

٢ ـ سوء الظنّ برجال المسلمين وعلمائهم وعظمائهم.

٣ ـ تصوير المجتمع الإسلامي في مختلف العصور، وخاصةً في العصر الأول، بمجتمعٍ متفكك تقتل الأنانية رجاله وعظماءه.

٤ ـ تصوير الحضارة الإسلامية تصويراً دون الواقع بكثير؛ تهويناً لشأنها، واحتقاراً لآثارها.

٥ ـ الجهل بطبيعة المجتمع الإسلامي على حقيقته، والحكم عليه من خلال ما يعرفه هؤلاء المستشرقون من أخلاق شعوبهم وعادات بلادهم.

٦ ـ إخضاع النصوص للفكرة، التي يفرضونها حسب أهوائهم، والتحكم فيما يرفضونه ويقبلونه من النصوص.

٧ ـ تحريفهم للنصوص في كثيرٍ من الأحيان، تحريفاً مقصوداً، وإساءتهم فهم العبارات حين لا يجدون مجالاً للتحريف.

٨ ـ تحكمهم في المصادر التي ينقلون منها، فهم ينقلون مثلاً من كتب الأدب ما يحكمون به في تاريخ الحديث، ومن كتب التاريخ ما يحكمون به في تاريخ الفقه، ويصحّحون ما ينقله (الدميري) في كتاب (حياة الحيوان) ويكذّبون ما يرويه الإمام (مالك) في (الموطّأ).. كلُّ ذلك انسياقاً مع الهوى، وانحرافاً عن الحقّ»[1].

---

(١) كتاب السنّة، ص١٨٨ ـ ١٨٩.

ولا يفوت الأستاذ السباعي بعد ذلك أن يشير إلى أمرين:

الأول: أنه إذا كان قد اشتدّ ـ في كتابه ـ على المحرِّفين والمضلِّلين من المستشرقين أمثال (جولدتسيهر) فإنه لا يغمط حقَّ المنصفين منهم «في نشر نفائس كتبنا القديمة»، وفي «دأبهم في البحث عن الحقيقة، فليس العلم محتكراً لأمةٍ دون أمة»، ثم يقول: «والإسلام ـ وهو دين الله للعالم كله ـ لا يمكن أن يستأثر بفهمه قومٌ دون قوم، فليفهم منه من يشاء ما شاء، بشرط أن يتحلّى بصفة العلماء، وهي الإنصاف والإخلاص للحق، والبعد عن العصبية والهوى»[1].

الأمر الثاني: أنه تحدَّث عن يومٍ قريب ننقلب فيه نحن إلى دراسة تراث الغربيين ونقد ما عندهم من دينٍ وعلوم وحضارة! ويتساءل الأستاذ السباعي في هذا السياق بقوله: «تُرى لو استعمل المسلمون معايير النقد العلمي التي يستعملها المستشرقون في نقد القرآن والسنة، في نقد كتبهم المقدسة وعلومهم الموروثة، ماذا كان يبقى لهذه الكتب المقدسة والعلوم التاريخية عندهم من قوة؟ وماذا يكون فيها من «ثبوت»؟ ويقول أيضاً: «لو أننا استعملنا هذه المعايير في نقد «تاريخ الحضارة الأوروبية ومقدَّساتها وفاتحيها ورؤسائها وعلمائها» ألا نخرج بنتيجةٍ من الشكّ وسوء الظنّ أكبر بكثير مما يخرج به المستشرقون بالنسبة إلى حضارتنا وعظمائنا؟ «ألا تبدو هذه الحضارة مهلهلةً رثَّة الثياب؟ وألا يبدو معظم رجال هذه الحضارة من علماء وسياسيين وأدباء بصورةٍ باهتة اللون لا أثر

---

(١) المصدر السابق، ص٢٥.

فيها لكرامةٍ ولا خلق ولا ضمير؟»[1].

موقفه من التصوف:

أشرنا في موضع سابق إلى أنَّ الأستاذ السباعي تساءل في بعض افتتاحياته لمجلة (حضارة الإسلام) بقوله: «لماذا لا يتقدَّم الإسلام اليوم ليلعب دوره العظيم في إنقاذ الإنسانية من شقائها الحاضر الأسود، ودمارها الشامل المرتقب؟».

وقلنا: إنه رجع ذلك إلى عائقين اثنين: الأول: «المفهوم المؤلم الخاطئ الذي انتهى إليه الإسلام كعقيدةٍ ونظام» والثاني: الواقع المتخلف الذي تعيش فيه شعوب الإسلام ودوله...[2].

وفي سياق حديثه عن العائق الأول عدَّد للإسلام بضعة مفاهيم منها: الصوفي والعامّي والرسمي والاستعماري! وأوجز القول في المفهوم الصوفي بأنه «الذي نأى عن صفاء العقيدة وتفتُّح العقل، وصنع الحياة كما يريدها الأنبياء والمصلحون والحكماء.. إلى مفهوم (التماوت) والفرار من الحياة، والشرك المقنَّع، والعقل المغلق، والزهد المصطنع الذي يحوي في برديه أبشع صور التكالب على المادة واللذة والجاه، واستغلال السذَّج والبسطاء»[3].

---

(١) المصدر السابق، ص٢٤.

(٢) مجلة حضارة الإسلام عدد ربيع الثاني ١٣٨٠هـ - تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٠.

(٣) المصدر السابق، ص٤.

وعلى الرغم من أن الأستاذ السباعي كان يتحدث عن التصوف أو عن المفهوم الصوفي للإسلام كما عايشه أو رآه في كثيرٍ من المتصوّفين من حوله؛ فإنه تلقّى رداً ـ شديداً ـ من بعض العلماء الأفاضل على هذا الذي قال! ومما جاء في هذا الرد: «إنَّ في الصوفية ضالّين وجاهلين ومُغرضين، وفي المتحرِّرين المصلحين ضالّين ومغرضين، وفي الوهابية السلفية أعداداً يجهلون الكثير الهامّ من أحكام الإسلام سوى الحكم على غيرهم من المسلمين بالشرك وحبوط الأعمال. فهل يصلح شرعاً تعميم الحكم الواحد على أفراد تلك الطوائف جميعاً؟»[1].

وقد عقَّب الأستاذ السباعي على هذا الرد ـ كل ذلك على صفحات مجلّته (حضارة الإسلام) ـ بذكر لمحةٍ عن التصوف الذي نشأ لتهذيب النفس وتصفية الروح.. فانقلب إلى طقوسٍ ورموز ورهبانية بعيدة عن روح الإسلام، قال: «والتصوف القائم اليوم في المجتمع الإسلامي إنما يمثّل بمجموعه كلَّ ما قلته عن المفهوم الصوفي للإسلام..» وأضاف: «أما الدجل والتغرير بالسذَّج والبسطاء لاكتناز المال، والإثراء غير الشريف؛ فهذا إذا كان الأستاذ الألباني لا يعيش في وسطه لاستقامته وصحة عقيدته وصدق زهده؛ فإننا نحن الذين عشنا مع هؤلاء الذين يأكلون الدنيا باسم الدين، ويغرّرون بجمهور المسلمين، ويضلُّونهم

---

(١) مجلة حضارة الإسلام، ص٢٠ العدد الثامن: شباط (فبراير) ١٩٦١. والردّ للأستاذ وهبي سليمان الألباني.

وينحرفون بهم عن سنن الإسلام وأخلاقه . . »[1] .

ثم عاد الأستاذ السباعي بعد اثنين وعشرين شهراً مضت على هذا التعقيب ليكتب خلاصة موجزةً جامعة عن التصوف، بمناسبة وفاة **الشيخ أحمد الحارون**، وكان رحمه الله من أفاضل الصوفية . . فكتب الأستاذ السباعي كلمة عنه في باب (رجل فقدناه) ـ أحد أبواب المجلة التي كان للأستاذ السباعي فيها نصيبٌ وافر كما أشرنا ـ وقدَّم لها بتلك الخلاصة الجامعة التي جاءت من خلال معايشته لنموذجين من نماذج الصوفية في عصره واطّلاعه على أوضاعهم، من جهة . . والتي اتَّسمت بأعلى درجات الموضوعية والإنصاف وتحرِّي وجه الحق ؛ من جهةٍ أخرى .

قال رحمه الله : «الإسلام نظامٌ وخُلق، ويوم كان المسلمون الأوَّلون يحرصون على تنفيذ نظام الشريعة والتخلُّق بآدابها، كانوا من أرقى المجتمعات نظاماً، وأكمل الناس أخلاقاً .

«ومن أهم أخلاق الإسلام : المحبّة، والتسامح، والمراقبة لله، ومحاسبة النفس، والزهد في الدنيا مع العمل لها والتمتُّع بطيِّباتها .

«ولم يكن السلف الصالح من صحابة رسول الله ﷺ وتابعيه يفرِّقون بين شطري الإسلام، بل كانوا يحرصون على العلم والعمل، وإقامة نظام الإسلام، والتخلق بآدابه . ولم يكن للقسم الأخلاقي والتهذيبي فيه اسمٌ خاص عندهم، ولا أناس متخصصون فيه لا يدلون إلى العلم بسبب،

---

(١) مجلة الحضارة، ص٧٢، العدد التاسع : آذار (مارس) ١٩٦١ .

ولا يقيمون وزناً لشرائع الإسلام وأحكامه.

«ولما اتسعت الحضارة الإسلامية وآتت ثمارها؛ أوشكت القلوب أن تشغلها الحضارة وعلومها عن أخلاق الإسلام، فتصدَّى نفرٌ من أجلَّة علمائه يومئذٍ كالحسن البصري رحمه الله للوعظ والتذكير بالله ومراقبته، والترغيب في جنَّته والترهيب من ناره.

«ثم أُطلق بعد ذلك على هذا النوع من التذكير والموعظة اسم (التصوُّف)، ولم يكن في إطلاقه على الدعوة إلى الأخلاق الإسلامية وآدابها ضررٌ ما. ونشأ في المسلمين أجلَّةٌ عظماء يجمعون بين العلم والزهد والتصوف كالجنيد رحمه الله، فلم يكونوا في زهدهم وتصوفهم خارجين عن حدود الشريعة، ولا متجاوزين لأحكامها، ولم يكن التصوف يومئذٍ يعدو أن يكون تهذيباً للنفس، وتنشيطاً للروح، ودعوةً إلى مراقبة الله وحسن المعاملة بين الناس. وكان في **هذه الحدود وبهذا المعنى** أداةً صالحة لتخفيف انغماس الناس في طلب الدنيا، وإقبالهم على طيباتها وزينتها، ولتهذيب الأخلاق بما يتفق مع شرائع الإسلام وآدابه»(١).

قلت: يوضح هذا الإيجاز الشديد المنزلةَ العالية التي يحتلُّها السلوك الأخلاقي في منظومة الشمول الإسلامي، بوصفه شطر الإسلام

---

(١) مجلة حضارة الإسلام، ص٨٦ العدد الخامس ـ السنة الثالثة رجب ١٣٨٢هـ ـ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٢م.

والحياة الإسلامية، كما يوضح السبب المباشر الذي جعل بعض العلماء يركِّز على هذا الجانب أو الشطر، ويخصُّه بالرعاية والاهتمام. . والتذكير، قبل أن يطلق عليه اسم (التصوف) لأسبابٍ لا أهمية لذكرها في هذا السياق. كما توضح هذه السطور الأخيرة رأي الأستاذ السباعي في التصوف، أو في هذا التصوف؛ أي بوصفه «تهذيباً للنفس، وتنشيطاً للروح. . . »إلخ وهو رأيٌ إيجابي. . ولكن كما قلنا في الحدود التي ذكرها، وبالمعنى والدور الذي حدَّده، والذي ربطه بالنشأة كما هو واضح.

ثم تحدث الأستاذ السباعي عن الآفات التي عرضت للتصوف، فأفسدت صفاءه، وجعلت منه أداةً من أدوات الهدم للمجتمع الإسلامي وللحضارة الإسلامية. وقد حدَّد هذه الآفات في ثلاث هي:

١ ـ **«الأخذ بمفاهيم أعجمية للأخلاق الإسلامية»** من ترك الدنيا والفرار من العلم والعمل. . بل اللجوء إلى حياة التسوُّل (والشحاذة) في بعض الأحيان. وهكذا فسد معنى التوكُّل ومعنى الصدوف عن تعلُّق القلب بمفاتن الدنيا مع الأخذ منها بنصيب. . فأصبح كسلاً وتواكلاً، وتركاً للدنيا في الظاهر، مع تعلُّقٍ بها في الباطن!.

٢ ـ **«اعتماد الصوفية على القسم الأخلاقي في الإسلام وإعراضهم عن القسم التشريعي»**. . حتى كان كثيرٌ منهم يرى أنَّ العناية بالأحكام، وقد سمّوها علم الظاهر، يصدُّهم عن (علم الباطن). . فاستُغِلَّ هذا أسوأ استغلال «من قبل الزنادقة والشعوبيين وأعداء الإسلام، حيث نشروا بين جماهير الصوفية عقائد باطلة يصل بعضها إلى حد إسقاط التكاليف الشرعية عمَّن بلغ درجةً معيَّنة عندهم! ونشأ عن ذلك أن جعلوا للتصوف

حدوداً ورسوماً وتنظيمات أشبه ما تكون بالتنظيمات الكنسية، وجعلوا الشيخ بمثابة النبي، وأحياناً الإلـه بالنسبة إلى المريد (التلميذ) حيث حرَّموا عليه أن يشكَّ في أيِّ تصرفٍ للشيخ ولو كان مخالفاً للشريعة... ويقول الأستاذ السباعي: إنَّ هذه كهنوتيةٌ لا يعرفها الإسلام، ولا يعرفها الصحابة بالنسبة للرسول المعصوم ﷺ فقد كانوا يسألونه ويناقشونه، وكان الصحابة ينكر بعضهم على بعض، ويردُّ بعضهم على بعض.

٣ ـ أما الآفة الثالثة فهي: «**استغلال التصوف للدنيا**» وأكل أموال الناس من (المريدين) وغيرهم، مع التظاهر بالورع والدعوة إلى الزهد! «ويتعلَّل مشايخ الصوفية لذلك بأنَّ ما يأخذونه من الناس أقلّ مما يعطونه لهم! فهم يعطونهم هدايةً وإرشاداً يصلون بهما إلى الجنَّة، بينما يأخذون منهم مالاً يفنى وعرضاً يزول! وقد انطلت هذه الحيلة على كثيرٍ من السذَّج والبسطاء والجاهلين بأحكام الدين».

ويرى الأستاذ السباعي أنَّ انتشار التصوف بهذه الآفات في العصور المتأخرة تسبب في «انهيار المجتمع الإسلامي وتخلُّفه عن مسايرة ركب الحضارة» ـ أو في الركود وانطفاء الفاعلية الذي أصاب المجتمعات الإسلامية والعقل الإسلامي ـ حتى «وقع في أنياب المستعمرين الذين كثيراً ما استغلوا أولئك المشايخ الدجالين لتخدير الجماهير وإقناعهم بالرضوخ للاستعمار، كما يُعلم ذلك من تاريخ البلاد الإسلامية في القرنين الأخيرين»[1].

---

(١) المصدر السابق، ص٨٨ ـ ٨٩.

ثم عقَّب الأستاذ السباعي بعد حديثه عن هذه الآفات، أو عن انتشار التصوف بهذا المفهوم الفاسد والواقع السلبي بالقول إنَّ رحمة الله بعباده تأبى أن ينتشر الضلال والتدجيل باسمه وباسم دينه «فكان في كلِّ عصرٍ يصنع على عينه رجالاً عظماء يرجعون بالناس إلى شريعة الله، ويعملون على تهذيب النفوس مخلصين لوجه الله. . .» فكانوا لمجتمعاتهم «جنَّةً وارفة الظلال في صحراء مجدبة مهلكة»! وقد عدَّ الأستاذ السباعي **الشيخ أحمد الحارون واحداً من هؤلاء**؛ قال: «وممن أدركناهم واستفدنا منهم فائدةً نشهد بها أمام الله هو العارف بالله فقيد الإسلام الشيخ أحمد الحارون الحجار. .» وقد وصفه بأنه من ذلك الطراز من الرجال «الذين يحيون القلوب، وينعشون الأرواح، ويلتزمون حدود الشريعة، ويبتعدون عن استغلال التصوف لجمع المال. .».

ومن الجدير بالتأمل أنَّ الأستاذ السباعي الذي تردَّد على الشيخ الحارون في أول أمره معه «مختبراً ومراقباً» انتهى إلى أن أصبح «محبّاً ومعجباً ومريداً» فنصَّ رحمه الله على هذه «المفردة» أو هذا المصطلح الأخير. . . تمييزاً بين شيخٍ وشيخ ومريدٍ ومريد. . وهو التمييز الذي يحمل دلالة التفريق الحاسم في نظر الأستاذ السباعي بين تصوف الدجّالين وتصوف الزاهدين. يضاف إلى ذلك أنَّ هذا التردد على الشيخ كان قبل مرض الأستاذ السباعي وبعده. . . الأمر الذي يحمل أوضح الدلائل على أنَّ هذا الإعجاب وهذه الإشادة بصوفية الشيخ الحارون لم تكن بسبب المرض الذي استبدَّ به وأذكى في نفسه الجانب الروحي. . .

وارتقى به في مقام الصلة بالله تعالى والأنس بالعبادة والتهجد إلى مقامٍ يفوق ما كان عليه أو ما كان وقته لا يتسع له في سالف الأيام! بل لعل العبرة الحقيقية تكمن هنا؛ فقد ذكر الأستاذ السباعي أنه قال له ذات مرة، وهو ـ أي الأستاذ السباعي ـ غارقٌ في القضايا العامة من سياسيةٍ ودينية: «إنني متألمٌ لحرماني من ساعات فراغٍ أتهجَّد فيها، أو أخلو فيها لنفسي، أو أقرأ القرآن قراءة تدبُّرٍ وتفهُّم» وسأله: «كيف السبيل إلى الجمع بين التعبُّد والعمل السياسي والإصلاحي؟ فقال له على الفور ـ وبنبرةٍ لا تخلو من الشدَّة والحزم ـ:

وهل يقلُّ أجر العمل الذي تقوم به عن أجر العبادة والتهجد والخلوة؟ إنَّ ما أنت فيه عبادةٌ من أكثر العبادات ثواباً، فلا تندم على ما أنت عليه!»[1].

وكان هذا الفهم الصحيح للإسلام من أهم ما حبَّبه إلى نفس الأستاذ السباعي، إلى جانب «تواضعه، وحسن خُلقه، وتهرُّبه من الشهرة، وزهده في الدنيا مع إقبالها عليه، وسخاؤه الذي ليس له مثيل..» وقد نعته بـ(شيخ الصالحين الصادقين، ومرشد النفوس والأرواح) وبأنه كان في حياته «مثلاً صادقاً لروح الإسلام، واستمراراً مؤثراً مثمراً لأخلاق الرسول ﷺ»[2].

---

(١) المصدر السابق، ص٩١.
(٢) المصدر السابق، ص٩٢.

ونشير أخيراً إلى أنَّ الأستاذ السباعي كتب عدة خواطر عن التصوف في كتابه (هكذا علمتني الحياة) قد لا تخرج في جملتها عن هذا الذي قدَّمناه من رأيه رحمه الله[1]. ونكتفي من هذه الخواطر بالخاطرة التالية التي كتبها تحت عنوان: (بين التصوف والشريعة)[2]: قال:

«الصوفي العالم وقَّافٌ عند حدود الشريعة، مهذِّبٌ لنفسه وأخلاقه. وهذه هي صوفية الصحابة والسلف الصالح، وتلك هي حياة المجتمع وروحه، وزهرته النّضرة الفوّاحة.

«والصوفي الجاهل منحرفٌ عن الشريعة، متظاهرٌ بما ليس فيه، وهو علّة المجتمع ومرضه، ومبعث انحراف الأخلاق فيه.

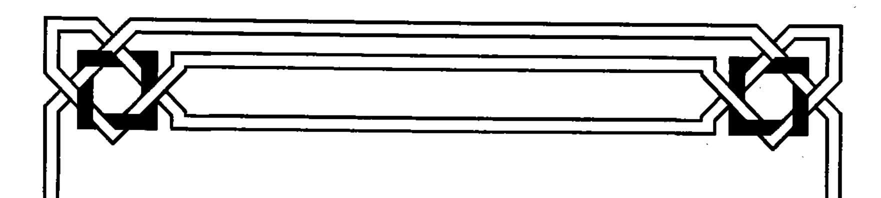
«والصوفي الزنديق هادمٌ للشريعة، مشكِّكٌ في الدعائم الراسخة للنظام الاجتماعي والعقائدي للأمة. وبهذين الصنفين أضاع الإسلام رفعتَه، وفقد المجتمع الإسلامي قوَّته».

* * *

---

(١) انظر الفقرات رقم: ٥٧١، ١٠١٥، ١٠١٦، ١٠١٩، ١٠٢٠ و٢٤٠، وهذه الأخيرة بعنوان (شيطان يتظلَّم).

(٢) الفقرة رقم (٥٧١)، ص١١٤.



الكاتب والأديب

كلمة في أسلوبه وبيانه



الكاتب والأديب

كلمة في أسلوبه وبيانه

الكاتب والأديب:

نقدِّم هنا لمحةً عابرة عن أسلوب السباعي في الكتابة والتأليف، ولا نعني بذلك أكثر من الإشارة إلى المسحة البيانية الغالبة أو الظاهرة في كلِّ ما خطَّه رحمه الله، منذ كتاباته الأولى في مجلة (الفتح) لمحب الدين الخطيب.. وحتى كتاباته الأخيرة في مجلته هو (حضارة الإسلام).. مروراً بعد ذلك بكلِّ كتبه وبحوثه ومقالاته.. حتى تلك التي لم تجرِ العادة بأن تُعرَض بأسلوبٍ أدبي أو بياني مثل شرحه لقانون الأحوال الشخصية، ولأحكام الميراث منه على وجه الخصوص.. ويعكس هذا مدى انفعاله بالقرآن وتأثره بأسلوبه وبيانه المعجز.. في جميع أبواب القرآن التي شملت كلَّ شيء. وقلَّما وُجدت كتبٌ فقهية وقانونية، قديمة أو حديثة، تحمل مثل هذا الطابع الأدبي أو البياني. وربما كان أولى من يلحظ ذلك: الفقهاء وشرَّاح القانون؛ يقول الأستاذ وهبة الزحيلي: «وأما موضوعات الميراث فإنه رحمه الله رغم صعوبتها قد ألبسها ثوباً قشيباً من بيانه الساحر...»[1].

---

(١) حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص٩٩.

ويعود هذا فيما نقدّر إلى طبيعته الشاعرة وذوقه الأدبي الرفيع، وإلى اشتغاله بالدعوة والخطابة الجماهيرية، والكتابة والتأليف في حقول الأدب والتاريخ والاجتماع، أي في غير حقل الفقه والتشريع. فضلاً عن اطّلاعه الذي لم ينقطع على كتب التراث ودواوين الشعر، فلقد كان له إلى «الشعر ميل، وبقراءته هوى»[1] كما قال هو عن نفسه رحمه الله.

ويذكرنا الأستاذ السباعي في هذا بالإمام ابن حزم الأندلسي، الذي يمكن أن ننعته في هذا السياق بأديب الفقهاء، وهو الوصف الذي يمكن أن ننعت به كذلك الأستاذ السباعي.. بل يمكن أن نضيف إلى الأستاذ السباعي أنه كان كذلك فقيه الأدباء.. نظراً لتكافؤ إنتاجه الفقهي والقانوني مع نتاجه (الأدبي) الواسع في حقول المجتمع والحياة!.

وقد أشار الأستاذ أبو الحسن الندوي إلى (بيان) الأستاذ السباعي حين قال في وصفه: إنه «متّزن الفكر، متدفق البيان يجري كالسيل، يمتاز حديثه وخطبه بنصاعة البيان، ووضوح الفكرة، وجمال اللغة، وحلاوة الجرْس»[2].

---

(١) انظر مقدمة كتابه (هكذا علمتني الحياة)، ص٨. يضاف إلى ذلك ما أشار إليه الأستاذ محمد المبارك حين قال عنه: «وإنك لتعجب حين تجده رحمه الله وهو في أشدّ ما يكون انشغالاً وانهماكاً في عملٍ اجتماعي أو معركة انتخابية، وعلى منضدته كتبٌ جديدة مما ترجم من روائع الأدب الأوروبي، أو أخرج من موضوعاتٍ حضارية أو تاريخية من المؤلفات الحديثة» انظر مقالته عنه في مجلة حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص١٥.

(٢) مجلة حضارة الإسلام، ص١١ العدد (٧) من السنة الخامسة - يناير ١٩٦٥.

قلت: ولكن الفرق ما بين ما كتبه في (الفتح . .) وهو في أوائل العشرين من العمر، وما كتبه في (الحضارة . .) وهو في أواخر الأربعين: أنَّ أسلوبه الأول الذي غلبت عليه الحماسة، وجاء على هذه الدرجة العالية من البيان، لم يأتِ على هذا النحو بدون معالجةٍ وتنقيح . . في حين أنَّ أسلوبه التقريري الهادئ في كتاباته الأخيرة جاء عفو الخاطر كما يقال . . حتى كتابه (هكذا علمتني الحياة) وما تضمَّنه من بلاغةٍ وحكمة - يمكن أن تكون محلّ دراسةٍ أدبية أو نقدية - لم أقرأ في (أصوله) أو مسوداته أيَّ أثرٍ لتزويق أو تنميق يذكر . . لقد كان بيانه يسعفه، ولم يكن وقته - حال المرض - يسمح له . بل لطالما رأيته يكتب دون أيّ مراجعةٍ أو تعديل .

وأشدُّ ما عالجه من المقالات في سنٍّ مبكرة: مقالته التي كتبها بمناسبة وفاة أديب العربية مصطفى صادق الرافعي . . فقد اطَّلعتُ على (مسودات) مجموعةٍ من هذه المقالات - في أوراقه القديمة حين كنا نبحث عن كتابه (العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في التاريخ) أو عن أصوله أو مسوداته - فوجدته قد (سوَّد) سطوراً كثيرة، وكتب تجارب عديدة حتى استوى له المقال المذكور من بين سائر المقالات . . ولعله أراد بذلك أن يأتي هذا المقال على مستوًى عالٍ من البلاغة وفاءً للرافعي وتكريماً لمنزلته الفريدة في الأدب العربي . وقد كان هذا المقال بعنوان: (هوى الكوكب الهادي)[١] واستهلّه بالكلمات التالية:

---

(١) مجلة (الفتح) العدد (٥٥٠) في ١٠ ربيع الأول ١٣٥٦هـ.

«هوى الكوكب الذي تألَّق في سماء البيان العربي فبهر الأبصار بقوة ضيائه.

«هوى النجم الذي هدى السارين في ظلمات الباطل ونجَّاهم من بيدائه.

«مضى العلَم الذي حمى الحقَّ من كيد خصومه ومكر أعدائه.

«مضى الإمام الذي جمع حوله القلوب بحسن دفاعه عن القرآن وجميل ولائه.

«مضى القائد الذي كان في المعارك حارس الإسلام وحامل لوائه.

«مضى ناصر اللغة حين أزرى بها المستعجمون، ومؤيِّد القرآن حين هاجمه المضلِّلون، والمدافع عن الدين حين تألَّب عليه المفترون، والمنافح عن تراث الإسلام يوم ازدراه المفتونون.

«فكان هو البطل الذي أحرز لقومه النصر في كلِّ موقعة، والجحجاح الذي ألحقَ بأعدائه الهزيمة في كلِّ معركة.

«وبينما قومُه يحوطونه بالتأييد، ويتطلَّبون منه المزيد؛ لم يرعهم إلا هدوء الميدان وخفوت الحركة، فانطلقوا يتساءلون ما الخبر؟ فإذا هي النكبة المؤلمة التي أذهلت العقول، وإذا هي النازلة المفجعة التي أدمت القلوب. لقد استشهد البطل، لقد مات مصطفى صادق الرافعي، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون».

ويدلُّ سائر المقال، وما أشار إليه من ميادين الإصلاح التي ارتادها الرافعي، والمعارك التي خاضها دفاعاً عن القرآن ولغة العرب وشريعة الإسلام، بالإضافة إلى ما استشهد به من كلام الرافعي رحمه الله. . . يدل ذلك كلُّه على مدى عنايته بكتابات هذا الأديب الكبير، ومدى تأثره بآرائه ومواقفه. . بل بأسلوبه كذلك. ويمكننا القول من خلال استعراض مقالات (الفتح) بوجهٍ خاص، وسائر ما كتبه السباعي بوجهٍ عام، أنه أحد أعلام مدرسة الرافعي وتلاميذها النجباء، مع تأثره الذي لا يخفى بكتب الشيخ عبد الرحمن الكواكبي وأسلوبه، وبخاصةٍ كتابه (أمّ القرى) الذي نسج الأستاذ السباعي كثيراً من المقالات على منواله[1].

---

(١) راجع على سبيل المثال: المقالات التالية: (تصريح خطير جداً لعام ١٣٥٥هـ) ـ مجلة الفتح العدد (٥٤٣) تاريخ (١٩) المحرم ١٣٥٦هـ. و(عام ١٣٥٦ يتحدث إلى إخوانه فيتخذون قراراً خطيراً) الفتح ـ العدد (٥٩٣) تاريخ (١٥) المحرم ١٣٥٧ و(رمضان يحاضر) ـ عدة مقالات ـ بدأها بتاريخ (٢٢) رمضان ١٣٥٦ ومقالة (يوم العيد الأكبر) الفتح ـ العدد (٥٥١) تاريخ (١٧) ربيع الأول ١٣٥٦. ويظهر في هذه المقالة الأخيرة كذلك محاكاته للرافعي في ندائه بـ «يا بنت النبي العظيم» في قصة السيدة فاطمة حين باع النبي لها سوارين من فضة وتصدَّق بثمنهما على الفقراء؛ فقد خاطب السباعي يوم مولد النبي ﷺ بـ «يا يوم النبي العظيم» أكثر من مرة، في الوقت الذي لم يخفِ تأثُّره وانفعاله بقصة السوارين ـ وما أشدَّ تأثيرها في كلِّ نفس ـ حتى نقلها وعلَّق عليها فيما بعد في كتابه (اشتراكية الإسلام). وقدَّم لها بقوله: «ونستعير هنا بيان أديب العربية الكبير المرحوم مصطفى صادق الرافعي ليعلِّق على هذه الحادثة فيقول. .». انظر =

ويمكن أن نميز في أدبه بين أربعة أو خمسة أنواع من الأدب أو الموضوعات الأدبية، وهي أدب الرسائل، والأدب السياسي، والأدب الصوفي، وأدب الجهاد، وأدب الحكمة الذي يقرب من جوامع الكلم، وهو الأدب الغالب على كتابه: (هكذا علمتني الحياة).

وقبل أن نورد بعض الشواهد المقتضبة على هذه الأنواع. نقتطف بعض الكلمات من كتاباته الأولى على صفحات (الفتح) وكتاباته الأخيرة على صفحات (الحضارة).. لندلّ بها على بيانه ومنزلته العامة في الأدب على النحو الذي أشرنا إليه قبل قليل.

أمامي الآن مقالة له بعنوان (خير مولود عرفه التاريخ) نشرها في شهر ربيع الأول ١٣٥٤هـ ولما يكمل من عمره عشرين ربيعاً. ويمكن عدّ هذه المقالة نموذجاً وافياً لبيانه وفكره معاً في هذه المرحلة المبكرة من حياته. وفيها يقول رحمه الله:

«ثلاثة عشر عاماً أمضاها رسول الله ﷺ في مكة يدعوهم إلى الله وينهاهم عما كانوا عليه من شركٍ وضلال، فلم يلقَ من أكثرهم إلا عنتاً وإرهاقاً؛ كذَّبوه وقد كانوا له قبل النبوّة مصدِّقين، وآذوه وكانوا له من قبل

= كتابه اشتراكية الإسلام، ص٢٩٩ ـ ٣٠٠.
وربما كان قول الرافعي في تعليقه على هذه القصة: «تعالوا أيها الاشتراكيون فاعرفوا نبيكم العظيم» جديراً بالتنويه في هذا السياق وفي سياق (اشتراكية) مصطفى السباعي التي تحدثنا عنها، والتي تأثّر فيها بالرافعي كذلك فيما يبدو.

مكرِمين، ورموه بالفحش وكانوا له عن ذلك منزِّهين. قذفوه بالتهم فصفح عنهم، ودعوا عليه فدعا لهم، وتمنَّوا له الموت فتمنى لهم الحياة، ورموه بالحجارة فرماهم بالهدى والرحمة، وقال: «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون». عظمةٌ تتضاءل دونها كل عظمةٍ في الكون، وخُلُقٌ خضع له الكون إجلالاً وإكباراً، وأهوالٌ لو أُفرغت على الجبال لدكَّتها دكّاً.. ولكن نفس محمد ﷺ كانت أكبر من الدنيا، فلم تعبأ بكلِّ ما في الدنيا»[1].

وكان من أواخر ما كتب على صفحات (الحضارة) الافتتاحية التي صدَّر بها المجلة في موسم حجّ ١٣٨٣هـ وكانت بعنوان: (لبيك اللهم لبيك)[2] ـ وهو العام الذي حجَّ فيه رحمه الله (حجة الوداع) لأنه توفي بعد ذلك ببضعة شهور ـ وقد استهلّ هذه الافتتاحية بقوله:

«ما بال هؤلاء الناس يغدون ويروحون؟ ما بالهم طائرين في الجو، مسرعين في البر والبحر، هجروا رفاهية الحياة، وفارقوا الأهل والأولاد، وتخفَّفوا من الهموم والأعباء، وتحرَّروا من المطامع والأهواء، وتناسوا الكراهية والبغضاء، واطَّرحوا الترف والرخاء، ولبسوا الخفيف البسيط من اللباس وتواضعوا فلا علوّ ولا كبرياء، وتساووا فلا أغنياء ولا فقراء، وابتسموا فلا هموم ولا أحزان، وتعاونوا فلا بغي ولا عدوان، واتقوا فلا رفث ولا عصيان، وتعارفوا فلا تقاطع

---

(١) (الفتح) العدد رقم (٤٥٠) خاتمة العام التاسع.

(٢) العدد العاشر من السنة الرابعة ذو الحجة ١٣٨٣هـ ـ أيار (مايو) ١٩٦٤م.

ولا هجران، وتعارفوا وهم شتّى في لغاتهم لا يتكلمون إلا بلغة القرآن. أفئدتهم كأفئدة الطير، وأعمالهم كأعمال الملائكة، وأرواحهم كأرواح الأنبياء، وأخلاقهم كأخلاق الأولياء».

وقد ختمها بقوله: «لبيك، سنسرع إلى تلبية ندائك، وسنهرع إلى لقائك، وسنصغي السمع إلى أوامرك ونواهيك، وسنجدِّد في نفوسنا ذكريات المجد والخلود التي شاءت إرادتك أن تنطلق من حول بيتك المحرّم، وسنزور رسولك وحبيبك المصطفى ﷺ؛ اعترافاً منّا بفضله، وتجديداً للعهد معه أن لا نلقي اللواء التي تسلمناه منه جيلاً بعد جيل، وتيمُّناً به ﷺ أن تُنعم بالشفاء على من أبطأ به المرض عن النشاط في الجهاد في سبيلك، والدعوة إلى هديك وشريعتك، واستمداداً منه ﷺ بعض عزماته التي بلَّغ بها رسالتك، وأدَّى بها أمانتك، عسى أن نسير على هديه، ونتخلّق بأخلاقه، ونكون معه في جنات رضوانك ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩] ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

لبّيك اللهم لبّيك، لبيك لا شريك لك لبيك. إنَّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك»[1].

---

(١) قارن هذا بخواطره التي كتبها عن الحج، في موسم ١٣٨١هـ، في كتابه: (هكذا علمتني الحياة) الفقرات (٣٢٣ ـ ٣٢٥) ومن (٤٠٦ ـ ٤١١). وانظر =

أما أدبه في الرسائل، فيتجلَّى في الرسائل المتبادلة بينه وبين بعض العلماء على صفحات مجلة (الفتح)، وفيما نشره بعض العلماء أو أشاروا إليه من رسائله الخاصة إليهم. وقد يلحق بهذا النوع من الأدب ردوده ومناقشاته مع بعض العلماء والقرَّاء على صفحات مجلته (حضارة الإسلام) وأكتفي من ذلك برسالته التالية التي كتبها ردّاً على رسالةٍ وجَّهها إليه فضيلة الأستاذ الشيخ محمد إسماعيل عبد النبي، وعبَّر له فيها عن إعجابه بمقالاته في (الفتح)، فخاطبه الأستاذ السباعي قائلاً:

«تفضَّلتَ يا سيّدي الأستاذ فوجَّهتَ إلى الفقير الضعيف كلمة ثناءٍ على صفحات (الفتح) الأغرّ ملأتَها بما فاضت به نفسك الطاهرة من أدبٍ وفضل وحسن ظنّ. ويشاء الله أن تكون كلمتك هذه في الوقت الذي كنت عزمت فيه على التعبير عن إعجاب قرَّاء (الفتح) بمواقفكم المشرّفة في الدفاع عن الدين وردِّ السهام الموجَّهة إليه من أمثال طه حسين والحكيم والصعيدي، بينما نرى الغفلة قد عمَّت أكثر علمائنا، وتيار الفتنة قد جرف كثيراً ممن يُظنّ فيهم الغيرة على الدين، والعمل لصالح المسلمين. فضربتم المثل لهؤلاء الغافلين والمفتونين كيف تنتفع الأمة بالعلماء، وكيف يصمد العلماء في ميادين النضال بين الحق والباطل، والهدى والفتنة.

«أنا لا أريد يا سيدي أن أقارضك ثناءً بثناء؛ فإني أخشى أن نكون

= خواطره التالية عن العيد: (٤١١ ـ ٤٢٥).

موضع تهمةٍ من حضرات القرَّاء. وحسبي أن أقول: إنك ألبستني ثوباً أنت أحرى منِّي بلبسه، وأضفيت عليَّ ثناءً إن يكن هو عليَّ كثير وكثير؛ فلك في نفسي ونفوس القرَّاء ما هو أكثر منه وأحقّ. فامضِ يا سيدي على جهادك في سبيل الله، ولك من الله عظيم المثوبة، ومن الأمّة حُسن الأُحدوثة، ومن التاريخ طيب الذكر وتخليد الأثر.

«أسأل الله أن يثبّتنا بالقول الثابت في خدمة دينه، ويوفقنا للعمل بالعلم، والإخلاص في العمل، ويجمعنا تحت لواء نبيه الأعظم ﷺ في يوم تنجلي فيه الريب، وتزول الأوهام، ولا يبقى إلا الحق. ولا ينجو إلا الذين دافعوا عنه لوجه الله لا يبغون جزاءً ولا شكوراً»[1].

مصطفى حسني السباعي

أما أدب الحكمة و(جوامع الكلم) فقد تجلَّى في كتابه: (هكذا علمتني الحياة)، وقد سبق لنا الحديث عن هذا الكتاب ـ بقسميه الاجتماعي والسياسي ـ في موضعٍ سابق. ونشير هنا إلى أنَّ هذا النوع من

---

(١) مجلة (الفتح) العدد (٥٤٨) في (٢٥) صفر ١٣٥٦؛ وانظر كذلك في العدد (٧١٤) في جمادى الآخرة ١٣٥٩: رسالته إلى فضيلة الشيخ مصطفى الرفاعي. وراجع الرسائل المتبادلة بينه وبين الأستاذ أبي الحسن الندوي في عامي ١٩٥٥ و١٩٥٦ في مقالةٍ له بعنوان: (بيني وبين فقيد الإسلام الأستاذ الدكتور السباعي) مجلة حضارة الإسلام ـ العدد السابع من السنة الخامسة رمضان ١٣٨٤ هـ ـ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٥ قال الأستاذ الندوي: «فكتب إليَّ من لندن كتاباً يكاد يسيل رقّةً وعذوبة وصفاء نفس، وقوة عاطفة. . ».

الأدب الذي تذكيه وتنضجه تجارب الحياة العميقة، لا يتأتَّى إلا للحكماء وكبار الأدباء. ونورد فيما يلي شذرات من هذا الكتاب ـ القسم الاجتماعي ـ ننقلها من بعض الصفحات التي تتفق لنا ونحن نقلِّب أوراق الكتاب:

قال تحت عنوان: (من مكر الشيطان):

(٤٦٥) ـ «من مكر الشيطان ببعض جنود الدعوة: أن يهيِّجهم لإنكار منكرٍ هو عند الله صغير، أو أمرٍ يرونه منكراً وهو عند صاحبه طاعة، فيقعون في كبائر محقَّقة يتلو بعضها بعضاً من الغرور، والبهتان، واحتقار المسلم، وتجاوز حدود الله، وتفريق كلمة الجماعة، والغيبة، والكذب. وهم يتأوَّلون ذلك كلَّه بأنه حميّةٌ ودفاع عن دعوته! لطالما يقهقه الشيطان من حماقاتهم!».

وكتب تحت عنوان: (رسول الله والأنبياء):

(١١١) ـ «لئن شقَّ موسى بحراً من الماء فانحسر عن رملٍ وحصى؛ فقد شقَّ محمد ﷺ بحوراً من النفوس فانحسرت عن عظماء خالدين، ولئن ردَّ الله ليوشع شمساً غابت بعد لحظات؛ فقد ردَّ الله بمحمدٍ إلى الدنيا شمساً لا تغيب مدى الحياة، ولئن أحيا عيسى الموتى ثم ماتوا؛ فقد أحيا بمحمد أمماً ثم لم تمت».

وكتب تحت عنوان: (إذا فوجئت):

(٧٥٤) ـ «إذا فوجئتَ بنزول المصائب فلا تيأس من زوالها، وإذا فوجئت بتغيُّر الزمان فلا تلجأ إلى الشكوى منه، وإذا فوجئت بتغيُّر

الإخوان فلا تكثر من انتقاصهم، وإذا فوجئت بالمرض المؤلم فلا ترفع صوتك بالأنين منه، وإذا فوجئت بارتفاع الأغمار فلا تستمرّ في استصغار شأنهم، وإذا فوجئت بتحكُّم الأشرار فلا تقنط من زوال حكمهم، وإذا امتدت بك العلة فلا تيأس من رحمة الله، وإذا رأيت في دنياك ما لا يعجبك فاعلم أنَّ هذه هي سنَّة الحياة، وإذا راعك انتشار الشرّ فاعمل على مكافحته إن استطعت، وإلا فتربَّص حتى تواتيك منه الفرصة، وإياك أن تيأس من انكماشه ولو غمر المجتمع الذي تعيش فيه. وإذا راعك رواج الكذب والباطل، فلا تشكّ في أنَّ الله سيفضحه ولو بعد حين».

وقال تحت عنوان: (ذلّ الشهوة والطمع):

(٩٥٣) ـ «كم أذلَّت الشهوة كرامة الرجال، وكم أذلَّ الطمع أعناق الأبطال».

وكتب بعدها تحت عنوان: (شجرة الذلّ):

(٩٥٤) ـ «لا تروى شجرة الذل إلا بماء الحرص، ولا تنمو إلا في ظلال الجبن، ولا تورق إلا بالنفاق، ولا تثمر إلا مع الكفر بالله أو نسيان حسابه».

وكتب تحت عنوان: (لنا الله من هؤلاء):

(٩٩٣) ـ «لنا الله من قومٍ لهم أحلام الملوك وعزائم الصعاليك! ولنا الله من قوم لهم دعاوى الصِدِّيقين وأعمال الشياطين! ولنا الله من جماعات بألسنتهم شعارات الإخلاص، وبأيديهم قيود العبودية! ولنا الله

من صحبٍ كنّا منهم ملء السمع والبصر، فأصبحنا معهم بلا شأنٍ ولا أثر.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيسٌ ولم يسمر بمكّة سامر»

وعطف على هذه الفقرة بأخرى تحت عنوان: (ومن هؤلاء!) قال فيها:

(٩٩٤) ـ «لنا الله من أشباه الرجال! رعاديد حين يكون السلاح في وجوههم، أبطال حين يكون السلاح في وجوه غيرهم».

وكتب تحت عنوان: (**تجلّيات الله**):

(١٧٩) ـ «تجلَّى للعارفين بفيوض الأنوار، وتجلَّى للواصلين بلطائف الأسرار، وتجلَّى للعابدين بلذَّة الإسرار، وتجلَّى للمريدين بحلاوة المزار، وتجلَّى للتائبين بإسدال الأستار، وتجلَّى للناظرين بحسن الاختيار، وتجلَّى للغافلين بتعاقب الليل والنهار».

ويمكننا بمناسبة هذه الخاطرة الأخيرة أن نقول: إنَّ هذا الكتاب (انفرد) كذلك بنماذج رفيعة من **الأدب الصوفي**، تمثَّلت في فقرات الأدعية والمناجاة وما جرى مجراها.. مع الإشارة إلى أنَّ الفقرات التي حملت عنوان: (**مناجاة**) وحدها تزيد عن اثنتي عشرة فقرة[١]. ونختم هذه

---

(١) راجع الفقرات التي تحمل الأرقام التالية: (١٠٨، ١٠٩، ١٦٩، ١٨٣، ٤٧٩، ٥٨٣، ٦٦٨، ٦٦٩، ٧٩٥، ٧٩٦، ٩٠٩، ٩٩٢، ١٠٦٠) وهي الخاطرة=

الشذرات بواحدةٍ منها، أو اثنتين.

(٧٩٥)ـ «يا حبيبي! وحقّك لولا يقيني بحبّك لعتبت عليك، ولولا علمي برحمتك لشكوتك إليك، ولولا ثقتي بعدلك لاستعديتك عليك، ولولا رؤيتي نعمك لاستبطأت كريم إحسانك. ولكني ألجمت الشكّ باليقين، والتسخُّط بالرضى، والتبرُّم بالصبر. فلك مني يا حبيبي رضى قلبي وإن شكا لساني، وهدوء نفسي وإن بكت عيوني، وإشراق روحي وإن تجهَّم وجهي، وأمل يقيني وإن يئس جسمي. فلا تؤاخذني بصنيع ما يفنى مني، ولك مما أعود به إليك.. ما تحبّ».

(٧٩٦)ـ «يا حبيبي! ها أنا بعد خمس سنين لم ينفعني علم الأطباء، ولا أفادتني حكمة الحكماء، ولا أجداني عطف الأصدقاء، ولا آذتني شماتة الأعداء. وإنما الذي يفيدني بعد اشتداد المحنة: كسوة الرضا منك، وينفعني بعد القعود عنك: حسن القدوم عليك، ويخفِّف عني: جميلُ الرعاية لمن زرعتَهم بيدك، وعجزتُ بمحنتي عن متابعة العناية بهم، ومَن مِثلك يا حبيبي في صدق الوفاء، وجميل الرعاية، وحسن الخلافة؟ فإن قضيتَ فيَّ أمرَك ـ وهو نافذٌ فيَّ لا محالة ـ فهم وأرضهم الطيبة أمانةٌ عندك، يا من لا تضيع عنده الأمانات، ولا يخيب فيه الرجاء، ولا يُلتمس من غيره الرحمة والإحسان».

أما ما أسميناه بالأدب السياسي، فقد تجلّى في كلمات الأستاذ

= الأخيرة في الكتاب بعنوان: (دعاء ومناجاة).

السباعي البرلمانية، والتي جاءت على شكل مرافعات أو مداخلات ومناقشات. كما تجلَّى في الكثير من كلماته وأحاديثه الوطنية. ونعتقد أنَّ نصّ البيان الذي تقدَّم به إلى الرأي العام عام ١٩٥٠ حول (الدين والدولة) يمثِّل هذا النوع من الأدب أفضل تمثيل، وقد سبق لنا أن نقلنا هذا البيان في موضعٍ سابق[١] فنكتفي به.

ويلحق بهذا النوع: **القسم الثاني ـ السياسي** ـ من كتاب (هكذا علمتني الحياة) الذي جاء متساوقاً مع القسم الاجتماعي منه في الحكمة والبلاغة.. وبنهج (جوامع الكلم) وإن كان هذا القسم السياسي أكثر دقةً وحساسية لأنه دار حول موضوع واحد تختلف حوله الآراء.. بينما تناول القسم الاجتماعي موضوعاتٍ شتَّى قد تتفق حول بعضها أو كثيرٍ منها الآراء ووجهات النظر.

ونورد فيما يلي بعض الشذرات من القسم السياسي، نذكرها فقط بأرقامها دون عناوينها:

---

(١) وراجع كذلك ما نقلناه من مقالته: (يا شيوخنا في السياسة..) في فصل (السياسي والبرلماني)، وانظر نص الخطاب التاريخي الذي ألقاه في مؤتمر الجمعية الإسلامية لنصرة الجزائر الذي عُقد بلندن في (٥) أيار (مايو) ١٩٥٦. جريدة الشهاب، العدد (٥٤) تاريخ (١٧) شوال ١٣٧٥هـ. وكذلك مقالته عن (أعوان السوء) التي أذاعها من محطة الإذاعة السورية عشية انتخاب المجلس النيابي للسيد شكري القوتلي رئيساً للجمهورية. كتاب (أخلاقنا الاجتماعية)، ص١٨٣؛ وجريدة الشهاب، العدد (١٨) تاريخ ١١/ ٩/ ١٩٥٥.

(٤) ـ اتهام الناس بالخيانة مرضُ الذين كانوا من قبل خائنين! .

(٥) ـ لا يغرَّنَّك امتداد سلطان المفسدين، فإنَّ من حكمة الله أن لا يأخذهم إلا بعد أن لا يوجد من يقول عنهم: يرحمهم الله! .

(٩) ـ أيهما أسوأ: الذي يضطهد الأحرار؟ أم الذي يحقد عليهم؟ .

(١٢) ـ المستعمر يعمل على استغلالك ثم لا يبالي بسخطك، والطاغية يعمل على إذلالك ثم لا يعجبه إلا أن ترضى وتثني عليه! .

(١٧) ـ الطاغية إلَه يعبد الشيطان.

(٢٣) ـ ليس الدهاء أن تخدع شعبك، فتلك خيانةٌ ونذالة. ولكن أن تحبط مكر أعدائك، فتلك وطنيةٌ ورجولة.

(٣٠) ـ الحزبية الرخيصة تدني اللئام، وتقصي الكرام، وتنظر إلى الجماهير نظر الأنعام.

(٤٩) ـ النظام الديكتاتوري: حاكمٌ له مظاهر الألوهية وأفعال الشياطين، وشعبٌ تعداده ملايين الأجسام وله عقل واحد، وأرضٌ تذرع ملايين الفدادين يسكنها ظالمٌ واحد، ودولة فيها ملايين العبيد يحكمها سيدٌ واحد، وتاريخٌ كان يكتبه الملايين من الصادقين، فاحتكر كتابته كذَّابٌ واحد.

(٥٣) ـ الانقلاب أن تتكلم البندقية بدلاً من اللسان، ويُقنع المدفع بدلاً من البرهان، ويجتمع السياسيون في السجن بدلاً من البرلمان، وتتحكم الأحذية الغليظة في العقول والأذهان.

(١٦١) ـ أكثر السياسيين كذباً: أكثرهم احتقاراً لوعي الشعب، وأكثرهم تبدُّلاً: أكثرهم مهانةً في نفسه، وأكثرهم حرصاً على الفتن: أكثرهم فقداناً للمؤهلات، وأكثرهم جرأةً على الحق والفضيلة: أكثرهم فقراً في الدين والأخلاق.

(١٦٦) ـ الحقد الشخصي يقتل صاحبَه كمداً، والحقد السياسي يعوق المجتمع عن سيره الصحيح، وحقد الطاغية يدمِّر الأمة تدميراً.

(١٦٧) ـ الطاغية يحقِّق لأعداء الأمة من المكاسب، ما لا يستطيعونه بالانتصار في المعارك.

(١٦٩) ـ حسب الأمة شقاءً بالطاغية: أن يميت أحرارها، ويحيي أشرارها!.

(١٧٥) ـ لا يتهافت على فتات عهد الطاغية إلا الذين لا يجدون ما يأكلون في عهود الحرية، ولا يعتزّ بالسير في ركاب الطاغية إلا الذين تدوسهم مواكب الأحرار.

(١٩٩) ـ حبّ المال يفضح أدعياء الدين، والوطنية، والإخلاص، والإصلاح، والحرية، والاشتراكية.

(٢٠٤) ـ أساس نكبة أمتنا في القديم والحديث: حكامها الظالمون، وأذكياؤها المنافقون، وعلماؤها الغافلون.

(١٨٩) ـ إياك وقيادة الأغرار في معركةٍ حاسمة، فإنهم إما أن ينشغلوا بك عن أنفسهم، وإما أن ينشغلوا بأنفسهم عنك، وفي كلا الحالين توقَّع الهزيمة!.

شعره:

نظم الأستاذ السباعي بضع قصائد ومقطوعات، جاء معظمها في سياق خواطره في كتاب (هكذا علمتني الحياة) ونُشر ثلاثٌ منها بعد وفاته في مجلة (حضارة الإسلام) منها قصيدةٌ بعنوان (مناجاة).. وهي آخر شعره رحمه الله، وسوف نتحدث عن ظروف نظمها عند الحديث عن حجته الأخيرة ورحيله رحمه الله. وقد تلاها في الروضة النبوية المطهّرة قرب المنبر النبوي الشريف بعد صلاة العصر في اليوم العاشر من المحرم عام ١٣٨٤، وهي تحاكي قصيدة (البردة) للبوصيري.. أو على «نهجها» وقد نشر في المجلة أبرز أبياتها[١]. أما القصيدة الثانية فقد نشرت تحت عنوان: (وداع راحل)[٢]، وفيها يقول:

أهاجك الوجدُ أم شاقتك آثار ... كانت مغانيَ نعم الأهل والدار
وما لعينك تبكي حرقةً وأسى ... وما لقلبك قد ضجَّت به النار
على الأحبّة تبكي أم على طللٍ ... لم يبقَ فيه أحبّاءٌ وسمّار
وهل من الدهر تشكو سوء عشرته ... لم يوفِ عهداً ولم يهدأ له ثار
هيهات يا صاحبي آسى على زمنٍ ... ساد العبيدُ فيه واقتيد أحرار

أما القصيدة الثالثة فعنوانها (طريقي)[٣]، ومطلعها:

---

(١) حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص٢٠٤.

(٢) المصدر السابق، ص٥١.

(٣) المصدر السابق، ص١٧٠.

دعيني وشأني ليس عذري بشافعٍ لـديـك ولا حـالـي يعـنّ ببـالـك

وفيها يقول:

دعينـي ففـي دنيـاي هـمٌّ ومحنـةٌ وقطعُ طريقٍ في المفاوز شائك
وحِـلٌّ وتـرحـالٌ وحـربٌ وهـدنـةٌ وتعليـم أستـاذٍ وعـزلـة نـاسـك

وقد ختمها بقوله:

دعيني أعيش العمر في غربة الهوى ففي الحقِّ محرابي وفيه مناسكي
وفي النصح لذَّاتي وفي الخير ثروتي وفي العلم محراثي وفيه سبائكي

أما مقطوعـاته وقصائـده في (هكذا علمتني الحيـاة)، فـالأولى بعنوان: (**أراك جميلاً في فعالك كلها**)[1] وفيها تضرُّعٌ ودعاء، وإعلان الرضا بقضاء الله وقدره، والتوجه إليه سبحانه أن يهبه الصبر ويثبّته على الطريق. ومما قاله فيها يخاطب مولاه سبحانه:

أرك جميـلاً فـي فعـالـك كلهـا فهل أنت راضٍ أم تُرى أنت مغضَب
ولكـنَّ ظنّـي فيـك أنـك مُعتقـي وأنـك تُـدنينـي ولسـت تعـذِّب

وقد ختمها بقوله:

وأنـزِلْ علـى قلبي الجريـح سـكينةً وأحسِن ختامي ليس لي عنك مذهب

---

(١) الفقرة رقم (٣٤٨).

وجاءت أبياته الثانية في سياق أشواقه التي أطلقها أو بثَّها نحو مناسك الحج، وصدَّرها بخطاب ربِّه سبحانه بـ(إلـٰهي ومولاي)[1]، ثم ختمها بأبيات من الشعر تحدَّث فيها أولاً عن معاني تلك المناسك وأثرها في النفس[2]، ثم خاطب ربَّه سبحانه بقوله:

ربِّ قد حِلتَ بيني وبينهم اليوم برغم الأشواق والحسرات
فاغفرنْ زلَّتي لديك وبارك عزماتي ولا تطل من شِكاتي
واكتبنْ لي عَوداً لتلك الديا رات وفيضاً من تلكم الرحمات

وتضاف هاتان المقطوعتان إلى أدعيته ومناجاته التي تحدثنا عنها، ويمكن أن تسلكا مع قصيدتيه السابقتين: (نهج البردة) و(وداع راحل) في سلك الشعر الوجداني الرفيع، أو ما سمَّيناه قبل قليل بالأدب الصوفي.

أما قصيدته الثالثة ـ وعنوانها **(أيها السائرون)**[3] ـ فقد عبَّر فيها عن شكاته من المرض الذي اقعده عن السير في موكب الحق، علماً بأنه لم يقعد عن هذا المسير، بل بقي رحمه الله على رأس هذا الموكب.. ولكنه عنى كراهته لراحة الجسم، وقعوده عن المنازلة في كلِّ ميدان. وقد خاطب أولئك السائرين بقوله:

---

(١) راجع الفقرات: (٤٠٦ ـ ٤١٠).
(٢) الفقرة (٤١١).
(٣) الفقرة (٧٤٣).

عرَّجوا في الطريق نحو جريحٍ كان في الله ثورةً لا تسالم
كافحَ الظلمَ في صولة الظلْـ ـم وللشرِّ دولةٌ ومعالم!

ومما قال فيها:

علم الله كرهَه راحة الجسـ ـم إذ البغيُ في المرابع جاثم
فانثنى يجرع العذاب وفي القلـ ـب جِراحٌ وفي الفؤاد عزائم

وختمها بقوله:

لكم منه: رأيُه، وهواه ومروءاته.. وحمل المغارم!

أما مقطوعته الرابعة فقد عبَّر عنها فيما يبدو عن شعوره نحو بعض الشامتين والحاسدين، الذين كانوا يحسدونه على الحبّ والإعجاب والمكانة التي أولاها له: إخوانه وتلامذته وسائر عارفي فضله ـ وما أكثرهم ـ ولكن حتى لا يُساء فهم هذه الخاطرة الشعرية[1] وسائر خواطره التي بثَّها في كتابه (هكذا علمتني الحياة) فقد قال في مقدمة هذا الكتاب: «وأحبُّ أن أنبِّه أيضاً إلى أنني فيما أوردتُ من خواطر تتناول فئاتٍ من الناس، لم أقصد أشخاصاً معيَّنين، وإنما قصدت كلَّ من اتَّصف بتلك الصفات، فالخواطر المتعلقة بهم خواطر نحو صفاتٍ معينة، لا أشخاص معينين، وأعوذ بالله من أن يكون في قلبي حقدٌ نحو أحد، أو عندي رغبةٌ في التشهير بإنسانٍ مهما اختلفت معه في اتجاهه وسلوكه»[2].

---

(١) الفقرة رقم (٧٩٨) بعنوان: (رويدك!).
(٢) ص٨.

وأبيات هذه المقطوعة مطلعها:

ومنتظرٍ موتي ليشفي غيظه رويدك إنَّ الموتَ أقربُ موعد

وأعتقد أنَّ الأستاذ السباعي، إمعاناً في هذا الذي قال، أسقط من هذه المقطوعة أحد الأبيات، كما أجرى تعديلاً على الشطر الثاني من هذا البيت، فقد كان فيما أذكر: رويدك ليس الموت طلبة منشد! حتى لا يُظنَّ أنَّ هنالك رجلاً بعينه ينتظر موته.. رحمه الله.

بقي أن أذكر أخيراً أنَّ الكتاب ـ بطبعته الأولى التي أشرت إليها ـ كان يتضمَّن قصيدةً مهمة تبلغ نحواً من خمسة وثلاثين بيتاً ولم أجد لها أثراً في الطبعة التي بين يديّ. وهي من أهم الخواطر التي جرت على كلِّ لسان، وأذكر منها الآن: ـ وعنوانها: **احملوني إلى الحبيب** ـ ما يلي:

احملوني إلى الحبيب وروحوا واطرحوني ببابه واستريحوا
أنا مَن هيَّج الغرامُ شجاه وبراه الهيام والتبريح
طال سقمي وطال فيه عنائي ليت شعري! متى يصحُّ الجريح
شدَّةٌ إثر شدةٍ تتوالى ها أنا اليوم في الفراش طريح
لست آسى على لذائذ عيشٍ أو على الجاه والشباب أنوح
غير أني انتُزعتُ من بين صحبي فارساً مُعلماً بجسمي جروح
قدرُ الله لا يُردُّ بسخط ليس إلا الخضوع والتسبيح
يا سهام الأقدار خلِّي ثلاثاً هي عندي وجه الحياة الصبيح
اتركي لي عقلي أفكِّر فيه وعيوني أغدو بها وأروح
ويدي تملأ الصحائفَ علماً وبلاغاً وبالشجون تبوح

وقد كنت مرةً حاضراً حين قرأها على أستاذنا يوسف العش. . حتى إذا بلغ إلى هذه الأبيات أخذه تأثُّرٌ شديد. . وجعل يدعو الله له أن يبقى له ما طلب وأن يردَّ عليه صحَّته كاملةً بإذن الله!.

وحدثني الأستاذ السباعي أنه حين قرأها على الأستاذ الزرقاء قال له: إنَّ هذا المطلع (احملوني إلى الحبيب وروحوا) أو البيت الأول محفوظ، وأنه مما كان يُنشَد في الحلقات ومجالس الذكر. . . وقد أشار الأستاذ السباعي إلى هذا في هامش الكتاب، ولا أذكر أنه صرَّح باسم أستاذنا مصطفى الزرقاء رحمه الله، وقال: لعل ذلك مما حفظه وهو صغير، أو مما اتفق له. . لأنَّ هذا قد يقع في الشعر كما هو معلوم، وقديماً قالوا: ـ وقد استعاروا ذلك من ميادين الخيل ـ: قد يقع الحافر على الحافر!.

ليس من حقِّ أحدٍ أن يسقط شيئاً من كلام المؤلف ـ أي مؤلف ـ وقد يكون في وسع من شاء ـ لأيِّ سبب ـ أن يعلِّق عليه. ثم إنني لا أجد ما يدعو إلى إسقاط هذه القصيدة. . اللهم إلا أن يكون السبب هو ما أشار إليه الأستاذ الزرقاء، في نظر من فعل ذلك. . لأنَّ فيه تذكيراً أو تنويهاً بمجالس الذكر عند الصوفية، أو لأنَّ طلب الطالب أو المريض أنه يُحمل إلى الحبيب المصطفى ﷺ ويُوقَف على بابه: غير جائز! وهذا فيما نقدّر تحميلٌ للكلام أكثر مما يحتمل! وهل يظن أحدٌ أنَّ السباعي يعتقد أنَّ النبي يُقصد من دون الله بطلبٍ أو دعاء؟ ألم يقل السباعي في القصيدة ذاتها:

حسبي الله لا أريد سواه هو أنسي وفي حماه أريح

ربِّ لـولاك مـا استطعـتُ ثبـاتـاً   في طريقي ولا سَـمَتْ بـي روح!

وسـواء أقال الأسـتاذ السـباعي هذا أم لم يقلـه، ماذا في أبيـات القصيدة من خطأ أو سهو أو مبالغة؟ ليس هذا من السباعي زلّة قلم! كما قد يُفهم من هذا الإسقاط غير الجائز![1]. علماً بأن السباعي ليس معصوماً عن الخطأ!

وأذكر بهذه المناسبة أنَّ شطراً من أحد أبيات هذه القصيدة، وهو الشطر الثاني من قوله:

وهوى الجسم بعد طول عناء   جسـدٌ نـاحـل وقلـبٌ صحيـح

ورد في مطلع قصيدةٍ أو أبيات للحاجري كنت قد قرأتها في بعض كتب التراث:

جسـد نـاحـل وقلـب صحيـح   ودمـوعٌ علـى الخـدود تسيـح!
وحبيـبٌ مـرُّ التجنِّـي ولكـن   كـلُّ مـا يفعـل المليـحُ مليـح!

فقلت ذلك للأستاذ، فضحك، وقال: أما هذه القصيدة فسوف نراها إن شاء الله!.

وبعد، فإنَّ الأستاذ السباعي لم يقل عن نفسه إنه شاعر، أو أنَّ له بعض القصيد، كل ما في الأمر أن بعض خواطره جاءت (منظومةً) عفواً دون تعمُّد، فترك نفسه على سجيّتها، تعبِّر عما تريد بالأسلوب الذي

---

(١) راجع كتاب (علماء ومفكرون عرفتُهم للأستاذ محمد المجذوب)، ص٣٨٩.

تريد. قال: «فهذا هو عذري فيما أثبته من «منظومات» لا تُطرب الشعراء، ولا تهزّ أسماعهم. وحسبي أني طربتُ لها حين جاءت على لساني هكذا، فخشيت إن أهملتُ إثباتها أن يضيع على القارئ بعض ما فيها من خواطر وجدانية، وانفعالاتٍ نفسية، فرأيت أن أشركه معي فيها، على أن يعلم أنها ليست ـ في نظري ـ شعراً أعتدّ به، بل خواطر أرتاح إليها»[1] بل إنه مهّد للإشارة إلى هذه الخواطر بقوله: «وليست عندي موهبة الشعر وسليقته، وإن كان لي ميلٌ إليه، وبقراءته هوى».

وليست هذه بقضيةٍ نقف عندها في هذا السياق، الذي قلنا: إنه لا يُعنى بالدرس والنقد والتحليل، من جهة، وبعدما أومأت إليه هذه القصائد والمقطوعات أو (الكلمات المنظومة) من حسٍّ مرهف وذوق رفيع.. ـ فضلاً عن أسباب البلاغة والبيان ـ من جهةٍ أخرى.. ورحم الله الأستاذ السباعي الذي قال إنه لا يملك موهبة الشعر، وليست عنده سليقته.. فربما كان يستحضر في ذهنه شعر أبي الطيب.. الذي كان له عنايةٌ خاصة به من بين سائر الشعراء! أما هو ـ أي الأستاذ السباعي ـ فقد قال شعراً يُطرب له، ويُتفاعل معه.. ويعتدّ به!

منزلته في الخطابة:

ونتحدث هنا عن منزلته في فنّ الخطابة، استكمالاً للحديث عن أدبه وأسلوبه وبيانه. وقد نومئ إلى هذه المنزلة، أو نذكّر بها عند

---

(١) ص٨ من مقدمة: هكذا علمتني الحياة.

الحديث في القسم التالي عن مواهبه وصفاته وسجاياه رحمه الله.

إنَّ القدرة الفائقة على التأثير في الجماهير، ونفخ روح الحماسة، وتعبئة طاقاتها الروحية والمادية.. ألزم ما تكون للقادة والزعماء، وبخاصةٍ في مراحل التحول والتأسيس أو إعادة البناء من جديد! وقد عاش السباعي في هذه المرحلة التي كانت تمرُّ بها سورية والبلاد العربية والعالم الإسلامي، كما أوضحنا. وقلنا: إنه كان رجل دعوة، أي أنه أكثر من قائدٍ سياسي أو أكبر من زعيم.. فإذا كانت تلك القدرة على التأثير في الجماهير لازمةً لهذا الزعيم والقائد؛ فإنها للداعية المجدِّد الذي يطلب الإصلاح على كلِّ صعيدٍ ألزم وآكد!.

وكأنَّ الأمة كانت في ذلك على قدرٍ مقدور مع الداعية مصطفى السباعي.. فقد كان واحداً من أفذاذ الخطباء.. لا أقول في عصره، بل في تاريخ العربية منذ مئات السنين! وكان صوته حين يتحدث محبَّباً للنفوس، كما قال في وصفه أستاذنا العش، الذي أضاف: «والصوت المثير للعواطف إذا تكلم صاحبه تمنى السامع ألاَّ يسكت»[1]، فإذا أضفنا إلى هذا قدرته الفائقة على الخطابة، وبتلك الحماسة الشديدة والعاطفة الجيَّاشة، والبيان الرفيع.. أدركنا طرفاً مهماً من أسباب براعته الخطابية النادرة!

يقول الأستاذ المربِّي الداعية محمد خير الجلاد: «وطالما خطب

(١) مجلة حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص٦٥.

الجماهير التي كانت تشرأب بأعناقها إليه، وتترنَّح بجوارحها بين يديه! . . كان يملك ناصية الكلام الهادر، والبيان الساحر . . دون توقفٍ أو إبطاء، كأنما أعدَّه في نميقة، أو حفظه من صحيفة، وكان يمتلك القلوب يديرها كيف يشاء، ويتصرف بها كيف يريد . . يرسم الطريق، ويحدِّد الهدف، ويصل بالمستمعين إلى حيث يريد»[1].

ويقول الأستاذ الشيخ منّاع القطان: «وزار السباعي مصر عام ١٩٥٢ ـ بعد أن فكَّ الله جماعة الإخوان من أسر الظلم ـ وتجوَّل في الأقاليم لإلقاء بعض المحاضرات، فصحبته في زيارة إقليمي، واستمعت إليه خطيباً ومحاضراً ومحدّثاً، فإذا به يأسر القلوب بسحر بيانه، ويثيرها بوهج عاطفته، يتحدث الساعة تلو الساعة فلا يتلعثم له لسان، ولا يستعصي عليه تعبير، ولا يفوته ابتكار المعنى، ولا جودة السبك، ولا براعة المنطق»[2].

ويطول بنا المقام إن حاولنا الاستشهاد بآراء من تحدث عن السباعي أو كتب عن منزلته في الخطابة، فقد كان هذا موضع إجماع . . لا أقول: لم يخالف في ذلك أحد! بل أقول: إنَّ أحداً لم يجد بدّاً من الحديث عن هذا والإشارة إليه.

وأكتفي من ذلك ببعض الشواهد المقتضبة الأخرى، يقول الأستاذ

---

(١) المصدر السابق، ص٨٠.

(٢) المصدر السابق، ص٢٣٥ـ٢٣٦.

الدكتور محمد الفاضل: «ودعا لسانه الجريء الحر المتدفق إلى الوحدة تحت عَلم القرآن، فنَدِيَتْ العربية بالحقِّ على لسانه، واعشوشبت المنابر بالمعين الثرّ من بيانه. وكان في ذلك كله عزمةً لا تسعها قدرة، وشعاعاً لا يحصره أفق، وحيويةً مؤمنة صمدت في وجه الشدَّة حتى خجلت الشدة ذاتها من الصمود»[1].

إنه الخطيب العلم الذي تشتاق إليه المنابر، لأنه فارسها الذي لا يُلحق!.

ولو انَّ مشتاقاً تكلَّف فوق ما ... في وسعه لسعى إليك المنبر

بل كما قال الكاتب الصحفي الأستاذ عبد الله المشنوق تعقيباً على هذا البيت، وقد استشهد به في كلمته التأبينية للسباعي:

ولو انَّ محزوناً تكلَّف فوق ما ... في وسعه لبكى عليك المنبر![2]

وكأنّي به يريد أن يقول: إنَّ المنبر سعى إليه حيّاً.. وبكى عليه ميتاً.. رحمه الله.

وفيما يرويه في هذا الأستاذ الدكتور الأسبق شوكت الشطي عميد كلية الطب بجامعة دمشق، دلائل وعبر أخرى. قال: «لقد استمتعت بإحدى خُطب الأستاذ العلاّمة المغفور له مصطفى السباعي، في بيتٍ من

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص٥٨.

(٢) المصدر السابق، ص١٨٤.

بيوت الله، في إحدى كنائس دمشق، ولم أكن أعرفه من قبل، وكان حديثه وطنياً منصرفاً على ما أذكر إلى توحيد الصف الوطني في وجه الاستعمار الفرنسي الدخيل. ولقد سمعت من حسن بيانه وقوة برهانه ما جعلني أردِّد: «إنَّ من البيان لسحراً» وإني أذكر التفاتي حينها إلى مَن حولي في الساحة الرحبة المكتظَّة بالناس، فإذا بهم إلى كلام الخطيب السباعي منصتون، وبحديثه مأخوذون؛ فكان كالبلبل الصدَّاح يضع لسانه حيث شاء، وحيث يجب أن يكون؛ يواتيه الكلام فيحدِّثك بما في نفسك، ويسبغ على مفهومك بلاغةً تعبِّر عما يدور في خلدك، فيستميل بهذا وذاك القلوب النافرة، ويردّ الأهواء الشاردة، ويسهِّل العسير، ويقرِّب البعيد، ويدرك المنيع، ويصيب الممتنع..»[1].

لم أحظَ لوقتٍ طويل بسماع السباعي الخطيب أيام صحته، لأنَّ صلتي به لم تتوثَّق إلا في أيام مرضه، بدءاً من صيف عام ١٩٥٨، حين ندبتني إدارة كلية الشريعة ـ وكنت قد فرغت من امتحانات العام الجامعي ٥٧ ـ ١٩٥٨ ـ لمعاونته في مكتبته، فقد كان وصوله إلى الكتب والمراجع يشقّ عليه.. ولكنني ما أزال أذكر واحدةً من خطبه في حيّ الميدان بدمشق في أواخر شهر كانون الثاني (يناير) أو أوائل شهر شباط (فبراير) ١٩٥٦ أي قبل مرضه بنحو عشرين شهراً، وكان ذلك في ذكرى شهداء طبريا، وهم نفرٌ من الضباط الذين استشهدوا في عدوان إسرائيلي على الحدود السورية

(١) المصدر السابق، ص١٠٤.

لا أذكر تفاصيله الآن، وكان بعضهم من شباب الحي المذكور الذي نشأتُ فيه.

وقد تمَّ الاحتفال التأبيني المذكور في مسجد الرفاعي غير بعيدٍ عن جامع منجك الذي كنت أصلّي فيه الجمعة حتى أستمع لخطب فضيلة الأستاذ الشيخ حسن حبنّكة الميداني رحمه الله. بل أذكر أنَّ ابنه العالم الجليل الأستاذ الشيخ عبد الرحمن كان أحد الخطباء في ذلك الاحتفال.. وكان قد سبق لي سماعه في بعض المناسبات في جامع منجك خطيباً وشاعراً، وبأناقته الفكرية وطريقته الخاصة في الإلقاء.

وحين أعلن عريف الاحتفال عن كلمة الأستاذ السباعي تعالت هتافات التكبير من ألوف الحضور الذين كان يضيق بهم المسجد.. وكأنها صوتٌ واحد! وأذكر أنه خطب لمدة ساعة أو أكثر فأسر القلوب، وملك العواطف.. وقوطع خطابه مرات عديدة بالهتاف والتكبير.. حتى شعرتُ وكأنني في عالمٍ غير هذا العالم.. وتعلَّقت عيناي بيده التي كان يشير بها وهو في غمرة الحماسة والانفعال، صعوداً ونزولاً.. ونظرت حولي فوجدت عشرات الوقوف - وربما المئات - تتحرك أجسامهم بنحو حركة يده! لقد سرَتْ فيها كلمات الشيخ وحماسته الملتهبة وبيانه الساحر فأحالتها كتلةً ملتهبة واحدة! تنفعل به وبحركته! حتى إذا طلب منهم في آخر الخطبة أن يعطوه العهد على البذل من أجل فلسطين، وعلى إيثار الشهادة على الذلّ أعطوه بصوتٍ واحد ارتجَّت له جنبات المسجد! وسمعت وأنا خارجٌ من المسجد أحد الحضور يقول لزميله - ويبدو أنه كان يستمع إلى الأستاذ السباعي للمرة الأولى - إنَّ

الشيخ السباعي يخطب رشّاً لا دراكاً! ومعلومٌ أنَّ هذا من مصطلحات إطلاق النار عند العسكر! لا عجب إذن أن لا يتمكن الصحفيون من كتابة نصِّ الكلمات التي كان يلقيها في البرلمان كاملةً في بعض الأحيان. . على خلاف سائر النواب!.

لقد كان عصر السباعي عصر **الخطابة السياسية**! وقد حاز السباعي فيها قصب السبق، وكان فارسها الذي لا يشقُّ له غبار، ولكن السباعي حاز هذه المكانة كذلك في **الخطابة الوطنية** التي تقترب منها أو تتقاطع معها، كما حدثنا الدكتور الشطي عن إحدى خطبه في بعض كنائس دمشق. . فضلاً عن **الخطابة الدينية**، وربما انفرد الأستاذ السباعي بنمطٍ جديد من الخطب لم يكن معهوداً في عصر الخطابة، وهي الخطب التي يمتزج فيها السياسي بالوطني والديني والجهادي والاجتماعي، أو التي تعبِّر عن جميع هذه المعاني والأغراض في وقتٍ واحد، وغنيٌّ عن البيان أنَّ الحاجة إلى هذا النوع من الخطابة جدَّت في هذا العصر، أو في مرحلة التحول التي شهدها جيل السباعي رحمه الله.

وأخيراً يلاحظ الأستاذ أبو الحسن الندوي أنَّ الأستاذ السباعي لم يكن دائماً خطيباً ثائراً، ولم يكن تملكه الحدَّة في كلِّ موضع، حتى في بعض المواقف التي ينتظر منه بعض الناس ذلك. . كما حدث في الجلسة التي عقدها البرلمان السوري بتاريخ ٢٠/ ٩/ ١٣٧٠هـ، وكانت قضية حفلة مدرسة (دوحة الأدب) ـ إحدى أشهر مدارس البنات الخاصة بدمشق ـ مطروحةً للنقاش، وكانت الحفلة المذكورة قد تضمنت بعض

الفقرات غير اللائقة أو التي كانت موضع نقد! فقد قُدِّر للأستاذ الندوي حضور هذه الجلسة، وأثنى على الكلمة التي قدَّمها الأستاذ محمد المبارك نائب دمشق وعضو الجبهة الاشتراكية الإسلامية... ثم قال: «وكان من المنتظر أن تكون كلمة الأستاذ السباعي الذي عُرف بالحساسية وقوة العاطفة وحدَّة الخطابة أقوى وأكثر حماساً، ولكنها كانت كلمةً وادعة وجيزة لائقة للظروف المحيطة بالقضية»[1].

لقد اكتفى الأستاذ السباعي بكلمة أخيه الأستاذ المبارك التي وصفها الأستاذ الندوي بأنها كانت «كلمةً قوية كُتبت في أسلوبٍ أدبي علمي في اللغة البرلمانية عن مكانة الأخلاق في حياة الشعوب».

كما أنَّ القضية من وجهة نظر السباعي المربِّي لا يناسبها الحماسة والتشهير، بمقدار ما يناسبها النصح والرفق.. فلكلٍّ مقام مقال.. وقديماً قالوا في تعريف البلاغة: إنها مراعاة مقتضى الحال. وإن دلَّ هذا الموقف فيما وراء ذلك على شيءٍ فإنما يدلُّ على أنَّ دغدغة عواطف الجمهور، أو ما يمكن تسميته بالانتهازية السياسية لم تعرف طريقها إليه في أيِّ موقفٍ من المواقف.

ونختم هذه الفقرة بالقول: إنَّ الخطابة موهبة، وكان الأستاذ السباعي يقول: إنها «عادة» بمعنى أنها تُصقَل وتنمو بالممارسات

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: العدد (٧) السنة (٥)، ص٦٤١ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٥.

الطويلة..[1] وقد أشرنا ـ عند الحديث عن نشأته ـ إلى أثر والده رحمه الله في تشجيعه وتدريبه على الخطابة وهو صغير. ولكنها في جميع الأحوال: ضربٌ من الشجاعة والإقدام، أو سمةٌ من سماتها في غالب الأحوال.. وقد لا يندّ عن هذه الأحوال إلا الحالة التي تكون فيها الخطب خطبةً واحدة أو خطباً معدودة محفوظة أو مكرورة! فهي في هذه الحال أبعد ما تكون عن الشجاعة والإقدام، وأقرب ما تكون إلى الجبن والتردُّد! إنها ليست فحولةً أو بطولة في المواقف.. ولكنها فسولةٌ في الرأي والعزيمة! ولم يُؤثَر عن السباعي الذي خطب في أبوابٍ وأغراض كثيرة.. وألقى في كلِّ غرضٍ من هذه الأغراض عشرات، وربما مئات الخطب، لم يؤثر عنه أنه كان يكرِّر نفسه[2].

نحن أمة الخلود:

ونختم هذا الجزء بشطرٍ من كلمةٍ كتبهاالأستاذ السباعي تحت هذا العنوان: (نحن أمّة الخلود) وخاطب بها عبر الإذاعة السورية «أبناء الأمة

---

(١) عبَّر عن هذا فيما كتبه بقوله: «ثلاثةٌ تسهل بالعادة: الصلاة والخطابة والكتابة» هكذا علمتني الحياة ـ الفقرة(٩٧٦).

(٢) يقول الأستاذ عبد القادر السبسبي المحامي ـ وقد عرف السباعي وزامله نحواً من ثلاثين سنة ـ: «وقد ألقى من الخطب ما لو أنها جُمعت لكوَّنت مكتبةً تضمّ عشرات المجلدات، هذا عدا عن محاضراته ودروسه التي كان يلقيها في الرحلات والمخيمات» ـ مجلة حضارة الإسلام العدد الرابع من السنة السابعة، ص٤٢، تاريخ ١٦/٩/١٩٦٦.

وجنودها البواسل»، وذلك عام ١٩٥١[1] إبّان انخراطه في العمل السياسي الذي استغرق فترة أوائل الخمسينيات، وهي الفترة التي نشط فيها كذلك ـ كما ذكرنا ـ للكتابة الصحفية والإذاعية، وبأسلوبه الشيِّق السلس المعهود، والذي يراه القارئ لتلك الكتابات والأحاديث، بعد أن جُمعت في كتابَيه (أخلاقنا الاجتماعية) و(من روائع حضارتنا) على وجه الخصوص.

وتقع هذه الكلمة إذن بين أوائل ما كتب في (الفتح) وأواخر ما كتب في (حضارة الإسلام). . وربما وقعت كذلك بين النثر والشعر! وإن كانت نثراً بطبيعة الحال، ولكنه نثرٌ من نوعٍ فريد، **لأنَّ له لحن النشيد. . وإيقاع القصيد. .**

«نحن أمّة الخلود

خلدنا في التاريخ بجميل مآثرنا

وعُرفنا بنبل حضارتنا

وسبقنا الأمم في المجد بروائع بطولتنا.

«نحن أمّة الخلود

أيُّ أمةٍ في الدنيا تضاهينا؟

أعلنَّا الحرية يوم كانت الأمم ترسف في قيود العبودية.

---

(١) انظر جريدة الشهاب، العدد (٥٩) ـ السنة الثانية، ص٣.

ونشرنا العلم يوم كانت العقول مصفَّدةً بأغلال الجاهلية

وأقمنا العدل يوم كانت فارس والروم تسخِّران الشعوب لمطامعهما الحربية.

«نحن أمّة الخلود

بذلنا المال في المكارم.. حين كان يجمعه غيرنا من المظالم.

وصُنّا الأعراض والحرمات.. حين كان غيرنا يروي ظمأه من دم الشعوب.

«نحن أمة الخلود

جباهنا: تخضع لله، وتعلو عمّن سواه!

وقلوبنا: تهوى الجمال، وتنفر من كل قبيح

وعقولنا: تؤمن بالحق، وترفض كل باطل

وأيدينا: يدٌ مع الله، وأخرى مع الناس.

«نحن أمّة الخلود

نؤمن بالدين لنرفع به الدنيا.

ونعمل للدنيا لنخدم بها الدين

ونجمع بين الدين والدنيا..

لنكون في الحياة سعداء

وفي الآخرة من الخالدين

«نحن أمّة الخلود

أجسامنا في الأرض، وأرواحنا في السماء!

وقلوبنا مع الله، وعقولنا مع الأنبياء والعلماء

آخينا بين العلم والدين، وجمعنا بين الدنيا والآخرة

وحكمنا فلم ننس مبادئ ثورتنا.

«نحن أمّة الخلود

لأطفالنا مروءة الرجال!

ولرجالنا كرامة الأبطال!

ولأبطالنا صفات الخالدين.

ولنسائنا عطر الأزاهير، وطهر الملائكة، وسحر الطبيعة في فجر الربيع.

«نحن أمّة الخلود

نحن نحكم الدنيا فنملأها أمناً وسلاما

وتعصف بنا النكبات فنستقبلها صبراً وابتساما

ويراد لنا الذل فنثيرها حرباً ضراما

ويعتدى علينا في الأرض فنجعلها فوق المعتدين أطلالاً وركاما.

«نحن أمّة الخلود

نَغنى فلا نبطَر، ونقوى فلا نتجبَّر

ونضعُف فلا نذِلّ، ونُصاب فلا نيأس

ونُستشهد فلا نبكي ولا نصرخ .

«نحن أمّة الخلود

دماء الشباب عندنا عطر الشباب والرجال

وسهام الأعداء في صدورنا أوسمة العزاء والكمال

وخوض المنايا في سبيل كرامتنا أغنية النساء والأطفال .

«نحن أمّة الخلود

لمواكب الشهداء عندنا أفراح وأعراس

ولرصاص الأعداء في آذاننا موسيقى وأنغام

وللمعارك الحمر يربّينا أمّهاتنا في الأسرّة والمهود . .

نحن أمة الخلود»

رحم الله سعد زغلول الذي قال في (بيان الرافعي): «بيان كأنه تنزيل من التنزيل، أو قبس من نور الذكر الحكيم». وإن من حقنا أن نستعيد هذه الكلمة في هذا (البيان الرافعي) الأخّاذ!

وما يزال في هذه المقالة الكثير من أدب **الجهاد والتحرير**: فبعد أن

تحدث الأستاذ السباعي عن (عدوان اليهود) و(عدوان إسرائيل) قال: «إن إسرائيل تمثل التمرد على أحكام الشرائع، والاتجار بالأخلاق والمبادئ، والسيطرة على أساس الدس والكذب والإجرام»، ثم أهاب بأبناء الأمة وجنودها البواسل أن يذكروا رسالة أمتهم في هذه الأوقات العصيبة، وأن يذكروا خصائصها في هذه المعركة الرهيبة.. بوصفها أمة سجّلت في تاريخ البطولات والتضحيات أروع المآثر.

ثم ختم هذه الكلمة بنداءاته.. أو بصرخاته الجهادية المدوّية التالية:

«**يا أمهاتنا!** هيِّئْنَنا لأعراسِ المجد في مواكب الشهداء! أعدِدنَ لنا ألبسة النضال موشحة بالدماء، واتركن فيها مكاناً للرصاص وشظايا القنابل..

« **يا شبابنا وجنودنا!**.. هذا وحده طريق المجد، هذا وحده طريق الحياة. إن شهداء الخلود ينتظرون بقيتهم فيكم، ينتظرون تمام موكبهم فلا تقطعوه. لا تجعلوا أعناقكم عاطلة من حلية الخلود وأوسمة الكرامة! لا تجعلوا الدنيا تلتفت إلى غيركم لتشنف آذانها بألحان النصر، وتمتع أبصارها بمرأى الخالدين.

«يا بطاح فلسطين: اصبري قليلاً لتلمع في الأفق رماحنا!

«يا رمال الصحراء: البثي قليلاً تتحرك للمجد كتائبنا!

«يا مواكب الشهداء: تمهلي قليلاً يُطرب الأجواء حادينا!

«يا أنصار الحق من أمم الدنيا! لا تجزعوا من نتائج معاركنا. . **نحن أمة البطولات! نحن أمة الشهداء! نحن أمة الخلود**».

إنها جذوة الكفاح لم تنطفئ في نفسه ـ بعد ماوقف عليه في أرض فلسطين عام ١٩٤٨م ـ وإنه حبُّ الجهاد والاستشهاد بقي هاجسه حتى لقي وجه ربه. . وكما سنرى في القسم التالي من الكتاب.

* * *




الرسول والإنسان



الرجل

أو عنوان الشخصية

حاولنا قبل ربع قرن التماس عنوان لحياة السباعي الخصبة العميقة ـ أو الطويلة بجلائل الأعمال ـ فوجدناه في كلمة واحدة هي (**الجهاد**). قلنا في مقدمتنا لكتاب (عظماؤنا في التاريخ):

«كانت حياته جهاداً متواصلاً في مقدمة الصفوف، وفي جميع الميادين. . ميدان الجهاد بالنفس، وميدان الجهاد بالمال، وميدان الجهاد باللسان، وميدان الجهاد بالقلم. لم يدع الجهاد في الموقف الذي يستطيعه والوجه الذي يقدر عليه، منذ اليوم الأول من حياة الفتيان، إلى آخر يوم من حياة الفرسان! توفي رحمه الله والمداد الذي كان يدافع به عن سنة رسول الله ﷺ لم يجفّ بعد! ليست هذه صورة العالم الذي يذود عن دينه بما يستطيع، لأنه كان على حالة من المرض والألم بحيث لو عاف معها القلم والكتاب ـ واللسان كذلك ـ لما لامه أحد. . بل كان محبوه وعارفوه من حوله يشيرون عليه بذلك رحمةً به وإشفاقاً عليه. ولكنها طبيعة المجاهد الذي لا يلقي سلاحه حتى اللحظة الأخيرة، ورسالة الداعية الذي يخشى أن يخرج من الدنيا قبل أن ينصر

دعوته أو ينتصر لها . . ولو بكلمة يخطّها أو قول يقوله . . . »[1].

ولسنا نخرج عن هذا الذي كتبناه عام ١٩٧٦م أو نتجاوزه حين نرى اليوم أن مفتاح شخصية السباعي أو عنوان حياته هو (**الجرأة والإقدام**) لأنه عنوان أشمل لا يتّسع فقط للحديث عن جهاده الذي أشرنا إليه بل يفسّره كذلك، في الوقت الذي يتسع هذا المفتاح أو العنوان الجديد لضروب من الخصال والأعمال الأخرى التي ربما لم يومئ إليها العنوان السابق أو القديم.

ولا ريب في أن الجرأة والإقدام تنطوي على جميع ضروب الشجاعة المعهودة أو التي وقفنا عليها في حياة السباعي، سواء أكانت بذلاً للنفس والمال ـ أي شجاعة مادية إن صح التعبير ـ أم جرأة في الاجتهاد والانفتاح على الثقافات الأخرى وعلى جميع ثمرات العقول، أي شجاعة نفسية وعقلية إن صح التعبير كذلك!

ويمكننا أن نومئ هنا إلى أبرز صفاته التي تندرج تحت هذين الضربين من ضروب الشجاعة والإقدام جميعاً:

١ ـ الجهاد أو بذل النفس:

لقد قدمنا من سيرته في الجهاد على أرض فلسطين، والنزر اليسير الذي أشرنا إليه من خطبه وأقواله ما يشير إلى تمكن هذه الصفة من

---

(١) ص١٣.

نفسه، بل من مصاحبتها له طيلة حياته حتى في أيام مرضه! لقد ترجّل الفارس حين نزل به المرض. فلم يأْسَ في هذا الترجل على شيء أساه على حياة الفرسان!

لست آسى على لذائذ عيش   أو على الجاه والشباب أنوح
غير أني انتزعت من بين صحبي   فارساً مُعلماً بجسمي جروح!

وإذا كانت الجروح قد تكاثرت على هذا (الجسد الناحل) أو الذي استبد به المرض حتى غدا كذلك.. فإن النفس الشجاعة لم تفقد هذه الصفة في موقف من المواقف. وقد أشرنا قبل قليل إلى أن جزءاً كبيراً من (أدبه) يندرج في أدب الجهاد والتحرير..

ونضيف الآن: أن هذا الأدب كان يغرف من معين الشجاعة الذي لا ينضب في هذه النفس الجريئة! إن الذي يخاطب الأمهات بعد ثلاث سنوات مرت على جهاده على أرض فلسطين بقوله: «هيئننا لأعراس المجد في مواكب الشهداء! أعددن لنا ألبسة النضال موشحة بالدماء واتركن فيها مكاناً للرصاص وشظايا القنابل..» لم يفطر على الشجاعة وتعريض النفس للمهالك.. بل على الاستشهاد وحبّ بذل النفس! فمواكب الجهاد عنده مواكب شهداء... لأنها المواكب التي تتوشح ألبستها بالدماء! والتي يترك فيها المكان للرصاص وشظايا القنابل! لقد عاش مصطفى السباعي طيلة حياته وفي داخله شهيد يخطب ويتحدث ويقود القوافل. ولهذا فإنه «كثيراً ما كان يتمثل بقول الصحابي الشهيد:

ولســت أبــالــي حيــن أقتــل مسـلمـاً
علـى أي جنـبٍ كـان فـي الله مصـرعـي[1]

٢ ـ الكرم والسخاء:

لا تحتاج هذه الصفة إلى الحديث أو التأكيد بعدما أشـرنا إليه من شجاعته، لأن الذي يبذل دمه يبذل ماله من بـاب أولى، بل إن بذل المال يعدّ مقدمة لبذل النفس، وإن كان بينهما تلازم إلى حد كبيـر، حتى إن العرب كانت تقول: كل كريم شجاع! لم يكن السباعي من أصحاب المال واليسار.. بل كان واحداً من أبناء الطبقة الوسطى التي كانت تمثل معظم الشعب السوري في ذلك الحين، عاش على مرتبه كأسـتاذ جامعي وعلى ماكان يأتيه من كتبه وبعض أنشـطته الثقافية.. ورفض كما رأينا أن يكون مديناً لأحد ـ سـوى قريبه ـ حين اضطرته الظروف إلى الاقتراض على إثر تسريحه من عمله في عهد أديب الشيشكلي.. وخروجه إلى لبنان.

ولكنه حين كان يدعى إلى البذل، أو حين تقوم أسبابه ودواعيه كانت يده أجود الأيدي! أو أكثر سخاء وبذلاً من أصحاب الأموال.. حتى كان يركبه الدَّيـن الثقيل في بعض الأحيان.. كما أشـار الأسـتاذ المبارك وغير واحد ممن صحبه وعرفه عن قرب[2]. وقد كان يكره أن

---

(١) الأستاذ عبد القادر السبسبي المحامي: مجلة الحضارة العدد ٤ السنة ٧، ص٤٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٦٦.

(٢) انظر مقالتي الأستاذ محمد المبارك والشيخ عبد الفتاح أبو غدة عنه في العدد الخاص من مجلة حضارة الإسلام؛ قال الأستاذ المبارك: «فكثيراً ما كان يبذل=

يعرف عنه ذلك، أو يشعر بحرج شديد إن عُرف أو وقف عليه أحد! رأيته مرة وهو يقطع الأمتار القليلة بين باب الجامعة وسلّم كلية الشريعة حين اندفع نحوه طالب من أحد البلاد الإسلامية يحدّثه، وسرعان بعد أن أصغى إليه لثوان قليلة علم منها أن المخصصات المالية لبعثته أبطأت عليه، ـ وقبل أن يتم حديثه طالباً منه أن يتوسط له لدى وزارة التربية لاستعجال تلك المخصصات القليلة ـ سرعان ما أدخل يده في (جيبه) بسرعة البرق ودسّ في يد الطالب ورقة مالية تساوي أو تعدل في ذلك الحين نحواً من خُمس مرتبه! ولما لمحني رحمه الله أرقب الموقف تورّد وجهه الأزهر! ثم قال لي الطالب الزميل بعد ذلك: ما رأيت مثل هذا الرجل، وقد حدّثتُ قبله أكثر من موظف ومسؤول ولم يحفل بي أحد! ولما سألته بعد أيام عن وزارة التربية؟ قال: إن الأستاذ السباعي اتصل بهم مباشرة بعد أن دخل مكتبه في ذلك اليوم.. وأن المخصصات أضحت جاهزة!

ولعل أهم ما يجب عليَّ ذكره في هذا المقام أن الأستاذ السباعي الذي كان يصدر مجلّته (حضارة الإسلام) كان يعمل فيها متبرعاً لا يتقاضى على عمله فيها أي أجر.. بل شهدته في بعض الأحيان ينفق عليها من ماله وهو أحوج ما يكون إلى هذا المال! ولما أبطأ مرّة أحد الكتّاب المرموقين في الكتابة إلى المجلّة لأن الأجور لم تصل إليه! ولم يُجد معه معاودة الطلب والتذكير بالأوضاع المالية للمجلة ـ ولو شاء

= أكثر مما عنده، ولو ركبه في سبيل ذلك: الدَّين الثقيل»، ص١٧.

السباعي لأضاف: وأوضاع صاحبها كذلك ـ قال لي: من أين نأتي بالمال؟ دعه.. أغنانا الله عنه وعن مقالاته!

وأخيراً فإن السباعي يعدّ الكرم الحقيقي: **إشراك المحتاجين**، يقول: «أكثر الناس الذين يستقبلونك في بيوتهم بحفاوة هم بخلاء ولو رأيت منهم بعض مظاهر الكرم! إنه كرم إجباري رخيص الثمن. والكرم الخالص هو أن تشرك معك في مسرّاتك من استطعت أن تشركهم من المحتاجين، ببعض المال أو الطعام أو اللباس أو المواساة»[1].

٣ـ الزهد في المال والمناصب:

إن أطمع ما يطمع فيه أكثر الناس ـ ولا سيما أصحاب المواهب منهم كما يقول الأستاذ المبارك ـ المال والمناصب: بوصف هذين الأمرين أو المطلبين أهم ما يميز الحياة أو يزيّنها في نظر هؤلاء.. ونظر السواد الأعظم من الناس، ولا سيما المال لأن سائر الرغائب والشهوات تنال به! فإذا كان السباعي يملك الجرأة على بذل الحياة ذاتها.. بوصفه شجاعاً! بل بوصف حياته في جميع مراحلها كانت تحمل طابع الموت والشهادة.. فأي أرب يبقى له بعد ذلك بالمال والمناصب! يقول الأستاذ المبارك: «وكثيراً ما رفض ما عرض عليه من رياسات ووزارات كما يعلم مَن رافقوه في تلك المجالات...»[2].

---

(١) الفقرة (٨١١) من كتاب هكذا علمتني الحياة.

(٢) حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص١٧.

ولا يندّ عن ذلك: قيادته للدعوة الإسلامية في سورية أو منصب عميد كليـة الشـريعة الذي شغله في عصر التأسيـس، لأنهما كانا عطاء لا أخـذاً. ومغرماً لا مغنماً! . . ولم يقبل بهذا المنصب العلمي وتلـك القيـادة ـ التاريخيـة ـ إلا لأنهما يلقيان على كاهلـه عبئاً إضافياً يؤكد زهده. . ولا يناقضه أو ينفيه! وقد أشرنا إلى هذا المعنى في وقت سابق، فقلنا: «كان اللواء في يده، ولكنه حمله مغرماً لا مغنماً، ولو علم فيه الغنم لعافه مع ما عاف من المناصب والمغريات، وحمله بمقدار ما أدّى فيه أمر الله وواجب الدعوة إليه في ظروف حالكة السواد، تقحم في سبيله المعامع والقفار، وتحمل للدفاع عنه النصب والتعب والعتب. .»[1].

بل إن فيما ذكره أستاذنا الشيخ مصطفى الزرقا رحمه الله حول منصب عميد الكلية المذكور ما يؤكد أن قبول الأستاذ السباعي به كان ضرباً من ضروب التضحية التي تتجاوز مرحلة أو درجة الزهد بالمال والمناصب التي نتحدث عنها. يقول الأستاذ الزرقا: إن كلية الشريعة بعيد تأسيسها واجهتها مشكلة العمادة، وبعض الضغوط المتصلة بقضايا الترقيات العلمية والمالية! وكانت نقطة الارتكاز في مقاومة هذه الضغوط تبدأ «من إيجاد أستاذ جامعي لائق يقبل أن يترك كليته ويأتي عميداً لكلية الشريعة التي هي في مهب الرياح لا يعرف مصيرها بعد، دون أن يتطلب قفزة من مرتبته إلى مرتبة أعلى».

---

(١) مقدمة (عظماؤنا في التاريخ)، ص١٧ .

ويضيف الأستاذ الزرقا رحمه الله قائلاً: «وكان الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي قد تم تعيينه قبل فترة قصيرة أستاذاً أصيلاً لمادة الأحوال الشخصية في كلية الحقوق. وإني لأعترف وأنا أغض من بصري أنني والأستاذ الدكتور معروف الدواليبي من أساتذة الشريعة الإسلامية في كلية الحقوق لم نقبل أن نضحّي بمراكزنا في كلية الحقوق وننتقل إلى كلية الشريعة لاستلام عمادتها، لاعتبارات عديدة تجعل هذه التضحية ثقيلة علينا، فضعفت نفوسنا عنها، ولكن الذي أقدم عليها غير مبال مهما كانت النتيجة عندما امتنعنا نحن، وضحّى بمركزه الجديد الثابت في كلية الحقوق إلى مركز في كلية الشريعة لم يكن من الممكن إذ ذاك أن يعرف مصيره، إنما هو الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله. فهو الذي من بيننا قبل أن ينتقل بمرتبته وراتبه دون أن يتطلب مرتبة أعلى، وهو في أشد الحاجة إلى زيادة المرتبة، وتملك لجنة الإشراف على الكلية ـ التي ألّفت بقانون وأعطيت سلطات مجلس الجامعة ـ إعطاؤه إياها، ولكنه قال: أريد أن أضرب المثل بنفسي حتى لا يفكر في المجيء إلى هذه الكلية إلا من يريد منفعتها لا منفعة نفسه! وأن أجعل من تضحيتي هذه حاجزاً في وجه من يريدون أن يقفزوا إليها من أجل المراتب التي لا تتيسر لهم في سواها، أو من يريدون التسلل إليها ليقال إنهم أساتذة جامعيون وهم ليسوا بذاك!!..»[1].

---

(1) مجلة حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص١١.

لقد عدنا بهذا الذي قاله أستاذنا الزرقا والذي نقلـه عن أسـتاذنا السباعي إلى الجرأة والإقدام التي طويت عليها نفسه! والتي عرّضته في ذلك الحين لضروب من العتب والتشهير التي لم يعبأ بها بطبيعة الحال! وأذكر بهذه المناسبة أن بعض من كانوا يرون في أنفسهم الكفاءة للتدريس في الكليـة من المشـايخ الذين لـم يحصلـوا على درجات علميـة مـن الجامعات ـ وربما لم يتلق بعضهم تعليماً نظامياً ـ شنّوا عليه حملة شعواء على منابر المساجد، لأنه لم يوافق على دخولهم إلى الجامعة واعتلاء منبر الكلية. . ساخرين من شهاداته التي حصل عليها و(الدكتوراه) التي كان يحملها. . بوصفهم هم أخذوا الشهادات ونالوا الدكتوراه من مدرسة محمد!! على حدِّ قول أحدهم على منبر من تلك المنابر النائية. ولا يسعني الآن إلا أن أستغفر الله من ذلك الشعور الذي كان ينتابني والقناعة التي كانت تبعثها في نفسي تلك الكلمات الحماسية وأنا أستمع إليها في بعض المساجد. . حتى ظننت مع بعض المصلّين أن السـباعي رجل جاهل، وأن العلم كل العلم عند أصحاب العمائم! لقد ترجم هؤلاء ـ غفر الله لنا ولهم، ورحمنا ورحمهم ـ علم السباعي وإيثاره ونكرانه لذاته. . جهلاً وأثرةً وطمعاً في المغانم!

٤ ـ مضاء العزيمة وعلوّ الهمّة:

إن ما عرضنا له من معالم حياته، والميادين التي خاضها: يدل أوضح دلالة على ما كان يتمتع به من مضاء العزيمة وعلوّ الهمة، فعزيمته لم تكن تعرف الخوف أو التردد، وهمته لم تعرف التواني أو القعود،

وأكاد أقول: المستحيل! بل إن ما نهض نفسه لتحقيقه يعدّ عند كثيرين ممن يدّعون الواقعيـة والحكمة: تهوراً أو مغامرة! سـواء أكان ذلك في المجال السياسي حيث حارب الاستعمار ووقف في وجه الطغيان، ودعا إلى الحيـاد بين المعسكرين. . . إلخ أم في مجال العقيدة والديـن. . حيث حارب الجمود والخرافة، ووقف في وجه الانحراف، ودعا إلى الاجتهاد والتجديد. . أم في مجال الفكر والثقافة حيث فضح أساليب المستشرقين، وتصدى لحملات المغرضين من سائر أصحاب الدعوات الأخـرى أجمعيـن. . ودافـع عـن السنـة والسيـرة فـي وجـه الأدعيـاء والمستغربين. . أم في مجال الدعوة إلى الإسلام وتأسيس الجمعيات وإصدار المجلات وقيادة الجماعات. . . إلخ.

إن الأعباء التي نهض بها الأستاذ السباعي والأعمال التي أنجزها ـ وقد سُجن أكثر من سنتين ونصف، ومات وهو في التاسعة والأربعين ـ لا تتأتى للرجال العظام من أولي العزم! حتى إن الدكتور حسن هويدي وهو يتحدث عن ثباته الخارق، وعلو همته النادر، قال: «فكأنما يريد أن يزيح بصدره الجبال، أو يذيب بصبره الحديد. . .»[1]، ثم يقول: «ولقد جاوز في ثبـاته وصبره حدود ما كلف الله بـه عباده من صبر وثبـات، وتعرض للأخطار. . وإذا كان علو الهمة يقاس لدى الرجال بما يلاقونه من أهوال، وما يتصدون له من مخاطر، فأحسب أن رجلاً في هذا العصر لا يحلّق إلى ذلك المستوى الرفيع، ما لم يجرِ على منـوال الأسـتاذ

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص٧٧.

السباعي رحمه الله»[1] **إنه إذن علوّ الهمة الذي يعدّ مضرب الأمثال، أو المقياس الذي يقـاس به الرجـال!** نعـم، هذا عين الحـق والصواب. . وليس أدل على ذلك من أنه رأى في الآلام التي يقاسي منها حين نزل به المرض. . طريقاً لعلو الهمة لا لانكسارها وذبولها. . قال رحمه الله: «الآلام طريق الخلود لكبار العزائم، وطريق الخمول لصغارها»[2]! وهو لم يتجاوز هذا، بل أضاف إليه الطبيعة البشرية أو القانون الطبيعي حين قال: «رأيت نفسي تسمو بالآلام! ولكن من يطيق استمرارها؟»[3].

ولا بد هنا من هامش أو استطراد نؤكد فيه على أن همّة السباعي وقيادته هي التي أعطت لحركة الإخوان في سورية، وللدعوة الإسلامية بوجه عام، هذا الحضور، أو حققت لها هذه الأبعاد. . كما اتضح ذلك من هذا العرض لتاريخ حياته ومنجزاته رحمه الله. وليس معنى ذلك ـ بالطبع ـ أن تبقى هذه الحركة أو الدعوة مرتبطة به على الدوام! ولكن معناه أن محاولات تهميشه التي بدأت وهو بصحته وفي أوج عطائه عام ١٩٥٥ كما رأينا، وقبل أن تُبرِز الحركة نفسُها من خلال مسيرتها الطبيعية أو عبر تجربة الصواب والخطأ. . قياداتِها القادرةَ على تحمل الأعباء والاستفادة من هذه التجربة. . هذه المحاولات كانت من الأخطاء الشنيعة ـ ولعلها أكبر الأخطاء ـ التي لم يقتصر أثرها على السباعي وحده، بل تعداه إلى

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) هكذا علمتني الحياة: الفقرة ٨٢.
(٣) المصدر السابق: الفقرة ٢٠٠.

الجماعة نفسها! بل إن هذه المحاولات هي المسؤولة عن الحالة التي آل إليه أمرها في نهاية المطاف بعد وفاة السباعي عام ١٩٦٤م. . حيث لم ترزق بقيادة مماثلة أو قريبة!

وفي هذا السياق لابد من النظر إلى نجاح مرشحي الإخوان الثلاثة في انتخابات عام ١٩٦٢م عن مدينة دمشق، على أنه حصيلة لجهود السباعي التأسيسية والبنّاءة، والتي رعت الجماعة هذه السنوات الطوال، بالإضافة إلى أن دمشق التي زُيّفت إرادتها في الانتخابات التكميلية، وقد آلمها وحزّ في نفسها وضميرها العربي المسلم ما وقع للسباعي عام ١٩٥٧م ـ وخصوصاً في ضوء تردي الأوضاع، وما تكشّفت عنه ممارسات الأحزاب (العقائدية) ـ هبّت لتعطي مرشحي الإخوان الثلاثة، وفي مقدمتهم الأستاذ عصام العطار، هذا الزخم الذي لم يتمتع به أي حزب من تلك الأحزاب.

لا أجدني بعد هذا بحاجة إلى ذكر أية وقائع أو مشاهدات ـ وما أكثرها ـ تنبئ عن مضاء عزيمة السباعي وعلوّ همّته التي كان يعلو بها على المطامع، أليس هو القائل: «الارتفاع فوق مطامع الدنيا يحتاج إلى جناحي نسر لا إلى جناحي فراشة»[1]، ولهذا فإن الدكتور محمد الفاضل لم يُبعد حين قال ـ بعد أن استعرض طرفاً من حِكَم السباعي الغوالي ـ: «هذه قبسات يسيرة من الدعوة الإصلاحية الحرة التي حمل مشعلها نسرنا

---

(١) هكذا علمتني الحياة: الفقرة ٦٩٦.

الصريع في آفاق دنيا العرب والمسلمين»[1].

وبحسبي أن أذكر أنني استأذنت عليه في ضحى أحد الأيام، فأُدخلت إلى حجرة (المكتبة) ريثما يحضر. . ولم يلبث أن حضر بعد لحظات ثقيل الخطى متوكئاً على عصاه، وخلّف الباب الذي يدلف منه إلى غرف المنزل مفتوحاً، وبينما هو مشغول بالترحيب بي، وقبل أن يستقر في مجلسه تناهى إلى سمعه صوت التلفزيون ـ فيما يبدو ـ ينطق فيه المذيع بزخم شديد بكلمة (ثوار) ولا أذكر الآن، وربما لم أتبين في ذلك الحين، في أي سياق كان يتحدث عن هؤلاء الثوار! فما راعني إلا والأستاذ السباعي يشير بيده اليسرى مستخفاً، ويقول مغضباً ومستنكراً: ثوار؟!! هل علم هؤلاء معنى الثورة؟ ومن هم الثوار؟ ولم أشك في تلك اللحظة أنه قد مرّ بخاطره طرف من تاريخه الثائر هو رحمه الله.

إن نفسه الثائرة التي لم تعرف معنى الركود أو الإخلاد إلى الأرض لم تتحمل أن توضع كلمة (ثوار) في غير موضعها، أو أن يدّعيها من لا يستحقها أو من لم يدفع ثمنها ويقدم تضحياتها!

ويبقى السؤال المطروح أخيراً حول همّته التي فاق بها همم الرجال، وعزيمته التي تفوَّق بها على الأبطال: هل «جاوز السباعي بجهده طوق الطبيعة البشرية فأرهق نفسه» كما قال الأستاذ الدكتور عمر فرّوخ رحمه الله؟ والجواب عندنا: نعم. وإن كان قد «برهن لنا بصلابة

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص٦٣.

نفسه أن الإنسان قادر بعزيمته على أن يقوم بما يعدّه بعض الناس خارجاً عن طوق الطبيعة البشرية» كما يقول الدكتور فروخ كذلك[1].

ولقد علم السباعي حين وقع في براثن المرض أنه حاف على نفسه، وأنه كان بحاجة شديدة إلى الراحة والهدوء أو الخلوة، لأن القليل الدائم خير من كثير منقطع.. على الرغم من أنه قدم الكثير الكثير رحمه الله. قال في كتابه (هكذا علمتني الحياة): «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأنفقت نصف أوقاتي في الراحة والخلوة»[2]، كما كتب كثيراً من الخواطر المهمة حول الصحة والمرض، وحول ضرورة التوسط في كل شيء[3].

٥ ـ الإيثار ونكران الذات:

نكران الذات من السمات التي لا يخطئها المرء في شخصية الأستاذ السباعي، لأنها من الصفات التي نشأ عليها، وبقيت معه في جميع مراحل حياته، وقد سبقت الإشارة إلى موقفه في المؤتمر الأول للعلماء الذي عقد في دمشق في صيف عام ١٣٥٧هـ (١٩٣٨م) الذي انتصف فيه للعلماء من رئيس الوزراء، وإلى قيادته للفوج الذي توجه إلى فلسطين. . ووقفته البطولية في معركة القدس الكبرى. . . وهو في

---

(١) المصدر السابق، ص١٦٤.
(٢) الفقرة (٢٥٢).
(٣) راجع الفقرات: (٢٤٥ ـ ٢٦٠) من الكتاب المذكور.

جميع ذلك ـ وغيره كثير ـ لا يكتفي فقط بعدم التباهي بعمله، أو (تضخيمه) وجعله محور الأحداث أو أبرزها، على عادة الكثير من القادة والزعماء. . بل يتعدى ذلك إلى غمط حق نفسه والحرص على عدم الإشارة أو الحديث عما قام به أو كان السبب المباشر أو الحقيقي في إنجازه وتحقيقه. وأعتقد أن عدم حرصه على كتابة (مذكراته) تندرج في هذا السياق كما أشرت فيما سبق ولم أكن الوحيد الذي اقترح عليه أن يفعل ذلك، ولم أكف عن هذا الطلب حتى قال لي: إنني كلما فكرت في هذا وجدت أن تأليف كتاب أجدى وأنفع!

وإذا كان هذا الخلق ضرباً من أبرز ضروب الشجاعة التي ينتصر فيها الإنسان على نفسه، وعلى رغباتها ومطامحها في العلوّ والظهور، وفي أن يذكر صاحبها أو يحتفظ له بالمكانة العالية أو القيادية. . فإن الدارس لا يصعب عليه أن يلتمس لهذا الخلق عند السباعي أصلاً مكيناً آخر يتمثل في الإيمان والإخلاص والرغبة في ثواب الآخرة. . بل إن السباعي، وقد كان همه العمل والإنجاز، بغض النظر عن الموقع الذي يحتله هو في هذا العمل، وسواء ذكر صاحبه أم لا. . كانت تستوي عنده القيادة والجندية. . حتى إنه جعل من هذه التسوية مقياساً يقيس به خيرية من كانوا معه، أو خيرية جميع العاملين في كل الحقول، «فخيارهم في الخمول خيارهم في الشهرة، وخيارهم في الجندية خيارهم في القيادة، وخيارهم في المرض خيارهم في الصحة. . .» إلخ، قال: «ولا تختل الخيرية في حالة إلا

كان ذلـك دليلاً على عدم وجودهـا في الحالـة الأخرى! . »[1] .

أما الإيثار الذي يمكن عده درجة أعلى من نكران الذات، أو الوجه المقابل ـ الإيجابي ـ له، فقد كان الأستاذ السباعي فيما يبدو لا يقدم عليه ـ أو يـؤثر عليه ـ في أعماله وأقوالـه خلقاً من الأخـلاق أو فضيلـة مـن الفضائل؛ حتى إن الأستاذ الزرقا حين كتب عن السباعي خصّه ـ كما رأينا ـ بالإيثار، بل جعله رمزاً للإيثار والتضحية! قال الأستاذ السباعي، تحت عنـوان: (كيف تعيش في الحياة): «لا تيأس، فاليأس كفر بنعمـة الله. ولا تغضب، فالغضب قتل لفضائل النفس. ولا تحقد، فالحقد تشويه لجمال الحياة. ولا تحزن، فالحزن إتلاف لأعصاب الجسم والروح. وتحمّل من الهمـوم ما لا يضنيك، وما لا ينسيك سلطان الله وقضاءه وقـدره في تصاريف الزمان. ولا تعـش غير مبالٍ بما يجري حولك؛ فالمشاركة الوجدانية أنبل خصائص الإنسان. ولا تكن أنانياً؛ فالإيثار أجمل فضائل الإنسان»[2] نعم، فالإيثار أجمل فضائل الإنسان!

ويلحق بالإيثار ونكران الذات: **تشجيع المواهب** وتعهد من كان يتوسـم فيهم الخير بالرعايـة والتوجيه، بل بالدفع والرفع! وهذا من أبرز صفاته الدالة على ما كان يتمتع به من شجاعة وفروسية وإقدام. . كما يمكن عدّ هذه الصفة من أبرز صفاته القيادية كذلك. وقد لا توجد صفة ألـزم من هذه الصفة للقائد أو الداعيـة، لأنها هي التي تسـمح بظهـور

---

(١) الفقرة (٩٨٨) من كتاب هكذا علمتني الحياة.

(٢) الفقرة (٥٧٦) من هكذا علمتني الحياة.

القيادات واستمرار الدعوات. كما لا توجد صفة دالة على مدى وصول القائد مرتبة القيادة بالكفاءة والقدرة الذاتية أو الحقيقية مثل هذه الصفة. ولا أدل على تمكن هذه الصفة من نفس السباعي من أنه لم يندم على أن شجع من توسم فيهم الخير ثم جحدوه وحاربوه! قال رحمه الله: «لاتندم على أن شجعت من توسمت فيهم الخير، فصنعت منهم رجالاً.. ثم جحدوك وحاربوك، فحسبك أنك قاومت في نفسك الأنانية، وحاولت زرع الورد، فما أنبتت التربة السبخة إلا شيحاً وقيصوماً»[1].

لقد ملك الشجاعة للانتصار على عوامل الأنانية في النفس الإنسانية مرتين.. مرة حين شجع أصحاب المواهب ومن توسم فيهم الخير.. ومرة أخرى حين لم يندم على ما فعل حين لم يجد من بعض هؤلاء إلا الجحود ونكران الجميل!

٦ ـ الصبر والرضا:

لقد ضرب السباعي بصبره على المرض الذي استبد به سبع سنوات عجاف أروع الأمثلة في تاريخ الرجال، وفي تاريخ الإيمان. بل ارتقى في هذا الصبر ـ بوصفه حالة امتناع عن الجزع والضجر والشكوى أو موقفاً سلبياً إن صح التعبير ـ إلى درجة الرضا عن قضاء الله وقدره. وهو موقف إيجابي أو ليس مجرد حالة امتناع.. وما كان له أن يصل إلى هذه الدرجة لولا ثباته الطويل على الصبر، والذي عوّل فيه على إيمانه

---

(١) الفقرة (٨٢٠) من المصدر السابق.

الراسـخ، وعقيدتـه التي لا تتزعزع. . وقد أشـار رحمه الله في بعض ما كتب إلى أن الثبات على الصبر أشد من الصبر نفسه؛ كما كتب خواطر كثيـرة حول رحلتـه الطويلة في الصبـر والتي بدأت فيما يبدو بقولـه:

«يـا رب إذا كان في أنبيـائك أولو العزم وغير أولي العزم، وجميعهم أحباؤك، أفلا يكون في عبادك أولو الصبر وغير أولي الصبر، وجميعهم عتقاؤك»[1] وقوله:

فيا ربّ هب لي منك صبراً ورحمة ويـا رب حبّبنـي بمـا فـيَّ تكتـب
ويا رب زدني عنك فهماً لمحنتي وثبّت يقيني فيك فالقلب قُلَّب[2]!

ولم يلبث أن اطمأنت نفسه بهذا التثبيت الإلـٰهي وبالفهم عن ربـه سبحانه لهذا الذي امتحن به ـ (أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون) ـ حتى رأى في المرض مدرسة تربوية[3]. . وحتى عمّق هذا المرض كثيراً من نظراته إلى النفس الإنسانية، وإلى المجتمع والناس. . وإلى مسائل العقيدة والإيمان والقضاء والقدر. . بل ارتقى في ذلك كما رأينا في أدبه الصوفي إلى ألوان من المناجاة مع الله، والأنس بما هو فيه من المرض على الرغم من شدته وقسوته التي لا تطاق! وكأني بجسده الذي كان يضيق بـروحه الكبيـرة في كل مراحل حياتـه. . لم يعد يعبأ بآلامه مع

---

(١) الفقرة (١٠٨) من المصدر السابق.

(٢) من أبيات له بعنوان: أراك جميلاً في فعالك كلها: الفقرة (٣٤٨) من المصدر السابق.

(٣) الفقرة (١١) من المصدر السابق.

انطلاقة هذه الروح، واتصالها بالله، وأنسها به، ورضائها عن قضائه، وتسليمها بقدره! قال رحمه الله: «إذا أمرضك فأقبلت عليه فقد منحك الصحة، وإذا عافاك فأعرضت عنه فقد أمرضك»[1] وقال تحت عنوان: «ستة تهوّن المصيبة».

«ستة أشياء إذا ذكرتها هانت عليك مصيبتك: أن تذكر أن كل شيء بقضاء وقدر، وأن الجزع لا يردّ عنك القضاء، وأن ما أنت فيه أخف مما هو أكبر منه، وأن ما بقي لك أكثر مما أخذ منك، وأن لكل قدر حكمة لو علمتها لرأيت المصيبة عين النعمة، وأن كل مصيبة للمؤمن لا تخلو من ثواب أو مغفرة، أو تمحيص، أو رفعة شأن، أو دفع بلاء أشد. وما عند الله خير وأبقى»[2].

وقال: «ربما كان بطء القدر في استجابة الدعاء وتحقيق الرجاء، رحمة بالمبتلى تدفع عنه مزيد البلاء، أو كرامة تُدَّخر له في يوم الجزاء»[3]، وقال في خاطرة بعيدة الدلالة، لأنها أشارت إلى أن المرض الذي يشغل عن خاصّة النفس لم يشغله كذلك عن الشأن أو الهمّ العام، فقد جمع بين هذين الشأنين على صعيد واحد! قال رحمه الله: «لا أزال أومن بحكمة الله وعدالة قدَره، مهما استعصى مرضي على الشفاء، واستشرى في أمّتي

---

(1) الفقرة (١٩).
(2) الفقرة (٩١٤).
(3) الفقرة (٦٢٢).

تحكّم الظالمين، ودَجل الكذّابين!»[1].

إن الأمور الستة السالفة التي رأى فيها تهويناً للمصائب والآلام.. والتي تعكس تجربته بطبيعة الحال نقف منها عند قوله: «وأن ما بقي لك أكثر مما أخذ منك» لنراها ماثلة في هذا الذي رواه أستاذنا الدكتور يوسف العش رحمه الله، علماً بأن كل من اتصل بالسباعي أو عرفه أيام مرضه لمس منه ذلك ورآه! قال رحمه الله: «ولقد زرته مرة في مستشفى المواساة فأردت أن أواسيه، فالتفت إليَّ بوجه مصفر من ليلة قضاها في الآلام المضنية، وقال:

«أشكرك على حُسن مواساتك، لكنك لو كنت تعلم كم أنا راض بحالي لما أشفقت عليَّ شفقتك التي تبدو عليك. إني بخير نعمة من الله» قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة هادئة سكينة، فبدت الدهشة على وجهي، فقال:

«قد تجد قولي غريباً، لكني أقول الحق، وسأفسر ذلك، إني مريض أتألم ليس في ذلك ريب، وإنك لتشاهد الألم على وجهي وعلى يدي وفي حركتي، لكن انظر إلى حكمة الله فيّ. إن الله قدير على أن يشل حركتي، وقد شلّ بعض حركتي فانظر ماذا شلّ؟ لقد شلّ طرفي الأيسر وأبقى لي الطرف الأيمن، فما أعظم النعمة التي أبقاها لي! أكنت أستطيع أن أخط بالقلم لو شل اليمين منّي؟ إن الله قدير على أن يأخذ بصري وأنا

(١) الفقرة (٧٥٧).

محتاج إلى بصري أكثر من أي شيء آخر، لكنه أبقاه لي فهل أكثر من هذا لطفاً! إن الله قدير على أن يخمد قريحتي، لكنه أبقى لي قدرة الفكر والعقل فما ألطفه بي. إن الله قدير على أن يشل لساني فيمنعني من الكلام، لكنه أكرمني ببقاء قدرتي على الكلام، أفليس ذلك منَّةً منه وعفواً. لقد قضى الله عليَّ بأن تشل حركتي في السياسة، فشلّها لكنه أبدلها بنعمة خيرٍ منها: إنه فتح لي سبيل العلم والعمل للعلم. أكنت تراني كتبت وألّفت ما كتبت لو أن صحتي بقيت على ما كانت عليه قوية شديدة. فما أكثر لطف الله وكرمه ومنّته ونعمته، أفيحق لي بعد ذلك أن أشكو وأن أتذمّر؟ أوَلا يجب عليّ أن أشكر الله على نعمائه؟»[1].

ثم يعقب أستاذنا العش على هذا بقوله: «بهذا الإيمان كان يعيش في ساعات غبطته، وبه كان يعيش في ساعات مرضه. لقد بلغ الإيمان ذروته عند السباعي، وبه نستطيع أن نفسّر حياته وعلمه وعمله».

أما نحن فنقول في تعقيبنا المقتضب على ذلك أن السباعي ارتقى من درجة الصبر إلى درجة الرضا ومقام الشكر رحمه الله.

وعلينا أن نذكر أخيراً أنه قد راض نفسه على الصبر في مواطن كثيرة سابقة على المرض، حين لم يستجب للمغريات ـ من أي نوع ـ في مقتبل العمر وعنفوان الشباب، في بعض مراحل الدراسة، وفي مواقع القيادة! كما أنه صبر الصبر كله أو الصبر الجميل على أوهاق الدعوة والجهاد،

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص٦٧.

وعلى الأمزجة المختلفة والطباع المتباينة ـ وكانت به حدّة ـ التي تعامل معها في إطار هـذه الدعوة التي انطلق بها وحاول التـأليف بين أبنائها وقادها لسنوات طوال! وفي كتـابه: (هكذا علمتني الحياة) إشـارات ودلالات كثيرة لا يتسع لها المقام.

وأكتفي فقط ببعض إشاراته إلى الصبر عن هوى النفس الذي بقي يعدّه أشق من الصبر في معارك الجهاد! قال: «الصبر عن الهوى أشق من الصبر في المعركة وأعظم أجراً، فالشجاع يدخل المعركة يمضغ في شدقيه لذة الظفر، فإذا حمي الوطيس نشطت نفسه وزغردت! والمؤمن وهو يصارع هواه يتجرّع مرارة الحرمان، فإذا صمم على الصبر ولّت نفسـه وأعـولـت. والشجـاع يحـارب أعـداءه ريـاءً وسمعـه وعصبيـة واحتساباً، ولكن المؤمن لا يحارب أهواءه إلا طاعة واحتساباً»[1].

وقال: «بين المعصية والطاعة صبر النفس عن هواها لحظات»[2]. أما عاقبـة هذا الصبر فقد تحدث عنها في الخاطرة التالية التي فرّق فيها كذلك بين الشهوة الآثمة والمباحة والصبر، قال: «الشهوة الآثمة حلاوة سـاعة ثم مرارة العمر، والشـهوة المباحة حلاوة سـاعة ثم فناء العمر. والصبر المشروع: مرارة ساعة ثم حلاوة الأبد»[3].

---

(١) الفقرة (١٠٧).

(٢) الفقرة (١٠٦).

(٣) الفقرة (٢٦).

٧ـ الاجتهاد والجرأة في الحق:

ويمتاز السباعي ـ أخيراً ـ بهذا الضرب من ضروب الشجاعة العقلية والنفسية، فقد كان يملك الجرأة الأدبية على الاجتهاد وعلى الجهر بالرأي وما يعتقد أنه الحق في جميع المواقف. وتأتي هذه السمة في مقدمة السمات اللازمة للمجدّدين وقادة حركات الإصلاح. وقد امتدت هذه الجرأة واتصلت أسبابها عنده بالاطلاع على ثمرات العقول من مختلف الثقافات. وقد أصاب أستاذنا العالم المؤرّخ الدكتور يوسف العش حين قال: إن «عقل السباعي يمثل الثقافة الإسلامية التي جابهت المعارف كلها دون خشية منها»[١]، وحين قال كذلك في وصفه: «إن العقل والعلم عنده صنوان»[٢]، فدلّ بذلك على الآفاق العقلية الرحبة التي تمتع بها، والتي هيأت له من خلال هذا الاقتران بالعلم أو مساواتها به أسباب الاجتهاد والتجديد، والقدرة على ريادة حركة الإحياء الإسلامي في سورية، والمشاركة في هذه الحركة في مصر والعالم الإسلامي.

والملاحظ هنا أن هذه الجرأة الأدبية أو الشجاعة العقلية أصيلة أو قديمة في نفس السباعي، وأنها لذلك كانت مصاحبة لجرأته وشجاعته في مقاومة الاستعمار البريطاني في مصر! ثم نمت مع علوّ كعبه في العلم، والاطلاع على ثمرات العقول والقرائح في الثقافتين العربية والأوروبية ـ

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص٦٥.

(٢) المصدر السابق، ص٦٨.

فقد كان يعنى بالمترجمات والمنقولات عن الفكر الغربي كما ذكر الأستاذ المبارك ـ فقد قال في الكلمة التي كتبها بمناسبة وفاة مفتي حمص الشيخ طاهر الأتاسي في ١١ ربيع الأول ١٣٥٩هـ (١٩٤٠م):

«وهو المفتي الوحيد في بلاد الشام الذي يزن الأمور بميزان المصلحة العامة، ويطبقها على المقاصد الشرعية السامية؛ فإذا تحقق في مسألة من المسائل المعروضة عليه مصلحة عامة تعود على العلم أو الدين أو الأمة، التمس لها الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة، أو أقوال مشاهير العلماء، ضارباً صفحاً عما هنالك من نصوص فقهية قد يحول الأخذ بظاهرها دون تحقيق تلك المصلحة المرجوّة». ثم قال: «وقَلَّ أن تجد في المفتين المعاصرين من له هذه الروح وهذه القوة، وهذا التمكن البالغ في فهم دقائق الفقه الإسلامي ومقاصده»[1].

إنها النزعة المبكرة نحو الاجتهاد بالعودة إلى الأصول، والبحث عن مقاصد النصوص! حتى إذا نهض في الحال أو بعد سنوات قلائل بحركة التجديد الديني والإصلاح الاجتماعي والسياسي، لم يعبء بالقيود ـ من أي نوع ـ ولم يجبن أمام ألسنة المبطلين والجاحدين، ولم يخالط نفسه يأس، ولم تصرفه عن وجهته الآلام والتضحيات. وقد كتب في ذلك الخواطر التالية: قال رحمه الله:

٣٩٢ ـ: «لولا جرأة المصلحين واستهزاؤهم بهزء الساخرين، لما

---

(١) مجلة (الفتح) العدد ٧١٥ تاريخ ١٢ جمادى الآخرة ١٣٥٩.

تخلص المجتمع من قيوده وأوزاره».

٣٨٩ ـ «أقبح أنواع الجبن: الخوف من الجهر بالحق خشية من ألسنة المبطلين».

٣٨٧ ـ «لا تتأخر عن كلمة الحق بحجة أنها لا تسمع، فما من بذرة طيبة إلا ولها أرض خصبة».

٣٨٨ ـ «ليس عليك أن يقتنع الناس برأيك، ولكن عليك أن تقول للناس ما تعتقد أنه حق» «من عرف الحق هانت عنده التضحيات».

٣٨٦ ـ «الذين يجهرون بالصواب عند طوفان الخطأ هم الرجال الذين يقوم البناء على عقولهم وكواهلهم معاً».

٤٧ ـ «ليست الشجاعة أن تقول الحق وأنت آمن، بل الشجاعة أن تقول الحق وأنت تستثقل رأسك».

١٠٠١ ـ «ليست البطولة أن تقاتل وأنت آمن على ظهرك من الرماح، ولكن البطولة أن تقاتل وأنت تنوشك الرماح من كل جانب».

ولهذا نجده يستخف بالنصر الذي يكسب في غير معركة! قال: «ليس النجاح أن تكسب النصر في غير معركة، فتلك فرصة واتتك فيها الظروف، ولكن النجاح أن تكسب النصر في معركة لم يكن يبدو للمراقبين لها شيء من تباشير النجاح» [الفقرة رقم ١٠٠٠].

وإذا تذكرنا هنا كتب الأستاذ السباعي، وميادين العلم والمعرفة التي خاضها أو عني بها. . وأعدنا النظر فيما نتحدث عنه من سائر خلائقه

وصفاته. . أدركنا أنه لم يكن يفتقر إلى أداة من أدوات الاجتهاد، أو خلق من أخلاق الإصلاح والتجديد. وقد نلحق بهذا وذاك ما كان يتمتع به من **الموضوعية والنزاهة والتجرد**. . التي لا تعدو أن تكون ـ بدورها ـ من ضروب الشجاعة التي نتحدث عنها! وقد لا يعدل شجاعته أو جرأته في الحق أو ما يعتقد أنه الحق بعد كل هذه الموضوعية والنزاهة. . سوى الشجاعة في الرجوع حين يتبين له أنه كان على خطأ، أو حين يبدو له من الأدلة والبراهين الجديدة أنه لم يكن في اجتهاده على صواب!

يقول فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة:

«وإذا صادف أن اجتهد في أمر فكان له فيه رأي، ولسواه رأي، ثم روجع في ذلك ونُوقش: بسط حجته، ودافع عن وجهة نظره بروح المنصف المتحري الباحث عن الحق، حتى إذا تبينت له فيما كان يراه ويقوله وجهة جديدة محّص فيها الرأي، وكانت نتيجة ذلك: التزامه بالحق الصراح والمعالنة به، لا يهمه في أي جانب كان، دون تعصب لرأيه، أو حرص على انتصار وجهة نظره. بل إنه ليشد بقوة على الرأي الجديد الحق، مدافعاً عنه أشد من دفاعه عن رأيه الذي كان يراه، لأنه تبدت له معالم الحق فيه أكثر»[1].

* * *

---

(١) حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص١٧٣.

الإنسان

أو سجايا النفس

كانت تلك صفات (الرجل) التي جابه بها الصعاب، وصمد في وجه الشدائد. . أو التي واجه بها رغائب النفس وأهواءها، وتصدى بها لمشكلات الأمة والمجتمع، وشؤون الدين والحياة! أما صفاته وأخلاقه وسجاياه الخاصة أو (الإنسانية) التي صدر عنها في حياته اليومية، أو عبّر بها عن (السباعي الإنسان)! فإننا نوجزها فيما يلي:

١ ـ الرحمة والرقة:

كان رحيم القلب لا يصمد أمام الدمع. . بل لقد كان هذا الدمع يغلبه و(يفضح) ما انطوت عليه نفسه المرهفة من رحمة ورقة! ولا عجب أن نرى هذه النفس الجريئة التي طلبت الموت والشهادة في مظانّها. . وخاضت معركة الحياة على أشد و(أشرس) ما تكون المعارك. . تنكسر أمام مناظر البؤس والفاقة والحرمان. . وأمام المرض الذي ينزل بمن حوله من الناس. . فهذا من دلائل العظمة والاتساع في هذه النفس الكبيرة.

وآية الآيات في هذا أن السباعي الذي تغلّب على المرض الذي

استبدّ به ورأى فيه طريقاً للسمو والخلود ـ كما أشرنا ـ كان يرِقُّ لصراخ المرضى يقولون: يا الله! وهم بجانبه في المستشفى! حتى وجد في رحمته هو لهم دليلاً على أن الله تعالى سوف يرحمهم وهم ينادونه ويستغيثون به! قال رحمه الله: «أسمع بجانبي صراخ مرضى يقولون: يا الله! علموا أن لهم رباً يرحمهم فاستغاثوا برحمته، إني لأرحمهم لآلامهم وأنا عبد مثلهم، فكيف لا يرحمهم الله وهو ربهم وخالقهم؟»[1].

بل لقد نعى على الذين يريدون للمرأة أن تعمل لتكسب قوتها! وقال: ما أقسى أفئدتهم، وأغلظ أكبادهم! لقد كان لرقته أثر في هذا القول أو في هذه الملاحظة أو الإضافة، قال: «ما أقسى أفئدة الذين يريدون للمرأة أن تعمل لتكسب قوتها ـ أي كأنهم نكلوا عن إعالتها أو أجبروها على العمل ـ وهي تعاني من شدائد الحمل والولادة والحضانة والإرضاع لطفل واحد، بله أطفال آخرين، وغير شؤون البيت وأعبائه! ما أقسى أفئدتهم وأغلظ أكبادهم! ولولا الحياء لقلت: إنهم متوحشون، يتلذذون بتعذيب المرهقين، واستعباد المستضعفين!»[2].

كما رأى في قساوة القلب مرضاً يستحق العلاج! أي أن إنسانية الإنسان أو صحته النفسية في نظره تقتضي رقة القلب أو تستلزمها! قال

---

(١) الفقرة (١٧٢) من (هكذا علمتني الحياة).
(٢) الفقرة (٩٢٥).

رحمه الله: «داو قساوة قلبك عند الموعظة، كما تداوي عُسر هضمك عند الأكل»[1].

وقد أشرنا في موضع سابق إلى أثر ما اتصف به من الرحمة والرقة والعطف على الفقراء والمساكين في اجتهاده البارز أو الأهم في باب العدل الاجتماعي و(اشتراكية الإسلام).. حتى إنه ذهب إلى القول إن صلاح المجتمع وفساده إنما يقاس بمدى رحمة هذا المجتمع بالفقراء وقيامه بشؤونهم، أو إهمالهم والتخلي عنهم، قال رحمه الله: «الفقير ميزان الله في الأرض، يوزن به صلاح المجتمع وفساده!»[2]، وربما كان يخامره ـ وهو يكتب هذا ـ شعور بأنه ليس في وسعه كفرد أن يرحم جميع الفقراء، أو يواسي جميع المحتاجين! فوضع ذلك على كاهل الأمة والمجتمع.. ثم ارتقى في الحكم على هذا المجتمع بالصلاح والفساد ـ بوجه عام ـ من خلال هذا الميزان الذي لا يخطئ.. الفقير! فكأنه قال: إنه مقياس صلاح الفرد ـ أو النفس الإنسانية ـ والمجتمع جميعاً!

وأخيراً فإنه جعل الرحمة بالمستضعفين ـ أعم من أن يكونوا من الفقراء أو المساكين ـ أحد الأركان التي لا تتم (الرجولة) إلا بها! فإذا تذكرنا حظه هو من هذه الرجولة أدركنا مدى الرحمة التي طويت عليها نفسه الكبيرة رحمه الله، قال: «لا تكمل الرجولة إلا بثلاث: ترفع عن الصغائر، وتسامح مع المقصّرين، ورحمة بالمستضعفين»[3].

---

(١) الفقرة (٣٤٧) من الكتاب السابق.

(٢) الفقرة (١٤٢).

(٣) الفقرة (٨٨٦).

٢ ـ حرارة العاطفة، ورهافة الحسّ والشعور:

كانت ينابيع العاطفة والإحساس بالجمال تسري في تلك النفس الكبيرة وتترقرق في نواحيها! لم تحجبها صخور الجهاد والمواقف الدعوية والعلمية الصلبة أو الشديدة! بل إن عاطفته الجيّاشة هي التي كانت تمده بطاقة لا تكاد تنفد في مواقفه الخطابية المشهودة! وكانت في الوقت ذاته نبعاً من ينابيع الحسّ المرهف والذوق الرفيع.. ولهذا تبدو علاقته مع الناس هي الوجه الآخر لعلاقته مع الله سبحانه!

لقد أشرنا إلى أدبه وصفائه مع الله في شعره ومناجاته، والذي غذّته تلك العاطفة وهذه الينابيع، وعاش مع الناس بهذا الوجدان وهذه العاطفة، وتلك الأحاسيس، فلم يؤذ أحداً من إخوانه أو أصدقائه أو من عامة الناس، أو جرح شعوره بكلمة أو موقف أو إشارة، سواء أكان ذلك في الحضور أم الغيبة! وقد عرفت في وجهه الكراهة والحسم جميعاً ذات يوم حين غُمز أحد إخوانه في مجلس من مجالسه.

ولا شك في أن الأستاذ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة قد عرفه حق المعرفة حين قال فيه: «وكان رحمه الله يؤاخي الإنسان فيكون وفياً لأخوّته، محسناً الظن به، يذود عنه قالة السوء، ويحتفظ له بمنزلة الصادقين، ويلتمس لهفواته الأعذار ما دام يجد إلى ذلك سبيلاً، بعيداً عن التملق والنفاق والمجاملة بالباطل»[١].

---

(١) حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص١٧٤.

وكان حتى في أيام مرضه يكره أن يخدمه أحد في حاجات نفسه! ولكن إذا وقعت عصاه التي كان يتوكأ عليها. . ـ وكثيراً ما كانت تقع في المحاضرات ـ يضحك ويعتذر قائلاً: أنا أزعجكم دائماً بهذه العصا. . ثم يطلب من يتبرع لمناولته إياها! في الوقت الذي يكون قد هبّ أكثر من واحد ليفعلوا ذلك. . وكأن لسان حاله يقول: أما هذه فلا بأس!

ويبدو لي أنه اتخذ من رهافة حسّه هو وشدة تأثره بجمال الطبيعة وبعض الفنون دليلاً على أن هذه موهبة أو أمر فُطر عليه بعض الناس، وإن كان قد خصّ ذلك بالذوق، أو نصّ عليه من بين سائر الأحاسيس، أو بوصفه جامعاً لها، قال: «الذوق موهبة وراء العقل والفطنة والذكاء، وهو لهذه كالملح للطعام، والروح للجسم. .»[1]، ولهذا كان يضيق ذرعاً بغليظ الفهم وبليد الذوق، ويعدّ ذلك من أنواع المرض التي يبتلى به من كتب عليه أن يخالط هذا أو يعيش معه! قال: «أسوأ أنواع المرض: أن تبتلى بمخالطة غليظ الفهم، محدود الإدراك، بليد الذوق، لا يفهم ويرى نفسه أنه أفهم من يفهم، فكيف إذا كتب عليك أن تخالطه وأنت مريض؟»[2].

قلت: إنه مرض على مرض، وابتلاء فوق ابتلاء! وقد حدثنا مرة أنه سمع صوت ناي شجيّ وهو صغير أو غلام حدث، فأُغمي عليه من شدة التأثر. .

---

(١) الفقرة (٩٣٣) من هكذا علمتني الحياة.

(٢) الفقرة (٩٣٥).

ولهذا بقي جمال **الطبيعة** يأسره على الدوام. وكان يجد فيه الدليل على الإيمان والحكمة مرة، وربما واءم بينه وبين جمال المرأة، أو استعاره لها مرة أخرى. قال رحمه الله: «في جمال الأزهار وأرج الرياحين وهي من ماء وتراب، يتجلّى إبداع الخالق ودقة صنعه، فأي دليل بعد هذا على وجود الله وحكمته يريدون؟»[1]، إنه لا يتحدث عن (النظام) ولكن عن الجمال أو عن الجمال مقروناً بدقة الصنعة! ومن فاتته حاسة البصر أو عطّلها فلن تفوته حاسة الشم! قال: «تستطيع أن لا ترى الزهرة الفوّاحة، ولكنك لا تستطيع إلا أن تشمّ عبيرها»[2]، وقال تحت عنوان: (أين أنت)؟ «يتساءلون عنك: أين أنت؟ فيا عجباً للعُمي البُله! متى كنت خفياً حتى نسأل عنك؟ ألست في عيوننا وأسماعنا؟ ألست في مائنا وهوائنا؟ ألست في بسمة الصغير وتغريد البلبل؟ ألست في حفيف الشجر وضياء القمر؟ ألست في الأرض والسماء؟ ألست في كلِّ شيء كلَّ شيء؟ أليست هذه آياتك الدالّة عليك؟ أليست هذه من بدائع صنعك يا أحسن الخالقين؟..»[3].

ولم يفته أن يذكر **المرأة** في سياق فروسيته ومباهاته بـ(أمة الخلود)ـ التي أوردنا طرفاً منها فيما سبق ـ حين قال: «**ولنسائنا عطر الأزاهير، وطهر الملائكة، وسحر الطبيعة في فجر الربيع**»! لا غرو أن يفرق، بعد هذا

---

(١) الفقرة (٣٣٩).
(٢) الفقرة (٧٥٥).
(٣) الفقرة (١٤٥).

الحديث عن العطر والطهر والسحر، بين أدب الجنس وما أسماه أدب النفس! وأن ينعى على أدب الجنس، ويصفه بأنه (ليس فيه إبداع ولا كفاح ولا تضحية) وأنه (صنعة المجدبين الكسالى الأنانيين)[1]، وأن يتوجه بالتحذير إلى (الأم الفاضلة والبنت الفاضلة) من أن تنخدع بألفاظ التحرر من العبودية، وتحطيم قيود التقاليد! قال: «إنهم يريدون أن يضيفوا إلى عبوديتك للجهل الموروث، عبودية الشهوة الجامحة، وإلى قيود التقاليد البالية قيود الاستغلال الآثم الماكر!»[2]، وأن يقول أخيراً: إن «الأمة التي تنظر إلى المرأة نظر عبادة لها كشهوة، واحتقار لها كإنسان، تهزمها البغايا والراقصات في الحرب عن طريق الإغراء والتجسس»[3].

٣ـ المروءة والسماحة:

أصيب الأستاذ الشيخ مناع القطان رحمه الله بحادث وهو في بيروت، وكان الأستاذ السباعي قد اصطاف فيها لبعض الوقت بعد منصرفه من الحج، ولما علم بإصابة الشيخ مناع ذهب إليه يعوده. يقول الشيخ مناع: «وكان رحمه الله ذا مروءة نادرة يحمل جسمه المنهك مالا قِبَل له به، علم بحادث إصابتي في الأيام القريبة الماضية، فدلف إلى المستشفى في بيروت، ونظرت إلى باب غرفتي فإذا به يدخل متكئاً على

---

(١) راجع الفقرة (٥٤٩).

(٢) الفقرة (٥٤٤).

(٣) الفقرة (٥٤٢).

عصاه، في خلق المسلم ومروءته، فلم أتمالك نفسي على فراشي! وأعلنت له ألمي، لما في ذلك من إرهاق له ومشقة: فأجابني بأن هذا واجب. وعادني مرة أخرى مودعاً قبيل عودته إلى الشام وجلس يواسيني وأنا أقوى صحة منه، ولم تمض سوى أيام معدودة حتى حملت إلينا أمواج الأثير نعيه»[1].

هذه المروءة النادرة ـ كما وصفها الشيخ منّاع رحمه الله ـ لم يستطع ألا يستجيب لندائها حتى في أيام مرضه الأخيرة هذه.. وهي التي كان ينبعث منها في أريحيته وكرمه طوال حياته.. فقد كان يكرم ضيفه ويخدمه إن استطاع.. وكان يجد من حق أي زائر كريم للبلد أن يدعوه إلى بيته ويجمع له من يأنس به من الضيوف. يقول الشيخ عبد الفتاح أبو غدة: «كان رحمه الله أريحياً كريماً، يتحرى النهوض بوجائب الأخوة والتكريم لكل وارد وصادر، حتى إنه ليتصدى لاستضافة فضلاء الرجال الذين يؤمّون البلاد، شاعراً بأن ذلك حق عليه، ما يسوغ له التخلي عنه ولو كان في ضيق من أوضاعه وأعماله وواجباته العامة والخاصة»[2].

وأذكر من هذه الدعوات التي شهدتها في بيته ـ وربما كان حضوري مع الزميل الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي، وكنّا معيدين بكلية الشريعة، من كمال مروءته ـ دعوته للأستاذ مالك بن نبي في إحدى الأمسيات، وحضر الأستاذ مالك في تلك الليلة وبصحبته شاب ليبي لم

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧.
(٢) المصدر السابق، ص١٧١.

يـوهب الكياسـة ودقـة الملاحظة! فحين تشـعب الحديث للكـلام عن الموسـيقا، قال في شـأن تحريمها ـ أو أفتى ـ بما ينبئ عن جهلـه بفقه النصوص قبل فقه الحياة! وكان الأستاذ السباعي يأنس بشيء منها في بعض ليالي مرضه وأرقه الطويلة. وكان في القوم الأستاذ مصطفى الزرقا والأستاذ محمد المبارك، وبعض الأساتذة الآخرين، فانزعج الأستاذ السباعي أشد الانزعاج، واشتدت عليه الآلام العصبية، حتى اعتذر عن متابعـة الجلسـة وغادر إلى فراشـه داخل المنزل. فما كان من الدكتور عبد الرحمن الصابوني إلا أن لام الشاب لوماً شديداً، وعرّض ـ فيما أذكر ـ باجتهاده وعلمه! . فشفى النفس في تلك الليلة من ذلك (الفقيه) الذي سفّه رأي السباعي في الموسيقا، لأنه لم يفطن لشروط السماع!

أما ما كان يتمتع به من **السماحة وطيب الخاطر**، فأعتقد أن صفحه عن النفر من المنشقين الذين قادوا ضده حملة التشويه التي تحدثنا عنها، وبعضهم ولغ حتى في عرضه!، ما يغني في هذا المقام عن أي موقف آخر. وقد يجوز لنا أن نقيس هذه السماحة بمقياس أولئك الذين كانوا يجدون في أنفسهم على السباعي ـ على البعد ـ لسبب أو لآخر؛ فإن الواحد منهم، كما شهدت، سرعان ما يسقط ما كان في نفسه عنه، بل سرعان ما يكبره ويحبّه إذا لقيه أو اجتمع به! ويبعد فيما نظن أن يكون هذا مع رجل لا يتصف هو نفسه بالسماحة وطيب الخاطر!

٤ ـ حدّة الطبع:

ولا تتعارض هـذا السـماحة مع ما عرف عنـه من حـدة الطبع ـ

وعصبية المزاج في بعض الأحيان ـ لأن السماحة وطيب الخاطر يتجاوز فيها عن حقوقه، أو يصفح عمن أساء إليه! أما الغضب والحدة فكانت موقف دفاع عن الأوطان والحرمات. وإن كان في وسعنا أن نفسر هذه الحدة عنده بأمرين:

الأول: أنه كان يضيق ببرودة الطبع، لأنها تناقض ما طويت عليه نفسه من المبادرة والثورة، وما طبع عليه من التوهج والحرارة! قال رحمه الله: «كيف يمكن أن نصطحب في الطريق إذا كنت أطير براقاً، وتسير سلحفاة، فإما أن أسبقك وإما أن تؤخرني. وكيف يمكن أن نعيش معاً وحرارتي كالنار وبرودتك كالثلج، فإما أن أحرقك وإما أن تجمّدني»، وقد أتبع هذه الخاطرة بقوله: «من المستحيل تبديل الطبائع كما يستحيل تبديل الأشكال، ومن يخلقه الله كما أراد لا يبدّله الإنسان كما يريد»[1].

أما الأمر الثاني: فيعود إلى تلك السماحة والمروءة نفسها! لأنها لا تتسع لمواقف الكيد واللؤم.. أو لأنها تناقضها وتعارضها من كل وجه.. إن الصفح والسماحة وقبول الأعذار والتجاوز عن الهفوات والزلّات شيء.. والإغضاء عن مواقف الكيد واللؤم شيء آخر! فسرعان ما كانت تشتعل في نفسه شرارة الحدة حين يواجَه بموقف من هذه المواقف، أو يُنبّه له.. أو يقف هو عليه!

---

(١) الفقرتان (٧٣٦ و٧٣٧) من هكذا علمتني الحياة.

وأعتقد أن أستاذنا الدكتور يوسف العش رحمه الله أشار إلى نحو هذا حين قال في وصفه: إنه «كان ذا وجه مشرق منير تعلوه الابتسامة، ولا يغادره البِشر إلا أنفةً أو غضباً»[1]، وقد صوّر الأستاذ عبد الرحمن خليفة هذا الجمع في شخص السباعي بين السماحة والثورة، على النحو التالي: قال حفظه الله: «لقد كان السباعي رحمه الله كالبحر، عميقاً في فكرته، غنياً في مكنون جواهره، مهيباً في طلعته، جميلاً رائعاً في منظره، سمحاً كريماً لمن طلب رفده أو مدّ يده ليغترف من خيره. فإذا طمع فيه طامع، ولجّ في خصامه جهول، كان في موج كالجبال، ولجج كقطع الليل البهيم. يضع من ركب متنه مغتراً برقته وسماحة طبعه، مكبوباً على وجهه، غائراً تحت قدميه»[2].

وغني عن البيان أن نذكر أخيراً أن من كان على هذا الخلق من السماحة والمروءة، سواء أكان في طبعة حدّة أم لم يكن.. لا يعرف **الحقد** إلى نفسه من سبيل. وقد سبقت الإشارة إلى قوله: «لا تحقد، فالحقد تشويه لجمال الحياة» وقد قال في مقدمة كتابه: (هكذا علمتني الحياة): «وأعوذ بالله من أن يكون في قلبي حقد نحو أحد، أو عندي رغبة في التشهير بإنسان... ولست أقول كما قال أبو الطيب المتنبي:

ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس روّى رمحه غير راحم
فلا هو مرحوم إذا ظفروا به ولا في الردى الجاري عليهم بآثم

(١) مجلة حضارة الإسلام، ص٦٥.
(٢) المصدر السابق، ص٣٦.

ولكنني أقول: إن من بلغ العمر ما بلغت، وأصابه من المرض ما أصابني، وعرف الناس معرفتي بهم، يرى نفسه أكرم من أن يحمل حقداً أو عداوة شخصية يجري وراءها متقطع الأنفاس.

«لقد هانت عليَّ الدنيا بما فيها من اللذائذ، وما تحتويه من عوامل الحسد والحقد والكراهية، ولم يبق في نفسي ـ شهد الله ـ إلا رغبة في الخير أفعله وأدل عليه، وإعراض عن الشر أهجره وأحذر منه»[1].

ويتصل بهذا ويلحق به: **ترفعه عن الصغائر واشتغاله بمعالي الأمور**.. يشهد له بذلك هذه الحياة الحافلة، وهذا الإنتاج الغزير! ثم أليس هو القائل: «الحياة طويلة بجلائل الأعمال، قصيرة بسفاسفها»[2] والقائل: «الصندوق الممتلئ بالجواهر لا يتسع للحصى، والقلب الممتلئ بالحكمة لا يتسع للصغائر»[3].

٥ ـ التواضع الشديد وحبّ البساطة:

قد تكون العوامل التي تضافرت على إبراز هذا الخلق عنده كثيرة، بيئية ودينية وأخلاقية وشخصية... ونكتفي من ذلك بالإشارة إلى عقله الممتلئ بالأفكار وثمرات المعارف؛ وقلبه هذا الممتلئ بالحكمة.. فإن الشجرة المثمرة أو الغزيرة الثمر هي التي تتدلّى أغصانها إلى الأرض.

---

(١) هكذا علمتني الحياة، ص٩.
(٢) الفقرة (٣٦) من المصدر السابق.
(٣) الفقرة (٧٩) من المصدر السابق.

ونذكر مع هذا: حرصه الشديد على الهداية والإرشاد والتعليم، والتصاقه بعامّة الشعب، وانحيازه الواضح - إن صح التعبير - للضعفاء والفقراء والمساكين، وحدبه عليهم، وتبنيه لقضاياهم ومشكلاتهم، حتى وجدناه يقصر معنى (الكرم) على رفدهم ومواساتهم. ومن كان على هذه الشاكلة، أو من كانت فيه هذه الصفات - وغيرها كثير - فإنه لا يتكبر ولا يستكبر.. بل يتواضع ويميل إلى البساطة وكراهية التعقيد.

وعليّ أن أذكر هنا بشيء من الحسرة أن تواضعه الجمّ - إلى جانب إنكاره لذاته الذي تحدثنا عنه - لا أقول: حجبني أو كاد يحجبني عن المكانة العالية التي تسنّمها، والبطولة التي انطوت عليها نفسه في ميادين العلم والعمل والحياة.. بل أقول: كان يوهمني أو يزيّن لي أن ما كان عليه الرجل أمر عادي أو طبيعي، أو أن مثله في العلماء والمجاهدين كثير، ثم أدركت أن هذا نادر الوقوع، وأن مثله في العظماء قليل. وربما كان لصلتي الوثيقة به أيام مرضه سبب في هذا! فقد كنت أرى فيه الصابر على البلاء، والهمة التي لم يُقعدها المرض والألم.. فحجبت هذه الصورة عني معالم كثيرة من نبوغه المبكر، وأعماله الجليلة التي نهض بها أيام صحته وقوته وشدة شكيمته رحمه الله.

أما حبّه للبساطة وكراهيته للتعقيد فإن حياته اليومية في البيت وفي سائر المواقع كانت تعكس ذلك وتدل عليه (ببساطة) ويسر.. وقد قال هو عن نفسه في مقدمة كتابه: (هكذا علمتني الحياة):

«وأنا في هذه الخواطر لم أحاول الغموض في صياغتها،

ولا التحدث عن المعاني الدقيقة التي تخطر في بال الفلاسفة، ويدعيها بعض المتفلسفين، لقد كتبتها بأسلوب تفهمه العامّة كما تفهمه الخاصة وكنت فيها منساقاً مع طبيعتي التي تحب البساطة في كل شيء، وتكره التعقيد في أي شيء»[1].

٦ ـ المزاح وحبّ الدعابة:

(كان فكهاً يحب الدعابة، ويضحك من المزاح، ويكثر من قصص النوادر)[2] ـ كما قال أستاذنا العش ـ وكان لهذه القصص أثر بارز في اختياراته من كتب التراث، فلم تكن تخلو حلقة من حلقاتها التي كان ينشرها في المجلة تحت عنوان: فرائد الفوائد، من طرفة أو نادرة. بل لم يكد يخلو مجلس من مجالسه من طرفة يرويها، وأخرى يصنعها.. يسعفه في ذلك بديهة حاضرة، وظرف وعذوبة نفس. وكان للنكات التي تروى بين (الحماصنة) و(الحموية) حظ بارز من تلك الطرائف، وأطرف ما في هذا الباب عنايته بمرويات الحموية على الحماصنة، وليس العكس وهو الحمصي رحمه الله. وكانت طرفة الطرائف في أحد الأيام أنه قال تعقيباً على مجموعة من النكات التي رويت أو قيلت في الجلسة في حق الحماصنة ـ وقد هدأ الجمع قليلاً ـ: لا تظنوا أن كل ما يقال عن الحماصنة لا أصل له أو أنهم لم يفعلوه! فقد حيّر بمقالته هذه الجلوس،

---

(١) مقدمة الكتاب، ص٧.

(٢) حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص٦٥.

وذهبوا بها ـ على اختلاف الفرقاء ـ بين الجد والهزل. . . والجمع غارق في الضحك، وهو يضحك من أعماقه!

وقد قال الأستاذ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة عن الأستاذ السباعي: «إنه كان يستجيب للدعابة ويجيدها، ولا يبذلها إلا في موطنها»، ولكنه أضاف الملحظ التعليمي والدعوي التالي في هذه الدعابة، حين قال: «وكم كان يستعين بذلك في محاضراته ودروسه عندما يتوقّع من مستمعيه أن وطأة الجد كانت تثقل عليهم، فتكون شواهده الطريفة بما فيها من ملاءمة للمناسبة درساً جديداً أبلغ من الدرس والمحاضرة. وأنفذ في نفوس السامعين إلى مقاصده ومراميه العالية التي يتحدث عنها، حتى إذا تابع درسه وإلقاءه بعد ذلك عاد حفله إلى متابعة سماعه بهمة جديدة، وذهن متفتح، ونشاط كبير»[1].

ويروى في هذا السياق أنه كان يلقي أحد دروسه في كلية الحقوق ـ وكان يدرّس كما أشرنا: مادة الأحوال الشخصية ـ فقال في معرض حديثه عن الزواج: إن من كان في سن الزواج ولم يتزوج فهو أخ للشياطين! فبادره أحد الطلاب بالسؤال: هل أنت متزوج يا دكتور؟ فأجابه السباعي على الفور: لا. . أنا أخوكم[2]!

كان هذا في الوقت الذي اعتقد كثير من الناس أن التجهم والعبوس

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص١٧٢ .

(٢) الدكتور مصطفى السباعي لحسني أدهم جرار، ص٤١ .

جزء من الوقار الذي يجب أن يتحلى به العالم أو الفقيه ـ أو (رجل الدين) إذا أخذنا بمصطلحات الآخرين ـ بل ربما ظن في بعض الأحيان أن هذا هو الوقار بعينه!

السباعي وصفات القيادة: كلمة أخيرة

والكلمة التي نختم بها هذا الحديث عن السباعي (الرجل والإنسان) أن صفاته وسجاياه تلك أهّلته لقيادة حركة التجديد والإصلاح في بلاد الشام، أو للنجاح الباهر الذي حققه في هذه القيادة التي كانت عنده كما لاحظنا في نشأته وفي المراحل الأولى من حياته ملكة من ملكات الخلْق والتكوين. وجاءت هذه الصفات والسجايا لتخدم هذه الملكة، أو لتبرزها هذا البروز في نهاية المطاف. ولهذا فإننا نكتفي بهذا وذاك عن أي تأكيد أو حديث آخر عن صفاته القيادية. ولا نضيف إلى ما قدمناه سوى الإشارة إلى قيادته أو عمله القيادي في السجون والمعتقلات، لا لأننا لم نشر إلى هذا حتى الآن.. بل لأننا نرى في هذا العمل برهاناً من أوضح البراهين على مدى امتلاك السباعي لأهلية القيادة وشروطها.. وعلى أن إصلاح النفوس وتقويم العقول كانت المهمة التي أعدّه لها القدَر.. حتى لكأن ذلك كله يجري في عروقه مجرى الدم!

يقول الأستاذ عبد الله المشنوق، الذي سجن مع السباعي في لبنان في (قاووش واحد) وكان سريره إلى جانب سريره ـ لمدة ستة شهور ـ إن معرفة الأشخاص في السجن هي المعرفة الحقيقية، لأن المرء يتجرد فيه من الزخارف، ويظهر أمام زملائه على حقيقته يقول: «وهكذا عرفت

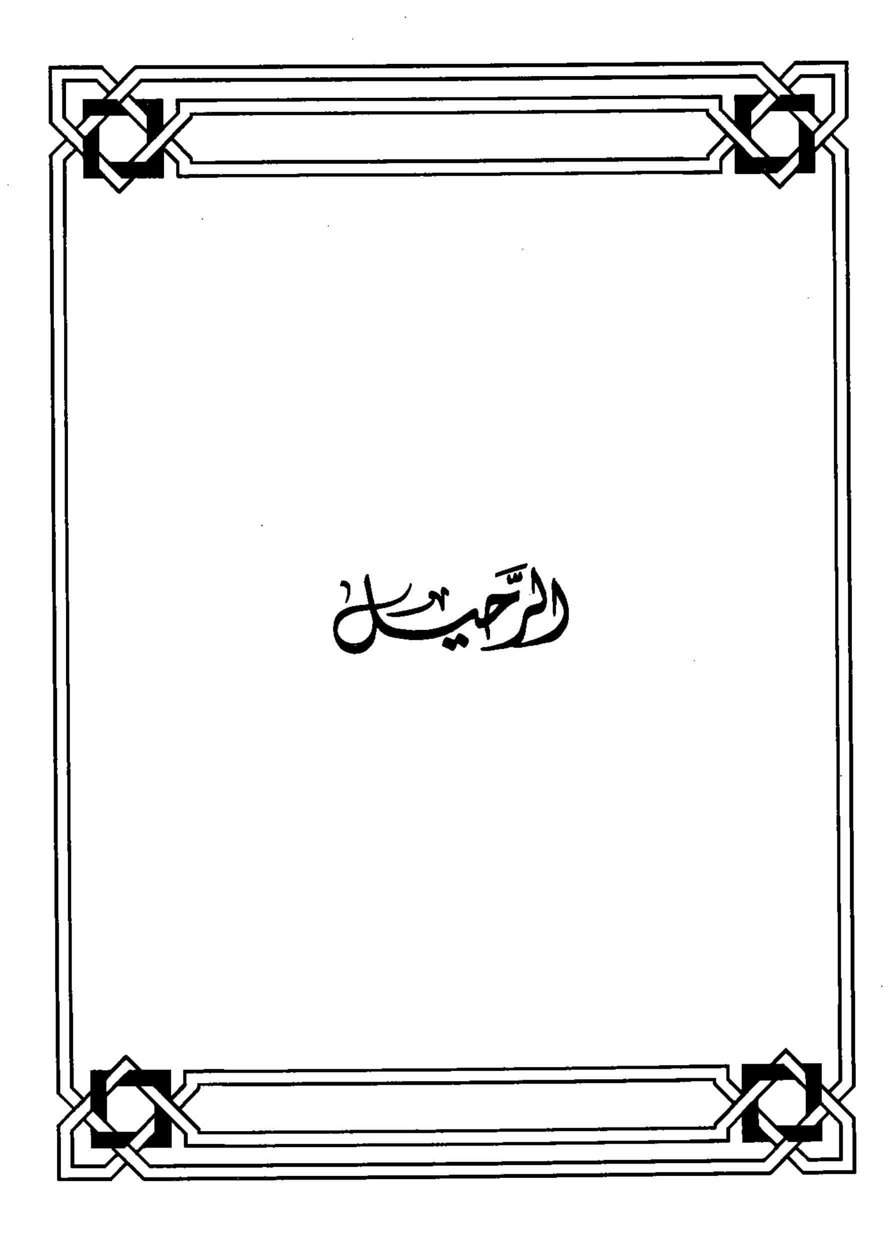
الفقيد متجرداً من تلك الزخارف التي يحاط بها الناس في عالمنا»، ثم يضيف في حديث عن الأستاذ السباعي قائلاً:

«لقد نهض بالسجن عندما دخل إلى السجن! لقد كنا نضيع أوقاتنا فجاء رحمه الله وأشاع فينا التقوى، فبعد أن كنا نلهو بلعب النرد أو نلعب الورق أو بالكلام الفارغ، جاء رحمه الله ونهض بنا من هذه التفاهة إلى النباهة، ومن هذا الكلام الفارغ إلى الكلام المفيد، فأصبحنا نتذاكر وأصبح يلقي علينا دروساً في السجن، وأصبح رائدنا وإمامنا وشيخنا وخطيبنا، ومرجعنا في كل أزمة كانت تنتابنا في ذلك السجن. . . »، ويضيف: « . . لقد ظل صامداً وقضى ما كتب عليه من سجن بصبر عجيب، وكان من حظنا أن يطول به السجن حتى نستفيد منه، وحتى نفيد من علمه ومن فهمه للأمور، وحتى يسمو بنا. . بما كان يرويه لنا من علم وأدب، وما كان يبثه من أخلاق عالية سامية أصبحنا نشعر وكأننا عائلة واحدة»[1].



---

(١) حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص١٨٣ .


الرَّحيل



الرحيل

قام الأستاذ السباعي بأداء شعائر الحج مرتين قبل أن يصيبه المرض الذي تحدثنا عنه، الأولى عام ١٣٦٤هـ والثانية في عام ١٣٧١هـ ـ كما قام في شهر رجب من عام ١٣٧٥هـ قبل مرضه بعامين بزيارة البلاد المباركة في الحجاز مع بعثة من أساتذة كلية الشريعة وطلابها في الجامعة السورية ـ ويبدو من خلال الخواطر التي كتبها في اليوم التاسع من ذي الحجة عام ١٣٨١هـ، وكان قد مضى على مرضه أكثر من أربع سنين، مدى اشتياقه لأداء مناسك الحج مرة أخرى. ومدى رجائه في أن يستجيب الله تعالى لدعاء من يدعو له بالشفاء في عرفات وفي تلك الأماكن والأوقات. .

قال في بعض تلك الخواطر: «إذا قسم الكريم عطاياه على المحرومين، وعفا الرحيم عن أسراه من المذنبين، ومنح القوي حمايته للعاجزين، وأضفى الحليم رحمته على المتمردّين. . أبى له كرمه أن يخصّ الواصلين إليه دون المنقطعين، والقريبين منه دون البعيدين، والمسرعين إلى تلبيته دون المتخلّفين؛ فما سار من سار إليه إلا بعونه، ولا تخلف من تخلّف عنه إلا بقضائه، ولا عجز من عجز عن الرحيل إليه إلا ببلائه، ولا أسرع من أسرع في الوصول إليه إلا بمعافاته. وحسب من

تخلّف عجزاً، وتلكأ ابتلاء: صدق الحبّ مع صفاء الودّ، وعظيم الشوق مع بالغ اللهفة، وإعلان الطاعة ولو مع العيِّ في البيان، وإخلاص النيّة ولو بعد لأي وتوان، وحسبنا منه أنه اللطيف الخبير المنّان»[1].

ومما قاله كذلك في خاطرة أخرى شِعرية ذكر فيها المناسك التي يقوم بأدائها الحجاج . .

ربّ قد حلت بيني وبينهم اليوم   برغم الأشواق والحسرات
فاغفرن زلّتي لديك وبارك   عزماتي، ولا تُطل من شكاتي
واكتبن لي عوداً لتلك الديا   رات وفيضاً من تلكم الرحمات[2]

ثم قرر رحمه الله هذه العودة بعد عامين في موسم حج ١٣٨٣هـ بعد أن برّحت به الآلام في شهر رمضان من هذا العام (وبخاصة في أواخر لياليه المباركة) حتى كان يقضي كثيراً منها دون أن يستطيع نوماً، فاستغاث بالله جل شأنه في قصيدة مطلعها:

يا سائق الظعن نحو البيت والحرم   ونحو طيبة تبغي سيد الأمم

قال: «وكنت في كل ليلة يؤرقني فيها شدة الألم أزيد في تلك القصيدة حتى تم منها حينئذ ما يقرب من مئة بيت» وحين جاءت أشهر الحج، وبدأ من لبّوا نداء الله بالسفر إلى بيته الحرام، وكانت معاناته من

---

(١) الفقرة ٤٠٧ من كتابه هكذا علمتني الحياة.

(٢) الفقرة ٤١١.

شدة المرض تزداد يوماً بعد يوم. . خطر له فجأة أن يشاركهم في عناء سفرهم، قال: «عسى أن أشاركهم في تنزل رحمات الله عليهم ورضوانه عنهم عشية عرفات كما وردت بذلك الآثار الصحيحة»! ولم يستطع الأهل والأصدقاء أن يثنوه عن عزمه لما يرونه من ضعفه وعجزه عن السير وحده في تلك الأيام التي اشتد عليه فيها المرض. قال رحمه الله: «لا بد من السفر إلى الحج، وليكن من أمر الله ما يكون، فإن كتب لي العودة سالماً عدت غانماً، وإن قضى فيَّ أمره هناك فيا حبذا الموت في ديار الأحبة، وأنعم به من لقاء اشتد الشوق إليه!»[1]

وهكذا غادر دمشق متوجهاً إلى المدينة المنورة في ٢٣ من ذي القعدة ١٣٨٣هـ ـ الموافق للخامس من نيسان (إبريل) ١٩٦٤م. ووجد من تيسير أسباب الحج في جميع مراحله، ومن تحسن صحته ما حمله على القول «إن الله أكرمني في إلهامي بفكرة الحج أنواعاً من الكرامة لم يخيِّب فيها أملي برحمته ومعونته» حتى إنه قضى في فترة الحج هذه أياماً لم يعرف مثلها خلال مرضه الطويل! يقول: «فلأول مرة منذ سبع سنين يهدأ الألم في دماغي، وأقوى على الصلاة واقفاً على قدميّ، وأجلس للتشهد فيها على الرخام القاسي كما يجلس الصحيح المعافى، ولقد قدمت مكة فطفت طواف العمرة محمولاً على المحفة، ثم غادرتها

---

(١) مقالته الأخيرة في مجلة حضارة الإسلام بعنوان: (رحلة إلى الله ورسوله)، ص٢٩، العدد الثالث من السنة الخامسة جمادى الأولى ١٣٨٤هـ، وأيلول (سبتمبر) ١٩٦٤.

وطفت طواف الوداع ماشياً على قدميَّ. . . »[1].

ويجدر بالذكر هنا أنه في الوقت الذي لم يستطع الالتزام بالحمية الغذائية الضرورية لمرضى السكري أثناء مقامه بالحجاز، كان يتصبح كذلك في كل يوم بسبع تمرات ـ من تمرات المدينة ـ إيماناً بصحة الحديث الذي ينص على أن من فعل ذلك «لم يضره في ذلك اليوم سمٌّ ولا داء» بل ربما تناول في بعض الأحيان شيئاً من العسل. . ومع هذا كله ـ وبعد أن مضى على مغادرته دمشق نحواً من خمسة أشهر ـ لم يظهر أي أثر للسكري في تحليل البول أو الدم. لقد دافع السباعي في كتابه: (السنة. .) عن الحديث المشار إليه في وجه من تكلم فيه وحاول التشكيك بصحته. . وكان سلاحه في ذلك: الرواية والعلم والعقل، وها هو الآن يؤكد صحة هذا الحديث أو يدافع عنه بواقع التجربة، وإن شئت قلت: بلسان الروح، وسلاح العقيدة والإيمان.

لم يدر الأستاذ السباعي وهو يتحدث عن حجته الثالثة هذه، والتي دوّن بعض انطباعاته عنها في مقالته: (رحلة إلى الله ورسوله) ـ ووعد القرّاء في ختامها بأن يحدثهم في مقالة تالية عن مشاهداته في الحج ـ أن هذه المقالة سوف تكون المقالة الأخيرة. . وأن ماأكرمه الله تعالى به في هذه الرحلة أو في (حجة الوداع) هذه كان القنطرة الواصلة بين عالم الشهادة وعالم الغيب، وأن معالم الشفاء التي بدت عليه كانت الالتماعة الأخيرة التي تسبق انطفاء المصباح! لم يكن موعده القادم في رحاب مكة

---

(١) المصدر السابق، ص٣١.

أستاذاً. . ولكن في رحاب الله عائداً إلى مولاه. . حيث ضم جسده الطاهر حفنة من تراب دمشق التي أحبّها وأحبّته رحمه الله.

توفي السباعي ظهر يوم السبت الواقع في السابع والعشرين من جمادى الأولى ١٣٨٤هـ ـ الموافق للثالث من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٤م. وقد نشر مقالته المذكورة (رحلة إلى الله ورسوله) في العدد الثالث ـ السنة الخامسة ـ من مجلته (حضارة الإسلام) الصادر في الشهر السابق: أيلول (سبتمبر) أما افتتاحية هذا العدد فكانت بعنوان **(الطريق الصحيح لحل مشكلاتنا)** وذكر فيها ملاحظاته على مؤتمر القمة العربي الثاني، وقال فيها: إن هذا العصر عصر الشعوب، وأن الحكومات ليست إلا ممثلة لإرادتها وناطقة باسمها، وقال كذلك: إن السلاح المادي وحده لايكفي لإحراز النصر في معركتنا مع الصهيونية والاستعمار، ومن أجل حل مشكلة العرب الأولى: مشكلة فلسطين. وقد ختم هذه الافتتاحية بقوله:

«يا شباب الإسلام! افتحوا أعينكم على الحقائق التي بصّركم بها ربكم في كتابه، ورسولكم في سنّته، وسار على هديها أسلافكم فكانوا قادة الدنيا وسادة العالمين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]».

لقد كان آخر نداءٍ للحياة قبل أن يودع هو الحياة، ويطوي شخصَه الموت. . رحمه الله.

أما جنازته التي انطلقت من بيته في حي أبي رمانة بدمشق قبل ظهر

اليـوم التالي لوفاتـه رحمه الله: فإن ألـوف الشـباب الذين تجمعـوا في الشوارع والساحات المحيطة ببيته منذ الصباح الباكر وسط البكاء والأنين ـ وبعضهم حضر من الليل ـ مضوا بها محمولة على الأكف إلى جامع بني أمية الكبير، حيث صُلي على جثمانه الطاهر بعد صلاة الظهر. وقد غص المسـجد على اتساعه بعشـرات الألوف، وعلى نحو غير معهود منـذ عشرات السنين.. وكان الشعور بالفجيعة وفراغ الساحة يملأ النفوس وموكب الجنازة يتقدم نحو مقبرة الباب الصغير التي ضمت الكثير من أجساد الصحابة والتابعين.. واختلط تكبير الشباب ـ الذين لم يستطيعوا السيطرة على مشاعرهم ـ وهتافاتُهم بأصوات الأنين والنشيج.. وكان يوماً كسيفاً دخل فيه الحزن على ما دخل عليه الليل. وكانت الجنازة بحراً زاخراً من البشر ابتعدت المسافات فيه بين النعش الذي كان يمشي بين يديه كوكبة من علماء الشام، وبين أفواج الشباب التي كانت تهتف وتعاهد السباعي على المضي من بعده على الطريق.

وقد صـوّر الأسـتاذ عبد الرحمن خليفـة أخو الأستاذ السـباعي ورفيقه في الدعوة، طرفاً من موكب الجنازة، في هذه الكلمات المعبّرة التي خاطب بها أخاه ورفيق دربه الطويل. قال حفظه الله:

«شاهدت دمشق الفيحاء تشيعك إلى مثواك الأخير، وكنت إنسان عينها، وحبـة القلب منها، تبصّرها الطريق، وتصول في سـبيل حريتها وهدايتها.. لا تبالي بالنتائج كيف تكون، فضنّت عليك دمشق بالسفر الذي كنت تزمعه، والفراق الذي كنت تريده، والموطن الجديد الذي كنت تتمناه. وأبى عليها حبّها لك إلا أن تضمك في أحشائها، وتغيّبك

في سويداء قلبها بجوار العلماء الصالحين من أبنائها . .

«وكأني ـ حين مشيت مطرقاً في موكب جثمانك الطاهر ـ كنت أشاهد الآكام المطلّة على مقبرة الباب الصغير تشيعك معنا بصمت الوقار، وتبكي مع الباكين، وتنطلق قائلة مع القائلين : إلـٰهي لقد جاءتك روح كريمة من أرواح الصالحين فأكرمها، ورجعت إليك بعد حياة حافلة بجليل الأعمال ومقبول الجهاد فارض عنها . . . . »[1]

ورحم الله الأستاذ الدكتور محمد الفاضل حين قال في الأستاذ السباعي ـ زميله في كلية الحقوق ـ: «فلا والله ما بقيت ريحانة من رياحين الغوطتين إلا تمنّت أن تكون ضفيرة من ضفائر المجد على جبينه، ولا والله ما بقيت مزنة طيبة عطرة من سحائب رياض الفيحاء إلا رَجَت أن يُضَمَّخ بها جثمانه، أو أن يُندّى بها ضريحه»[2] رضي الله عنه وأرضاه .

أما هذا الضريح فلم يكن أكثر من جَدَث متواضع ضم هذا الفارس العَلَم من فرسان الدعوة الإسلامية إلى جانب نفر من العلماء والصالحين، منهم الشيخ عبد الكريم الرفاعي، والشيخ عبد الوهاب الصلاحي، والشيخ عبد الرزاق الحمصي . . وغيرهم، رحم الله الجميع .

---

(١) مجلة حضارة الإسلام : العدد الخاص، ص٣٧ .

(٢) المصدر السابق، ص٥٨ .

. . . وشعرت وأنا أرى تراب القبر يُسوَّى على جسده الطاهر أن عالماً فسيحاً يمتد من حولي فيغرقني - في زحمة أصوات الداعين والمهلّلين - في سكونٍ أنيسٍ تشيع فيه البهجة ويملؤه الحبور. . حتى كأن ساحات المقبرة ودروبها أضحت روضة من رياض الجنة. . وقفلت راجعاً وكأن أرواحاً من الملأ الأعلى ومنازل الآخرة تظلّلني مع سائر المشيّعين.

رحم الله مصطفى السباعي. . وأعلى مقامه في علّيّين.

* * *

الفهرس

الموضوع — الصفحة

* * *